

الجمعية التاريخية

حمص - سورية

مجلة

البحر التاريخي



الشبيبة

للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

جريدة الحديث الساتري

تصدرها
الجمعية التاريخية في حمص

ملاحظات :

- البحوث والمقالات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .
- ترتيب مواد العدد يخضع لاعبارات فنية فقط .

المراسلات باسم المدير المسؤول :

حمص - الجمعية التاريخية - شارع عبد الحميد الدروبي

ص.ب ٨٤٨ - هاتف ٢٦٣٨٠

مجلة البحث التاريخي
تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

<u>رئيسة التحرير</u>	<u>المدير المسؤول</u>
الدكتورة تفريد الهاشمي	محمد عبد الصمد الشاطر

هيئة التحرير

جرجس مخول	محمود عمر السباعي
عبد الحفيظ شما	منذر حمودي
نجيب المصا	

راجع له لغوياً : جميل منصور

تصميم الغلاف : الفنان الدكتور عبد المتان شما

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
- صراع الوحدة والتجزئة في سورية ولبنان ابان الانتداب الفرنسي .	٧ - ٣٤
الدكتور مسعود ضاهر (استاذ التاريخ الحديث في الجامعة اللبنانية بيروت)	
- نبذة عن كشف أثري تاريخي في تل ليلان (الجزيرة السورية) ٣٥ - ٤٤	
الدكتور عدنان البني مدير التنقيب والدراسات الاثرية .	
- النسكة في مدينة حمص ابان العهد الاموي ٤٥ - ٨٤	
الاستاذ محمد الخولي (أمين المتحف العربي الاسلامي)	
- تقرير عن حفريات شرقي جامع النوري الكبير بـحمص ٨٥ - ١٠٩	
الدكتورة تغريد الهاشمي (مديرة آثار حمص)	
- حصار حمص والفتح العربي الاسلامي للمدينة (دراسة تاريخية نقدية) ١١١ - ١٢٩	
الاستاذ محمد الشاطر	
- المنصور الاول صاحب حماة (محمد بن تقي الدين عمر ١٣١ - ١٥٣	
الاستاذ محمد عدنان قيطاز	
- أبو الفداء صاحب حماة (تاريخيا وحضاريا) ١٥٥ - ١٧٦	
الاستاذ وليد قنبر	
- قراءة اقتصادية في تاريخ القرامطة (الموحدون) ١٧٧ - ٢٠٠	
الاستاذ منذر خضر حمودي	
- حمص في التاريخ (قصيدة) ٢٠١ - ٢٠٢	
الاستاذ جميل منصور	
- حضارات أمريكا قبل الكشوف الجغرافية ٢٠٣ - ٢١٤	
الاستاذ جرجس مخول	

مقدمة

بين يدي القراء الاعزاء في وطننا العربي الكبير العدد الخامس من مجلة البحث التاريخي بوضعه المؤلف في أعدادنا السابقة ، من حيث تنوع موضوعاته وشمولها لمعظم المواد التاريخية في مختلف عصورها ، ملحين بصورة واضحة على التاريخ العربي ومقتربين أكثر من تاريخ مدينة حمص بالذات .

وقد رفدنا في جهدنا هذا زملاء أعزاء بشمرات أقلامهم الخيرة ، وان ظل الغوث يأتينا من مكان قريب ، فما تجاوزت أصداء صوتنا الجوار في حماة وطرابلس ودمشق . وكم كانت أمانينا أوسع ومتلهفة لان تكون صفحات مجلتنا المتواضعة هذه منبرا لكل قلم ولسان فني وطننا العربي . فما كنا ممن نال المنى ، وحمدنا الله في الحاليتين . ولكن مازلنا في مطلع الطريق الذي تحف به العقبات وتكتنفه الصعاب . ولسنا في موقف التصنيف والتعداد لهذه المعوقات . وتكفي الإشارة الى صعوبة الخوض في حقول التاريخ التي ملئت أشراكا ، بثت عن قصد لمرام مختلفة الابعاد ، وتركت هكذا سنين وقرونا عديدة تعبث وتشوه أمجادنا وانتصاراتنا وماضيها ، لتنتقل بعد ذلك روايتها وآثارها الى الحاضر والمستقبل . وقد ردها بعضهم كما هي دون مناقشة وتمحيص ومقارنة واخضاع لمبادئ العقل والواقع . وفي حالات متعددة دسم السّم بالدّسم وتجرعناه .

حقا ان التاريخ يدرس الامر الواقع كما حدث ، وحشر الامانـي والاهواء والرغبات والباطيل في تضاعيف الاحداث ليست من الواقع فشيء . ومنطق العواطف لا يخدم القضية في كثير من الحالات .

غايتنا المساهمة في تخليص التاريخ من هذه الشوائب ، مؤمنين ببقاء العمل الصالح واخفاق ماعداه ، مرحبين بكل فكرة نزيهة وبكل جهد شريف .

محاور عديدة في الوطن العربي الكبير تسير في هذا الاتجاه
الان وأمنيتنا الكبرى/ في مجلة البحث التاريخي/ أن نكون على
الطريق . لهذا نعمل وبهذا المنحنى نسير فان وفقنا وأصبنا الهدف
فبتوفيق من الله عز وجل وهو حسبنا وان كانت الاخرى فما نحن
بملومين .

حمص ٢٢/شعبان / ١٤١٠ هـ
الموافق ١٩/آذار / ١٩٩٠ م

المدير المسؤول

محمد عبد الصمد الشاطر

صدايح الوحدة والحرية في سوريا ولبنان، لبنان والفرنسا العربي

الدكتور مسعود ضاهر
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة اللبنانية - بيروت

في المنهج :
=====

الاستعمار الغربي هو المسؤول عن تجزئة الوطن العربي وزرع كيانات

قطرية يقودها زعماء موالون له

تلك هي المقولة التي تكاد تجمع الدراسات التاريخية العربية حولها وماتلبث أن تتمايز في داخلها على أساس تحميل الاستعمار الغربي وحده مسؤولية التجزئة في الوطن العربي ، أو تحميل السلطة والزعماء العرب معه جانبا كبيرا من تلك المسؤولية . يقول ساطع الحصري :
" أما البلاد العربية ، فقد نكبت باستعمار دول أوربية عديدة : فرنسا وانكلترا في الدرجة الاولى ، وإيطاليا وإسبانيا في الدرجة الثانية . وهذا الاستعمار انشأ مخالبه في مختلف أجزاء البلاد العربية في أزمنة مختلفة ، وفي ظروف متباينة وبأشكال متنوعة . وكانت هذه الاشكال متنوعة جدا :

من الاستعمار المباشر والسافر ، والاستعمار المقنع بقناع الحماية الرسمية ، أو الاحتلال المؤقت ، الى الانتداب والوصاية المقترنة بقرارات عصبة الأمم المتحدة ، وصار كل جزء من أجزاء البلاد العربية يكافح الاستعمار المسلط عليه بوسائله الخاصة في أوقات مختلفة تبعا للفرص المتاحة له ، ضمن الشكل الاستعماري المفروض عليه . (١٠)

لكن المسألة أكثر تعقيدا ، ولايسهل حلها بمجرد اتهام الاستعمار الغربي بتجزئة ماكان موحدًا في ظل السلطنة العثمانية^(٢) وتدل الوثائق التاريخية أن الهزائم المتلاحقة التي منيت بها السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر أغرت الدول الأوروبية الاستعمارية على تحقيق أطماعها في السيطرة والتوسع في ظل عجز كامل للسلطنة عن حماية أراضيها والشعوب الخاضعة لها . وكان من الطبيعي أن تفتش القيادات الطبقية

العربية عن مصالحها الكثيرة بالارتباط التبعية مع الرساميل الاوربيية وقواها العسكرية القادرة على حمايتها وترسيخ نفوذها ، وهذا ما يفسر الى حد بعيد ، ذلك السيل من اتفاقيات الحماية والوصاية التي منحتها بريطانيا لمشايخ البدو في الحزيرة العربية ، وما قدمته فرنسا من حماية فاعلة للوسطاء والزعماء المحليين المرتبطين بها في بلاد الشام حيث ارتبطت مصالح عدد كبير من التجار ، وزعماء البدو ، وأعيان العرب وكبار الملاكين العرب بالدول الاستعمارية الاوربية وبدؤوا مرحلة الانفكاك الكامل عن السلطنة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبلغت أوجها في الحرب العالمية الاولى^(٣) فالقوى الاستعمارية على الصعيد العالمي كانت تعمل آنذاك لتوحيد السوق الرأسمالية العالمية بالقوة وتحت سيطرتها المباشرة وشكلت مقاطعات السلطنة العثمانية حقل الاختبار ، لذلك التوحيد القسري منذ حملة نابليون بونابرت على مصر . والمقاطعات الاكثر قربا من مراكز تلك الرساميل والتي سقطت تباعا في قبضتها^(٤) وكان لابد أن يقود الصدام بين الدول الاستعمارية الاوربية في السلطنة العثمانية الى غلبة تلك الدول وهزيمة السلطنة لاسباب موضوعية على مستوى البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والادارية لكل منهما . وكان لابد أن يذهب حل المأزق التاريخي في وجهة القوى العالمية الغالبة : الامبرياليات عبر مشاريعها اللاحاقية والتقسيمية على مستوى منطقة المشرق العربي^(٥) لكن حل "المأزق التاريخي" في هذا المجال كان لمصلحة الامبرياليات العالمية أي باتجاه تعميق الازمة على الصعيد الوطني والقومي والتحرري للشعب العربي . وبالتالي جاء حل المأزق التاريخي حاملا معه مأزقا تاريخيا أشد شراسة مما كان عليه في السابق إذ انتقلت الجماهير العربية من حكم عثماني استبدادي مطلق الى حكم استعماري أوروبي أكثر استبدادا وقدرة على النهب والتسلط وحمل معه مشاريع دويلات سلطوية ذات توجه رأسمالي واضح في مختلف أرجاء الوطن العربي . لاشك أن الاستعمار الاوربي قد استفاد من ضعف السلطنة العثمانية الى الحد الاقصى لتحقيق مشروعه الرأسمالي الامبريالي في السيطرة على

العالم وهناك مؤشرات عدة تؤكد هذه المقولة عبر تجلياتها في الوطن العربي كالحماية والوصاية ، والامتيازات ، والقروض والاحتكارات ، والبنوك ، والشركات الاستثمارية بالإضافة الى الغزو العسكري المباشر^(٦) ورغم التنافس الجدي الذي كان يصل الى حدود التصادم المسلح بين القوتين الاستعمارييتين الكبيرتين ، فرنسا ، وبريطانيا ، في القرن التاسع عشر مطالع القرن العشرين فان تعاونهما على قاعدة الاتفاق السودي بينهما لتفكيك السلطنة العثمانية وانتزاع ولاياتها تباعا كان واضحا باستمرار . كذلك تلاقت مصالحهما على دعم المشروع الصهيوني منذ عام ١٨٤٠ الرامي الى جمع شتات اليهود من العالم واسكانهم على أرض فلسطين وصولا لتحقيق شعار " أرض بدون شعب لشعب بدون أرض"^(٧) وعلى قاعدة تلاقي مصالح الامبريالية العالمية لدعم المشروع الصهيوني في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين بات هذا المشروع الحليف الاستراتيجي الاول للامبريالية العالمية في الوطن العربي، وذلك منذ نشأته حتى الان وبخاصة في الانطلاقة المدعومة بقوة من الفرنسيين والانكليز والتي تجلت بتحول المشروع الصهيوني الى قمة مشاريع التجزئة الاستعمارية للوطن العربي لانه حاء وليد الهجمة الاستعمارية لتفتيت وحدة التراب العربي بين الشرق والغرب ومنع الوحدة المجتمعية العربية بالقوة كأحد الاهداف الاساسية التي وضعها الاستعمار الاوربي لمنع تكرار تجربة محمد علي باشا في مصر وسوريا وقد اعتبرت القوى الامبريالية العالمية أن الضمانة الاكيدة لترسيخ المشروع الصهيوني تكمن في اطلاق الفكر الطائفي والقبلي والعرقي في الوطن العربي ليتحول الى رديف وداعم حقيقي للفكر الصهيوني حيث لا آفاق مستقبلية لضمان أمن الدويلات الطائفية من الداخل والخارج .

لقد كانت مرحلة القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين كافية لتشكيل قوى طبقية داخل الوطن العربي ، خاصة زعماء البدو ، وتجار المدن ، وكبار الملاكين ، وأعيان الريف وهي القوى التي ارتبطت تبعيا بالسر وبالعلن ، بالاحتكارات الرأسمالية العالمية وقدمت الضمانات الاكيدة لنجاح المشروع الصهيوني بالإضافة الى حماية المصالح الامبريالية

في الوطن العربي . وكانت نتيجة ذلك أن أكسبت المشروع الاوربي ركائز محلبة لايمكن تجاهلها ابان البحث عن الجذور العميقة لولادة الدولة العربية المعاصرة ، وهذا ما أشار اليه وجيه كوثراني بقوله : " لقد درجت العادة على ربط التجزئة بالسياسة الاستعمارية هذا صحيح الى حد كبير ، ولكن مع ذلك ينبغي أن يطرح السؤال أيضا بصيغة أخرى: لما لم تكن " الوحدة " أمرا حاصلا قبل الدخول الاستعماري المباشر منه من الضروري معرفة ما اذا كانت أوضاع البلاد اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا تؤهل " للوحدة " وبناء الدولة القومية " ضمن المنظور الايديولوجي للبرنامج الذي طرحته الحركة القومية آنذاك (٩)

هذه الدراسة تأخذ منحى منهجيا مغايرا ، فمسألة الوحدة ليست مجرد احتمال واقعي له شروط نجاحه في مرحلة تاريخية محددة فحسب بل له شروط تكونه التاريخية الموضوعية وآفاق نجاحه المستقبلية أيضا بحيث تبرز القدرة الاستعمارية على منع تحقق تلك الوحدة بالقوة المسلحة مجرد حدث عابر سرعان ما يزول تحت ضغط اصرار الجماهير الشعبية على تحقيق أمانيتها في الوحدة والحرية والاستقلال ولاء الجيوش الأجنبية عن أراضيها . تلك هي المقولة الاساسية التي نبني عليها هذه الدراسة أي وحدوية الجماهير الثابتة وسعيها الى تحقيق تلك الوحدوية متجاهلة القيادات المساومة أحيانا ومصححة خطاها معظم الاحيان .

التجزئة كتعبير عن مصالح الاستعمار والقوى الطبقية المتحالفة معه في الداخل :

تشير الوثائق التاريخية التي تناولت الحقبة الممتدة من انهيار السلطنة العثمانية في الحرب العالمية الاولى وفرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان أثر هزيمة ميسلون الى وجود مخطط استعماري انكلو- فرنسي للسيطرة على المشرق العربي ولاتختلف الا في بعض التفاصيل المتعلقة بمصير الاراضي التي شكلت متصرفية جبل لبنان سابقا وكيفية اندماجها بالوحدة السورية الخاضعة للانتداب . فبالنسبة للاستعمار ، يقول ذوقان قرقوط ، الذي كان الخوف المزمّن من احتمال قيام وحدة قومية تنتظم البلاد يلزم لديه العمل على تفكيك أواصر

الامبراطورية العثمانية ، كانت هذه الفترة تجسيدا لاحلام وأهداف وخطط طال السعي وراءها في المسألة الشرقية (١٠) لذلك لم تتحقق الوعود الكثيرة التي قطعها الاستعماريون الفرنسيون والانكليز لزعماء العرب خلال تلك المرحلة بل أمعنوا في تقسيم المشرق العربي الى دويلات طائفية ومذهبية تساعد في بلورة المشروع الصهيوني على أرض فلسطين بعد أن بدأ يشق طريقه العلني استنادا الى تصريح بلفور لعام ١٩١٧ (١١) لانكشفت الاوهام الكبيرة حول الدعم البريطاني للحركة الوحدوية العربية عن خيبة أمل مشوبة بالمرارة ورغم اعلان اتفاق لويد جورج - كليمنصو في ١٥ ايلول ١٩١٩ الذي قدم اضافات كثيرة ساهمت في تطبيق اتفاقيات سايكس بيكو ووضعها موضع التنفيذ فان بعض الدراسات القومية العربية لم تتخل عن فكرة الدعم البريطاني للحركة الوحدوية العربية . يقول ساطع الحصري " صحيح أن انكلترا ساعدت الثورة العربية أو ناصرتها بآداء الامر ، ولكن مناصرتها هذه كانت تجري ، طول الوقت بتردد وحذر ، فكانت تمسحون جيوش الثورة - مثلا - بالعتاد والذخائر ، ولكنها كانت تقتصر فيها تقتيرا كبيرا فلا تعطيهما من العتاد الا بقدر ما يتراءى لها أنه ضروري للقيام بالحركات التي تريدها هي (١٢)

الوقائع التاريخية لاتنم عن مساعدة بريطانيا للثورة العربية بقدر ما توضح أن تلك الثورة أدخلت منذ البداية في اطار المخطط الاستعماري الانكلي - فرنسي لتفتيت السلطنة العثمانية ودفعها الى الانهيار النهائي تمهيدا لاقتسام ولاياتها . فالقوى الاجتماعية التي حملت المشروع العربي النهضوي ضد العثمانيين تشكلت أساسا من بعض زعماء القبائل وكبار الملاكين وتجار المدن وأعيان الريف . وهي قوى طبقية كانت تسعى لايجاد مواقع لها في التركيبة الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية الجديدة في حال انهيار السلطنة . وقدمت الدليل الملموس ، وفي أكثر من مناسبة ، على طبيعتها الطبقية كقوى مساومة للاستعمار الخارجي ولاتقف ضد مشروعه بصلابة حتى النهاية . وهذا ما عبر عنه أكثر من مؤرخ أو باحث تناول بالدراسة تلك الحقبة الغنية جدا

والمعقدة جدا في تاريخ المشرق العربي المعاصر خاصة سوريا ولبنان
قبيل معركة ميسلون . لكن الخطأ المنهجي الاساسي في معظم تلك
الدراسات أنها تشدد على مواقف النخب السياسية والقيادات الاقطاعية
والعشائرية متجاهلة دور الجماهير الشعبية ، الصانع الحقيقي للتاريخ
القومي الوجدوي . فاذا كانت القيادات السياسية آنذاك تتفاوت في
جذرية مواقفها ومدى استعدادها للمساهمة مع الاستعمار الفرنسي فان
الضامن الاساسي لاستمرارية الخط الوجدوي كانت المواقف الملمبة للجماهير
الشعبية على امتداد المناطق والطوائف في سوريا ولبنان .

كان الموقف الذي اتخذته الحكومة السورية الموالية للانتداب بالغ
الدلالة في التعبير عن المصالح الطبقية للقوى التي ساومت الفرنسيين
وتعاونت معهم . وبالمقابل تجلى الموقف الوطني القومي الوجدوي
المقموع في مواجهة الزحف الاستعماري الذي استطاع مرحليا أن يحول
الانتصار الوجدوي لسنوات ١٩١٨ - ١٩٢٠ الى هزيمة في ميسلون كان من

نتائجها تشتت بعض القوى الوجدوية ، في حين استمرت الجماهير الشعبية
ممسكة بخيارها القومي العربي الوجدوي رغم تعرضها لاقصى درجات القمع
والارهاب الفرنسي .

وهذا ما أشار اليه ساطع الحصري بقوله : " كان يوم ميسلون فاصلا
في تاريخ القضية العربية . أنه كان خاتمة الفصل الاول من القضية
العربية وخاتمة فصولها الجديدة ففيه انحل الحيش النظامي الذي تكون
خلال الثورة العربية ، وبعده تبعثر رجال الثورة ودعاة القومية ، في
مختلف الاقطار ، وأخذوا يجابهون حياة كفاح جديدة شاقة ومتشعبة ،
تختلف شروطها عن شروط الصفحة الاولى اختلافا جوهريا . ولذلك يحق
لنا أن نقول بكل تأكيد " ان يوم ميسلون كان من أخطر الايام التي
مرت على الامة العربية في تاريخها الحديث^(١٣) لكن ما يؤخذ على مقولات
نظرية للحصري ولكثير من المفكرين القوميين العرب الذين أرخوا لتلك
المرحلة انهم اعتبروا الحركة الوجدوية من هذه النخبة وليست من صنع
الجماهير الشعبية الصانعة الحقيقية للتاريخ . وهذا ما يشير اليه نص

الحصري حول " تبعثر رجال الثورة ودعاة القومية في مختلف الاقطار العربية " ويتأكد في نص لذوقان قرقوط يصف زعماء تلك المرحلة "كانوا (زعماء التيار الوحدوي) سجناء عواطفهم وأسرى مصالحهم الشخصية الفردية ، فتخبطوا في الجزئيات ولم تحكم سياستهم رؤية تاريخية شاملة . وبالنتيجة لم يستطيعوا الارتفاع الى مستوى مسؤولية القضية القومية الكبرى فكان عليهم أن يبدأوا من جديد ، في ظل ظروف جديدة أوسع مدى ، وأعتى وأكثر تشعبا من ظروف الحكم العثماني .

معارك متعددة الجوانب في الداخل والخارج ... أهمها وحدة البلاد^(١٤) ويرفع ظافر القاسمي مقولة نخبوية الحركة القومية العربية الوحدوية الى حدودها القصوى حين يقول " ان فكرة القومية العربية كانت في أول نشأتها ، ولم يكن يعرف عنها شيئا الا القلة اقليلة من الرجال ، وان كانت موجودة فعلا في ضمير الشعب العربي عامة ، وفي ضمير الشعب السوري خاصة . وهذه هي وحدها التي حملت جميع الابعاء ، هي وحدها التي قامت بتشبيد هذا البناء . وسيكتب التاريخ أعمالها المحيطة ، بحروف من ذهب يشع منها النور ، مابقي في الدنيا عروبة ، ومابقي فيها عرب" (١٥)

لقد عززت مقولات نخبوية الحركة القومية العربية الوحدوية عن تحليل حركة التاريخ العربي في سيرورتها المستمرة من التجزئة الى الوحدة فهذه السيرة من صنع الجماهير الشعبية الوحدوية التي تمسكت حتى النهاية بوحدويتها ولم تساوم عليها كما فعلت قيادات عربية كثيرة بدأت وحدوية وانتهت اقليمية تساوم الاستعمار وتشارك في ضرب القوى الوحدوية الشعبية ، ولا يمكن فهم المأزق التاريخي لتلك المرحلة الا على قاعدة المقولة العلمية القائلة بوحدوية الجماهير العربية من جهة ودور الاستعمار الخارجي في تنصيب قيادات مساومة واقليمية عليها من جهة أخرى ومازال هذا المأزق دون حل في الغالبية الساحقة من الاقطار العربية نظرا لارتباط قياداتها تبعا بالموروث الاستعماري المستمر حتى الان .

بعض خصوصيات الساحة اللبنانية :

تشكل المسألة الطائفية ركيزة أساسية لفهم ولادة دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠ ورغم أن دويلات تلك المرحلة (دمشق ، حلب ، العلويين جبل الدروز ، لبنان الكبير) ولدت حميعها بقرار استعماري فرنسي فان ما يميز دولة لبنان الكبير ان زعامات طائفية مسيحية مارونية بشكل خاص ، طالبت بالحفاظ على صيغة متصرفية جبل لبنان مع تطويرها وتوسيع حدودها الجغرافية بما يضمن بقائها واستمراريتها في الازمات الحادة خاصة وقد فقدت المتصرفية قرابة ثلث سكانها حوفا ابان الحصار البحري الذي فرضه الفرنسيون والانكليز على السواحل السورية واللبنانية بالاضافة الى الحراد والابوينة ومظالم حمال باشا . فتجربة المتصرفية لعام ١٨٦١ ولدت بدعم أوربي مباشر مما فسح المجال أمام فرنسا وبريطانيا للتدخل المباشر في مصير السلطنة العثمانية وولاياتها العربية عبر سياسة حماية الطوائف المسيحية فيها . وهذا ما أشار اليه آدمون رباط بقوله : لقد استخدمت أوربا الطوائف غير الاسلامية في المشرق العربي ، خاصة الطوائف السورية ، لتزيج رقعة نفوذها الثقافي والاقتصادي ، ولكي تبني ، بعد الحرب ، سلطتها السياسية والعسكرية في سوريا (١٧)

وفي كتاب آخر أكثر حدة خصه رباط لدراسة " التكوين التاريخي للبنان السياسي والحقوقى " يشير المؤلف الى أن ولادة الدولة اللبنانية لم تكن مجرد حدث استعماري بحث بل نتاج تطور داخلي أيضا . فاستمرارية لبنان في ظل الانتداب الفرنسي لا يمكن أن تجد تفسيراً لها الا بقوة ماضيه الذي أعطاه هوية مميزة بحيث حادت ولادة الدولة اللبنانية تعبيراً طبيعياً وبخلاف باقي الدويلات السورية ، لم يكن لبنان الكبير صنعة السياسة الفرنسية كما يشاع . وانشاء الدولة اللبنانية عام ١٩٢٠ كان تلبيّة لموجبات تاريخ طويل . . . لكن الجماهير الاسلامية اتخذت على الدوام ، خلال مرحلة الانتداب موقف الرفض المطلق للانتداب ، وبالمقابل اتخذت العلاقة بين المسيحيين وعلى رأسهم

الموارنة ، وبين فرنسا طابع الشكل الصوفي . ألم تأت " الام الحنون " لتحقيق لهم أحلام الاجداد في بناء دولة لبنان الكبير ؟ (١٨)

لكن المسألة الطائفية التي لعبت دورا هاما لصالح التغلغل الاستعماري الفرنسي بالدرحة الاولى ، في مناطق جبل لبنان ، لم تعط ثمارا يانعة عندما استخدمت في باقي المناطق السورية . وكانت النتيجة ان فشلت سياسة التحزبة الطائفية في الدويلات الاخرى في سوريا ولم تنجح في بناء دولة متماسكة داخل لبنان الكبير ، وقد تنبّه كثير من المؤرخين الى هذه المقولة الهامة التي تربط بين التحزبة الاستعمارية ، وأبرز تجلياتها التحزبة الطائفية في ظل الانتداب الفرنسي ، بين القوى اللبنانية والسورية ذات المصلحة في الارتباط التبعية بالمشروع الفرنسي المعادي جذريا لمصالح الجماهير الشعبية الوحدوية في سوريا ولبنان . فقد اعتقد أنصار فرنسا وعلى رأسهم البطريك الماروني الياس الحويك وخلفه البطريك انطوان عريضة ، أن فرنسا شكلت استقلال لبنان وتضمنته وقد تنبّه البطريك الحويك ، في أواخر أيامه ، الى أن ذلك الاستقلال كان وهما خادعا ، فأطلقت عبارته الشهيرة " فرنسا كالشمس ، تنير من بعيد وتحرق من قريب " أما خلفه البطريك عريضة فتعرض لمضايقات كبيرة من المفوض السامي دومارتيل وهو الحامي للاحتكارات الفرنسية خاصة احتكارات التبغ مما حمل البطريك عريضة على تعميق الروابط السورية - اللبنانية وأصدر كتابه الهام " لبنان وفرنسا ١٩٣٦ والذي ضمنه أشد الانتقادات قسوة ضد الانتداب الفرنسي والسياسة الاستعمارية التي مارسها في سوريا ولبنان (١٩)

ان مراجعة دقيقة لوثائق تلك المرحلة تثبت أن دعاة الاستقلال اللبناني لم يفهموا الانتداب الفرنسي كاستعمار مباشر بل رحبوا به على أساس المعونة والمشورة تبعا لتحديد ذلك المفهوم في صك الانتداب لذلك قبلت به معظم الجمعيات اللبنانية السورية العاملة في مصرو بعض بلدان الاغتراب (٢٠) فوثائق اللجنة المركزية السورية في باريس للاعوام ١٩١٨ - ١٩١٩ ترى في تطبيق سياسة الانتداب الاهداف التالية :

ضم المهاجرين السوريين واللبنانيين الى فرق جيش الطرق الفرنسي وبث

الدعاية المؤيدة لفرنسا في الاوساط السورية بأمريكا ، والعمل من أجل وحدة السوريين الموجودين في أمريكا وأوربا ومصر بغض النظر عن العرق والدين ، وتأمين الوحدة السورية وضرورة تنظيم سوريا تبعاً لارادة أهلها ، أي ضمن نظام فدرالي ديمقراطي ومساعدة الصديقة فرنسا من خلال وصايتها على كامل سورية " ومن أهداف " اللجنة اللبنانية السورية في مصر " خلال تلك المرحلة تحرير سوريا والسير بها في سبيل الاستقلال تحت رعاية دولة فرنسا وبمساعدها وبضمانتها على طريق الاستقلال الاداري لكل ولاية من الولايات السورية مع المحافظة على نوع الاستقلال الحائز عليه لبنان من قبل ، وعلى الصفة الخاصة به وعلى حقه في السعي لتحقيق أمانيه العادلة ، أما علاقات لبنان مع باقي البلاد السورية فسيوحد أمر تقريرها لما بعد وحسب الظروف .

لدينا وثائق كثيرة جدا للجمعيات السورية واللبنانية خلال تلك المرحلة وكلها تطالب الوحدة السورية أولاً ، ومنها جمعيات تدعو الى الحفاظ على امتيازات جبل لبنان أو وضعه المميز داخل الوحدة السورية وذلك بمساعدة مباشرة من فرنسا ، أو من بريطانيا أو من الولايات المتحدة الامريكية . " رابطة سوريا - جبل لبنان للتحرير " في نيويورك والتي كان من أعضائها جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني ، وإيليا أبو ماضي ، ونسيب عريضة ، وشكري البخاش وأيوب ثابت وغيرهم ، طالبت في مذكراتها الى مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ " بحل المسألة السورية على أساس الوحدة الفدرالية في سورية الطبيعية كلها تحت وصاية وحماية دولة واحدة كبرى ديمقراطية " . لقد تمسكت الجمعيات السورية واللبنانية في الداخل والخارج بالوحدة السورية وذلك بمعزل عن الاختلافات العرقية الطائفية في سورية ، لان الوحدة هي الركيزة التي تبنى عليها المشاريع المستقبلية لمواجهة تحديات العصر وقد عبرت اللجنة الوطنية السورية اللبنانية في البرازيل عن أهمية الوحدة السورية بشكل دقيق : تشكل سوريا وحدة جغرافية ثابتة ، ووحدة اثنية لان التباين الديني والطائفي عائق عابر سوف يتجاوزه التطور الزمني ويزيله ولسوريا الحق الذي لاتناقش فيه ، بالاستقلال وذلك

بسبب وحدتها الجغرافية الاثنية ٠٠٠ ان وحدة أحزاء سوريا تحت نفس
الراية سوف تخلق قوة تكون معتبرة من حيرانها وتساهم في تحقيق
علاقات حسن الحوار . هذه الوحدة سوف تنمي وتضاعف القوى الحية في
البلاد وتضاعف مصادر النشاط والانتاج ، وسوف تعطي انطلاقة سريعة
للتطور الوطني وتحقق الاندماج القومي ، السوريون المعروفون بقابليتهم
للتقدم سوف يصبحون أحد محاور الحضارة في آسيا .

أما تحزئة سوريا فسينتج عنها العكس تماما ، اذ أن كل جزء
سيضعف بفقدان الدعم الناتج عن الوحدة .

أدرك السوريون واللبنانيون بعمق بالغ أهمية الوحدة الجغرافية
والسكانية والاقتصادية فنادوا بها وتمسكوا بهذا الشعار حتى النهاية
لكن ادارة الانتداب الفرنسي أمعنت في التجزئة الجغرافية والاثنية
السياسية والمذهبية بما يضمن مصالحها ولم تحافظ على الوحدة
الاقتصادية تحت ضغط الرساميل الفرنسية وكان هاجسها الاساسي في
ذلك ضمان بناء المشروع الصهيوني على أرض فلسطين الذي توافقت
عليه بريطانيا وفرنسا وعملتتا معا على تنفيذه على أرض الواقع .
ولا يمكن فهم سياسة التجزئة التي مارسها الفرنسيون في سوريا الكبرى
الاعلى قاعدة دعم المشروع الصهيوني وترسيخه على أرض فلسطين، وتمهيد
الطريق أمام نفوذه نحو المناطق المجاورة . وهذا ما أشار اليه
لونغريغ بقوله " رفض الفرنسيون اتباع سياسة التوحيد القابلة
للتطبيق بسهولة والمرغوبة شعبيا وفضلوا سياسة التقسيم لانهم استندوا
الى اعتبارات مغايرة تماما ٠٠٠ ولم يكن ثمة ضرورة قاهرة تستدعي
عام ١٩٢٠ خلق دويلات صغيرة وضعيفة وغير قادرة على البقاء ، دويلات
ينبغي لها دائما أن تستند الى الدولة المنتدبة لتحفظ وجودها ، الى
جانب أن كلا منها يضم اقلية واسعة متذمرة لانها حرمت من الوحدة
مع سوريا (٢١)

يتضح من ذلك أهداف السياسة الفرنسية في تجزئة سوريا ولبنان
الى دويلات طائفية ومذهبية كانت تتعارض جذريا مع آماني السوريين
واللبنانيين في الوحدة والاستقلال وقد عززت القيادات المحلية في

الدويلات السورية عن الاحتفاظ بالتحزبة التي أقامها الفرنسيون عام ١٩٢٠ وصولاً الى تبلورها في كيانات سياسية مستقلة وذلك تحت ضغط جماهيرها الوحدوية بالدرجة الاولى والانتفاضات الشعبية التي لم تهدأ طيلة مرحلة الانتداب . بالمقابل كان القيادات اللبنانية الوحدوية تعطف تباعاً وراء دولة لبنان الكبير ، وذلك بهدف تأمين مصالحها الذاتية الطبيعية بالدرجة الاولى تاركة أمر تحقيق " الوحدة السورية " التي نادى بها الى المستقبل " وتبعاً للظروف " .

الحماهير الوحدوية تفرض الوحدة السورية :

لعل المقولة الاساسية التي تفسر ، الى حد بعيد ، صراع الوحدة والتحزبة في سوريا ولبنان ابان مرحلة الانتداب الفرنسي هي التالية : حماهير وحدوية في مواجهة السياسة الاستعمارية الفرنسية ، وقيادات محلية ذات طبيعة طبقية مساوية . وقد ترتبت على هذه المقولة مواقف عملية أبرزها أن بعض القيادات المحلية كانت قادرة على المساومة مع الفرنسيين في فترات ضعف الحماهير الوحدوية وتعرضها للقمع والارهاب في حين تصبح المساومة معهم أكثر صعوبة ابان الانتفاضات الشعبية ولما كونت تلك الانتفاضات ، العسكرية منها والسلمية على السواء ، تشكل السمة البارزة لهذه المرحلة وتخرقها من البداية ، أي معركة ميسلون ، حتى النهاية ، أي معركة الجلاء بعد قصف دمشق بالمدفعية والطائرات الفرنسية ، فان القيادات المحلية السورية بقيت في الغالب ترفع باستمرار لواء الوحدة السورية الى جانب الشعارات الاخرى كالاستقلال والجلاء والسيادة الوطنية .

فسياسة التحزبة الاستعمارية التي فرضتها فرنسا بالقوة المسلحة كانت عاجزة عن اخضاع السوريين واجبارهم على القبول بها لانهم تحايلت الحقائق التاريخية للشعب السوري وتركيبته الحضارية الواحدة وسعيه الدؤوب من أجل نهضته الوطنية والقومية العربية . فالوحدة هي الاساس أما التحزبة فعمل استعماري يبت . وهذا ما أشار اليه يوسف الحكيم بقوله : " كان السوريون في بدء العهد الفيصلي ، الذي عكس

الحلاء التركي يرفعون عالي أصواتهم مطالبين بالوحدة العربية الشاملة شبه الجزيرة العربية. ثم رأوا عدم توفر مقتضيات هذه الوحدة والحصول عليها آنئذ ، فباكتفوا بطلب وحدة سوريا بمناطقها الثلاث : الشرقية والغربية والجنوبية ، وكما غلبوا على أمرهم ، بعد معركة ميسلون ودخول الجيش الفرنسي المنطقة الشرقية ، اكتفوا بتمني الوحدة في هذه المنطقة ولواءي اللاذقية واسكندرونة باعتبارهما من حملة أحزاء سوريا ولكن التحزئة خيبت آمالهم ، فازداد معظمهم نقمة على الانتداب " (٢٢)

ولا يختلف هذا الموقف مع توجهات الملك فيصل الاول الذي القى خطابه الشهير في ٥ أيار ١٩١٩ في مبنى بلدية دمشق أمام جمهور غفير من أعيان البلاد وزعمائها الذين وفدوا الى العاصمة السورية من مختلف المناطق السورية واللبنانية ، قال فيصل في خطابه : " البلاد العربية لا يمكن تجزئتها ... وبما أن بين سكان البلاد العربية اختلافات في طبقات العلم والتعليم ليس الا ، فالظروف ليست كافية لتجعلهم أمة واحدة وحكومة واحدة . لذلك رأيت الدفاع كما يلي : ان سوريا والحجاز والعراق قطعات عربية ، وكل قطعة فيها يطلب أهلها الاستقلال . وقلت ان نجدا والبلاد المساوية للحجاز من الاقطار العربية هي تابعة للحجاز ليس الا ، وهذه يرأسها والدي . أما سوريا فيجب أن تكون مستقلة وكذلك العراق يريد استقلاله . دافعت عن سوريا بحدودها الطبيعية وقلت أن السوريين يطلبون استقلال بلادهم الطبيعية ولا يريدون أن يشاركهم فيها شريك (٢٣)

هكذا تتجلى القيادة المساومة في أجلى مظاهرها . ولا ينسى فيصل في مذكراته أن يشير الى اذعان الامم الغربية له واعطاء السوريين ما يطلبون . لكن زين نور الدين زين ينقل نصا معبرا للمؤرخ الانكليزي تامبرلي يوضح فيه أسباب سقوط فيصل فيقول : " لقد سقطت الدولة (دولة الملك فيصل) السورية المستقلة ، دولة خلقتها بريطانيا العظمى وتعهدت برعايتها وفاء للعهد والمواثيق التي قطعتها على نفسها للعرب ، أو وفاء لبعض وعودها . لقد سقطت دولة سوريا لان قيامها

كان يتعارض معارضة مباشرة مع آماني فرنسا ومطامحها ، كما أنها سقطت في فترة من الظروف حالت دون النفوذ البريطاني من أن يتمكن من المحافظة عليها ... وأخيرا سقطت لان قوتها العسكرية لم تكن من القوة الكافية لضمان بقائها (٢٤)

والاصح أن الاتفاقيات السرية بين الفرنسيين والانكليز بدأت تتكشف مع نهاية الحرب العالمية الاولى .

وفي مواجهة هذه الاتفاقيات كانت الجماهير الشعبية تزداد تمسكا بوحدة البلاد السورية كنواة للوحدة العربية الشاملة ، في حين كانت معظم القيادات العربية تساوم على موقع لها في التركيبة الجديدة تحت ستار اعتماد الواقعية ورفض شعار " كل شيء أو لا شيء " وقد عبر محمد حميل بيهم عن تلك الاحواء بقوله : " كان السوريون والعراقيون وغيرهم من العرب الذين حارب أبناؤهم الاتراك في صفوف الشريف حسين أمير مكة ، كانوا يهللون ويكبرون فرحا بانتصار الحلفاء .. وقد عقدوا على الأمير فيصل بن الحسين كبار الامال في تحقيق الوعود والعهود التي قطعها لهم حلفاؤهم خلال تلك الحرب ، وهم لا يعرفون شيئا عن اتفاقاتهم السرية ، ولا يعلمون ما وعد به بلفور الصهيونية العالمية ثم لما سمعوا بالانتدابات من بعد بدأت الشكوك تساورهم وأخذوا يرفضون كل انتداب ويطالبون بالاستقلال الناحز (٢٥)

هذا النص شديد الالتباس ويخفي المواقف المساومة للكثير من القيادات السورية واللبنانية مع الفرنسيين والانكليز . فقد اطلع فيصل على أبعاد المشروع الصهيوني على قاعدة وعد بلفور ، ومع ذلك أقدم على توقيع اتفاقيته الشهيرة المعروفة باسم اتفاقية فيصل - وايزم التي يعترف فيها عمليا بوضع وعد بلفور موضع التنفيذ كما أنه قام بتوقيع اتفاقية مع فرنسا قبيل معركة ميسلون شكلت تحديا سافرا للتيار الوحدوي في سوريا ولبنان ، وقد وصف المؤرخ السوفياتي فلاديمير لوتسكي ردود الفعل الشعبي قائلا : " أثارت اتفاقية فيصل مع فرنسا التي وقعت بالاحرف الاولى في كانون الثاني ١٩٢٠ موجة حديدة من الغضب في البلاد وأدت الى انقسام الحزب العربي الفتى ، واجتاحت

التظاهرات المعارضة لهذه الاتفاقية مدن سوريا كلها ، واتهم فيصل علانية بخيانة المصالح الوطنية " وبعد شرح التدابير العملية التي قام بها لاضعاف التيار الوحدوي وابعاد رموزه الاساسية عن السلطة يصف لوتسكي موقف فيصل بقوله : " استخدم أقصى درجات الديماغوجية فبينما كان يمارس في الواقع سياسة التواطؤ مع الامبريالية ، ويقمع نضال الثوار ، ويسمح للقوات الفرنسية بعبور أراضيه في طريقها الى تركيا لضرب حركة التحرير الوطني فيها كان يتشدد بالحديث عن استقلال سوريا الوطني ، وكان يلقي الخطب الحماسية في الاندية العربية ، ويؤكد أنه لم ولن يوقع أية اتفاقية تلحق الضرر بـ " القضية العربية " (٢٦) تلك القيادات المساومة نجد لها نماذج مشابهة ابان الثورة السورية الكبرى لعام ١٩٢٥ وخلال المرحلة اللاحقة بكاملها . فيوسف الحكيم يروي في مذكراته عن العهد الفيصلي مايلي : " كانت شرائح من البورجوازية السورية تفضل الانتداب الفرنسي على الانتداب البريطاني ، بل على الاستقلال التام الناجز . . ولكنهم لم يجرؤوا على الجهر بأرائهم هذه الا بعد دخول الجيش الفرنسي دمشق (٢٧) وأحد زعماء الثورة السورية الكبرى الدكتور عبدالرحمن الشهبندر ، يروي في مذكراته عن تلك الثورة : " ان السبب الجوهرى في فشل ثورة حماة فشلا سريعا هو احجام الزعماء الاعيان الذين تأمروا على تنفيذها فلما ظهرت الى حيز الوجود اختبأوا في بيوتهم ليروا ما يكون من أمرها ، فان نجحت فهم المؤسسون لها وأصحاب الشأن فيها وان فشلت فهم عنها معرضون ويضيف : " الاعتماد على البدو كان في غير محله الا اذا كان الغرض من الاستعانة بهم قدح الزناد لان تحارب هذه الثورة دلتنا بصورة عملية أن البدو لا يصلحون للحروب الدولية الثابتة التي تتطلب صبرا بل هم أصلح ما يكون للهبات المؤقتة والايهومات (٢٨) .

وبهاجم ذوقان قرقوط موقف الكتلة الوطنية السورية عام ١٩٣٦ من مسألة الاقضية الاربعة والمدن الساحلية التي ضمت الى لبنان عام ١٩٢٠ وذلك بسبب دخولها في مساومة مكشوفة مع فرنسا لتوقيع اتفاقية

بحدودها الطبيعية ونصت المادة الثانية من القانون الاساسي للمملكة السورية على أنها تتألف من قطاعات ذات وحدة سياسية لاتقبل التجزئة (٣١)

في الواقع ، لم يخل بيان سياسي أو مطلب في سوريا خلال تلك المرحلة من اشارة واضحة الى مطلب الوحدة السورية ورفض التجزئة والانتداب الفرنسي والعمل على الغاء كل تدابير . وكانت المقاومة الوطنية للانتداب الفرنسي تتدرج من الاحتجاج السلمي والمواقف السياسية في المحافل الدولية والمقالات في الصحف خارج البلاد وداخلها ، والعرائض الشعبية ، وبرقيات الاحتجاج والوفود والاحتتماعات السرية والعلنية ، الى التظاهرات الشعبية والهبات المسلحة ، والاغتيالات والثورات " هكذا لم يثن تقسيم سوريا الى دويلات صغيرة ، أهاليها عن مقاومة الانتداب الفرنسي ، كما لم يبعدهم عن التعاطف مع البلدان العربية في قضاياها والمشاركة فيها . وعلى ذلك وبعد أن تبين غوروفش سياسة التجزئة واصرار البلاد على وحدتها قرر انشاء اتحاد بين الدول السورية الثلاث دولة حلب ، ودولة دمشق ، وأراضي العلويين المستقلة (٣٢)

يوسف الحكيم يشير الى الحدث نفسه بقوله : " لقد رأى كل مفكر من السوريين أن الاتحاد السوري لعام ١٩٢٢ هو بداية الوحدة السورية على أساس اللامركزية المتضمنة توسيع صلاحيات الولايات أو المحافظات حسبما تتطلبه حاجتها (٣٣) لكن الفارق بينهما نوعي يرتبط بالمنهج . فالجماهير الشعبية هي التي أجبرت غوروفش على اعادة توحيد تلك الدويلات في حين أهملها تماما نص يوسف الحكيم مع اشارة الى رجال الفكر من السوريين . وفي اشارات قرقوط توكيد لذلك المنهج حيث يقول : " كان الناس يقابلون الجنرال ويفان أثناء تطوافه بالبلاد مطالبين بالوحدة وباعادة الاقضية الاربعة أو بضم لبنان باتحاد مع سوريا (٣٤) ويؤكد عبد الرحمن الكيالي ان مطالب الامة السورية التي رفعتها للمفوض السامي الجنرال ساراي نصت أولا على الوحدة التامة الطبيعية للبلاد بما فيها أراضي العلويين وجبل الدروز ولواء اسكندرونة ، مع البقاع والاقضية الاربعة التي الحقت بلبنان الصغير رغم ارادة أهلها ونص البند

صراع الوحدة والتجزئة في سوريا ولبنان ابان الانتداب الفرنسي

للمداقة والتعاون تمهد الطريق لالغاء عهد الانتداب ، وكانت النتيجة ان بقيت الاتفاقية حبرا على ورق ولم يوقعها البرلمان الفرنسي ، مما حدا بقرقوت الى ابراز تلك المساومة بقوله : " فجأة بعد عام ١٩٣٦ أي بعد توقيع مشروع المعاهدة السورية الفرنسية واستلام الكتلة الوطنية الحكم من بابه الى محرابه ، اطبق الصمت من الناحية الرسمية على مسألة " وحدة أراضي الساحل والداخل " (٢٩)

وقد أثر ذلك الموقف بشكل مباشر على عمل التيار الوحدوي في لبنان الذي رفع باستمرار الشعار التالي : " تحقيق وحدة البلاد السورية العامة ووضع مادة خاصة في صلب الدستور السوري تنص على أن سوريا هي دولة واحدة لا تتجزأ مستقلة وذات سيادة (٣٠)

قد تطول الاستشهادات كثيرا في هذا المجال وكلها تؤكد أن تحليل مواقف القيادات السياسية في سوريا ولبنان يقتضي بالضرورة رؤية المصالح الطبقية لهذه القيادات والتي كانت تتحكم في مواقفها وتدفعها باتجاه المساومة والتصالح مع الاستعمار الفرنسي وبدون هذا البعد الاجتماعي الطبقي لا يمكن فهم تلك المواقف المبدلة باستمرار بحيث من السهل رؤية بعض الزعامات في صفوف الانتفاضات الشعبية وفي قياداتها أحيانا ، في مرحلة عصيبة ورؤيتهم في صفوف القوى الموالية للانتداب في مرحلة أخرى لان سهولة الانتقال كانت أمرا يسيرا بسبب ضعف الرقابة الشعبية وقواها المنظمة على مواقف تلك القيادات بالمقابل لا يتسع المجال لذكر المواقف الوجدوية للجماهير الشعبية وهي المقولة الأكثر ثباتا خلال مرحلة الانتداب لان الوحدة على مختلف الصعد هي الضامن الاساسي لنضالات تلك الجماهير ولا خيار لها الا بالوحدة ، ولا قدرة لها على المساومة والتصالح مع الاستعمار الفرنسي وهذا ما أشار اليه ذوقان قرقوت بقوله : " فمنذ البداية لم تعترف البلاد (السورية) بالتجزئة ولا بالاتفاقات السرية التي ترتبت عليها هذه التجزئة ، ويضيف : " كان بيان الوزارة الاولى بعد المناداة بفيصل ملكا ، يقوم على المحافظة على الاستقلال التام ضمن الوحدة السورية . وكان البند الاساسي في بيان وزارة هاشم الاتاسي أمام المؤتمر هو مطلب وحدة سوريا

التاسع على الغاء السياسة الطائفية على الاطلاق (٣٥)

وفي نداء الثورة السورية الكبرى في ٢٣ آب ١٩٢٥ جاء في المطلب الاول وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها ، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً (٣٦) وعلى جماهيرية هذه الثورة يقول ظافر القاسمي " الثورة السورية الكبرى هي ثورة عربية سورية .. وأما المحاربون فيها ، فكان بينهم المحامي والطبيب والعالم والاديب ، والشاعر والكاتب كما وجد أصحاب الحرف وصغار الباعة ، والمعتاشون بالكفاف وكما نال شرف الجهاد طبقة الاثرياء (البورجوازية على حد تعبير اليوم) وأدهش من هذا كله أن بعض المحاربين كان من الطلاب الذين يستكملون دراستهم في أوروبا . لقد قطع بعضهم دراسته وعاد فوراً الى مناطق الثورة ليحمل السلاح منهم الشهيد الدكتور عادل نكد الذي لم يكتب للبلاد أن تفيد شيئاً من علمه وثقافته ، إلا أنها جنت أعظم الثمرات من بطولته واستشهاده على أبواب دمشق (٣٧)

لكن عبد الرحمن الشهبندر كان شديد الوضوح في اتهامه لمواقف البورجوازية السورية بالمساومة مع الفرنسيين وخيانة الثورة ، وعدم الاعتماد على هبات البدو ، في حين امتدح مواقف الابطال الشعبيين ويقول : " عندي أن سيرة حسن الخراط ومن هذا حذوه من المجاهدين العصاميين من أفراد الطبقة الشعبية العامة تبرز أن الثورة تقدم الفرصة السانحة لبلورة صفات يمتازون بها ، وأنوار يتلألأون بأشعتها (٣٨)

وكان لمواقف القيادات الشعبية صدى ايجابي في كافة أرجاء سوريا بحيث شلت يد الفرنسيين عن الحركة خاصة لجهة استخدام الورقة الطائفية من جهة ، وغزوات البدو من جهة أخرى . يقول الشهبندر : " ان الاحياء المسيحية التي تولى عنها الفرنسيون في دمشق قد سلمت من النهب بفضل زعماء المسلمين ويجب أن تسلم فرنسا بأن سوريا اليوم هي غير سوريا المعروفة بتعود منازعاتها الدينية وأن الوطنية السورية حلت محل الطائفية وقامت تطالب بحقوق المهضوم (٣٩) ويضيف : " حرم البدو على أنفسهم الغارة على البادية تلك السنة خشية أن يصادفوا فيها المجاهدين أو أن يسلبوهم حلالهم . ان جماهيرية التيار الوحدوي هي

الاساس في فهم حركة الصراع ضد الاستعمار الفرنسي وافشال مشاريع التجزئة وضمن الوحدة السورية . ولم تجرؤ القيادات المحلية رغم استعدادها الدائم للمساومة على خيانة مسألة الوحدة أو التنكر لها . ولم تتورع عن اتخاذ مواقف صدامية مع الانتداب بسبب الضغط المستمر الذي تمارسه الحماهير الوحدوية عليها ، ويشير نحيب الارمنازي في هذا المجال : " لم يكذب يجمع مجلس حلب عام ١٩٢٦ حتى كان أول قرار أصدره المطالبة بالوحدة السورية . فصدر الامر بحله ولم يجمع مرة أخرى (٤٠) عند اعلان الدستور السوري رفض المجلس عام ١٩٢٨ تضمنه أي نص يعطي صلاحيات مطلقة للمفوض السامي فأوقف العمل به وحل المجلس . لكن المسألة أعمق من ذلك بكثير لانها تعارض جذور مصالح الانتداب الفرنسي وتنفسك بالوحدة السورية ، فقد نصت المادة الثانية من ذلك الدستور على مايلي : " ان البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية وحدة سياسية لا تتجزأ ولا عبرة بكل تجزئة طرأت عليها منذ نهاية الحرب العامة (العالمية الاولى) وفي عام ١٩٣٣ رفض الوحدويون السوريون الاتفاقية المقترحة بين سوريا وفرنسا لانها تبقي على تجزئة سوريا (٤١) وشددت مؤتمرات ١٩٣٦ على ضرورة وضع نص في صلب المعاهدة الفرنسية - السورية يضمن وحدة الاراضي السورية وكانت نتيجة ذلك الاصرار ان انتصرت ارادة الشعب السوري في الوحدة والاستقلال والسيادة الوطنية وجلاء الجيوش الفرنسية عن الاراضي السورية واللبنانية ، لكن تلك الوحدة بقيت منقوصة بعد اقتطاع لواء الاسكندرون منها ، وبقاء الوحدة السورية - اللبنانية ملتبسة وغير محددة بنصوص .

بعض الاستنتاجات :

عندما لجأ الاستعمار الفرنسي الى التجزئة ليمنع حركة التوحيد القومي العربي من التبلور في مشروع سياسي متكامل في المشرق العربي كخطوة أولى على طريق المشروع الوحدوي العربي الشامل كان يضع في رأس أهدافه أن التجزئة هي السلاح الأكثر تهديماً للمشروع الوحدوي . لذلك لم يكتف بالتجزئة الطائفية بل تعداها الى التجزئة المذهبية كما

تجاوز الانقسامات القبلية الى العشائرية وعائلية والمناطق وغيرها ، وقام بالتنسيق الكامل مع الاستعمار البريطاني لاطلاق المشروع الصهيوني وزرع كيان استيطاني عنصري يفصل مشرق العرب عن مغربهم ويرتبسط وثيقا بمراكز الرساميل العالمية ويضع قواه العسكرية في خدمتها لقمع حركات التحرر في آسيا وأفريقيا .

بالمقابل لم تكن القيادات الوحدوية العربية قادرة على صياغة مشروع متكامل يفجر طاقات الجماهير الشعبية ويوطرها ضد الانتدابيين الفرنسي والانكليزي . وكانت بعض القيادات الوحدوية على علاقة تبعية وثيقة بالفرنسيين أو بالانكليز على أمل الاستناد الى أحدهما لضرب الآخر ، فتكررت بذلك تجربة محمد علي باشا التي انتهت بسقوط مصر في قبضة الاستعمار البريطاني وضياع الغالبية الساحقة من ايجابيات تلك المرحلة .

لكن مايميز مرحلة الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان على مرحلة محمد علي باشا أن تغييرا نوعيا قد تم على المستوى العالمي تجسد بانتصار النظام الاشتراكي في روسيا القيصرية واقامة الاتحاد السوفياتي ومع ذلك لم تسع القوى الوحدوية العربية للاستفادة من هذا التغيير النوعي الا في الحدود الدنيا حتى الآن ، معظم قياداتها الفاعلة كانت تتحاشى اثامة صلات مع الاتحاد السوفياتي وتفضل ابقاء الصراع في اطار الفرنسيين والانكليز كما أن بعض القيادات الوطنية والقومية لم تخفِ عداؤها الشديد للافكار الاشتراكية في حين ارتبط بعضها في الثلاثينات بالحركات الفاشية والنازية الوافدة من ايطاليا والمانيا واسبانيا .

يضاف الى ذلك أن معظم القيادات الوحدوية العربية كانت تشدد على الوحدة الشكلية وتعمل على تغيب المضمون الاقتصادي والاجتماعي لهذا ، وبالمقابل تمسكت الجماهير الشعبية عبر تنظيمااتها المهنية والنقابية والسياسية التي كانت في مرحلتها الجنينية بالمشروع الوحدوي لكنها عجزت عن بلورة مشروعها الوحدوي أيضا بما يضمن له التفافا وطنيا وقوميا يستطيع معه التصدي لمشروع التجزئة والانفصال ونتيجة لغياب المشروع الوحدوي الجذري والفاعل كانت الجماهير الشعبية تقوم بانتفاضاتها واضراباتهما بشكل متقطع ودون تنسيق جدي في معظم الاحيان ولم تهدأ

الساحة الوطنية في سوريا ولبنان طيلة مرحلة الانتداب وعبرت عن نفسها بأشكال متفاوتة من الاحتجاج السلمي والمسلح معا^(٤٢) ان قراءة عملية لوثائق تلك المرحلة توضح أن التحزبة كفعل استعماري لاقتصدى ايجابيا في نفوس قيادات طبقية في سوريا ولبنان تسعى الى السلطة والتحكم . وقد وجدت في الانتداب وعساكره دعما كبيرا في مشروعها السلطوي المحلي الذي تحول بعد الاستقلال السياسي الى دولة قطرية لها كل مظاهر الدول الكبرى من علم ، ودستور ، وبرلمان وجيش وجمارك وإدارة ، ونقد وغيرها . دلالة ذلك أن الانتداب بشقيه الفرنسي والانكليزي ، لم يحرق في الفراغ بل في أرض بكر وأعطى زرعها ، أي التحزبة ثمارا يانعة مازالت مستمرة حتى الان ، وهي تتجذر أكثر فأكثر على قاعدة ما انتشته من مصالح طبقية ضيقة للقيادات المحلية على اختلاف انتماءاتها وطوائفها ومناطقها .

مع ذلك ، ورغم هذه الشبكة الواسعة من العلاقات الطبقية التي تزامن مع عودها مع قيام دول التحزبة في الوطن العربي فإن القراءة الكونية لتاريخ هذه الدول لا تقدم فهما عميقا لحركة التاريخ العربي بل تلغي العلم التاريخي بتلك الحركة .

فالتناقض الاساسي الذي نتج عن مشاريع التحزبة الاستعمارية قام منذ البداية بين الجماهير الشعبية العربية الوجودية من جهة ، والاستعمار والقوى الداخلية المتعاونة معه من جهة أخرى ، ومع بروز التناقض المرحلي بين مصالح الاستعمار الانكلو - فرنسي والقيادات المحلية الساعية الى التفرد بالسلطة والنفوذ في دولها القطرية لعبت تلك القيادات دورا ايجابيا تحسد بوقوفها العلني أو الشكلي ضد الاستعمار الخارجي وقادت مرحلة الاستقلال السياسي بصلابة في سورية أكثر منها في لبنان وأدت الى رحيل العساكر الانكلو فرنسية عن سورية ولبنان وسائر أرجاء المشرق العربي ولم تكن معارك الاستقلال السياسي متشابهة في هذه الاقطار ، لامن حيث التبرامج ولامن حيث القوى الاجتماعية التي حملتها . وسرعان ما تكشف الاستقلال السياسي في معظم أقطار المشرق العربي عن استمرارية معلنة للموروث الاستعماري نفسه دون تغيير

جذري . فالتناقض الذي برز مرحليا ابان معركة الاستقلال في بعض الاقطار العربية المشرقية كان من النوع الذي يمكن تجاوزه والعودة الى سياسة المساومة الطبقية والتبعية شبه الكاملة للاستعمار الغربي أو الاستعمار الحديد بالمقابل ، التناقض القائم بين الجماهير الوندوية العربية مع الاستعمار الحديد ومراكز السيطرة المالية والاقتصادية والعسكرية كان من النوع الذي لا يمكن حله بالمساومة وهو صراع مستمر يسعى فيه الاستعمار الخارجي الى تجويع الشعب العربي وسلبه حرياته الاساسية وحقه في الاستقلال والسيادة الوطنية والقومية ، وتسعى فيه الجماهير العربية الى تحريرها الكامل وضرب كل موروثة التجرزة الاستعمارية وعلى رأسها اسرائيل ، وتجاوز الدول القطرية الى دولة الوحدة العربية الديمقراطية العلمانية .

بقي أن نشير في الختام الى أن صراع الوحدة والتجرزة في سوريا ولبنان ابان الانتداب الفرنسي يشكل بداية مرحلة نوعية في تاريخ العرب الحديث والمعاصر وتختلف جذريا عن المرحلة العثمانية السابقة في الكثير من سماتها ومضامينها وتوجيهاتها المستقبلية . فالوحدة الجغرافية التي سادت في الولايات العربية وظللتها السلطنة العثمانية طيلة عدة عقود قد اختفت لتحل مكانها دول قطرية ذات شرعية محلية واقليمية ودولية معترف بها وتسعى الى استنباط تاريخ قطري لها موغل في القدم .

أما الشعارات القومية العاطفية التي سادت في مرحلة ما بين الحربين العالميتين وما زالت بصماتها واضحة في الفكر القومي العربي المعاصر فلم تعد قادرة على الفعل الجماهيري الوندوي الذي حوصر بالحدود الاقليمية والتدابير القمعية التي تشكل الحامع المشترك الأكثر فاعلية بين الاقطار العربية على اختلاف انتماءاتها السياسية والعقائدية وبدا للقيادات القطرية أن تسيج الحدود بعناية فائقة ، وبعين ساهرة يمكن أن تحمي الانظمة القطرية أطول فترة ممكنة ، لكن من الواضح الان أن كيانات التجرزة تعاني أزمت حادة معها عاجزة عن تحقيق الشعارات التي نادت بها أي تحرير الاراضي العربية المحتلة وتحرير

الثروات العربية من النهب الامبريالي المستمر ، وتحرير الارادة العربية من الاستلاب ، وكما لعبت الجماهير الشعبية ، الواعية والمنظمة ، الدور الاساسي في معركة الاستقلال الوطني وحلاء الجيوش الفرنسية عن سوريا ولبنان ، فهي مدعوة الان وفي جميع الاقطار العربية للدفاع عن مصيرها وحقوقها في الوجود كجماهير حرة في وطن عربي حر . وهي تدرك جيدا أن دول التجزئة القطرية ليست الحل بعد أن تحولت الى عبء اضافي يرهق كاهل الجماهير الشعبية على مختلف المعد .

أما دولة الوحدة القومية الديمقراطية العلمانية العربية فهي صمام الامان لدخول الشعب العربي في مواجهة تحديات العصر الراهـن متجاوزا بذلك كل معيقات التجزئة العائلية ، والعشائرية ، والمناطقية والطائفية ، والمذهبية .

أما الايجابيات الكبيرة التي قادت اليها معركة الحلاء والسيادة الوطنية في مواجهة عساكر الانتداب الفرنسي في الثلاثينات والاربعينات والتي أعطت الدولة القطرية شرعيتها في نظر الجماهير الشعبية لسنوات طويلة . تلك الايجابيات فقدت الكثير من وهجها بعد أن وظفتها الدولة القطرية لمصلحة قواها الطبقية المسيطرة منذ الاستقلال حتى الآن . وفي حين ناضلت الجماهير العربية في سبيل الوحدة والحرية والتغيير ————— الاحتماعي الحذري فان مأزق الدولة القطرية في المرحلة الراهنة يعكس مزيدا من القمع والتسلط والافقار ، والتجهيل ، والعجز عن مواجهة التحديات القومية الكبرى التي لايمكن حلها الا بالدولة القومية الوحدوية ذات المضمون الديمقراطي العلماني ، وعلى قاعدة التنمية الشاملة بأفق اشتراكي علمي ينتفي معه استغلال الانسان للانسان .

❖ الحواشي ❖

=====

هناك وثائق ومصادر كثيرة تناولت التطور التاريخي لهذه المرحلة وقد استفدنا منها في دراساتنا السابقة واثبتناها في كتابنا .
" تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤ - ١٩٢٦ " - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٨٤ .

وسنكتفي في هذه الدراسة بالإشارة فقط الى بعض تلك المصادر خاصة تلك التي اقتبسنا منها استشهادات للمناقشة .

١ - ساطح الحصري " الاقليمية، جذورها وبذورها " مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٥ ص ١٢ -

٢ - يرى ادمون رباط أن التجزئة كانت موجودة في العهد العثماني وحاء الانتداب الفرنسي ليبنني على ركائزها " ان موروشت العهد العثماني خاصة نظام الطوائف والنظام الاداري القديم كانت تثقل كاهل سوريا وتعيق حركتها باتجاه المستقبل فهناك حوالي ثلاثون طائفة متمايضة بعضها عن البعض الاخر ويعتبر مجموعها تكويننا " للامة السورية " . انما ، وبالمعنى السوسيولوجي للكلمة هذا المفهوم غير صحيح ... فالسمات الاساسية للامة ووحدة مؤسساتها لم تكن موجودة في سوريا اذ لكل طائفة حياتها الداخلية أو الروحية الخاصة بها وتتحدى في اختلاف شرائعها ونشاطها...ولهذه التعددية الطائفية عواقب وخيمة كانهدام الوحدة النفسية في البلاد والتي ينعدم معها وجود الامة السورية نفسها، فالتركيبة الاجتماعية لسوريا المعاصرة (١٩٢٨) هي تركيبة طائفية واضحة... لذلك كان الشعور القومي العربي الشعور الوحيد القادر على جمع السوريين وتوجيههم في هدف مشترك ، واعادة بعث تراثهم القديم وذلك بانتظار أن يؤدي تطور الاحداث والوقائع الى صهر السوريين في بوتقة واحدة "

٣ - وحيه علم الدين " العهود المتعلقة بالوطن العربي ١٩٠٨-١٩٢٢ " بيروت ١٩٦٥ .

- ٤ - حول هذه النقطة تراجع المصادر الهامة التالية :
- بدر الدين السباعي "أضواء على الرسمال الاجنبي في سوريا ١٨٥٠ - ١٩٥٠ دمشق ١٩٦٧
- برهان الدجاني، شفيق الاخرس، عامر الشريف " المصالح الامبريالية الاجنبية في الوطن العربي - بيروت
٥ - وجيه كوثراني " بلاد الشام : السكان ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، قراءة في الوثائق ، معهد الانماء العربي بيروت ١٩٨٠ ص ٢٤٠ .
٦ - حول هذه النقطة تراجع الدراسة الهامة حول حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية .
٧ - في ٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٤٠ يكتب المبعوث الفرنسي الخاص الى جبل لبنان السيد دوبارتو الى رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها السيد غيزو يقول : لبريطانيا مشروع آخر (يقصد غير المشروع الفرنسي) طالما أشرت اليه منذ زمن بعيد وأفشى سره عملاء الانكليز في الوقت الحاضر . هذا المشروع يومي الى اقامة دولة اسرائيل ... العمل نشيط لجمع لامعلومات حول أوضاع اليهود في فلسطين والبحث بامكانية جمع يهود أوربا فيها . وهناك سعي بريطاني لاختراق جبل لبنان ، والجبل هو سوريا ، اذ لاتستطيع أية سلطة أن تستقر على السواحل اذا كانت في حالة حرب مع الجبليين ... وهناك سعي بريطاني لفتح أبواب فلسطين أمام ثلاثة ملايين اسرائيلي منتشرين في أوربا ... تلك هي الاساليب التي تتوسلها بريطانيا لاقامة نفوذها على حساب نفوذنا في هذه المنطقة ..
٨ - تراجع مقالنا " جدلية العلاقة بين فكر التجزئة والفكر الصهيوني في المشرق العربي الحديث " المنشورة في مجلة الوحدة السنة الثالثة العدد ٢٩ - ٣٠ الصادر في شاط - آذار ١٩٨٧ صفحات ٩٠ - ٩٧ .
٩ - كوثراني "بلاد الشام " ص ٢٤١ - ٢٤٢
١٠ - ذوقان قرقوط " المشرق العربي في مواجهة الاستعمار، قراءة في تاريخ سوريا المعاصر القاهرة ١٩٧٨ .

١١- يعبر ريمون أوزوكس أفضل تعبير عن وجهة نظر الفرنسيين التي تشدد على سيئات العهد العثماني تمهيدا لظهور محاسن الادارة الفرنسية . ويرى مقدم الكتاب السياسي الفرنسي المعروف بـ"أليب" عام ١٩١٩ وهل المفوض السامي للجمهورية الفرنسية السى بلاد دحرتهما الحرب ، وأنهكتها المحاعة ، وشردت سكانها العصابات والابوثة . فأعاد اليها النظام والامن بسرعة ، وتقدم المساعدة لجميع المحتاحين وهذا من روع جميع الخائفين ، وشرع في اعطاء البلاد السورية تمثيلا سياسيا عصريا . ورغم حميـع العقبات اندفعت البلاد نحو نهضة اقتصادية هي الآن (١٩٣٠) فسي أوج تطورها "

أما ريمون أوزوكس فيرفض مقولة تحزئة فرنسا لسوريا قائلا: " مايسمى بالتعبير المبهـم سوريا لاتشكل وحدة بل فسيفساء من التقاليد والمعتقدات والاتجاهات المتباعدة لذلك كانت هذه استحالة في ارضاء الجميع ... أما فرنسا فلم تعتمد سياسة " فرق تسد " كما يتهمها المسلمون كل يوم بل باعدت بين الطوائف لعزلها بعضها عن البعض الآخر وللتخفيف من غلواء تعصبها الطائفي المذهبي ، لذلك نجد اليوم الطوائف السورية تتبع كـل منها طريقها السياسي الخاص بها ، وذلك تبعا لرغبتها ودرجة تحضرها .

١٢- ساطع الحصري " يوم ميلون " طبعة جديدة " دار الاتحاد " بيروت لاتاريخ ص ١٠٥

١٣- المرجع السابق - ص ١٨

ويرى آدمون رباط أن معركة ميلون افتتحت مرحلة جديدة في تطور المسألة الوطنية السورية فحتى ذلك التاريخ كانت الحركة الوطنية في سوريا وثيقة الصلة بالحركة العربية الشاملة . ومع فيـرض الانتداب الفرنسي على سوريا بأكملها حصل انقطاع حاد أدى الى عزل سوريا عن مجرى الحركة العربية الواحدة التي كانت تعيشها الاقطـار العربية الاخرى رغم خضوعها للانتداب البريطاني .

- ١٤- ذوقان قرقوط "المشرق العربي في مواجهة الاستعمار" ص ٥٠ .
- ١٥- ظافر القاسمي "وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥-١٩٢٧ بيروت ١٩٦٥ ص ٩٠ .
- ١٦- يتحدث بولس نجيم (جوبلان) على الجذور التاريخية للدولة اللبنانية في كتابه الهام :
- Jouplain "la questin du lilosn" 2ene edilicn-Journieh 1961
- 17- E.RABBATH "L'Evolution jolihque.." P.25
- 18- E.RABBATH "La formalion historique du chihocrn politique er Constitulivnnel-Essai de synthese " Nouvelle edidion . Unüuersith' Lihanaise 1986.PP.367ot 379.
- 19- Antoine ARIOA "Le hnloan er la France" Beyrouth 1936
- وقد أشرفنا على ترجمته الى العربية وصدر في بيروت عن دار الفارابي ١٩٨٧ .
- ٢٠- الاقنباسات الواردة حول برامج هذه الجمعيات مأخوذة عن كتاب عصام كمال خليفة "أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر" بيروت ١٩٨٥ صفحات ٧٥ - ٨٧ .
- ٢١- ستيفان لونفريغ " تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب " ترجمة بيار عقل - بيروت ١٩٧٨ - ص ١٤٩ .
- ٢٢- يوسف الحكيم " سوريا والانتداب الفرنسي " بيروت ١٩٨٣ - ص ٤٥
- ٢٣- زين نور الدين " الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان " بيروت ١٩٧٧ ص ١١٣ .
- ٢٤- ذكره زين الدين زين - المرجع السابق ص ١٨٧ .
- ٢٥- محمد جميل بيهم " لبنان بين مشرق ومغرب ١٩٢٠-١٩٦٩ " بيروت ١٩٦٩ ص ١٠ - ١١ .
- ٢٦- فلاديمير لوتسكي " الحرب الوطنية التحريرية في سوريا ١٩٢٥-١٩٢٧ مترجم عن الروسية باشرافنا ١٩٨٧ .
- ٢٧- يوسف الحكيم " سوريا والعهد الفيصلي " بيروت ١٩٦٦ - ص ٨٧-٨٨ .

- ٢٨- عبد الرحمن الشهبندر " ثورة سوريا الكبرى ، أسرارها ونتائجها "
عمان ١٩٤٠ ص ٨٣ .
- ٢٩- ذوقان قرقوط " المشرق العربي في مواجهة الاستعمار ص ٨ .
- ٣٠- عصام خليفة " أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر " مقالة مواقف
النخب الاسلامية ١٩١٨ - ١٩٤٣ ص ٣١ .
- ٣١- ذوقان قرقوط " المشرق العربي ص ٥ .
- ٣٢- ذوقان قرقوط " تطور الحركة الوطنية في سوريا ١٩٢٠-١٩٣٩ بيروت
ص ٥٥ .
- ٣٣- يوسف الحكيم " سوريا والانتداب الفرنسي " ص ٨٧ .
- ٣٤- ذوقان قرقوط " تطور الحركة الوطنية " ص ٥٦ .



نبذة عن كشف أثري تاريخي في تل أبيلان (الجزيرة السورية)

بقام الدكتور عدنان البني
مدير التنقيب والدراسات الأثرية

تمهيد :

انقضى القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين ، ولم يكتشف من آثار سورية ، التي كانت ولاية عثمانية واحدة ، إلا القليل واثر الحملة الفرنسية والحوادث المؤسفة (١٨٦٠) قام أرست رينان ببعثته ((الفنيقية)) التي شملت ارواد وعمريت وجبيل وصيدا وصور ، فكانت عملية مسح أثري أكثر من كونها عملية تنقيب بالمعنى الصحيح . وبعد بعثة رينان سمحت السلطة العثمانية ببعض أعمال التنقيب في الولايات السورية (أبا ماليك لازريف في تدمر ١٨٨٤ ، البعثة الألمانية في زحرلي/شمال ١٨٨٨ - ١٨٩٢ ، البعثة الألمانية في تدمر ١٩٠٢ و ١٩١٧ وبعثتك ١٩٠٠ - ١٩٠٤ ، بك في مقابر صيدا ١٨٨٧ ، ثم البعثة الانكليزية في جرابلس/كركميش ١٩٠٨ - ١٩١١ والبعثة الألمانية في تل حلف (الحولة الأولى) ١٩١١ - ١٩١٤ وأخيرا بعثة مقردي بك كونتونو ١٩١٤ .

وبعد انهيار الحكم العثماني وتفكك أوصال بلاد الشام ودخول القوات الفرنسية عنوة الى سورية ، وقيام سلطة الانتداب ظلت تلك السلطة خلال الربع الثاني من القرن العشرين هي التي ترخص للبعثات الاثرية فسمحت لبعثات فرنسية ومن جنسيات أخرى بالتنقيب في عدد من المواقع (تل الصالحية/دورا أوريس ١٩٢٠ - ١٩٣٦ تل النبي مند ١٩٢١ - ١٩٢٣ تل المشرفة ١٩٢٤ - ١٩٢٧ - ١٩٢٨ ، تل حلف الجولة الثانية) ١٩٢٦ - ١٩٢٩ أرسلان طاش ١٩٢٨ ، تل أحمر/تل برسيب ١٩٢٩ - ١٩٣١ ، حماة ١٩٣٠ - ١٩٣٨ شكريز ١٩٣٥ - ١٩٣٦ ، تل براك ١٩٣٥ - ١٩٣٦ ، قصر الحير الغربي ١٩٣٦ وبطريق المصادفة المحضة اكتشف موقع رأس الشمرة / أوغاريت ١٩٢٨ وبدأت أعمال التنقيب فيه ١٩٢٩ ، وموقع تل الحريري/ماري/في ١٩٣٣ وبوشر التنقيب فيه في العام نفسه . واستمر العمل في الموقعين حتى قيام

نبذة عن كشاف أثري، تاريخي في تل ليلان (الحزيرة السورية)

الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ واكتسبا شهرة فائقة طبقت الافاق .
وخلال فترة الانتداب كان المتحف الوطني بدمشق مؤسسة وطنية
أسهم هو ومتحف حلب في بعض أعمال التنقيب التي أوردنا ذكرها . ثم
باشر مديره الامير جعفر الحسني ، رائد الاثار السورية ، خــــلال
الاربعينيات بتشجيع بعض أعمال التنقيب الوطنية في مقابر حوبر وطفس
وخسفين والعال وفيق وفي موقعي تدمر وبصرى .
وبعد الاستقلال بدأ العصر الذهبي لعلم الاثار السوري فقد عــــاد
النشاط لمواقع كثيرة متوقفة ، وبخاصة رأس الشمرة وتل الحريري وقامت
بعثات وطنية في الرقة وتدمر وعمريت وتل الكزل وعين دارا وبصرى
وشهبا . ورخصت لبعثات أجنبية ومشاركة كثيرة . . وأخذ تاريخ آسيا
العربية والغربية عموما يشهد انقلابات متتالية وفتحت آفاق رحيبة
في علم ما قبل التاريخ امتدت على مليون عام وانطلقت شهرة مواقع
مفتاحية في ست مرخو والقرماشة واللطامنة والمريبط وبقرص وتل الرماد
وغيرها وغيرها ، وظهرت الى الوجود ابلا ومكتشفاتها الباهرة في تل
مردوخ وايمار في مسكنة ، وأوغاريت البحر في رأس ابن هاني . وتعددت
المشاريع الاثرية الاستثنائية في تدمر وبصرى ومشاريع الانقاذ في
الفرات والخابور .

ومن الامارات البارزة في علم الاثار العربي السوري كثرة أعمال
المسوح الاثرية والسبور ، وعدد المواقع التي شملتها هذه الاعمال ، وعدد
البعثات وعدد العاملين فيها ، وكمية ما يطبع وما ينشر عنها . ان عدد
المواقع المنقبة ذو أهمية ودلالة ولاشك . ولكن قد تكون هذه الاهمية
كمية فحسب . والاهم أن تخدم هذه الاعمال الاثرية التاريخ والحضارة
بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، في مجال اكتشاف الدول والممالك
وتحقيق هويات المدن والكشف عن دواوين المحفوظات (الارشيفات) . وفي
هذا المجال بالذات تحقق في سورية خلال السنوات الاخيرة ما لم يتحقق
في أي جزء من أجزاء العالم القديم .

في مدى عشرين سنة تقريبا تحققت هوية مدينة كحت في تل بـري
(١٩٦١) وابلا في تل مردوخ (١٩٦٨) وايمار في مسكنة ١٩٧٣ وشفري في تل

القرى (١٩٧٣) وآزو في تل حديدى (١٩٧٦) ودور كتليمو في تل الشيخ حمد (١٩٧٨) وزلفا في تل حمام التركمان (١٩٨٤) وتئيدو في تل براك وتوتول في تل البيعة وأوري أو أوريما في ممباقة (١٩٨٦) وأوغاريت يم أوبيروتي في ابن هاني (١٩٨٤) وأخيرا شوبات انليل في تل ليلان (١٩٨٤) .

وحادث أكثر هذه المواقع المحققة الهوية بدواوين محفوظات غاصة بمئات بل ألوف الرقم المحررة بالمسمارية الاكادية البابلية والاشورية أو بالابحدية الاوغاريتية وغيرها . . . ولم تزل أكثر هذه المواقع — بداية الطريق من عطائها المؤمل .

في هذه المرحلة يقوم العمل الاثرى باعادة بناء التاريخ وترميم أحداثه والقاء مزيد من الاضواء على تاريخنا وحضارتنا اللتين تعرضتا في الاونة الاخيرة الى احتمادات وتصورات بل اختلاقات هي في رأينا أكثر خطرا عليهما مما احترحه المستشرقون . فلنترك الذين يبحثون في التاريخ بلا مستندات أو مؤيدات ولنعد جميعا الى الارض الطيبة نستنطقها الحقائق .

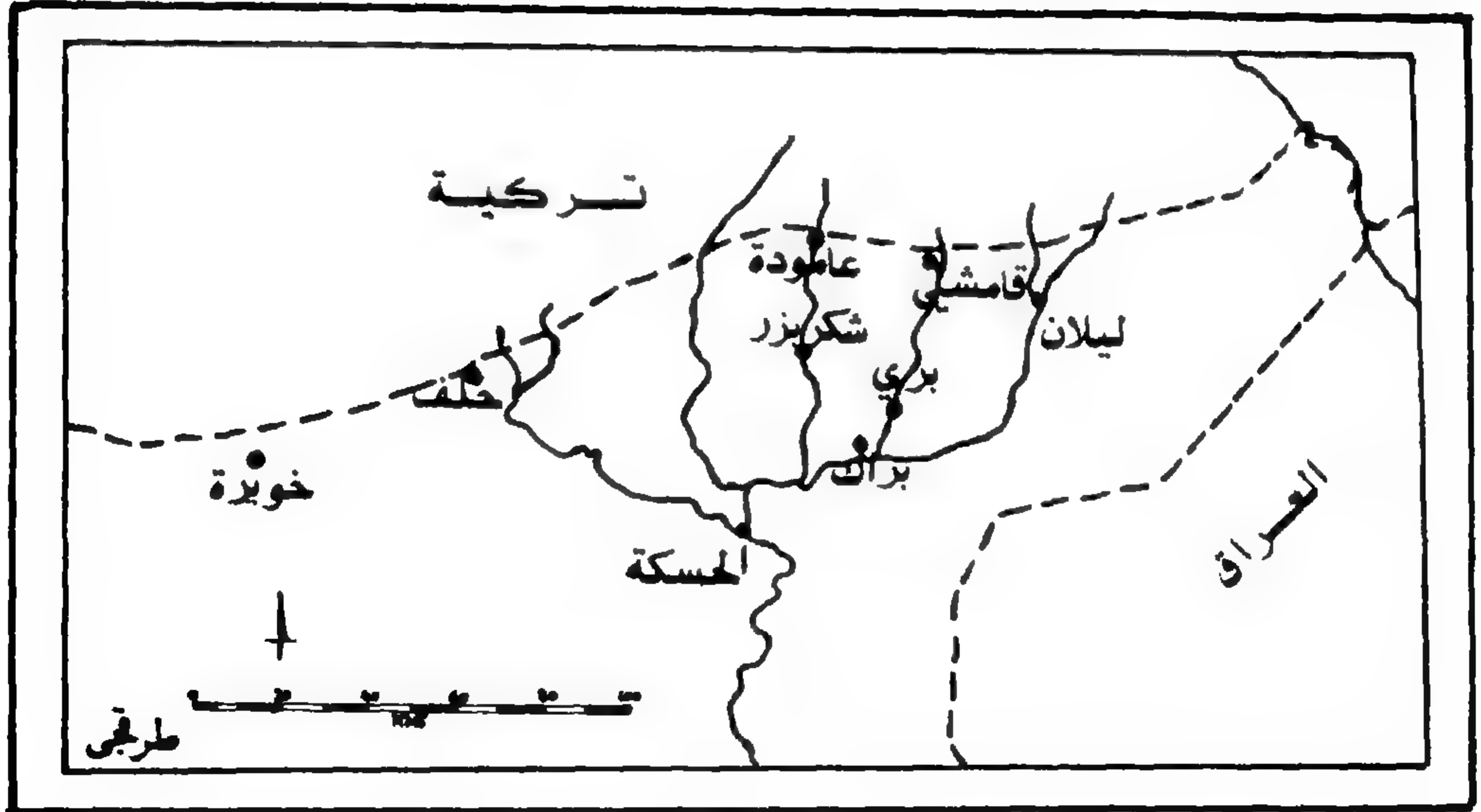
وسنتحدث اليوم عن أحدث كشف أثري تم في قلب الجزيرة السورية أظهر مدينة حصينة رحيبة بناها أو أعاد بناءها الملك الاشوري الاموري الاصل ، شمشي آدد وسماها شوبات أنليل (أي مقر الرب أنليل) في بحر القرن الثامن عشر ق م .

وكما ذكرنا في مناسبة سابقة واثر عودتنا من ندوة خاصة بالجزيرة السورية عقدت في برن عاصمة سويسرا (ك ٢١ ١٩٨٦) ان الجزيرة السورية هي أكثر منطقة أثرية واعدة في العالم الاثرى اليوم، فيها تنقب حوالي عشرين بعثة أثرية في منطقة غمرسد الخابور ومنطقة غمرسدي الحسكة الغربي والشرقي ، وخارج هاتين المنطقتين، وفيها بعثات وطنية ومشاركة .

تل ليلان / شوبات انليل : الشكل (١)

يقع (تل ليلان) على بعد خمسة وعشرين كم الى الجنوب الشرقي من مدينة القامشلي عند التقاء وادي الحرة بوادي القطراني ، ارتفاعه عن السهل المجاور حوالي خمسة عشر مترا مؤلف من قسم واطيء واسع مساحته

نبذة عن كشف أثري تاريخي في تل ليلان (الجزيرة السورية)



الشكل (١)

حوالي تسعين هكتارا، وأكروبول (قسم مرتفع) لا يتجاوز خمسة عشر هكتارا، وفيه مركز المدينة القديمة. أول من أشار إلى هذا التل، فيما نعرف هو الموصلي هرمز درسام من رواد التنقيب الأثري في الرافدين وقد تحدث عنه في مؤلف له منشور بالانكليزية ((آشور وأرض نمرود لندن ١٨٩٧ ص ٢٣٢، ٢٣٣)) كما اهتم به البارون فون أو بنهايم في كتابه المنشور بالالمانية والمسمى ((من البحر المتوسط إلى الخليج، برلين ١٨٩٩ ص ١٤١ و ١٦٧-١٦٨)) وكذلك الألماني اميل فورير في كتابه المسمى ((تقسيم الولايات في الامبراطورية الاشورية، ليبزيج ١٩٢١ ص ٢٠)) والاثنان الاخيران قدرا أنه موقع آشوري أو عاصمة آشورية. وقد نشر الاب بوادبار أول صورة جوية له في مؤلفه الفرنسي الشهير ((أثروما في البادية السورية، باريس ١٩٣٤ ص ١٤٠)) .

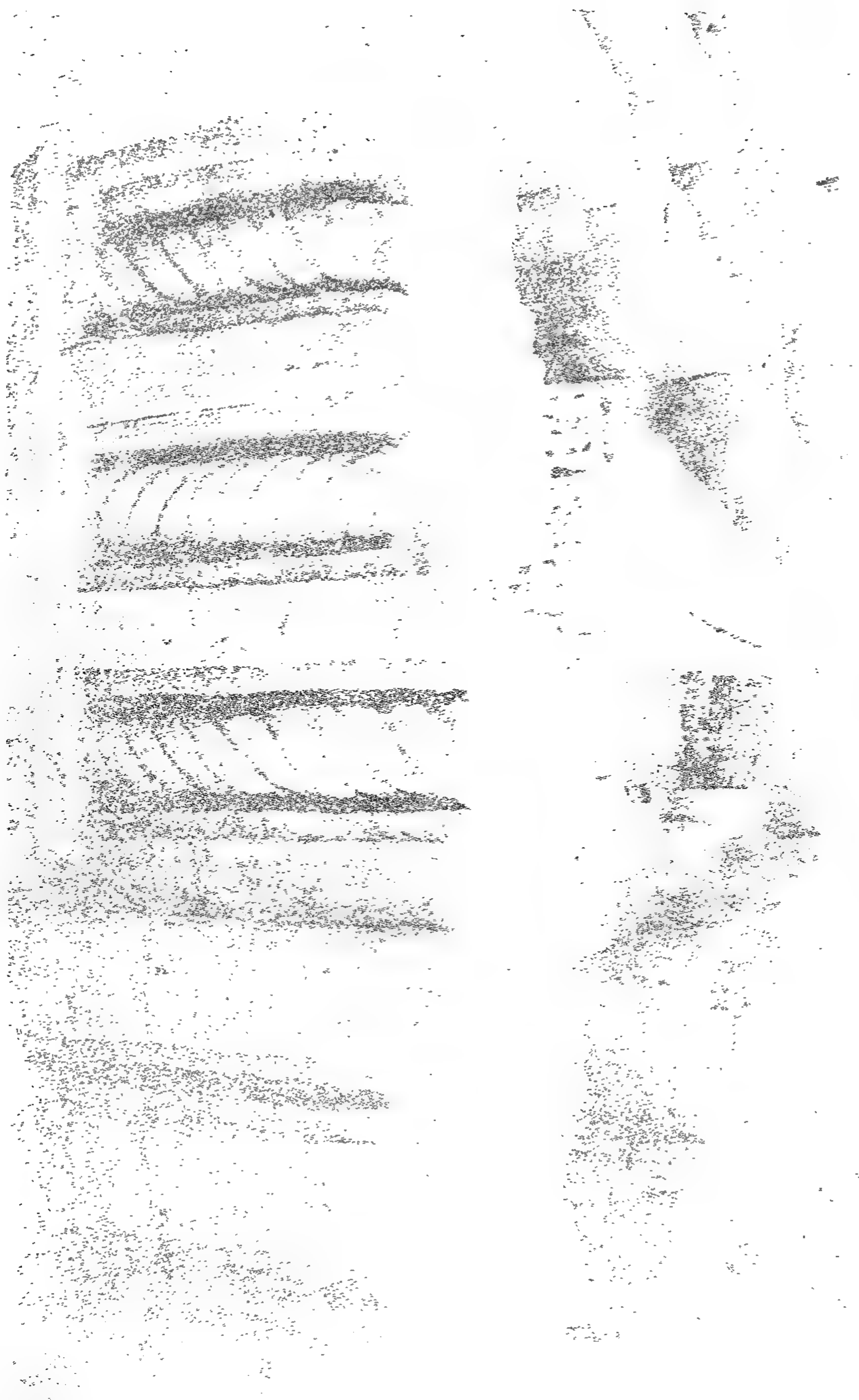
وفي ١٩٧٨ قصد هذا التل بالذات الاستاذ (هارفي وايس) من جامعة بيل الامريكية مرخصا من السلطات الاثرية والرسمية المختصة فأحرى فيه مسحاً أثرياً منهجياً دقيقاً وتأكد من تسلسل العصور التاريخية التي مرت على التل بدءاً من الألف الخامس (بدلالة فخار طور العبيد الشمالي) .

واتضح له أن الموقع كان ازدهاره بخاصة في حوالي بداية عصرأكاد
وابلا (٢٥٠٠ و ٢٤٠٠ ق.م) . وقدر أنه كان آنثذ أكبر مركز مدني
في سهل الخابور .

كانت مواسم التنقيب في تل ليلان تجري في كل سنتين مرة واحدة
١٩٧٨ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٧) . وقد اتضح من الحفريات التي تمت
في المدينة العالية أن النصف الاول من الالف الثاني في التل المذكور
عرف ازدهارا حديدا للمدينة ، فقد ظهر في هذه الجهة معبد ضخم قائم
على أنقاض معبد أقدم ، وهو مشيد باللبن . واجهته الشمالية مزينة
بأقسام غائرة كالمحاريب تتوسط أنصاف أعمدة حلزونية الشكل . أما
واجهته الجنوبية فالأعمدة فيها على شكل حذوع النخيل . وهذا الشكل
في العمارة مشابه شكل معابد معروفة في مدينة آشور من عهد الملك
شمسي أدد (القرن الثامن عشر ق.م) وكذلك في تل ريمة وأوروحمريين
في الرافدين . الشكل (٢)

كان هدف الاستاذ (وايس) من مسحه الاثري ومن أعمال التنقيب أن
يثبت أن هذا التل هو موضع مدينة شوبات أنليل العاصمة الشمالية للملك
شمسي أدد ، وأن يكشف عن مختلف أحيائها . وقد تأكد له وللعلم
الاثري أن شوبات أنليل هي في هذه السوية من تل ليلان ، وكان اسمها
قبل ذلك وبعد ذلك ((شيخنا)) استولى عليها الملك الاموري الاصل
شمستي أدد بن كيكابو بعد أن اعتلى عرش الاشوريين . ونظرا لمناعتها
جدها وجعلها كما جاء في نصوص ماري قلعة راسخة في قلب البلاد
(مخطوطات ماري الملكية الجزء ١٤ رقم ١٠١) وجعلها عاصمته الشمالية .

كان شمسي أدد قد أسس امبراطورية حوالي نهاية القرن التاسع
عشر قبل الميلاد ، قبيل عهد حمورابي البابلي . امتدت هذه الامبراطورية
من جبال زاغروس حتى نهر الفرات وضمت القسم الشمالي من بلاد بابل
وأواسط وادي الدجلة والفرات ووادي الخابور وأجزاء أخرى من سورية .
وقد تحالف شمسي أدد مع مملكة قطنة وعاصمتها في تل المشرفة واحتل
أو على الأقل وصل جبال لبنان . كما استولى على مملكة ماري القوية



الشكل (٢): مستر نور الدين المعبد الشمالي والحرير في تل ليلان / سوات أنليل

في عهد ملكها زمرى لم ففر لاحقاً الى مملكة حلب القوية .
وقد أقام شمشي أدد ابنه يشمع أدد على عرش مدينة ماري وكان
ضعيف الهمة كما يتضح من مراسلات مدينة ماري (مخطوطات ماري الملكية
الجزء الاول ، رقم ١٠٨) .

دام حكم شمشي أدد خمساً وثلاثين سنة ويقدر هارفي وايس أنه
مات في حدود عام ١٧٧٥ ق.م . وخلفه ابن يشمع دحن ورغم علو همته
وشجاعته فقد أكثر الاملاك التي حاز عليها والده ولكن سيطرته ظلت
وطيدة في بلاد آشور نفسها وفي سهل الخابور .

* * *

ان مدينة شوبات أنليل التي ظهر اسمها في رقم مدينة ماري منذ
حوالي خمسين سنة يعني اسمها مقام الرب أنليل (شو - با - آت - ان -
ليل) وشوبات من الجذر الاكادي وشب ومعناه جلس أو أقام ونقربه
من وشب في العربية الجنوبية وتعني جلس . وكانت شوبات أنليل مجهولة
الموقع شأنها شأن مدينة أغاديه عاصمة الاكاديين وواشوكاني عاصمة
الميتانيين . وقد قدر بعض العلماء أنها في مدينة آشور نفسها وراى
البعض الآخر أنها في تل شكريزر ، في الحزيرة السورية . وهناك من
قدر قبل هارفي وايس أنها في تل ليلان وفي طليعتهم مرغريت فولكنر
وتبعها وليم هالو وبارتل هرودا .

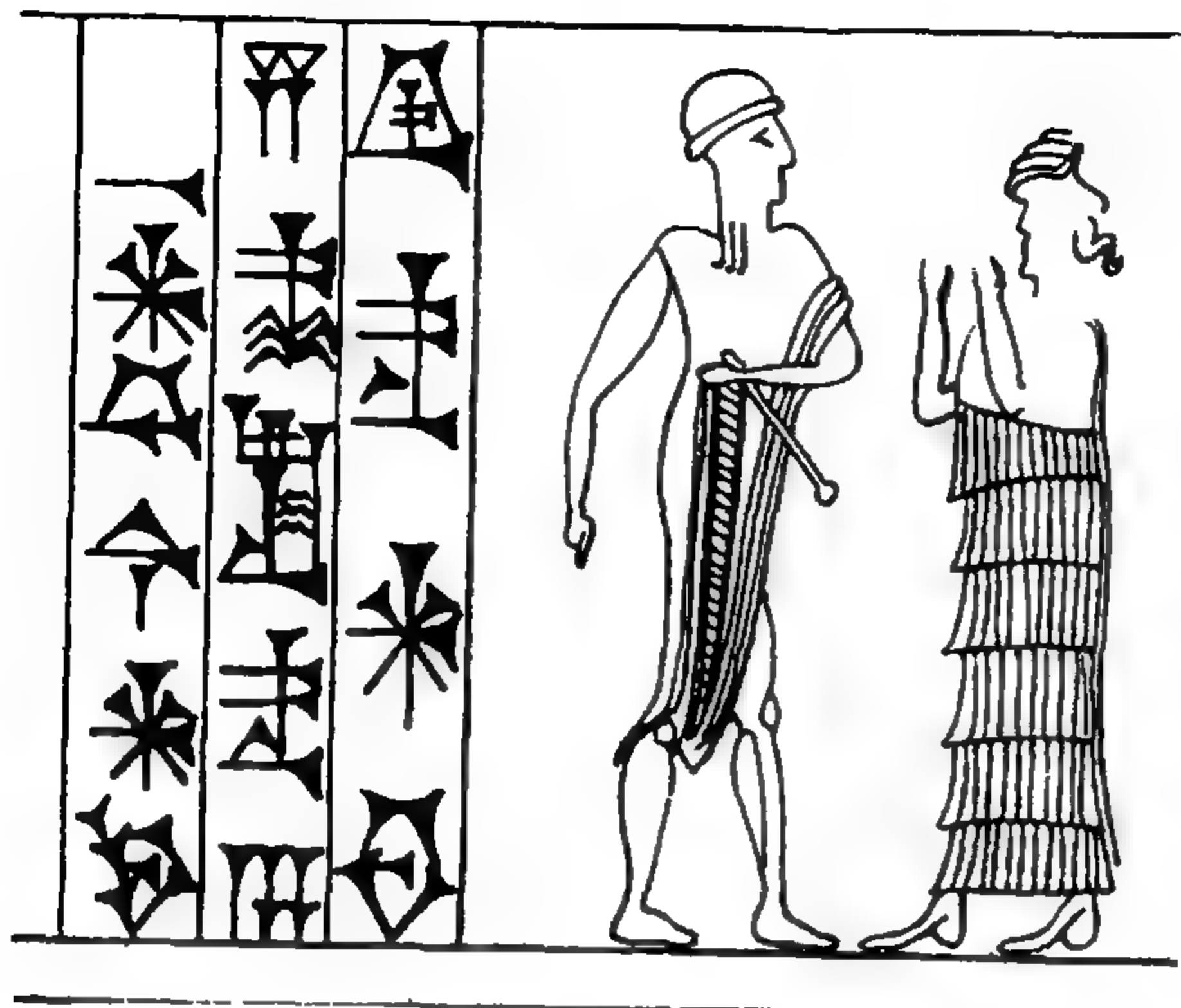
منذ البداية كان هارفي فايس يقول ان حجم تل ليلان وحصانته
وكون السوية الهامة والاساسية فيه معاصرة للملك شمشي أدد ، وضخامة
المعبد المكتشف في تلك السوية ، ومشابهة مخططة لمعبد الملك شمشي أدد
في العاصمة آشور نفسها ، هي براهين أثرية قوية على صحة الفرضية
القائلة بوحود مدينة شوبات أنليل في هذا التل .

وكانت نتائج التنقيب منذ ١٩٨٢ مؤيدة لهذا الاتجاه فقد عثر
في ذلك الموسم على طبقات أختام تحمل أسماء موظفين تابعين للملك
شمشي أدد وحكام مدن مجاورة لشوبات أنليل ومقترنة بها عادة كمدينة
أفوم . ومع ذلك كان هناك تردد في قبول ذلك من قبل البعض حتى أتى
البرهان ساطعاً عام ١٩٨٥ . فقد وقعت البعثة الاثرية في معبد المدينة

نبذة عن كشف أثري تاريخي في تل ليلان (الجزيرة السورية)

على حوالي ستين رقيما تحمل اسم المعبد وختم الملك شمشي أدد وختم ابنه وأحيانا ابنيه وتأكدت في رأي قاريء الخطوط في البعثة روم وايتنغ هوية الموقع بما لا يدع مجالا للشك اذ أن اقتران هذه الاسماء لا يجمع الا في العاصمة الاشورية آشور وفي مدينتي ماري وايكالاتيوم ولما كانت مواقع تلك المدن معروفة فليس أمامنا الا تل ليلان (ندوة برن/ك/١٩٨٦/ قيد الطبع) .

وجاءنا في ١٩٨٧ من الاستاذ وايس مدير البعثة أن بعثته كشفت في هذا الموسم عن جزء كبير من سور ضخم معاصر لشمشي أدد وخلفائه المباشرين وأنها أظهرت بقايا قصر معاصر أيضا وجدت في محفوظاته حوالي ١٣٠٠ رقيما مسماريا وبينها مراسلات ملكية لحكام المدينة في الفترة التي تلت موت شمشي أدد واتضح أن المدينة استرجعت اسم (شيخنا) الذي كان يطلق عليها قبل توسيعها واتخاذها عاصمة شمالية لشمش أدد في أيام امبراطوريته الواسعة .



ختم سوري أدد ، خادم شمشي
أدد . من تل ليلان/شوبات
أنليل .

الشكل (٣)

نأمل في تطور أعمال التنقيب في تل ليلان، أن تقع البعثة على بقية
المحفوظات التي تلقي ضوءا على بلاد الهلال الخصيب كلها، في النصف
الاول من الالف الثاني ق.م كما ألقنا بلا الاضواء على زمن النصف الثاني من
الالف الثالث ق.م .

بعد كتابة المقال عن مدينة شوبات أنليل في موقع تل ليلان في الجزيرة السورية ، حاءنا في تقرير للاستاذ هارفي وايسرأن الدراسة الاولى لحوالي ٣٠٠ رقيم فقط من الرقم المسمارية المكتشفة في تل ليلان عام ١٩٨٧ قد ألقت ضوءاً حديداً على الحياة السياسية والاجتماعية في الممالك القديمة التي كانت قائمة في المنطقة وخاصة مملكة حلب وعاصمتها الحصينة التي شهدت قوتها في هذا الحين بعدموت شمشي أدد ثم موت حمورابي البابلي ، اذ يتضح من الرقم ان الملوك كانوا يخاطبون أندادهم بعبارة ((يا أخي)) بينما كانوا يتوجهون لملك حلب بعبارة ((يا أبي)) . وظهر من هذه النصوص أن الخيل كانت مستخدمة في ملاحقة الاشقياء الذين كانوا يعيشون فساداً في أراضي المملكة شوبات أنليل التي استعادت اسمها القديم ((شيخنا)) . كما تذكر الرقم المسمارية أن أجور العمال هناك كانت تدفع بأكيال من الشعير ، كما تذكر حصص الخمرة والجعة في الحفلات الملكية . ومن الامثلة على ذلك تخصيص ما يعادل ٨٠ ليتراً من الجعة لحفلة ملكية على شرف أحد رجالات بابل .

ومن الطرائف الواردة في احدى هذه الرقم أن أحد الملوك يطالب من ((أخيه)) حضور حفلة على شرف ((أبيهما)) ملك حلب ويرجوه أن يجلب معه من بستانه ما يتيسر من الثمار .

وثمة رقيم يتبين منه أن كل ملك كان يستخدم ((عيونا)) على نشاط الملك الاخر وأن بعض عيون ملك شوبات أنليل (شيخنا) نكث بوعده ولم يرسل الفدية الامر الذي أشار غضب الملك الاخر فأرسل يعاتبه عتاباً شديداً .

ان عدد الرقم كبير ومع ذلك فان البعثة المنقبة تتوقع المزيد ويذكر هارفي وايسر أن المراسلات مع مدينة ماري (تل الحريري) مازالت مغيبة في مكان من القصر لم تصل اليه أعمال التنقيب .

ان عدداً كبيراً من هذه الوثائق النادرة التي اكتشفت في تل ليلان مؤرخ بالسنة والشهر واليوم . وهو يغطي موضوع المراسلات والمبادلات في المنطقة في فترة تمتد من ١٧٣٩ الى ١٧٢٦ ق.م . وهي أكبر ((محفوظات)) ملكية وجدت في الشمال من الرافدين منذ

نبذة عن كشف أثرى تاريخي في تل ليلان (الحزيرة السورية)

أكثر من خمسين عاما . وعند استكمال دراسة هذه النصوص الثمينـة
المحررة باللهجة الاكادية البابلية القديمة سيتضح الى أي حد كان
دور الحزيرة السورية يضا هي دور جنوب الرافدين في بدايات الحضارة
وفي عصورها المتقدمة .

السكة في مدينة حمص إلى بان العهد الأموي

بقلم الأستاذ محمد الخولي
أمين المتحف العربي الإسلامي

أثناء اعدادي دراسة عن نقود بلاد الشام ابان العهد الأموي، وجدت أن النقود التي أصدرتها مدينة حمص هي من أوفر السكات التي صدرت بين مدن أجناد بلاد الشام^(١) ما خلا مدينة دمشق، وأكثرها تنوعا حتى انها تتميز ببعض سكاتها التي لم تكن لحاضرة الدولة الأموية نفسها مثلها، كالفلوس التي تحمل في زخارفها صورا لبعض الحيوانات كالاسد والفيل وحصان البحر واليربوع ومقدمة الحصان . إن تعدد هذه النماذج ووفرتها يشجع على نسبة السكات المغفلة المزدانة بصور بعض الحيوانات الى هذه المدينة والى الفترة التي صدرت بها نقود هذه المدينة المشابهة على الأقل . اذ أن حمص تكاد تكون المدينة الوحيدة بين مدن بلاد الشام التي زينت نقودها بهذا النوع من الزخارف . اذا ماتجاوزنا نماذج محدودة بعضها سك بطبرية مزدانا بصورة الاسد وآخر مزدانا بطائر صغير ونموذجا بدمشق تزيينه صورة سمكة .

هنا لابد من الإشارة الى أن حمص لم تضرب الدنانير الذهبية شأن جميع الاجناد الاخرى ، اذ كان اصدار النقود الذهبية قصرا على مدينة دمشق^(٢) ، ولكن حمص تميزت عن أجناد بلاد الشام الاخرى بعد دمشق بأنها أصدرت الدراهم الفضية ولكن على نطاق محدود حتى أننا لم نستطع أن نرصد لها سوى درهمين اثنين تحدث عنها الباحثة السويسري

(١) - عرفت أجناد بلاد الشام بمراكز ومناطق نذكرها كمايلي بحسب تسلسلها

من شمال بلاد الشام الى جنوبها وهي: حند قسرين ، حند حمص ، حند دمشق ، حند الاردن ، حند فلسطين ، وحند منطقة الشراة (الممتدبين دمشق ومدينة الرسول (ص) من بعض نواحيه قرية تعرف بالحميمة) .

(٢) - هذا بالنسبة لبلاد الشام ولكن ثلاث سكات ذهبية أخرى اشتهرت بها كل من الاندلس وافريقية والحجاز (معدن أمير المؤمنين بالحجاز) .

الدكتور ايليش (Dr. Lut ilisch) (٣)، أحدهما من النمط العربي الساساني مؤرخ من عام ٧٢ هـ والثاني يعود الى فترة ما بعد اصلاح الخليفة عبد الملك بن مروان الذي حدث في عام ٧٧ هـ ويحمل التاريخ ٨٥ هـ ، وقد أشار الباحث المذكور الى أن هذين النموذجين ينتميان الى مجموعتين خاصتين لم تتح لهما فرصة النشر .

أما ما يخص مادة بحثنا فهي الفلوس النحاسية ، هذه المادة التي تفوق بأهميتها الاثرية الذهب والفضة وذلك بما تقدمه من معلومات محلية ذات صبغة اقتصادية وثقافية وسياسية وفنية واجتماعية تعطي فكرة عن السوية الحضارية لمجتمع المدينة في ذلك العهد، وأحيانا تتضمن أسماء بعض المسؤولين الكبار ذوي الادوار الريادية في المدينة كالامراء والحكام والمشرفين على دار السكة . ذلك لان أمراء الولايات والاجناد كان لهم امتياز اصدار الفلوس النحاسية بالشكل والاسلوب الذي يروونه بالاتفاق مع المشرف على السكة الذي كان يرسل من دمشق والذي كان في غالب الاحيان قاضيا لضمان شرعية الاصدارات وصحة المأثورات التي ترد على السكة ، وكانت سلطته على متولي دار السكة والسنباك والنقاش ، وقد كانت سلطته مقيدة بالنسبة لاصدارات الدراهم الفضية مما جعل معظم سكاتها تبدو متماثلة في قوالبها ومأثوراتها ما خلا أسماء مدن السكة فانها تختلف من مدينة لاخرى . أما بالنسبة لاصدارات النحاسية فكان يتمتع بشيء من الحرية حيث كان يضمنها أحيانا أسماء بعض الامراء أو اسمه نفسه صريحا تارة وبالرمز تارة أخرى ويزينها بزخارف مختلفة ذات طبيعة حيوانية أو هندسية أو نباتية مما يعكس بعض خصائص الاقليم ومميزاته وهذا ما جعل هذه المادة أكثر تنوعا وأشد جاذبية من اصدارات الذهب والفضة .

(٣) - في مقالة :

Die Umayyadischen und abbasidischen Kupfermünzen

Von Hims : Versuch einer chronologie

Münstersche Numismatische Zeitung x,3 August 1980 pp22-30

(سأشير الى هذا المرجع من الان فصاعدا بـ (ايليش) للتسهيل

أود أن أوضح هنا أنني عندما أذكر حمص أعني مدينة حمص بالذات حتى لا يذهب الفكر الى منطقة حند حمص بكاملها : هذه المنطقة التي كانت واسعة جدا نسبيا حتى عهد يزيد الاول بن معاوية حيث كانت تشمل على كل من كور قنسرين ومنبج وانطاكية وسائر الكور الاخرى التابعة في الداخل والساحل بما في ذلك اللاذقية وحبله وطرطوس^(٤) وفي عهد يزيد المذكور أحدث جند حديد في شمال البلاد سمي بحند قنسرين وقد جمعت فيه : قنسرين وحلب ومنبج وانطاكية ومن في دائرتها وترك ما تبقى ليطلق عليه اسم حند حمص .

ان البحث في سكة حمص يقتضي معرفة بأسماء الامراء الذين توالوا عليها أو بالاحرى على الحند ككل وفترات توليهم حتى نتمكن من التعرف على تواريخ السكات التي تحمل اسماء بعض هؤلاء الامراء ، وأهمية ذلك تكمن في أن أمير الحند كانت له صلاحيات واسعة فهو الذي يختار من رجاله أمراء على الكور التابعة ويقوم مقام الخليفة في اقامة الصلاة وقيادة الحيش وحماية الخراج ويأمر بضرب السكة ويقضي بين الناس . ولدى تحرينا عن أمراء حمص وجدنا أنفسنا أمام صعوبة لم تكن بالحسبان إذ أن ما استطعنا التعرف عليه منهم لم يذكر على السكة بل ذكرت أسماء تخص أشخاصا آخرين، سنحاول من خلال وضع النماذج التي تحمل هذه الاسماء في مكانها المناسب من تطور صناعة النقود قدر الامكان علنا نجد لها صلة بتاريخ المدينة وذلك بعد أن أخفقنا في التحري عن صلة أصحاب هذه الاسماء بالتاريخ الاداري أو السياسي أو الفكري لهذه المدينة . لاشك أنه المفيد أن نستذكر أسماء الامراء الذين توالوا على حكم المدينة ، فقد يساعد ذلك في الدلالة على صلة ما تربط بين هؤلاء الامراء وأسماء الاشخاص الذين ذكروا على النماذج التي بين أيدينا وبالتالي فان ذلك مع استخدام النماذج التي تحمل تاريخا صريحا سوف يساعد على وضع تسلسل تاريخي تقريبي لمختلف

(٤) - مك لهذه المدينة فلس واحد من النوع العربي البيزنطي من نماذج

الفئة الثانية التي سنأتي الى الحديث عنها لاحقا .

النماذج التي صدرت في هذه المدينة ، وهذا ما نتطلع اليه ويتطلع اليه زملاؤنا في كل مكان مما سيكون له دور في القاء الضوء على آراء بعض الزملاء الذين وضعوا تقديرات زمنية لبعض النماذج معتمدين في ذلك على معطيات معينة سوف نتعرض للحديث عنها في حينها (٥).

✽ ولاية حمص في العهد الاموي ✽

الخلفاء الامويين	السنة هجرة	اسم الوالي
١	٤٦	مالك بن عبد الله
	٥٠	بر بن أرطاة
	٥٠	سفيان بن عوف الازدي
	٥١	فضالة بن عبيد
	٥١	بر بن أرطاة (ثانية)
	٥١	سفيان بن عوف الازدي (ثانية)
	٥٢	عبد الله بن سعيد الغزاري
	٥٢	مالك بن هبيسة
	٥٢	محمد بن عبد الله الثقفي
	٥٣	عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي
	٥٤	محمد بن مالك
	٥٤	معن بن يزيد السلمى
	٥٥	سعيد بن عوف
	٥٦	حنادة بن أمية
	٥٧	عبد الله بن قيس الغزاري

(٥) - يحسن الإشارة في نموذج تحدث عنه ووكر على النمط العربي البيزنطي يحمل اسم خالد باليونانية XAED وقد عزاهذا النموذج الى خالد بن الوليد فان صح هذا فسوف يكون أول نموذج نقد صدر في الاسلام اذ يمكن ارجاعه الى ما بين ١٥-١٦هـ.

تابع ولاية حمص في العهد الاموي:

الخلفاء الامويين	السنة هجرة	اسم الوالي
تابع معاوية بن أبي سفيان	٥٨	مالك بن عبد الله الختمعي
٢ يزيد الاول بن معاوية	٥٩	عمرو بن مرة
٦٠-٦٤	٦٠	خلال هذه الفترة عرف من ولاية حمص : الحصين بن نمير السكوني
٣ معاوية الثاني بن يزيد	٦٤	كان على حمص في هذه الفترة خالد بن يزيد ابن معاوية
٤ مروان الاول	٦٤	النعمان بن بشير الانصاري
٥ عبد الملك بن مروان	٦٥	خلال هذه الفترة كان عبد الملك نفسه يشرف عليها
٦٥-٨٦ هـ	٦٨	أبان بن عقبة بن أبي المعيط
	٦٨	محمد بن مروان
	٧٣	أتى بعده عبد الله بن الحجاج
	٧٥	الوليد بن عبد الملك
	٧٩	توفي واليها أوسط بن اسمعيل البجلي
	٨١	عبيد الله بن عبد الملك
	٨٢	محمد بن مروان (ثانية)
	٨٥	مسلمة بن عبد الملك
٦ الوليد بن عبد الملك	٨٦	
٨٦-٩٦	٨٧	هشام بن عبد الملك

السكة في مدينة حمص ابان العهد الاموي

تابع ولاية حمص في العهد الاموي

اسم الوالي	لسنة هجري	الخلفاء الامويين
يزيد بن الحصين بن نمير (تولاها لسليمان)	٩٦	٧ سليمان بن عبد الملك ٩٩-٩٦
	٩٩	٨ عمر بن عبدالعزيز ٩٩ - ١٠١
يزيد بن الحصين بن نمير (ثانية)	١٠١	٩ يزيد الثاني بن عبد الملك ١٠١-١٠٥
	١٠٣	
	١٠٥	١٠ هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥
عبد الملك بن القعقاع	١٠٧	
العباس بن الوليد (فارس بن مروان) (تولاها لهشام)	١٢٦	١١ يزيد الثالث بن الوليد ابن عبد الملك
مروان بن عبد الله بن عبد الملك	١٢٦	١٢ ابراهيم بن عبد الملك
أبو محمد السفيفاني	١٢٧	١٣ مروان الثاني بن محمد ١٢٧-١٣٢
معاوية بن يزيد بن الحصين بن نمير	١٢٧	
عبد الله بن شجرة	١٢٧	
زامل بن عمر السكسكي	١٢٨	
الحميري (كان على دمشق وحمص معا)		
سعيد بن هشام قتله مروان ١٢٩	١٢٩	

حظيت بعض سكان مدينة حمص باهتمام بالغ من قبل الباحثين العرب والأجانب فظهرت في عدد من المصنفات المشهورة والمقالات والمحاضرات لعدد من الباحثين والمتخصصين في هذا الميدان ، يأتي في مقدمة الباحثين العرب عبدالرحمن فهمي الذي عرض لنقود حمص في مصنفه الشهير "موسوعة النقود العربية وعلم النحيات"^(٥) كذلك المرحوم الدكتور محمد أبو الفرج العش الذي عرج على هذا الموضوع في بحثه الهام الذي أصدره بعنوان "النقود العربية والاسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن" . أما الباحثون الأجانب فهم كثر يأتي في مقدمتهم الانكليزي جون وولكر "John wolker" في مصنفه الشهير^(٦) الذي يعتبر بمثابة مرجع أساسي لكل من أراد البحث في النقود العربية الاسلامية المبكرة وخاصة نقود العهد الاموي ، حيث ضمن دراسته بعض النماذج التي صدرت في مدينة حمص خلال العهد المذكور من نقود المرحلة التي سبقت اصلاح الخليفة عبدالملك بن مروان والتي اشتهرت بالنقود العربية البيزنطية اضافة الى ستة نماذج تنتمي الى مرحلة اصلاح وما بعدها . ثم يأتي دور الباحث السويسري الدكتور ايليش الذي أعد دراسته عن نقود حمص في العهد الاموي والعهد العباسي^(٧) الا أنه لم يورد حديد بل كرر النماذج التي أوردها وولكر عن نقود العهد الاموي وأضاف نموذجاً مؤرخاً من عام ١١٧هـ وسوف نشير الى النماذج التي درسها هذا الباحث أثناء عرضنا لدراستنا الشاملة لنقود حمص خلال العهد المذكور أما الباحث الأمريكي بيتس فقد اكتفى بدراسته التي قدمها الى مؤتمر بلاد الشام الذي انعقد في عمان فـسـي ٤ تشرين أول عام ١٩٨٧^(٨) بالاشارة الى ما نشره السويسري ايليش .

(٥) - عرض في الجزء الخاص بفجر السكة العربية بعض النماذج الحمصية العادية المحفوظة في المجموعة المصرية .

(٦) - (سأشير الى هذا المرجع بـ (ولكر) للتسهيل)

Catalogue of Muhammadan Coins

Arad-Byzantine and post reform umayyad london 1965

(٧) - كنا أشرنا الى دراسته سابقاً بالحاشية رقم (٣)

(٨) - SYRIAN Copper Coinage in le Umayyad period

نشير هنا الى أن هؤلاء الباحثين وغيرهم من المهتمين بعلم النميات الاسلامية في العالم اذا كانوا ألبوا بما ألبنا اليه أنفاسا فلاشك أن هناك من النماذج الى لم يشر اليها بعد وما زالت كامنة في بعض المتاحف ولدى أصحاب المجموعات وهانحن في متحف دمشق ندلي بدلونا لنعرف بسكات حديدة لم يعرض لها أي من الباحثين الذين أتينا على ذكرهم ، ومرد ذلك الى أن حمص هي بلدنا وماتعكسه تربة هذا البلد كان يصل اليها معظمه لاسيما خلال الحقبة الماضية التي لم يكن اهتمام الجماعين فيها الا بالدنانير الذهبية والدرهم الفضية وهاهي نماذج حديدة من الفلوس النحاسية تذر قرنهما الاول مرة من خلال هذا البحث ونحن على مثل اليقين بأن زملاء سوف يأتون بعدنا ليضيفوا نماذج لم يعرفها أحد منا لان كنوز هذه الارض ما زال جزء منها كامنا فسي حناياها ينتظر معاول المنقبين أو راحات الصدفة تسمح عنها غبار الماضي لتأخذ مكانها في دراسة أو شريحة مصورة نرى من خلالها ما غفل من أخبار التاريخ أو لتجثم في واحدة متحفية لتسعد برويتها الابصار وتنعم بالتعرف اليها البصائر .

وفيما يلي استعراض للمادة في دراسة عامة سوف نشير من خلالها الى جميع ما وصل الى علمنا من نماذج لسكات هذه المدينة والى توزع هذه النماذج في العالم .

وذكر فطانها المختلفة ، والامل أن ينهج هذا النهج كل من يتابع البحث في هذا الموضوع ليسهل تقييم كل نموذج من النماذج المعروفة حتى يومنا هذا .

ولدى استعراضنا للنقود التي سكت في مدينة حمص ابان العهد الاموي وجدنا أنفسنا أمام مرحلتين اثنتين :

المرحلة الاولى : وهي التي سكت بها النقود على النمط العربي البيزنطي وهي تبدأ من نقطة زمنية غير محددة ولكن أغلب الظن أنها تتوافق مع بدء مرحلة سك النقود في مراكز الأجناس الأخرى التي تقسمت اليها بلاد الشام . ذلك لان حمص لم تكن أقل شأنًا عن غالبية هذه الأجناس اذا لم تكن من أهمها ذلك لانها كانت من الناحية العسكرية


الشعر الشمالي للدولة ومن الناحية الاقتصادية مركزا هاما تؤول اليه أهم طرق التجارة الدولية آنذاك التي تربط الشرق بالبحر الابيض المتوسط ، البرية منها القادمة من تدمر والمائية القادمة من الخليج العربي على قوافل العرب التنوخيين الذين كان تواجههم يغطي شريط البادية مابين الخليج العربي والشمال حتى اللاذقية . اضافة الى كونها رأس عقدة هامة على طرق الحجيج المنطلقة الى الديار المقدسة . عبر بادية الشام فمنطقة الجوف فالحجاز ، ومن الناحية الاجتماعية ، تتميز المدينة بطابعها العربي منذ فترة ما قبل الاسلام ففي احدى ضواحيها المعروفة بالاندرين كان لهاشم جد الرسول قصر منيف . وكانت لجودة مناخها ولخصب تربتها وتنوع فاكهتها وخضارها يومها الحضر والبدو . ونظرا لهذه المميزات كانت البلد المفضل لدى الامبراطور البيزنطي هرقل ، وبعد الفتح العربي البيزنطي أغرت عددا من الصحابة بالاقامة فيها . اذ يكفي أن نعلم أنه نزل بها ٤٠٠ من أصحاب النبي من بني سليم فقط اضافة الى اقامة سيف الله وصاحب رسول الله خالد بن الوليد الذي اشتهرت المدينة به فأصبحت مدينة ابن الوليد .

وهكذا نجد أن مدينة حمص كانت من الاهمية بمكان وبالتالي لابد وأن السكة قد بدأت بها منذ بدء التفكير باصدار السكة لدى المسلمين الاوائل (٥) ولو نظرنا في نقود هذه المرحلة لوجدناها تتألف من ثلاث فئات :

الفئة الاولى : ذات المآثورات اليونانية والعربية والتي يرجع تاريخها الى عام ٣٠ هـ ، ٦٥٠ م وتتمثل نقودها بالمواصفات التالية : في الوجه صورة هرقل محاطا بوسط من الزخارف تختلط فيه التعابير البيزنطية المسيحية بالتعابير الاسلامية التي نتميز منها كلمة KAIION اليونانية التي تعني "حيد" أو "صالح" اضافة الى البسمة المختصرة بالعربية "بسم الله" وفي الخلف يبدو حرف M بالخط الكبير الذي يعني بالنسبة للنقود البيزنطية أنه يساوي ٤٠ نمية^(٩) والى اليسار من الحرف M H والى اليمين H 1 التي تعني بجملتها اسم مدينة حمص باليونانية وتحت حرف M يتوضع خط تليه كلمة طيب :

(٩) - النمية هي وحدة القيمة الصغرى بالنسبة للنقود البيزنطية شأن القرش بالنسبة للعملة السورية .

١ - النموذج الاول :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة	دمشق
		٢٥ مم	١	

وصف النموذج الاول :

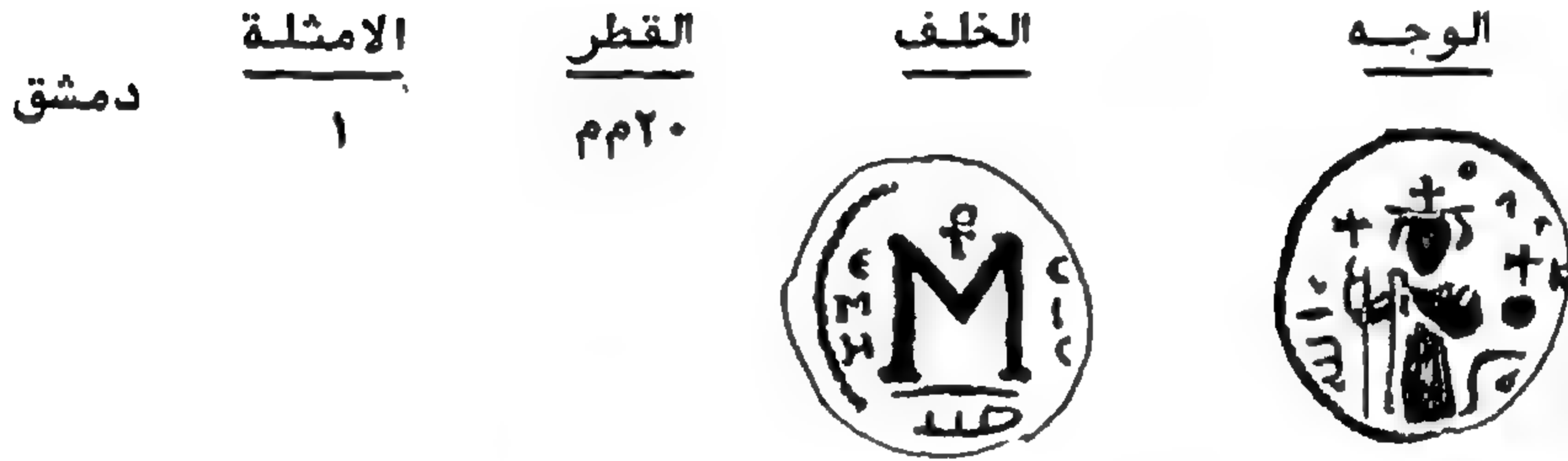
=====

الوجه : صورة لهراتل واقفا ممسكا بيده اليمنى عصا المطرانية يعلوها الصليب وبيده اليسرى يمسك بكرة يعلوها الصليب فوق الرأس صليب والى يمين الرأس هلال الى الجهة اليمنى من النقود نثر من الاحرف غير منتظم لكلمة KANON اليونانية التي تعني طيب والى اليسار يبدو الجزء الاول من البسمة " بسم الله " .

الخلف : الحرف M	القطر	عدد الامثلة
مع الرمز المنقوص الواقع في أعلا الحرف والذي يشبه زمر هرقل P . الى يمين الرمز نجمة سداسية والى يساره الهلال . الى اليمين دائرة تحتوي رمزا يليها الاحرف C 1 C والى اليسار M والتي تعني مع ما أصابها من تحريف اسم مدينة حمص . تحت حرف M خط معترض يليه كلمة طيب .	٢٣ مم	١٤ في مجموعة دمشق
		٢ لدى وولكر
		١ ايليش
		١ سبنك ولده
		مزا ١٨ زيورخ

توجد اختلافات طفيفة وبعض التحوير في بعض مظاهر النماذج الموجودة لدينا مثل حرف N في نموذجنا الذي هو تحريف عن الحرف M في اسم حمص في اليونانية . وكذلك اختلاف أمكنة النجمة والهلال وحلول الحلققات أحيانا بدلا من أحدهما .

٢ - النموذج الثاني :



هذا النموذج يشبه سابقه ولكن يمكن ملاحظة بعض الاختلافات الطفيفة في الوسط المحيط بالمعالم الرئيسية في كل من الوجه والخلف

٣ - النموذج الثالث :



هذا النموذج أشبه بنماذج دمشق المماثلة من حيث قامة شخص الامبراطور وعمته وخلو الصليب من فوق رأسه والخلف كذلك يحمل شارات مختلفة والكلمة تحت المعترضة فيه هي أقرب لـ جائز منها لـ طيب كما أنه يوجد ما يشبه الهلال تحت حرف M .

الفئة الثانية : تتميز نقود هذه الفئة في الوجه بصورة نصفية تمثل الامبراطور البيزنطي (كونستانس الثاني) متوجها الى الامام . على رأسه تاج مرصع يعلوه صليب . يرتدي بزة امبراطورية ودرع . في يدا اليمنى يحمل كرة يعلوها صليب ، في الحقلين اليسر والايمن الى جانبي صورة الامبراطور كتابات يونانية مبعثرة وعربية أما خلف النقد فيشغل مركزه حرف m الموصول فوقه شارات والى يمينه ويساره أحرف يونانية وتحت كتابه عربية .

النموذج ١ :

الامثلة

القطر

٢٠مم

الخلف



الوجه



وصف النموذج الاول :

=====

١ - صورة الامبراطور كونستانس بيزته العسكرية وفوق رأسه صليب .

٢ - في الجانب الايمن " ب حمص "

٣ - في الجانب الايسر " KAAON " مبعثرة

٤ - كذلك في الحانب الايسر كرة فوقها صليب

الامثلة

القطر

٢٠مم

٥٣ في مجموعة

دمشق

مجموعة في وولكر

مجموعة في ايليش

١ دكتور ماهر الحسامي

2-East Wood

1-Ebeian

1-G.C.Haines

T.O.Mabbtt مجموعة

2-Davies sherborn

2-H.P.Borrell

1-A.N.Clemenger

١ - حرف m الموصول بعلوها نجمة

ثمانية والى حانبها شارة أشبه

بشكل الشدة

٢ - في الحانب الايسر M 1 والحانب

الايمن C H C ومجموعها يعني

اسم مدينة حمص باليونانية

٣ - تحت حرف m خط معترض وتحتته

كلمة طيب .

النموذج ٢ :



مثل سابقه تقريبا
 ماخلا: ١- هلال ونجمة
 الى يسار الرأس
 ٢- نجمة ثمانية في
 نهاية كلمة حمص

مثل سابقه
 ماخلا: * * بدل * * في النموذج
 السابق

الفئة الثالثة : هذه الفئة تمثل نهاية مرحلة حفلت باختلافات كثيرة في مواضع السكات وما اعتراها من تفاصيل تعبر عن عدم الاستقرار الذي نجم عن الاضطرابات السياسية الداخلية المتمثلة بالصراع مع الخوارج وآل الزبير وآل البيت . والخارجية المتمثلة بالحروب مع الامبراطورية البيزنطية . وقد اقترنت هذه الفئة بنماذجها المختلفة بعهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان كما حملت اسمه ولقبه ويرجح باحثوا النميات بأنها بدأت في حوالي عام ٧٢ هجرية واستمرت حتى عام ٧٧ هـ ولحسن الحظ يحتوي المتحف العربي الاسلامي في دمشق على مجموعة هامة من نماذج هذه الفئة بعضها خاص بمدينة حمص .

واليكم فيما يلي ثلاث نماذج من هذه الفئة :



وصف النموذج ١ :

=====

الوجه : ١- في المركز:

صورة عبد الملك بن مروان

ينظر الى الامام وشعره مرسل

على كتفيه .

- يمسك بيده اليمنى مقبض

سيفه

- وبيده اليسرى الغمد وهو

في وضع من يهم باستلال

سيفه .

٢ - في النطاق : "لعبد الله عبد

الملك أمير المؤمنين"

٣ - طوق يحف بالصورة والكتابة

الخلف:

١- في المركز: قائم يرتفع فوق

أربع درجات في أعلاه دائرة بدلا

من الصليب .

٢- الى يمين القائم بحمص

٣- في النطاق : "لا اله الا الله

وحده محمد رسول الله"

٤- طوق محب يحف بالمركز

والنطاق .

النموذج ٢ :

الوجه



الوصف : الوجه مشابه للسابق

الخلف



الخلف كذلك مشابه

للسابق ما خلا نعمة

ثمانية تقع الى

يسار القائم

القطر

٢٢م

الامثلة

١ نشره وولكر

١ مجموعة في
متحف دمشق



١ سبنك مزاد

زيورخ ١٨

١٩٨٦

١ فريدي ابراهيم

النموذج ٣ :

الامثلة	القطر	الخلف	الوجه
١ هذا النموذج يعود الى جمعية النميات الامريكية وقد نشره ووكر تحت رقم 8 ANS من مصنفه	١٧م		

١ شتيكل صفحة ٦١ من كتاب العمى الشرقية .

الوصف :

الوجه مشابه للسابق
الخلف كذلك مشابه
للسابق ما خلا ذكر
كلمة "ضرب" الهى
يسار القائم .

المرحلة الثانية : تخص هذه المرحلة النقود المعربة بشكل تام التي ضربت في مدينة حمص لدينا قرابة واحد وعشرين نموذجا من هذه النقود يحتوي بعضها أسماء أعلام أشهرهم مروان بن بشير الذي ظهر اسمه على عدة نماذج أشهرها ذلك النموذج الذي يحمل صورة اليربوع (١٠) ناهيك عن نماذج أخرى مزدانة بزخارف نباتية وحيوانية ، ونماذج مقلدة لنماذج شهيرة اشتهرت بها مدن أخرى كدمشق وأخيرا نماذج هامة مؤرخة ، من خلال استعراضنا لنقود هذه المرحلة وجدنا أنه يمكن تصنيفها الى عدة مجموعات بلغت الخمسة لكل منها خصائصها من حيث التصميم والزخرف والروح وفيما يلي سرد لهذه المجموعات مع دراسة تبين وجهة نظرنا بالنسبة لكل مجموعة منها ودراسة لكل نموذج

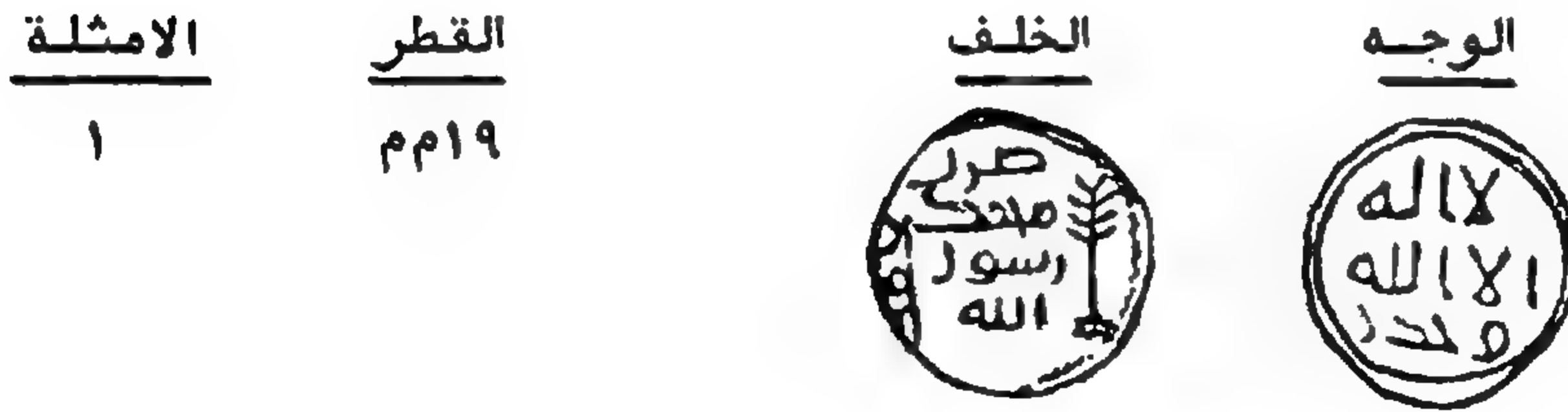


(١٠) - اليربوع حيوان برى يشبه الحرز غير أن قامته أطول وقائمتاه الاماميتان بمعدل ١٢ من قائمتيه الخلفيتين . يأكل العشب والحشرات ، يعتبره عرب الجزيرة العربية من عناصر الصيد المغرية كالارنسب ويتلذذون بأكله . اشتهرت قبيلة عربية ببني يربوع كما سمي أشخاص بهذا الاسم كابن يربوع الفزاري الحمصي الذي تولى ديوان مصر في عهد واليها عبد الله بن عبد الملك بن مروان .

في كل مجموعة عندما يقتضي الامر ذلك ، راحين أن نكون قد اهتمنا —
فيما قدمناه الصواب وثوابنا باننا قدمنا لهذه المدينة التاريخية العظيمة
هذه الدراسة الشاملة التي لم يجتمع في أي دراسة أخرى ماتجمع بها من
نماذج النقود التي أصدرتها هذه المدينة خلال عهد أمية .

المجموعة الاولى :

النموذج ١ :



يشغل الخلف:

مأثورة الوجه :

١- مأثورة قوامها : "محمد- رسول - الله "

"لا اله - الا الله - وحده

٢- في القطاع الاعلى كلمة "ضرب"

يحيط بها طوق

٣- في القطاع الايسر " بحمص "



٤- في القطاع الايمن " سعة نخل ذات

ثمانى أوراق تتوضع فوق درجتين "

صادفني نموذج آخر اعتبره فريداً من حيث زخرفة يعود الى الانسة
أمل حسيني ، غصن النخيل فيه ذو ستة فروع ويرتكز على قاعدة ذات
ثلاث درحات .

أعطيت هذين النموذجين الاولى في عرض هذه المادة لاعتقادي
بأن غصن النخيل في كليهما قد حل مباشرة محل القائم الذي يرتفع على
درحات ويحمل في أعلاه كرة أو دائرة في نقود عبد الملك بن مروان
المصورة (انظر الفئة الثالثة - من المرحلة الاولى) والتي تمثلت كذلك
على النقود الاولى بعد التعريب التي ظهرت على بعض السكات الفلسطينية
لاسيما تلك التي تعود الى الرملة وطبرية وعلى بعض سكات المدن الاخرى
وكذلك لورود اسم حمص شاقوليا كما كانت ترد على نقود عبد الملك
المصورة .



النموذج ٢ :

<u>الوجه</u>	<u>الخلف</u>	<u>القطر</u>	<u>الامثلة</u>
		١٩م م ١	١ متحف دمشق ٢ وولكر ٧٩٩-٨٠٠

مثل سابقه ما خلا :

- آ - توزيع المآثورات في كل من الوجه والخلف
 - ب - هذا النموذج ذو نقط في مستهل مآثورة الوجه
 - ج - غياب غصن النخيل
 - د - ذكر المدينة في أسفل مآثورة الخلف بدلاً من الجانب فـي النموذج السابق .
- قد يكون سك هذا النموذج أتى مباشرة بعد النموذج الاول نظرا لموافقة في معالمه الرئيسية ومخالفته في التفاصيل فقط .



النموذج ٢ - آ :

<u>الوجه</u>	<u>الخلف</u>	<u>القطر</u>	<u>الامثلة</u>
		١٨م م ١	١ دمشق ١ د. ماهر حسامي

مثل سابقه

هذا النموذج مشابه للنموذج السابق ولكنه يمثل مرحلة جديدة حيث اختصر المشرف على السكة كلمة "ضرب" من خلف النقود ربما بقصد الموازنة الفنية التقريبية مابين نصوص الوجه ونصوص الخلف وربما شعر المشرف أن وضع كلمة "ضرب" أصبحت من نافلة مقتضيات العمل إذ أن ذكر "بحمص" أصبحت كافية .



النموذج ٢ - ب :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٧م	١ دمشق

مثل سابقه

ان هذا النموذج يمثل ظاهرة يوقف عندها، بالرغم من أنه قريب جدا من النماذج السابقة من حيث مآثورتها الوجه والخلف فإنه إنما ينازع النموذج الأول الأولوية في الاصدار ذلك أنه ضمن اسم المدينة في الوجه بعكس النماذج السابقة شأنه في ذلك شأن الدراهم الاموية المبكرة التي بدأت تظهر منذ عام ٧٩ حيث كانت تشير الى مدينة السكة في مآثورة نطاق الوجه . أو أنه يكون في محله من هذا التصنيف وفي هذه الحال تكون النماذج التي أتينا على سردها أسبق بتاريخ اصدارها من هذا النموذج .


النموذج ٢ - ج :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة	مكان حفظها
		١٦م	١	دمشق

نموذج من سقط السكة ؟

الحقيقة ان وضع هذا النموذج يدعوا الى الحيرة اذ ان المآثورة الواحدة التي هي مآثورة الشهادة مع مدينة السكة وردت في الوجه والخلف معاً فهل هذا خطأ ارتكبه السكاك ؟ لو كان الامر كذلك لتكرر القالب نفسه وظهر فوق أحد الوجهين أثر لسكة ثالثة أو تأثر أحد الوجهين بفعل الطرق . ولكن الامر على ما اعتقد أنه لا يعدوا استعراض مثلين من النقش في قطعة واحدة لاختيار أحدهما للسكة المقررة .



النموذج ٢ - د :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٥م	١ دمشق

مثل سابقه ماخلا :

- آ - ان اسم المدينة ورد في أعلا مآثورتي الوجه والخلف
ب - أحد الوجهين محاط بطوق



النموذج ٢ - هـ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٧م	عدة دمشق

هذا النموذج مغفل من اسم المدينة ، ولكنه يحمل نفس مآثورات النموذج (٢) . فهل كان يصدر في حمص ؟ . في الحقيقة أن هذا النموذج يرد عادة مع نقود دمشق ومع نقود حمص لذا فهو إما أن يكون مكان إصداره في حمص لكلا المدينتين أو في دمشق للغاية نفسها أو أنه سك لدائرة تعامل تفوق حدود مدينة واحدة بعكس المألوف في النقود التي تحمل أسماء المدن .

السكة في مدينة حمص ابان العهد الاموي :

• النموذج ٣ :

<u>الوجه</u>	<u>الخلف</u>	<u>القطر</u>	<u>الامثلة</u>
		١٥م	١ دمشق

يحتوي الوجه مأثورة التوحيد في ثلاثة أسطر وفق ماهو مألوف في بعض أمثلة النموذج (٢) في المركز: أسدا يتجه يسارا (١١) في القطاع العلوي: " ضر " من كلمة " ضرب " في القطاع الايسر: " ب حمص "

ملاحظة: صنف هذا النموذج في المجموعة الاولى رغم أنه مصور للأسباب

التالية: آ - مأثورة الوجه تشبه مأثورة النماذج السابقة

ب - ان اسم المدينة كتب شاقوليا شأن النموذج الاول ذي غصن النخيل

ح - لانه نموذج وحيد وهو لا يشبه أسد طبرية الرابع الذي صور على خلف الفلس المؤرخ ب ٩٦ هجرية (١٢)

(١١) - الاسد يرمز الى البعث والقوة ((من محاضرة الدكتور علي

أبو عساف التي ألقاها في المركز الثقافي الالمانى (جوتة)))

(١٢) - أنظر بحثي (نقش السكة على النقود الفلسطينية في صدر

الاسلام والعهد الاموي) في المجلد (١) من ((دراسات في تاريخ

وآثار فلسطين)) •

النموذج ٤ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		٢٠م	١ دمشق

الوجه :	الخلف :
المركز: لا اله (١) الا (٢)	المركز: الله (١) محمد (٢)
(١) لله وحد (هـ)	(١) وحد الله
أسد (٢) له	النطاق: محمد رسول الله (أرسله بالهدى ودين الحق)
النطاق: (بسم الله ضرب)	
هذا الفلّس بجمص	

أرى أن هذا النموذج يتزاحم مع النماذج التي سبقت بالنسبة لاولية الاصدار ، ذلك لما فيه من بدائية متمثلة في أسلوب الكتابة وفي توزيع النصوص وللخلل الواضح في كتابة المآثورات لاسيما مآثور الوجه (أنظر الضعف في أسلوب الكتابة ولاحظ قصور النصوص والخلل في التوزيع المتوازن للمآثورات لاسيما في مآثورة مركز الوجه) . كذلك هناك ناحية هامة وهي محاولة المشرف على دار المسكوكات استخدام مآثورات الدينار الذي كان يصدر في دمشق . أعتقد أن هذا النموذج هو الوحيد بين اصدارات حمص الذي يتضمن مآثورة الصمدية التي تـرد عادة خلف الدنانير الذهبية وخلف الدراهم الفضية . ترى هل يمكن أن يكون المشرف قد اقتبسه من الدينار؟ وبالتالي لماذا هذا الضعف والخطاء ؟ أم أن هذه المآثورات استعملت على النقود النحاسية بادىء ذي بدء حتى استقامت بمستوى كتابتها وتوزيع نصوصها وباكتمال مآثوراتها ومن ثم استعملت على الدنانير الذهبية ؟

السكة في مدينة حمص ابان العهد الاموي

النموذج ٥ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		٢٢م	٣ متحف دمشق ١ وولكر رقم ٤٥

يمكن قراءة مأثورة

مأثورة الخلف :

الوجه كما يلي :

محمد / رسول / الله / حمص /

(١٣) / بسم / الله /

الله / وحده /

لهذا النموذج صلة بالنموذج رقم ١ وتوابعه ، لاسيما مايتعلق بشكل الخلف ، لذا يمكن أن يعتبر هذا النموذج مرحلة متطورة لذلك النموذج حاول المشرف من خلالها ايجاد التوازن بين كل من مظهري الوجه والخلف وذلك باضافة "بسم الله" الى مأثورة الوجه . وتأكيذا لهذا المعنى وضع نجمة في الوجه ليقابل بها نجمة وضعت في الخلف أساسا من أجل ملء الفراغ في السطر الثالث .

الشارة ((م)) الموجودة في أعلا الوجه تمثل محاولة لوضع كلمة

ما قد تكون " حمص "

النموذج ٦ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٩م	١ دمشق

(١٣) - وردت شارة مماثلة على النقود المؤرخة التي صدرت في حمص خلال مأثورة التاريخ الهامشية .

وصف النموذج ٦:

الوجه:

المركز: بسم الله

لا اله الا

الله وحد (هـ)

الخلف:

المركز: محمد

رسول

الله

طوق

النطاق: الملك بن مر (وان) النطاق: الفلس بخص

طوق

ملاحظات: ١ - ورد اسم عبد الملك في مكان البسمة وهذا يعني أن هذا

الاصدار كان قبل أن يستقر الرسم بشكل نهائي .

٢ - وردت الالف من لفظ الجلالة الوارد في السطر الثالث من

الوجه في نهاية السطر الثاني وهذا غير مألوف .

٣ - وردت الواو في نهاية السطر الثالث من الوجه بشكل مقلوب

وهذا ما لم يرد في نموذج آخر .

المجموعة الثانية: " المزينة بعناصر حيوانية "

النموذج ١:

الوجه



الخلف



القطر

١٧م

الامثلة

١٥ في مجموعة دمشق

٤ ووكر وردت

بالارقام من

٧٩٨ - ٧٩٥

الوجه:

المركز: رسم فيل متجه نحو

اليمين

النطاق: " لا اله الا الله وحده "

الخلف:

محمد









رسول الله

بخص

لم يرد الفيل سوى على نقود حمص ويعتبر هذا النموذج من أشهر نماذج النقود المضروبة في هذه المدينة ذلك لتوافر أعداد كبيرة منها حتى لاتكاد تخلو مجموعة من أمثلة لهذا النموذج، تعتبر صورة الفيل الممثلة في وجه هذا النموذج من أكمل الصور التي وردت على مختلف النماذج الأخرى التي سوف نعرض بعض نماذجها فيما يلي. أما نقش الكتابة في الخلف فهو مضطرب في جميع النماذج التي عثرنا عليها حتى أننا لم نستطع العثور على نموذج واحد منها كتبت مآثورة من غير ما اضطراب أو نقص .

ربما كان السبب في ذلك بأن نقاشاً أعجمياً ضعيفاً باللغة العربية كان يتولى عملية الإصدار في دار حمص وان الاختلاف في رسم صورة الفيل يمثل المحاولات التي بذلت حتى تحسنت الصورة لتصبح على ما هي عليه في النموذج المعروف أعلاه . أما كيف اعتمدت صورة الفيل في هذه المدينة بشكل خاص فهو أمر مازال لغزاً ، وفي رأيي أنه ربما كان بمثابة ذكرى للانتصار الكبير والحاسم الذي أحرزه المسلمون في معركة القادسية التي حشد العدو الفارسي فيها كل قواه في مقدمتهم الفيلة التي تم التغلب عليها ببرقعة الحمال باللون الأحمر فأخافت الفيلة فرحعت واضطربت الخيل من ورائها . أو لان الفيل كان من المواد التجارية الهامة القادمة من الشرق والذي كان بمثابة رمز للنشاط التجاري الذي كان يزاوله تجار المدينة . على أية حال فاني أوافق الباحثة وولكر في وضع هذا النموذج في مقدمة نماذج مدينة حمص في بحثه الذي عرضه في مصنفه الذي أتينا على ذكره اذا كان يريد من ذلك أسبقية هذا النموذج بين تلك النماذج التي اشتهرت بإصدارها المدينة . وانني شخصياً أميل الى أنه مبكراً جداً ويسبق في ظهوره أي من نماذج المجموعة الأولى وربما سبق محاولات التعريب التي اشتهرت في أواخر السبعينات التي ظهرت خلالها صورة الانسان بشكل مقبول جداً والمتمثلة بصورة عبد الملك بن مروان وكانت النصوص فيها مدروسة ومتوازنة حتى ما انتسب منها الى مدينة حمص يفضل كثيراً ما أتى على نموذج الفيل هذا من حيث الصورة والمآثورة .

النموذج :

<u>الامثلة</u>	<u>القطر</u>	<u>الخلف</u>	<u>الوجه</u>	
من مجموعة دمشق ١ د. ماهر الحسامي	١٧ مم			١ - أ
من مجموعة دمشق ١ د. ماهر الحسامي	١٦ مم			١ - ب
من مجموعتنا في المتحف الوطني بدمشق	١٦ مم			١ - ج
من مجموعتنا في المتحف الوطني بدمشق	٢٠ مم			١ - د

النموذج :

الامثلة	القطر	الخلف	الوجه	
من مجموعتنا في المتحف الوطني بدمشق	م ١٩م			١ - هـ

النموذج :

الامثلة	القطر	الخلف	الوجه	
٢ المتحف الوطني بدمشق	م ١٩م			٢

هذا النموذج هو طبق الاصل من النموذج رقم ١ بتصميمه وتوزيع مآثوراته وأطواقه لكنه مختلف بشكل الحيوان فالحذع والقوائم في حيوان هذا النموذج تشبه الفيل في النماذج السابقة ولكن رأس الحيوان أشبه برأس حصان البحر (السيداشطة) . فهل أراد النقاش أن يتفلسك بتمثيل رأس الحيوان في هذين النموذجين ؟ أم أن طرق التجارة تعاملت كذلك بهذا الحيوان ؟ .

إذا كان لنا أن نستنتج شيئاً مما سبق من المجموعة الثانية فهو أن هذه المرحلة قد سبقت المرحلة التي كان على دار السكة فيها مشرف وسكاك ونقاش إذ أن هذا الاختلاف في الرسم والخط المتكرر في نصوص المآثورات لا يمكن أن يحدث لو كان المسؤول عن دار السكة غير عامل واحد وأعجمي .

النموذج :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٦م	١

٣ -

الوجه :

الخلف :

في المركز: مقدمة حصان
في النطاق: مأثورة التوحيد
في المركز: كلمات مضطربة بتأثير ضربة
ثانية ولكن "حمص" تبدو واضحة

لعل مسؤول السكة وصل الى علمه أن ثمة حديث نبوي يندد بمن يحاول برسمه أن يضاهي خلق الله لذلك صور مقدمة الحصان فقط بعد أن صور الحصان تاما على نماذج مغفلة أخرى ولهذا الموضوع شبيه في سكات دمشق غير أن الرسم هناك يمثل مقدمة الحصان متجهة نحو اليمين.

النموذج :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		٢٢ ١٤-١٧م	مجموعة دمشق مجموعة المتحف البريطاني عرضها ولكربا لارقام ٨٠٤-٨٠٦ ص ٢٤٥

٤ - أ

الوجه :

الخلف :

المركز: رسم اليربوع متحه
يسارا
المركز: ما أمر به
مروان بن
طوق : بسم الله ضرب هذا
الفلس ب حمص
طوق
نطاق: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق
طوق

النموذج :

الامثلة القطر
٢ مجموعة دمشق ١٨م

الخلف



الوجه



٤ - ب

الخلف

المركز: بامر
طوق مروان بن
بشير

نطاق: (محمد رسول) لله أرسله (بالهدى)
طوق:

الوجه

المركز: رسم اليربوع متحه
يمينا

طوق
نطاق: بسم الله (ضرب الفلاس)
بحمص

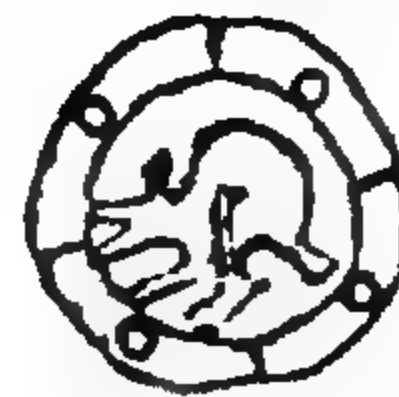
النموذج :

الامثلة القطر
١ مجموعة دمشق ١٤م

الخلف



الوجه



٤ - ج

الخلف

مثل النموذج
٤ - آ

الوجه

المركز: رسم اليربوع متجه
يسارا
نطاق: ذو أربع حلقات
وأربع فواصل

النموذج :

<u>الوجه</u>	<u>الخلف</u>	<u>القطر</u>	<u>الامتثلية</u>
٤ - د	مثل خلف ٤-آ	١٦م	١



في النطاق : مثل نطاق ٤ - آ

هناك حيوانات يمكن أن نحد لها صلة بهذا الرسم أحدهما هو السلحفاة والثاني هو الحزون ولكن مع ذلك فلا ينطبق هذا الرسم بشكل عام على أي منها .

النموذج :

<u>الوجه</u>	<u>الخلف</u>	<u>القطر</u>	<u>الامتثلية</u>
٤ - هـ	مثل خلف ٤-آ	١٦م	١



المركز :



النطاق : مثل ٤-آ

يتسم هذا النموذج بالبدائية والسرعة بالرسم وبقوة التعبير وهو على ما يبدو يمثل أرنباً .

النموذج :

<u>الوجه</u>	<u>الخلف</u>	<u>القطر</u>	<u>الامتثلية</u>
٥	محمد رسول الله	١٥	٢ مجموعة دمشق ٢ ووكرص ٢٤٥ ٨٠٣-٨٠٢
طوق:	طوق:		
نطاق: ضرب هذا الفلص بحمص	نطاق: أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله		

النموذج :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٧م	١ دمشق

٦

الوجه :

الخلف :

المركز: مأثورة التوحيد

المركز: بأمر

لا اله / الا الله / وحده /

مروان بن

طوق :

بشير

نطاق : (بسم الله ضرب هذا طوق :

الفلس بحمص نطاق : ذو أربع حلقات توحيد منها اثنتان

طوق :



قطر ١٧ - دسمة - نابي نرزج ٦

ان هذه النماذج الستة التي وردت وتحمل اسم مروان بن بشير
تحلنا نتساءل كما تساءل غيرنا ، من هو مروان بن بشير وماذا
كان دوره بالنسبة لمدينة حمص ابان العهد الاموي وفي أية فترة
زمنية كان تواجدده اذ أن اسمه لم يرد في قائمة أمراءها . ومتى
كانت الفترة التاريخية التي ظهرت خلالها هذه النماذج وماذا تعني
هذه الحيوانات ، اليربوع والارنب والسلحفاة التي وردت عليهما دون
غيرها ؟ ولماذا أتت هذه الرسوم بهذا المستوى من البدائية والتحويل
كل هذه التساؤلات تفرض نفسها . وقد أتت الاجابة على بعضها من قبل
بعض الباحثين الاحانب مثل الانكليزي وولكر الذي يرى أن فترة مروان
بن بشير هي في أواخر المئة الاولى من التاريخ الهجري . ويـرى

السويسري ايليش أن فترة مروان بن بشير في أواخر العهد الأموي وأوائل العهد العباسي ، ويجمع الاثنان على أن مروان بن بشير هذا لم يرد له ذكر لدى المؤرخين وبالتالي مازال لغزا . حاولت أن أتأكد من هذا الأمر بحكم يسر اطلاعنا على المراجع العربية التاريخية ، فوجدتني مؤيد لرأيهما في أن مروان بن بشير غير معروف ، ولكن حولت بحثي للتعرف على بشير الذي يمكن أن يكون والدا لمروان هذا ، أو على أخ ذي منزلة وشأن هام إذ أنها القاعدة المعتمدة الى حد ما : أن الكبير يأتي من كبير لاسيما في تلك الايام فوجدت أن اسم بشير قد ورد في عدة مواضع وفي كل موضع وردمقترنا بدور أو مهمة لا يصلح معها أن يكون أبا لمروان الا بشيراً واحداً وهو بشير الخزرجي الانصاري ، ان صاحب هذا الاسم اضافة الى أنه من ذوي الشأن في مجتمع المدينة فهو زوج أخت عبدالله بن رواحة وهو والد النعمان بن بشير الذي كان والياً على حمص في عهد يزيد بن معاوية . والنعمان هذا تولى حكم المدينة وهو من أوفده الخليفة يزيد الى قومه في المدينة . أثناء ولايته على حمص ، ليدعوهم الى طاعة يزيد ومبايعته بعد أن تمردوا عليه وفشل النعمان بن بشير في مهمته تلك وكان ماكان من أمر يزيد الذي أشار الى جيشه باقتحام المدينة وأباحثها ثلاثة أيام وأتبع ذلك بحصار مكة ومن ثم ضربها بالمنجنيات فكانت هاتان الفتنتان اضافة الى فتنة مقتل الحسين كافية بأن جعلت القلوب - حتى أقرب القلوب - تحنق على يزيد وتلوي عنه وعن خلفه من بعده (١٤) . وكان الخيار الثاني هو عبدالله بن الزبير خصم البيت الأموي العنيد الذي دانت له مصر والحجاز والعراق ومن لم يكن تحت سلطة من بلاد الشام كان مهيباً له . بعد أن عاجلت المنية يزيداً وسد الأمر الى ابنه معاوية الثاني الذي كان حدثاً وضعيفاً

(١٤) - يتحلى ذلك في موقف أهل الأردن عندما وافقوا على مبايعة حسان بن مالك الكلبي أمير فلسطين على الدعوة الى آل أمية واشترطوا أن يجنبهم الغلامين عبدالله وخالد ابني يزيد بن معاوية قائلين اننا نكره أن يأتينا الناس بشيخ (أي عبدالله بن الزبير) ونأتيهم بغلام .

فاعتذرا الى المسلمين عن مهمة الخلافة واعتزل في بيته حتى مات وشاءت الظروف أن يكون بعده مروان بن الحكم الذي كان همه الكبير هو أن يسترد سلطة بني أمية ، فبدأ يعمل على تركيز سلطته في دمشق ولكن أميرها الضحاك بن قيس الذي كان يدعو سرا الى عبدالله بن الزبير تصدى له وحدثت معركة مرج راهط في عام ٦٥ هجرية وانتصر مروان على الضحاك ولما علم أمير حمص النعمان بن بشير بهزيمة الضحاك فر منها ، وكذلك فعل زفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين اللذان أعلنوا دعوتيهما الى عبدالله بن الزبير وسهل ذلك على بن الحكم استرجاع كافة بلاد الشام تقريبا الى سلطة بني أمية .

يهمنا من سرد هذه الاخبار أمرين : الامر الاول : أن النعمان ابن بشير كان ذو مكانة كبيرة لدى الخليفة الاموي ويؤكد ذلك سفارته الى أهل المدينة وغيابه عن ولايته وأخيرا فراره من المدينة اذ من المألوف في مثل هذه الظروف أن يوكل أمر المدينة في غيابه الى أحد من الثقة ومن خلال استطلاعنا الموضوع من النواحي التاريخية والسياسية والفنية نجد أن أقوى مرشح للحلول مكان النعمان هو مروان كما أنه من المحتمل أن يكون قد ولى مروان المذكور على دار السكة مقام مروان هذا في مرحلة انقلاب النعمان بن بشير على بني أمية بأن أصدر هذه الفلوس على غير نسق الفلوس ذات النمط العربي البيزنطي المألوف الذي تبناه بنو أمية . فزينها باليربوع والارنب والسلحفاة وهذه الحيوانات الثلاث ترمز الى بقاء من الجزيرة العربية اشتهرت بالخصب . وربما قصد مروان بن بشير من ذلك أن يشير الى معالم اتسمت بها بقاء القيسية في فترة كانت القيسية كذلك منضمة الى عبد الله بن الزبير ، أي أنها (أقصد الصور) كانت ذات مضمون سياسي والامر الثاني : هو أن عبد الله بن الزبير كان في وضع سياسي لا يمكن له فيه الا أن يستصدر النقود وقد ذكرت المراجع (١٥) أن أصدر الدرهم المعرب وكذلك فعل أخوه مصعب الذي يحمل في أحد وجهيه الحزء الاخير

(١٥) - انظر الشيخ محمد الحصري ص ٢٦٩ ح ٢ . تاريخ الامم الاسلامية مصر ١٩٦٩ .

من ماثورة الشهادة : "محمد رسول الله" وفي الوحه الثاني "أمر الله بالوفاء والعدلين" . وقد عثرنا على فلوس مغفلة شبيهة الا أنها تحمل الجزء الاول من ماثورة التوحيد " لا اله الا الله / وحده " بدل ماثورة الشهادة وهما هو نموذج من هذه الفلوس :

القطر

١٦م



القصد من ذلك هو أن هذه الفلوس ليست بمستغربة - كما قد يشعر البعض - في تلك الفترة بالذات التي سبقت تعريب عبد الملوك بحوالي عقد من الزمن . إذ أن عبد الله بن الزبير كان على دولة تساوي عشرة أضعاف ما كان تحت أيدي بني أمية وكانت تشتمل كما ذكرنا على ثلاثة أقطار كبيرة هي : مصر والحجاز والعراق وكان اتجاهه في ادارة هذه الدولة ذا طابع قومي وديني متشدد وقد ظهر ذلك في شعاره الذي تضمنته نقوده : "أمر الله بالوفاء والعدل" الذي كان يعبر عن سياسته في دولته وكان يريد أن يلحي على خصومه الأمويين الاخلال بهذا المعنى في وقت انتهكوا فيه حرم المسلمين وتجاوزا من هم أحق منهم بالخلافة . ولا يستبعد أنه كان يأخذ عليهم الاستمرار باستعمال النقود ذات الطابع البيزنطي التي تحمل صوراً للباطرة البيزنطيين .

يمكننا أن نفهم مما تقدم أن الامارة لاتعني بالضرورة الولاية على المدينة أو حكمها فقط وانما يمكن أن تعني الرئاسة بشكل عام كما تعني المسؤولية في المناصب المتقدمة على صعيد الادارة والجيش وهذا مايفسر استعمال لقب أمير قبل المشرف على السكة ، ويمكن أن تكون امارة مروان بن بشير من هذا النوع - كما أشرنا سابقاً - إذ أنه كان مكلفاً بالاشراف على دار السكة على الأرجح أثناء ولاية أخيه النعمان على مدينة حمص .

المجموعة الثالثة :

النموذج ١ :

<u>الامثلة</u>	<u>القطر</u>	<u>الخلف</u>	<u>الوحه</u>
فريد	١٧م		



ان هذا النموذج يعتبر مفاحاة اذ أن الدراسات السابقة التي قام بها كل من لافو Lavoix ونوتزل Nutzel وولكر Walker وحميع المهتمين بدراسة النميات العربية الاسلامية قرأت العبارة التي في مركز الوحه " الفسطاط" التي هي القاهرة (١٦) والتي تكررت على عدد من النماذج موزعة الان في باريس وكوبنهاغن ولندن ودمشق .

وهنا في هذا النموذج تظهر نفس العبارة بشكل جلي على فلس من اصدار حمص اذ أنه يحمل في مأثورة حاشية الخلف اسم السكة حمص بشكل واضح وفي مركز الخلف رسم اليربوع كما ورد على سكة حمص التي تحمل اسم مروان بن بشير والتي قمنا باستعراضها .



في الواقع أن هذا النموذج يمدنا بحقيقة لانعرفها ألا وهي
تكليف الخليفة عبد الملك بن مروان أحد أولاده الملقب بعبد الله بأمر
حند حمص فور خضوع بلاد الشام له (والمفروض أن عبد الملك كلف أحد أولاده واسمه
عبيد الله بولاية حمص في عام ٨١ هـ كما ورد في الثبت الوارد في مقدمة هذا البحث) وأثر
فرار حاكم حمص السابق النعمان بن بشير الانصاري وحاكم قنسرين زفر بن الحارس الكلابي
نذر لما اشتهر به من ولائهما لعبد الله بن الزبير، وقد أمده على ما يبدو ببعض
الرجال الذين كان يعتمدهم عبد الملك نفسه عندما كان والياً على مصر مثل المشرف على
السكة أبو شريك الذي قرئ اسمه خطأ بالفسطاط .

(۱۶) - أنطروولکر No 910 P. 275

أنني أجد في هذا الفلس دعما لما ذهبت اليه من أن هنالك
فلوس معربة تعريبا تاما سبقت تعريب عبد الملك للنقود الذهبية
والفضية . وان هذا الفلس والفلوس التي تحمل اسم مروان بن بشير هي
شواهد قوية على ذلك .

المجموعة الرابعة :

النموذج ١ :

الوجه	الخلف	القطر	المثال
		١٦م	٢ دمشق
			١ ووكر رقم ٨٠١
			١ ايليش

الوجه :

المركز: نقطة تحيط بها
دائرة

النطاق: لا اله الا الله وحدة

الخلف :

نقطة في وسط هلال
ضرب هذا الفلس بحمص

ملاحظة: النقطة فوق آخر كلمة (وحده) لم ترد سوى على نموذج واحد كما
أنه لم يشاهد مثلها على أمثلة دمشق .

ان هذا النموذج مأخوذ من نموذج مماثل شهير صدر في دمشق ومنها
انتشر بحيث قلد في عدة مدن منها سمرمين والحسر والرملة ونموذجنا
هذا في حمص . ولكن لابد من الإشارة الى أن الانتشار الاعظم هو لنموذج
شبيه تماما صدر أيضا في دمشق ، والاختلاف في هذا النموذج المشار
اليه هو أنه يحمل في دائرة مركز الوجه (*) ، وفي دائرة مركز
الخلف نجمة سداسية (✳) حيث تتوفر منه عدة أمثلة .

السكة في مدينة حمص ابان العهد الاموي

النموذج ٢ :

الامثلة

١ دمشق

القطر

٢٢م

الخلف



الوجه



الخلف :

المركز: نجمة خماسية حولها نقط

طوق :

نطاق : محمد رسول الله أرسله بالهدى

طوق :

نطاق : (بسم الله) ضرب هذا الفلوس بـ حمص

طوق :

الوجه :

المركز: لا اله

الا الله لا

شريك له

يلاحظ في هذا النموذج فزلكة وترف في التصميم والاخراج وهندسة الحرف وذلك كما يلي :

١ - انه فريد في تصميمه ليس فقط بالنسبة لاصدارات حمص بل بالنسبة لاصدارات العهد الاموي بكامله اذ لم يرد في اصدارات أية مدينة حتى دمشق نموذج على هذا النحو ، فهل يمكن أن يكون اصداره في فترة لم تكن فيه حمص سياسيا تضرب على منوال دمشق وبالتالي يكون مثل هذا النموذج تعبيرا عن تميزها .

٢ - الفزلكة في هندسة الاحرف وفلسفتها على هذا النحو لم ترد في نماذج أخرى ، أنظر كيف استبدل السكاك لفظ الجلالة بالهلال والقمر في الوجه ، واختصر كلمة (وحده) وكيف كتب المأثورة جميعها بالاسلوب المزوى للخط ونفذ (لا) في آخر السطر الثاني بالاسلوب اللين ، كما أن عبارة (لا شريك له) كلها لم تنفذ على هذا النحو في أي نموذج آخر، هذا في الوجه .

أما الخلف :

- ١ - لم نعلم عن وجود أي نموذج يحمل نطاقين إضافة إلى المركز لذلك يمكن اعتبار هذا النموذج استثناء .
- ٢ - وردت النحوم في مراكز بعض الفلوس ولكن لم تكن رؤوسها لينسة كما في هذا النموذج .

المجموعة الخامسة :

هذه المجموعة تتألف من النقود المؤرخة ، لذا يمكن أن نعتبر هذه المجموعة باللغة الأهمية ذلك لأنها تعطينا فكرة عن أشكال النقود في فترة مابعد تعريب عبد الملك من الناحية الفنية في فترات زمنية مختلفة ، كذلك تقدم لنا مآثورات بأسلوب ومستوى كتابسة يساعدنا في التعرف على النقود المعاصرة لها ولحسن الحظ توفر لنا في هذا المقال ما لم يتوفر لغيرنا حيث أمكننا الحصول على نموذجين إضافيين عما هو معروف من النقود المؤرخة سابقا وفيما يلي تباعا هذه المجموعة من الفلوس .

النموذج :

١ - عام ٧٩ هجرية الوجه الخلف القطر الامثلة
م ٢١ ١



الخلف :

محمد
رسول
الله

الوجه :

في المركز: لا اله
الا الله
وحده

طوق :

نطاق : ضرب هذا الفلوس /// سنة تسع وسبعين
طوق :

طوق :

نطاق : بسم الله // هذا الفلوس //
(كتابة غير واضحة يمكن
أن يكون آخرها (ص))

طوق :



السكة في مدينة حمص ابان العهد الاموي

قد لا يكون هذا النموذج من ضرب حمص ولكنه من النماذج الاولى التي صدرت بعد اصلاح عبدالملك والتي نشعر باستمرارها في عدد من النماذج المؤرخة في حمص وفي غيرها أي يمكن أن يتخذ كأساس للتعرف على الفلوس التي صدرت بعد اصلاح عبد الملك بن مروان والتي تشبهه بتصميمها وتوزيع مآثوراتها الدينار والدرهم بعد مرحلة الاصلاح المذكورة ولاشك أن هذا النموذج يفضل غيره من حيث امكانيات استيعابه لقدر أكبر من المآثورات .


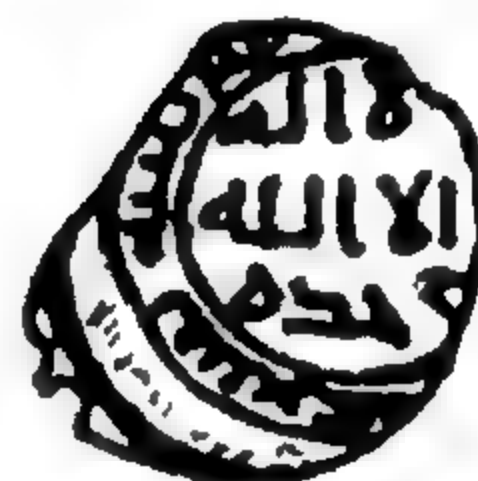
النموذج :

٢ في عام ١١٠	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
المركز:	لا اله الا الله وحده	محمد رسول الله طوق :	هذا النقد عرضه وولكر في مصنفه برقم J.10 ص ٢١٦ وهو من مجموعة جامعة جينا في لايبزغ	
نطاق : ضرب الفلوس سنة عشر (ومئة)		نطاق : بسم الله ضرب الفلوس بـحمص		
طوق :				

النموذج :

٣ في عام ١١٦	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
			٢٠ مم	٤ دمشق ٥ وولكر رقم ٨٠٧ - ٨١١ ص ٢٤٧



النموذج :

الامثلة	القطر	الخلف	الوجه	٤ في عام ١١٧
دمشق الدكتور ايليشت سويسرا أشاراليه مايكل بييتس	٢٠ مم . ١			

مثل سابقه ماخلا :

السنة التي يرجح أن تكون تسع عشرة ومئة (

النموذج :

الامثلة	القطر	الخلف	الوجه	٥ في عام ١٣٠هـ
دمشق ٢١ مم . ١				

مثل سابقه :

ماخلا اختلاف في ماثورة نطاق الوجه حيث أضيفت " البسمة " وتغير التاريخ الى " ١٣٠هـ " ظهرت في الخلف نصف دائرة في أعلى ماثورة الخلف ونجمة الى جوار لفظة الجلالة في أسفل ماثورة المركز .

وهكذا نرى من خلال هذه المجموعة التي بدأت بتاريخ ٧٩هـ وانتهت بتاريخ ١٣٠هـ أنه لم يكن ثمة تغير في النمط ونصوص الماثورات لأنها تفشل النموذج الافضل . قد يكون ذلك بعد محاولات تمثلها النماذج الاخرى التي تعبر بالفعل باضطراب أنماطها وأخطاء ماثوراتها وبدائية اسلوب كتابتها مرحلة سبقت هذه المرحلة والا فهل يمكن أن يقبل المستوى الادنى في الوقت الذي تتوفر فيه الامكانية للوصول الى المستوى الافضل ؟

أخيرا لابد من الإشارة الى أن هناك نماذج من الفلوس النحاسية المغفلة التي لانعلم بالتأكد في أية مدينة سكت وقد ورد من حمص عدد منها . عرضنا نموذجا منها في نهاية المجموعة الأولى وما زال هناك عدد منها بحاجة الى مزيد من الدراسة .

نرحو أن نكون بهذا الجهد المتواضع قد أسهمنا في اللقاء المزيد من الضوء على آثار وتاريخ مدينة ابن الوليد وذلك استحابة لدعوة زملائنا وأصدقائنا في الجمعية التاريخية ، راحين أن نوفق مستقبلا في نشر بحث خاص عن النقود التي ضربت في حمص في العصور اللاحقة والتي تعتبر نادرة جدا .

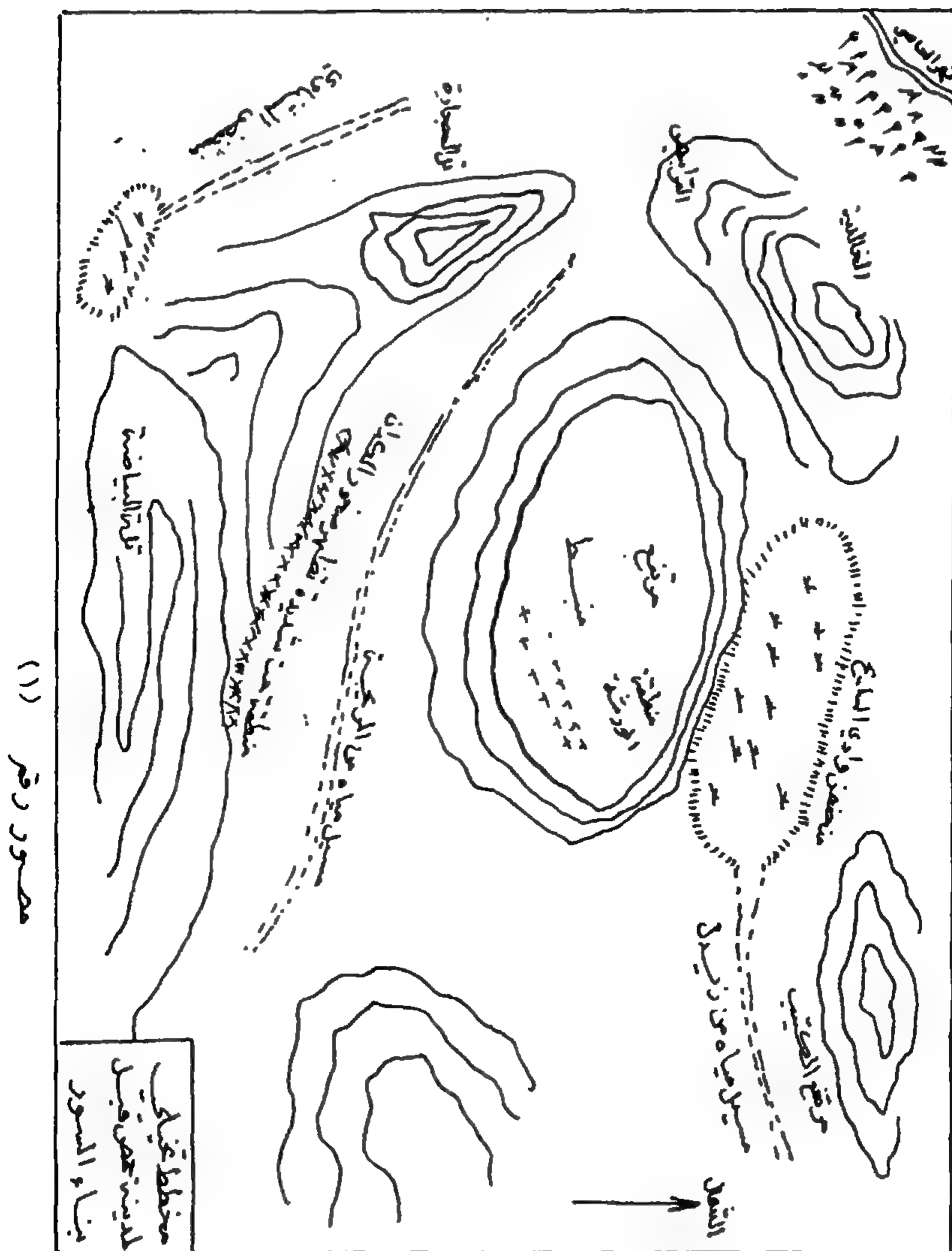
أبث شكري وعرفاني الى الاخوات والاخوة الذين مدوا يد العون لي أثناء اعدادي هذا البحث وأخص منهم : السيدات زميلتي منى المـوـذن وناهد الحموي، ورحاب داوود وزوجها الاستاذ أحمد المفتي والاستاذ فاتح الاحمد والصديق أمين نجار والانسة أمل حسيني راجيا المولى أن يحزيهم عني كل خير .



تقرير عن أهمّ أبحاث سريّ جامع الزوراء الكبير

بإمالة الدكتور عزيز الهادي
مديره آثار حمص

ليس لدينا من الوثائق التاريخية والقرائن الأثرية ما يشير إلى سكن حمص قبل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وجل مانعرفه عن تاريخها القديم يعود إلى نتائج التنقيبات الأثرية والوثائق المكتشفة في بعض المواقع كالمشرفة وقادش وإيبلا وتل العمارنة وتل قلعة حمص^(١) وما يتناثر في المصادر التاريخية من معلومات عنها وإشارات عابرة تعوزها الدقة والأمانة العلمية في أحيان كثيرة، وطالما أن التنقيب في تلك المواقع يقع الهامة لا يزال في بداياته لذلك فإن الحديث عن تاريخ حمص ما قبل العصر الإسلامي لا يخلو من نواقص وفجوات إضافة إلى الغموض الذي يلفسه بالتنقيبات الأثرية تقدم لنا المفاجآت باستمرار وإن أي حديث عن تاريخها القديم سيكون غير دقيق ما لم تجر تنقيبات نظامية وعلمية في المدينة القديمة تميّط لنا اللثام عن تاريخها القديم المدفون هنا وهناك تحت سطح المدينة . وحسب المعلومات المتوفرة لدينا حالياً يعتقد أن أقدم موضع سكن فيه الإنسان في حمص هو تلها الذي يقع جنوب غربي المدينة القديمة بالإضافة إلى الأماكن القريبة من الميماه . إن نتائج التنقيب في الطبقات الدنيا للتل المذكور أثبتت اعتماداً على دراسة اللقى الفخارية أن الموقع كان مأهولاً اعتباراً من النصف الثاني للآلف الثالث ق م^(٢) . وإذا جاز لنا أن نقول استناداً إلى تلك النتائج أن حياة المدينة بدأت في العصر الحجري الحديث فإننا نرجح بأنها لم تكن آنذاك سوى قرية صغيرة ليست على شيء كبير من الأهمية ثم تحول مكانها إلى قلعة (أنظر المخطط رقم ١) وفيّ شمال شرق القلعة قرب موقع الورشة الحالي الذي يقع شرقي المدينة نشأت أول قرية زراعية . وعند توسعها كان لابد من امتدادها باتجاه القلعة وإحاطة الاثنين معا بسور واحد (المخطط رقم ٢) وتكوين مدينة صارت عاصمة لدولة يحكمها ملوك كهنة . وأنها لم تبرز إلى ميدان الحضارة إلا بعد أن توقفت حياة مدينتي قطنة وقادش في العصر الروماني فورثت حمص أهميتهما وخلفتها كعقدة مواصلات هامة في سورية الوسطى .



مصور رقم (١١)

ويتضح تاريخ حمص في عهد أسرة شمسيفرام التي حكمت حمص منذ مطلع القرن الاول قبل الميلاد بعد أن انتزعتها سنة ٩٦ ق م — من سلطان السلوقيين وشكلت فيها دولة صغيرة حكمت حمص حتى الربع الأخير من القرن الاول الميلادي وكان هؤلاء الامراء العرب يتولون سداً — معبد الشمس المشهور ويتمتعون بثراء فاحش وشهرة كبرى وقد ضرب هؤلاء الامراء النقود بأسمائهم ولعبوا دوراً بارزاً في السياسة الداخلية الرومانية (٣) . وعلى الرغم من زوال النفوذ السياسي لتلك الأسرة — في نهاية القرن الاول الميلادي بسبب تشديد الرومان قبضتهم على سوريا — فإن المكانة التي نالتها حمص في عهد أسرة شمسيفرام ظلت كما هي وتابعت المدينة ازدهارها. في ظل حكم الولاة الرومان . ثم تصبّح المعلومات التاريخية عن حمص أكثر وضوحاً في العصر الروماني لاسيما بعد وصول الأسرة الحمصية الى عرش روما نتيجة لزواج جوليا دومنة ابنة كاهن معبد الشمس باسيانوس من القائد الروماني سبتم سيفير الذي أصبح امبراطوراً فيما بعد (١٩٣ - ٢١١ م) والذي كان له أثر كبير لافي تاريخ حمص فحسب بل في تاريخ روما والشرق الأدنى حيث بدأ عهد الباطرة السوريين الذين ساعدوا على انتشار النفوذ الثقافي السوري. وقد اهتم سيفير بسورية وطن زوجته وجعل من حمص عاصمة لسورية الفينيقية واستمر الاهتمام بمدينة حمص في عهد ابنه الامبراطور كاراكلا (٢١١ - ٢١٥ م) والامبراطورين ايليا غابال (٢١٨ - ٢٢٢ م) والكسندر سيفير (٢٢٢ - ٢٣٦ م) حيث أصبحت حمص مركز الامبراطورية ومحط أنظارها وتولي كثير من سكان حمص مناصب الدولة الكبرى وتمتعوا بعضوية مجلس الشيوخ وانتقاداً لهذا التأثير العام لمدينة حمص في روما كتب الشاعر الروماني الهجاء جوفينال " ان العاصي صب مياهه منذ فترة طويلة في نهر التيبر حاملاً معه لغة سورية وتقاليدها وثقافتها " لقد عزز زواج جوليا دومنة من سبتم سيفير ووصول هذه الأسرة الحمصية الى عرش روما دور حمص العالمي وانتشرت تجارتها بين الخليج العربي والبحر المتوسط فوصل أهالي حمص بتجارتهم عبر البحر المتوسط الى

إيطاليا وغانية واسبانيا . وازدانت حمص آنذاك بعدد كبير من المنشآت الهامة كالقصور والمعابد والقلاع والحمامات ومن أهم تلك الأوابد التي زهت بها حمص في ذلك العهد معبد الشمس المشهور والصومعة وبعد انتشار المسيحية فيها ولاسيما في العصر البيزنطي غدت حمص مقر أبرشية وانتشرت فيها الكنائس الفخمة منها كنيسة القديسة هيلانة التي قال فيها المسعودي أنها من عجائب الدنيا والكنيسة الكبرى التي يقال ان رأس النبي يحيى نقل اليها بعد اكتشافه سنة ٤٥٣م^(٤) وكانت من أكبر الكنائس المسيحية التي ارتفع بناؤها في سوريا خلال العصر البيزنطي اضافة الى كنيسة مار قسطنطين وربما تكون هذه المسميات الثلاثة لمكان واحد .

لكن للأسف زالت معالم تلك العصور الزاهرة واختفت المعابد والقصور الرائعة نتيجة الكوارث البشرية والطبيعية التي حلت بالمدينة وكان أفدحها الزلازل التي حدثت في القرنين الخامس والسادس الميلاديين وهدمت المدينة عدة مرات في الاعوام (٤٤٧ - ٤٥٨ - ٤٩٤ - ٥٢٦ - ٥٢٨)م . وبسبب النكبات التي حلت في هذه المدينة وغابت آثار الماضي من جراء الغزوات التي كانت تشن عليها من الروم البيزنطيين كغزوة الامبراطور نقفور فوكاس ٩٦٨م ثم غزوة باسيل سنة ٩٩٠م وأخيرا غزوة دوق انطاكية سنة ٩٩٩م وفيها لجأ بعض أهلها الى كنيسة مار قسطنطين تحرمًا بها فأحرقها الروم بمن فيها .

فهذا الخراب والحرق اللذان كررهما الروم ثلاث مرات مترادفات أجهزا على عمران حمص بالكلية وحرماها المعابد العظيمة والقصور والآثار القيمة التي كانت تزدهان بها في العصور السالفة^(٥)، يضاف الى ذلك استمرار السكن والعمران في المدينة القديمة مما أدى الى اختفاء نواة السكن القديم تحت منشآت المدينة الحالية وضياع مخططاتها القديم . كل ذلك يجعل التنقيب عن آثارها القديمة والتوصل الى مخططاتها القديم في غاية الصعوبة . ونتيجة لصعوبة القيام بأعمال تنقيب واسعة في المدينة القديمة كان لابد من مراقبة عمليات الهدم والبناء

التي تتم في المدينة الواقعة ضمن الأسوار لنتمكن من تلمس بعض أحوال الماضي . ففي باطن هذه المدينة قد توجد كنوز من تاريخها الدفين تنتظر من يخرجها الى النور . وأجوبة كثيرة عن الاسئلة التي تبدو حاليا بذون جواب سيصار بالتالي الى تقديمها ونشرها لان المعلومات الاثرية والتاريخية المعروفة عنها قليلة جدا . في الوقت الحاضر ولاتناسب مع ماضيها الزاهي فقد ساعد موقعها الجغرافي الممتداز في أن تكون موطن نشاط بشري ساهم في حضارة سورية منذالقديم وساهم في اعطائها أهمية خاصة من الناحية التجارية فمن خلال نشاطها التجاري المتميز ساهمت في انتقال التراث الانساني اضافة الى التأثيرات السياسية . لذلك فان موقعها الجغرافي ونشاطها التجاري الهام جعلها ذات دور فعال في السياسة العالمية خاصة أيام السلوقيين والرومانيين والبيزنطيين . لذلك آمل أن يكون عملي المتواضع هذا محاولة لإلقاء بعض الاضواء على فترة هامة من تاريخها وان يكون لبنة تضاف الى اللبنة التي قدمها آخرون غيري لإزالة بعض الغموض عن تاريخ هذه المدينة من خلال أعمال التنقيب فيها آملين أن يحمل لنا المستقبل ونتائج التنقيب القادمة مايساعد في إثراء معارفنا عن تاريخ حمص وينير لنا درب أمام خطواتنا الوثيدة وسوف نتحدث فيما يلي عن أعمال تنقيب قمنا بها في مدينة حمص والتي أدت الى نتائج هامة .

التنقيب الطارئ في حي الفاخورة شرقي جامع النوري الكبير بحمص :

(من ٩/أيار ١٩٨٨ ولغاية ٧ تموز ١٩٨٨) :

في التاسع من شهرأيار ١٩٨٨ بدأنا التنقيب في العقارات ٣٠-٣١/٣٣ المنطقة العقارية الرابعة التي تقع في حي الفاخورة شرقي جامع النوري الكبير لملاحظتنا وجود معالم أثرية تنم عن جدار السور الشمالي للمدينة الذي يتجه من شرقها عند باب تدمر الى غرب المدينة عند برج الاربعين ، وذلك أثناء تقصي المدينة لتحديد مسار السور فيها على الواقع من أجل التحضير لندوة (أسوار حمص وقلعتها) التي

شاركنا فيها خلال المهرجان الثقافي السنوي الذي تقيمه محافظة حمص سنوياً* (٦).

بدأنا التنقيب بأجراء الأسبار للتأكد من مرور السور فيهما فجاءت النتائج الأولية تؤكد صحة افتراضنا فبعد أن قمنا بأجراء سبر في النقطة التي توقعنا مرور السور فيها بدأت تظهر معالم واضحة لجدار بعرض ٣٠م وارتفاع ثلاثة مدا ميك ، والجدار المذكور مبني بحجارة بازلتية غشيمة لها قاعدتان الأولى ٢٥x٢٥ سم والثانية ١٥x١٧ سم وهو رقم وسطي (صورة رقم ٣) ثم تابعنا العمل لكشف باقي الجدار بعد أن توضحت معالمه على طول ٢م . وخلال العمل لكشف باقي الجدار تم كشف أرضية جميلة من الفسيفساء بطول ٨م وعرض ٤م ، لكن للأسف يوجد تشوه كبير في أماكن كثيرة منها نتيجة لأعمال تدمير وحرائق تعرضت لها المنطقة سابقاً . وتمثل لوحة الفسيفساء هذه مبنى على جانب كبير من الأهمية بالإضافة الى حي سكاني يمكن أن يستدل منه على نمط عمارة حمص في تلك الفترة (صورة رقم ٤) ويحيط باللوحة إطار رائع مزدان بتزيينات نباتية من أزهار الأكانتوس ذات الألوان الزاهية كالبرتقالي والأحمر والأبيض والأخضر (صورة رقم ١٥) وقد لاحظنا بأن هذه اللوحة استخدمت كأرضية مرة ثانية بدليل استكمال النقص فيها بقطع من الرخام الملون . ومما أثار انتباهنا اختراق السور لها في جزئها الشمالي مما يدل على أنها أقدم عهداً من الجدار المكتشف (A) ويبدو أنها كانت أكثر امتداداً نحو الجنوب نتيجة عثورنا فيما بعد على أجزاء كبيرة منها ضمن المدافن المكتشفة في الحنية . كما ظهر أثناء التنقيب باب بعرض ٢م وطول ٥٣م بعمق ٧١ سم كان يتوارى معظمه خلف الردميات والباب مبني بحجارة بازلتية كبيرة أما ساكفه فقد بني بحجارة كلسية ضخمة (صورة رقم ٦) . وقد تم تدعيم الباب لملاحظتنا وجود خطورة في ساكفه فبعد إزالة الردميات عنه وتعرضه لعوامل الطبيعة فجأة بدأت تظهر تشققات حديثة في الساكف إضافة الى تصدعات قديمة وعميقة لذلك قمنا بتدعيمه بمورينات خشب تلافياً للخطر الذي يمكن أن يحدث (صورة رقم ٧) .

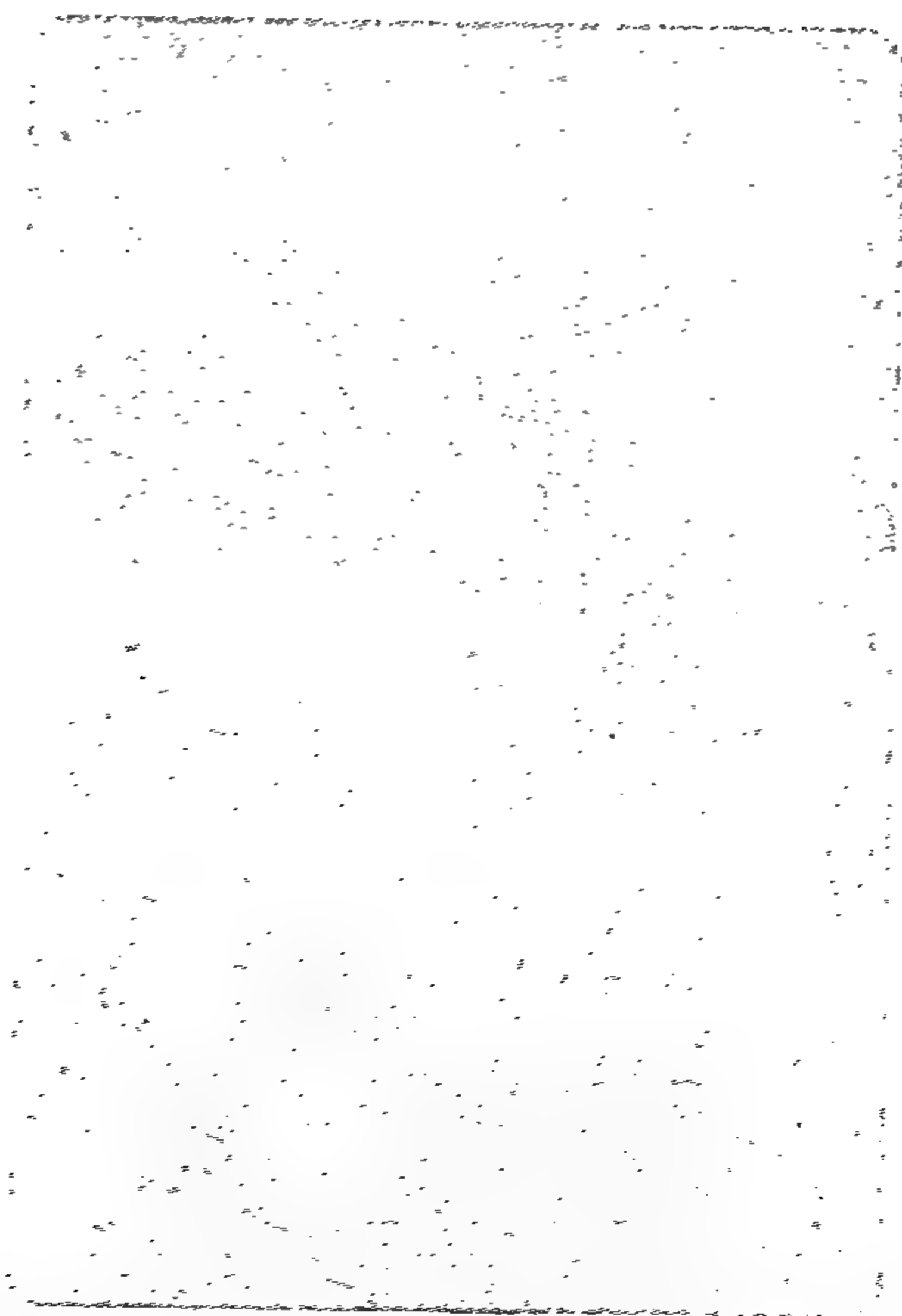
* شارك في التنقيب من دائرة آثار حمص الانسة نداء دندشي كما شاركت المهندسة مي النبهان برسم مخطط الحفرية فلهما الشكر .



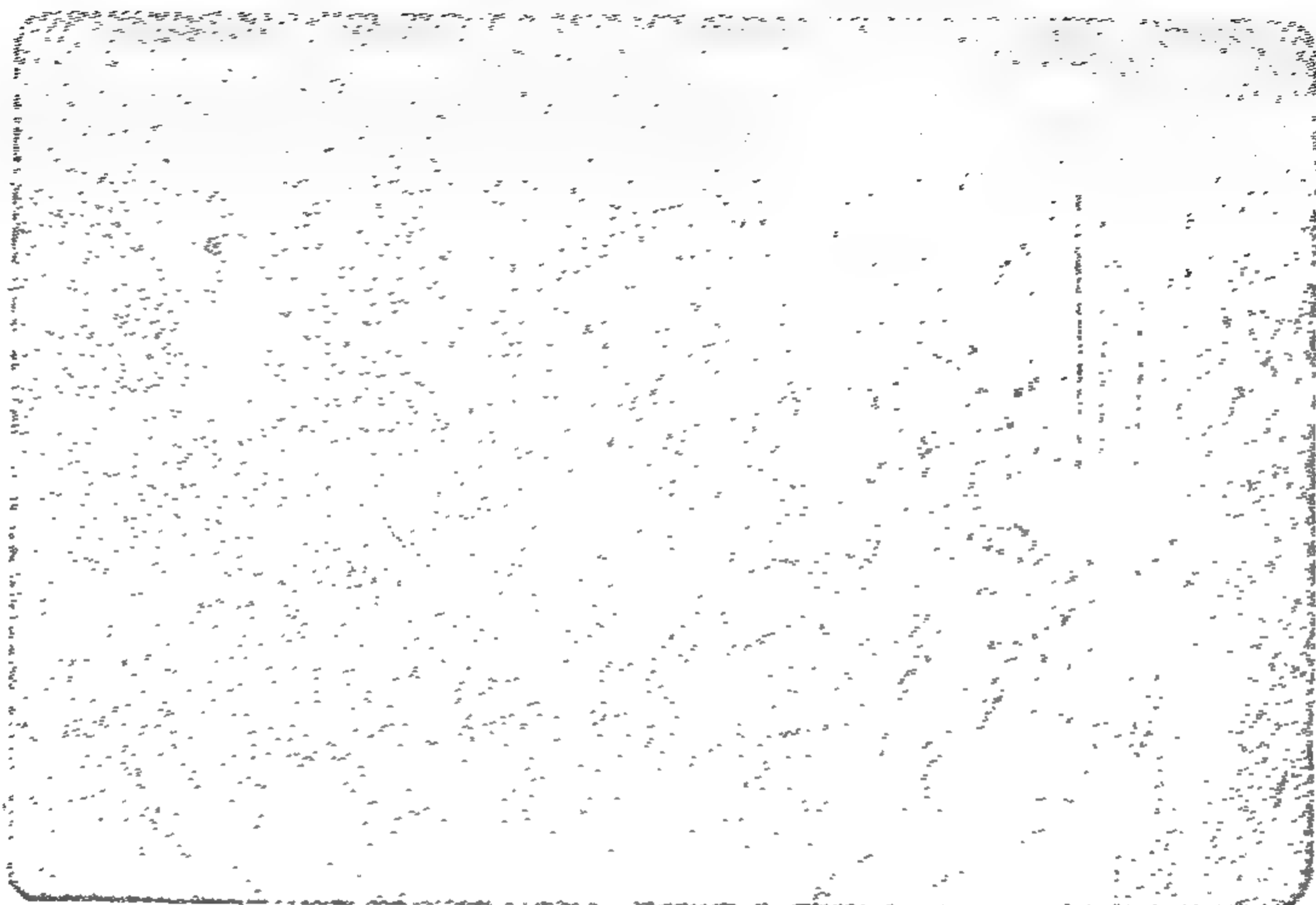
مصور رقم ١٠٠

أساسات السور المحيطة

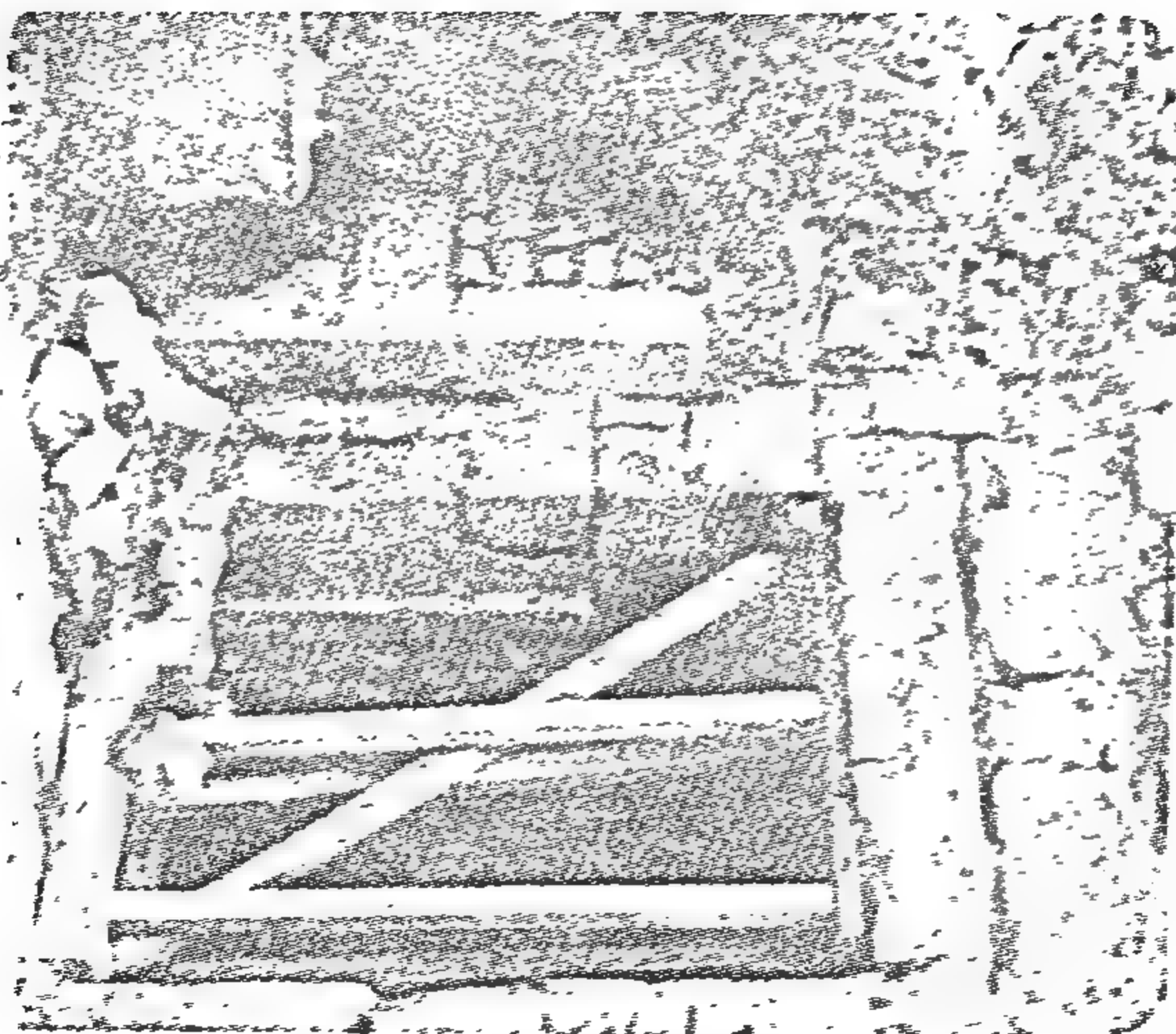
مصدر رقم (٥)
أطوار المرحومة العزيمية



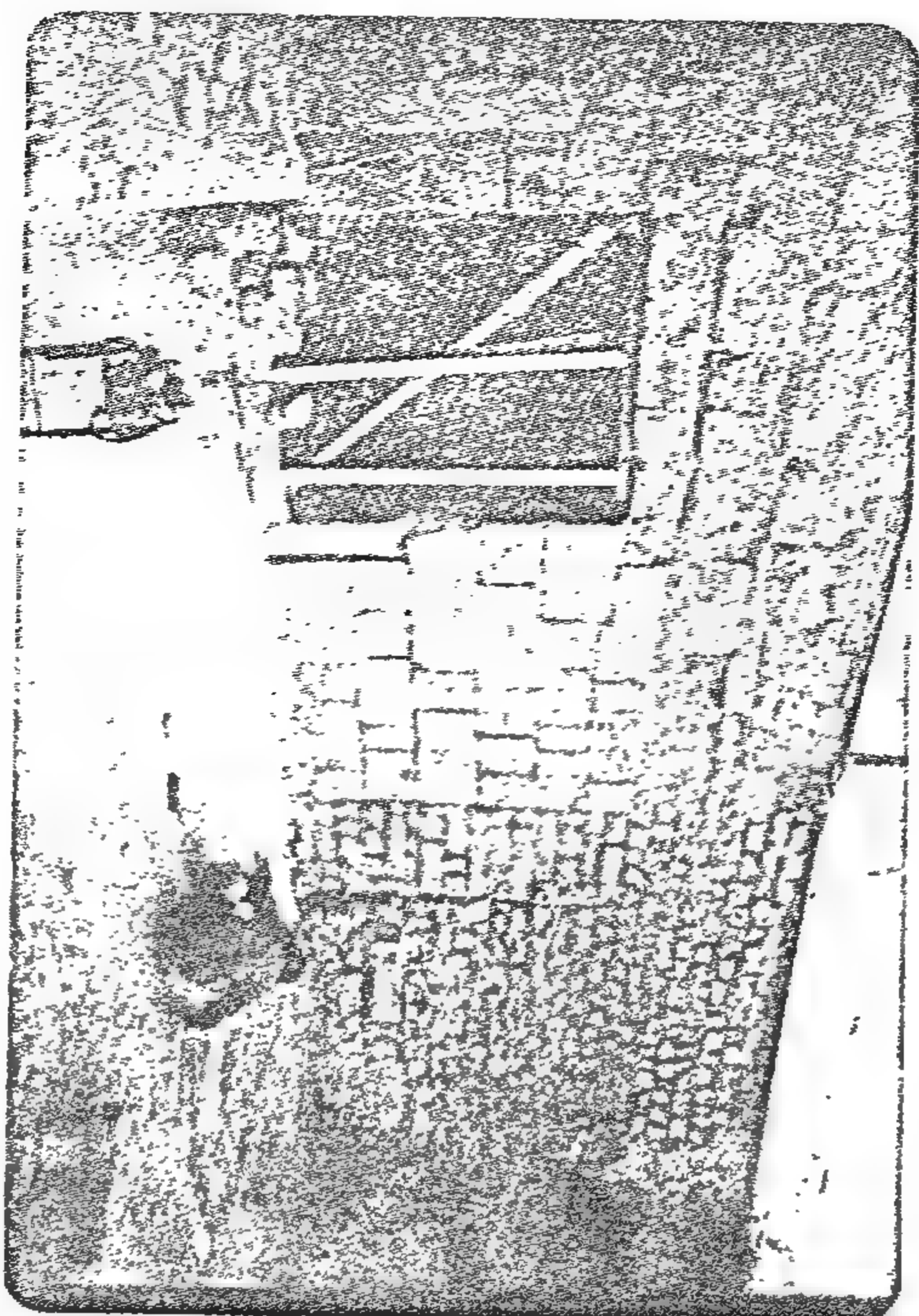
مصدر رقم (٤)
لوحات السيوف في الخزائن
من القاعات ٢٠ - ٢١ - ٢٢ / رابطة



مصور رقم (٧)
المان بعد الحفريات



تظهر في الصورة بداية الحفريات وجزء من الضريح



الهدار الخرابي الفاصل بين محراب جامع النوري الكبير
والكنيسة المارونية

بعد الانتهاء من كشف الباب وتدعيمه بدأنا بالعمل في الزاوية الجنوبية الغربية التي كانت تبدو مهمة للغاية لأنها بقيت بمنأى عن عبث الآليات الثقيلة التي عملت في الموقع سابقاً وكان يبدو واضحاً الترتيب الستاتيغرافي للطبقات فيها وفي هذه المنطقة بالذات توصلنا الى نتائج حفرية في غاية الأهمية فبعد إزالة الركام والأنقاض عنها بدأ يتوضح تدريجياً شكل نصف دائري (حنية) الى الجنوب الشرقي من الباب المكتشف يمتد قليلاً داخل حدود العقار المجاور وفي وسط الحنية ضريح مبنى بالأجر طوله ٢٠م بعرض ٣٠م بارتفاع ٨٥ سم يتجه من الغرب الى الشرق وتتوسطه حفرة صغيرة قطرها ٢٠ سم وعمق ٣٠ سم وقد طلي الضريح مع الجدران بكلس يبدو أنه جدد ثلاث مرات . وقد تم العثور على قطعة صغيرة من الطلاء الكلسي الذي طليت به جدران الحنية وعليها خطوط ملونة حفظت للدراسة إضافة الى قطعة نقد برونزية متأكدة ملتصقة بجدار الضريح . في الوقت ذاته استمر العمل لمتابعة كشف مسار الجدار المكتشف (السور) حيث بدأت تظهر تطورات فسي معالمة أولها زيادة عرضه حتى ٢٩٠م بالإضافة الى تخلخل سطحه الخارجي مما استوجب إحداث المربع (C) بأبعاد ٣x٣ م كما فتح المربع (D) في نفس اليوم في وسط الموقع .

في المربع (C) تم العثور على جزء من عمود غرانيتي داخل ضمن أساس السور ويبدو أنه من الأعمدة التي تعود الى المنشأة المكتشفة نفسها . وقد استخدم كأساس لجدار السور في العصر الإسلامي مما يدل على أن السور المكتشف أحدث عهداً من المنشأة ثم ظهر جدار آخر (B) بعرض ٨٠ سم يتصل مع الجدار (A) بزاوية التقاء حادة . ولدى العمل للوصول الى الأرضية التابعة له عثرنا على لوحة فسيفساء معظمها بحالة سيئة ماعدا الجزء الموازي للجدار والأرجح أنه يمثل إطار اللوحة المخربة . واللوحه المشار إليها مكونة من تزيينات هندسية مما يدل على أن اللوحة ترتبط تماماً مع الجدار (B) وأثناء توسيع المربع (C) ظهرت آثار باب ذي عتبة حجرية بازلتية بعرض ١٢م

كما ظهر جدار آخر (C) يحدد أرضية من حجر البازلت ذات مستويات مختلفة مما يشير إلى مراحل بناء واستخدامات متعددة لهذا المكان . وفي الجزء الجنوبي من السور ظهرت مساحة مرصوفة بحجارة بازلتية غشيمة بالإضافة إلى كتل حجرية عادية متوضعة بشكل عشوائي يمكن أن يستخلص من بينها شكل قريب من الدائري وفي وسطه مواد مذابة وشديدة الصلابة بفعل حريق ذي درجة حرارة عالية ، وقد أرسلنا نماذج منها إلى معهد البتروكيميا للتليل لنستطيع تحديد هوية المنطقة المكتشفة واستخداماتها .

أما في المربع (A²) فقد ظهر على عمق ٣٠ سم جزء من لوحة فسيفساء لكن حباتها غير متماسكة وكانت تنفرط بسرعة باستثناء قطعة صغيرة منها مساحتها ١٥٠ x ١٥٠ م كانت بحالة جيدة وتمثل صلباناً بيزنطية الطراز ذات ألوان جميلة للغاية تتدرج بين الأبيض والرمادي والأزرق المتدرج الألوان . كان اكتشاف هذا الجزء من لوحة الفسيفساء ذا أهمية خاصة من حيث النتائج التي ترتبت عليه فمن خلاله استطعنا تحديد هوية المنشأة المكتشفة وأصبح واضحاً أنها كنيسة ذات شأن وبقي علينا أن نعرف اسمها .

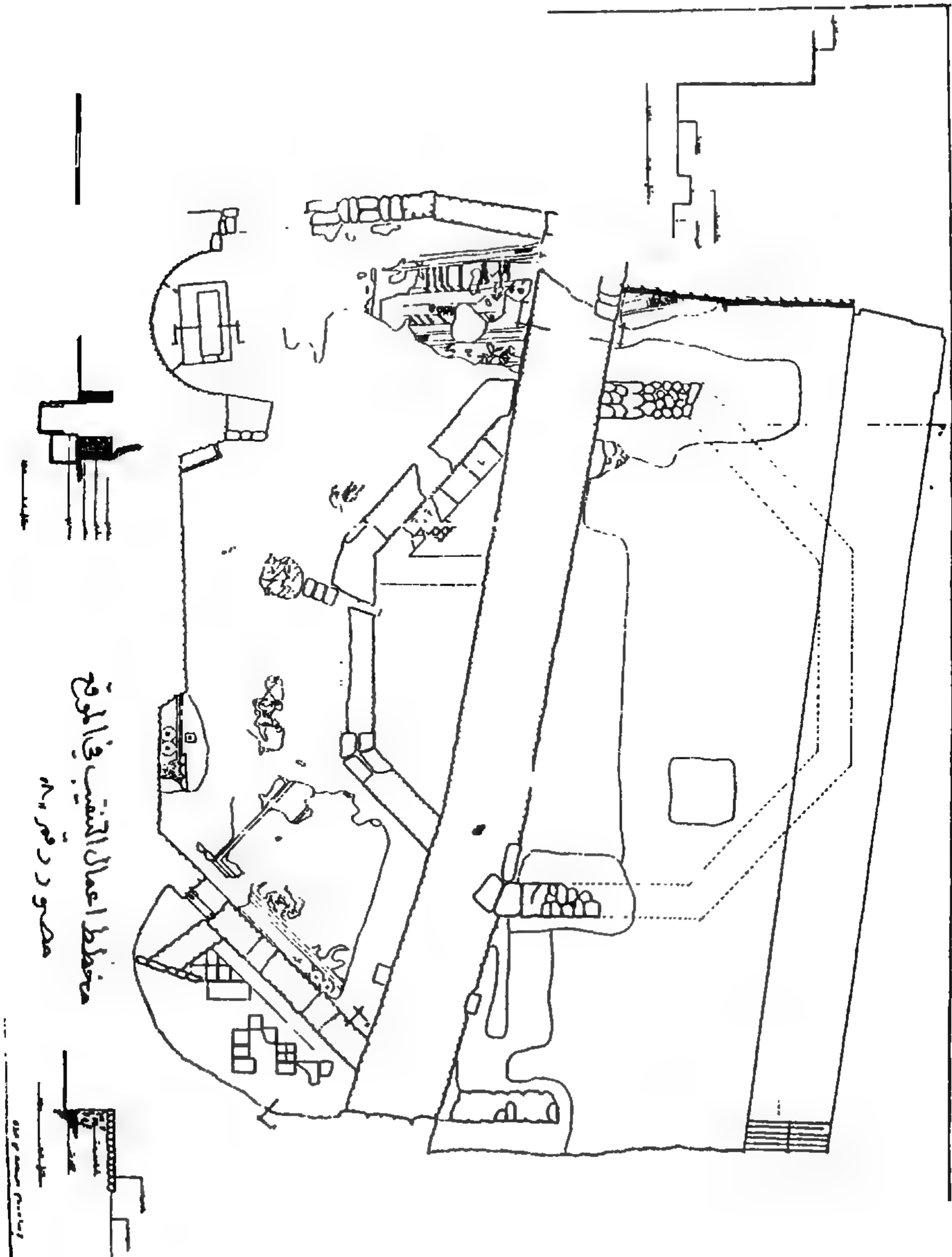
وبعد أن استكملنا التنقيب في الجزء الجنوبي من العقارات بدأنا بأجراء الأسبار في الجزء الشمالي لمتابعة بقية أضلاع المثلث ولوحات الفسيفساء التي تزينه وإن كنا نرجح آنذاك عدم وجود استمرارية لأضلاع المثلث في ذلك الجزء نظراً لانخفاض مستوى الأرض فيه مما يدل على أن تشويهاً في أرضية المثلث وأضلاعه قد حصل منذ زمن ليس بالقريب ونتيجة لتراكم الانقراض فيه وصعوبة العمل بالتالي عدنا للعمل في الجزء الجنوبي حيث قمنا بتنظيف لوحة الفسيفساء الغربية لتصويرها كمناظرنا بإزالة الردميات من الفجوة التي وجدت إلى الشرق من الضريح الذي يقع ضمن الحنية والتي يمكن أن تكون بئراً لأن التدقيق في شكله جعلنا نشك بأن يكون بئراً نظراً لوجود صخرة كلسية ضخمة عند نقطة الالتقاء بين القوس الذي يضم الحنية وبداية القوس الآخر مما جعلنا نرجح بأن يكون مدفناً أو قبواً داخلياً يتبع للمبنى ، ولكن بعد

إزالة الردميات على عمق ٤ م لم نعثر على أي مؤشر يدل على وجود مدخل لمدفن، فأوقفنا عمل رفع الأنقاض منه لأننا وجدناه دون جدوى لاسيما وأن التراب أصبح رطبا مما جعلنا نرجح بأن المكان هو بئر.

في تلك الأثناء تابعنا كشف الجدار (B) وهو بطول ٧٠م وعرض ٨٢سم وإرتفاع ثلاثة مدا ميك، وتم تنظيف المكان قرب الباب المكتشف حيث ظهرت استمرارية الجدار المذكور بطول ١٠م فيكون الجدار بالكامل ٩١م ٧٠م كما ظهرت آثار جدار آخر (C) يلتقي مع الجدار (B) وقد عثرنا على آثار في غاية الأهمية وقد حفظت للدراسة وهي عبارة عن بقايا لوحات جدارية (فريسك) ذات رسوم ملونة بألوان زاهية تتدرج بين الأحمر والبرتقالي والأصفر والعاجي مما أكد لنا بأن جدران هذه الكنيسة الهامة مزينة باللوحات الجدارية إضافة إلى أننا عثرنا على بقايا من القرميد الذي يستعمل للأسقف وقد تم الكشف عن ٧٠م ٣م من الجدار (G) وأثناء متابعة العمل لكشف تتممة الجدار وتنظيفه عثرنا على لوحة فسيفساء أخرى ملاصقة للجدار (H) مما يدل على أنها بنيت في الفترة نفسها وأنها ترتبط تماما مع الجدار وهي بطول ٨٠م وعرض ٢٠م وهي بحالة سليمة نسبيا وتمثل إطار لوحة الصليبان البيزنطية المكتشفة في المربع (B).

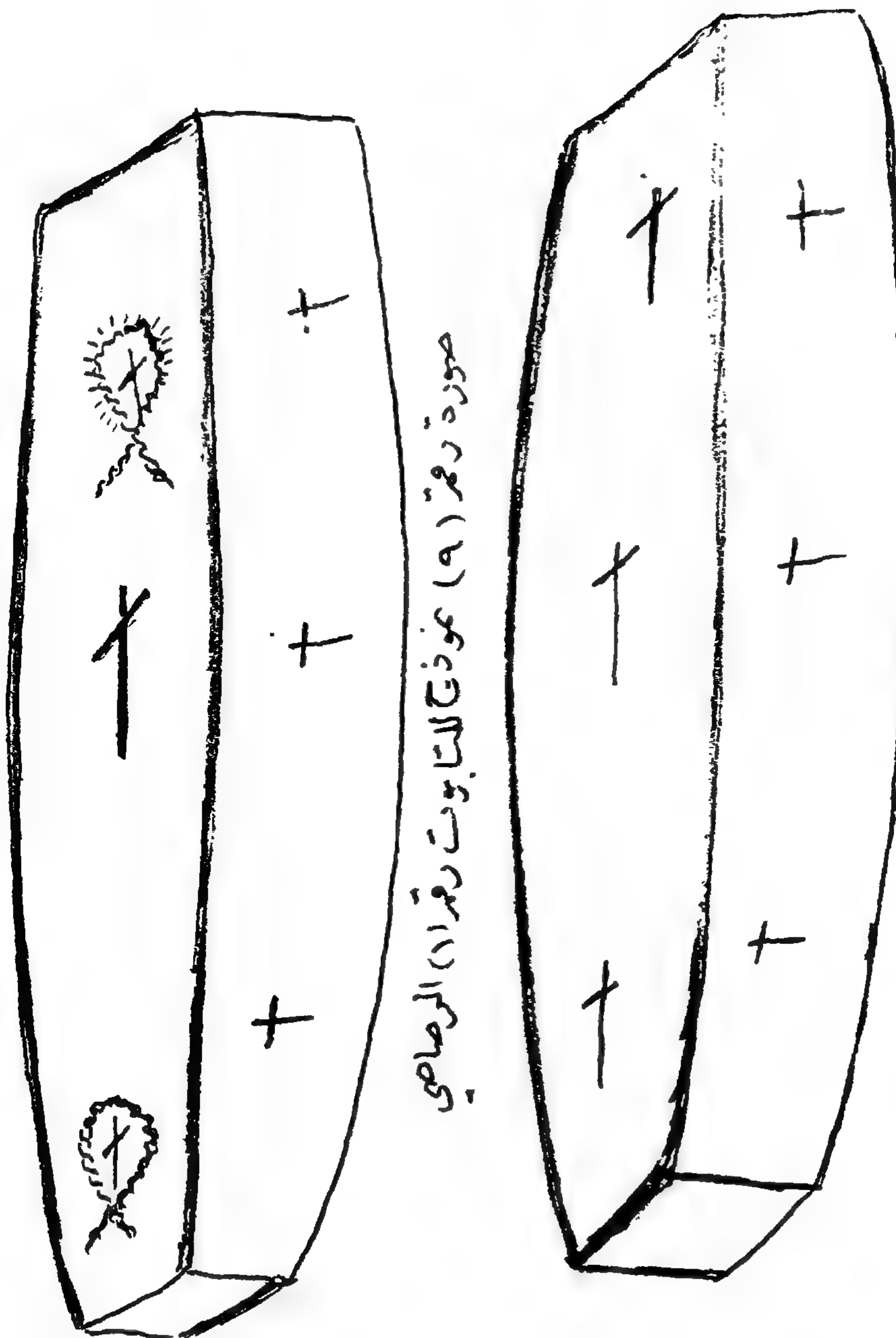
وتم الكشف عن ٧٠م ٣م من الجدار (G) بإرتفاع مدمكين في قسمه الشرقي وأربعة في الجزء الغربي منه كما وجد في منتصفه شكل قريب من العتبة . وشيئا فشيئا بدأت تتوضح معالم الأبدية الأثرية المكتشفة والتي هي عبارة عن كنيسة مثمثة الأضلاع يتراوح طول الضلع بين ٨١م ٥م للضلع الشرقي و ٥٠م ٦م للضلع الجنوبي و ٩٠م ٥م للضلع الغربي بسماكة تتراوح بين ٨٥ إلى ٩٥سم، وتزين لوحات الفسيفساء الإطار الخارجي للمثمن بينما يزدان المثلث الداخلي بالرخام الملون والمرصوف بأشكال هندسية جميلة (الشكل رقم ٨).

وبعد أن قمنا بترحيل الأنقاض من الجزء الشمالي للعقارات بدأنا بأجراء الأسفار فيه لكن الأمطار هطلت بغزارة يومها ولم نتمكن من العمل بتاتا في ذلك اليوم حيث بقينا ننتظر مع الأستاذ نسيب صليبي^(٥)



الذي جاء بتكليف من المديرية العامة للإشراف على التنقيب* أملين أن تكون سحابة صيف وتنقش لكن الأمر كان أكثر صعوبة مما توقعنا مما جعلنا نقلق بشأن الفسيفساء أن يصيبها الضرر من جراء المطر الغزير فذهبنا تحت المطر لتفقدنا وبدأت لنا صورة المكان جلية بعد أن غسلتها مياه الأمطار . وتوضح مخطط الموقع أكثر فأكثر وظهر جمال لوحات الفسيفساء بألوانها الزاهية ورسومها البديعة . وكشف لنا المظهر عن أشياء لم نكن قد رأيناها بعد فقد تبدت لنا بصورة جليسة اللوحات التي كانت ترصف المثلثات التي تقع بين لوحات الفسيفساء بشكل هندسي جميل على شكل (حصير) . وقد عملنا يوم الجمعة في ١٩٨٨/٦/٢٤ عوضاً عن الخميس وبدأنا بفتح السبر الأول في القسم الشمالي (G) شمالي بطول ٤م x ٥٠م بعمق ٢٥م ثم تابعنا العمل في الأيام الثلاثة التالية لتوسيع الأسوار الشمالية حيث ظهرت على عمق أكثر من متر الأساسات العميقة لأضلاع المثلث المتبقية . ولكن على استمرار أقل من متر حيث بدأت تختفي المعالم نهائياً . وقد ظهرت لنا في اليوم التالي قطعة صغيرة من الفسيفساء غرب السبر P مستمرة داخل العقار المجاور ٣٢/ رابعة . وتمتد على نفس مستوى اللوحة الغربية المجاورة لجامع النوري والتي تم كشفها في السابق والتي تبدو غير مرتبطة بالمثلث المكتشف وفي الوقت نفسه كنا قد بدأنا بأجراء سبر جديد في الجهة الشرقية من العقار قرب الطريق العام حيث ظهرت أساسات لجدار يتجه نحو الشمال يوازي الجدار (B) المكتشف في الجزء الجنوبي منه . وقد ظهرت أرضية من الرخام وأساس لجدار هو استمرار لأضلاع المثلث الخارجي . وبعد أن تم كشف واستكمال التنقيب في كامل العقارات المذكورة قمنا بفتح الضريح الذي تضمه الحنية نصف الدائرية وهو عبارة عن بناء من القرميد يحوي بداخله مجموعة عظام متفرقة إضافة إلى كسر فخارية ، ويعلو الضريح المذكور ضريح آخر مبني بالحجر البازلتي يضم تابوتاً من الرصاص بطول ٨٨م وتزين رسوم الصليبان غطاء التابوت وأطرافه (صورة رقم ٩) كنا قد علقنا آمالاً كبيراً في العثور

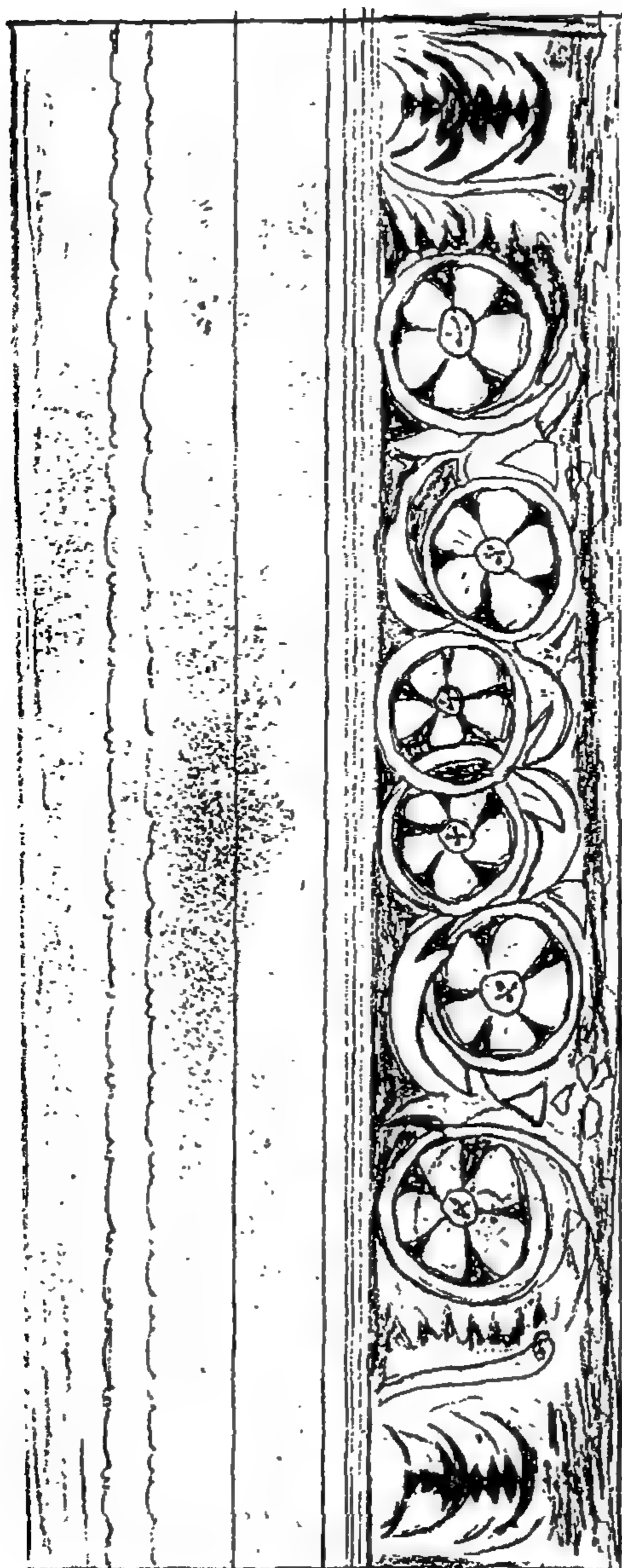
* - تم العمل بإشراف مديرية التنقيب لدى المديرية العامة للإشراف والمتاحف ممثلة بالاستاذ نسيب صليبي الذي قدم إلى حمص مرات عديدة للإشراف على العمل فله



على كتابات أو لقي مدفنية أو أي إشارات تفيدنا في تحديد عمره ولم نعثر بداخله على هيكل عظمي كامل وإنما على مجموعة عظام متفرقة تخلو من عظام الجمجمة لم توحّد بمواضعها نظراً لتحويل مياه الصرف الصحي إليه، لذلك كان أسفل التابوت تالفاً نتيجة الرطوبة وكان الشيء الهام الذي عثرنا عليه بقايا خيوط مذهبة تالفة. والى جواره وجد ضريح آخر من الرخام تزدان واجهته بتزيينات نباتية جميلة وهي عبارة عن زهرات نافرة محاطة باطار دائري وفي كل جانب صورة لبجعة (صورة رقم ١٠) وقد وجد بداخله تابوت آخر من الرصاص لكنه أصغر من سابقه ومزين بإشارات صليب محاطة بأكاليل من الغار (صورة رقم ١١) ويحوي بداخله هيكل عظمياً كاملاً وقد نقل التابوتان إلى المتحف بينما أرسلت بعض العظام للتحليل وقد اضطررنا إلى إبقاء تنمة الضريح الرخامي في مكانه نظراً لخطورة وضع الجدار بقي ضريح رابع لم نستطع الكشف عنه للسبب الانف الذكر. وبعد استكمال التنقيب في كامل العقارات المذكورة بقي علينا اتمام المرحلة الأخيرة من التنقيب وهي الكشف عن ساكف الباب الخارجي المكتشف وقد انتهزنا فرصة قيام مديرية الأوقاف بإجراء إصلاحات في مكتبة الجامع النوري لأخذ بعض الأسبار في أرض وجدار المكتبة. بدأنا بإجراء سبر في الزاوية الجنوبية الشرقية لأرض المكتبة بطول ١م وعرض ٢٠ر٢م حيث عثرنا ضمن الردميات على كسر عظمية وفخارية ثم قمنا بفتح سبر جداري بطول ٦٠ر١م x ٨٠ سم وعمق ٦٥ سم وارتفاعه من مستوى الأرضية ٩٠ سم في المنطقة التي حددنا وجود ساكف الباب فيها حيث تم كشف ساكف الباب الذي خلا من أي كتابة أو زخرفة أو تاريخ للمبنى وإنما هو عبارة عن حجارة صماء.

نتائج التنقيب :

كان للتنقيب في حي الفاخورة أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ مدينة حمص إذ إن التنقيب فيه فتح أمامنا آفاقاً جديدة بالنسبة لتاريخها في العصور الرومانية والبيزنطية والإسلامية وخاصة فيما يتعلق بالأسوار ومخطط المدينة القديمة وتاريخ بناء المسجد النوري الكبير



مصور رقم (١٠) واجهة التابوت الرخامي

وموقع الكنيسة التي أدى التنقيب في أنقاضها الى كشف منشأة هامة تعود الى العصر البيزنطي وعلى الأرجح توّرخ بنهاية القرن الرابع أو مطلع القرن الخامس الميلادي ، وهي عبارة عن كنيسة مثمثة الشكل تزين الفسيفساء فيها أرضية المثلث الخارجية بينما رصفت أرضيته الداخلية بالرخام الملون بأشكال هندسية جميلة وازدانت جدرانها بالرسوم الجدارية (الفريسك) . وتعتبر لوحة الفسيفساء الغربية ذات أهمية كبيرة نظراً لندرة موضوعها فهي تصور مبنى على جانب كبير من الأهمية وقد يكون أحد الكنائس الهامة والمعروفة في ذلك الوقت بواجهتها الرئيسية الضخمة المبنية بالحجر البازلتي والتي تزينها الأعمدة . كما أنها مثلت صورة الهيكل في الزاوية الجنوبية الشرقية منها إضافة الى حي سكني ربما يصور بعض الأحياء السكنية في مدينة حمص آنذاك . ومن هنا تأتي أهميتها لأنها تدلنا على نمط العمارة في حمص آنذاك وكل ذلك يقع ضمن مجموعة من الإطارات الجميلة بعضها بأشكال هندسية وأخرى تبدو بتزيينات نباتية تشكل زهرة الأكانتوس بألوانها الجميلة العنصر الأساسي فيها . وحسب معلوماتنا تعتبر هذه اللوحة من أندر اللوحات التي تمثل المنظور . ونعتقد بأن التدمير أو الحريق الذي تعرضت له المنطقة مسـراراً قد أصاب الباب الرئيسي للكنيسة ، إضافة الى واجهتها الرئيسية التي نرجح بأنها كانت تزدان بالأعمدة الفرانجية . وحسب توقعاتنا فمن المحتمل أن يكون الباب الرئيسي لها في الضلع الجنوبي للصليب أو أن يكون مدخل الكنيسة الرئيسي في منتصف الجدار الغربي وقريب من موقع السور الحالي فإن الباب المكتشف ليس الباب الرئيسي وإنما هوشانوي وقد يوجد في الطرف الشمالي للجدار باب فرعي آخر مناظر للباب المكتشف وقد يتم التوصل مستقبلاً الى الكشف عن أساساته عند التنقيب في تلك المنطقة . ويبدو لنا من أسلوب عمارة الجدار الغربي المكتشف أنه الجدار الأصلي للكنيسة في جزء كبير منه وأنه قد رمم أكثر من مرة للاستخدامات اللاحقة له ليكون جداراً للجامع النوري الكبير بدليل الأحجار المختلفة التي استخدمت في بنائه لذلك فإن الجدار يمثل حدها الغربي

لكن لاتزال أمامنا مهمة معرفة حدودها الثلاثة الأخرى الشمالية والشرقية والجنوبية والتي نحن على يقين من وجود استمرارية لها في تلك الاتجاهات ، لأننا لم نعثر أثناء التنقيب على الهيكل والمذبح ولا بد أنهما يقعان الى الشرق من المنطقة التي تم التنقيب فيها وتحت أرض الطريق العام شرقاً ، وهذا يدعونا الى القول إذا كان الجدار المكتشف هو حدها غرباً فإن الجامع الكبير يكون قد بني بجوار البيعة النصرانية من جهة الغرب وليس على أنقاضها كما يدعي الكثير من المؤرخين السابقين كابن حوفل وابن الفقيه والمقدسي وغيرهم لكونهم لم يطلعوا على مكان الكنيسة الحقيقي . وحسب المعطيات التي توصلنا إليها نتيجة التنقيب فقد بني الجامع مستنداً على جدار الكنيسة من الغرب وبعد تدميرها إثر زلزال أو حريق ، وعلى الأغلب اثر الغارات البيزنطية . كما تبين لنا بأن الجامع الكبير هو أحدث عهداً من السور المكتشف وقد استفاد المسلمون أثناء عمارته من الجدران القائمة وهي الجدار الشمالي الذي هو جزء من السور الشمالي للمدينة كما أنهم استفادوا من الجدران الغربية للكنيسة لذلك فإننا نرجح بأن السور الذي يشكل الجدار الشمالي لجامع النوري الكبير هو أقدم عهداً من الجامع بدليل أنه استخدم مع جدار الكنيسة باعتباره حدوداً للجامع شرقاً وشمالاً .

وبعد أن تأكدنا من هوية المكان المكتشف فإنه لاتزال أمامنا مهمة التأكد من اسم الكنيسة المكتشفة هل هي كنيسة مارقسطنطين ؟ أم أنها كنيسة القديس يوحنا أو ما كان يطلق عليه اسم الكنيسة الكبرى أو البيعة النصرانية . ونعتقد ثانية بأن المسميات الأربعة ربما تكون لمسمى واحد . وقد تساعدنا أعمال التنقيب القادمة في التوصل الى نتائج قطعية في هذا المجال .

السؤال الثاني الذي يطرح نفسه الآن . كيف كان مخطط مدينة حمص في العصرين الروماني والبيزنطي ؟

وحسب اعتقادنا فان حدود المدينة كانت أوسع بكثير من حدود

المدينة الموجودة ضمن السور المكتشف لان اختراق سور المدينة للآبـسـدة الأثرية المكتشفة في منتصفها تقريبا يدل على أنه بني بعد خراب الكنيسة من جهة كما أنه يدل من جهة ثانية على اضمحلال شأن حمص آنذاك وتقلص حدودها بالتالي . فإذا كانت حدود المدينة الواقعة ضمن الاسوار الحالية هي حدود المدينة الاسلامية لذلك أصبحت الضرورة ملحة الآن للبحث عن أسوار المدينة في العصور السابقة اليونانية والرومانية والبيزنطية لأننا وحسب المعطيات الحالية نوكد بأن السور المكتشف والذي يمتد على طول ٢٤ م من العقارات المذكورة يعود قطعاً الى العصر الإسلامي والذي يشكل جزءاً من السور الشمالي للمدينة والتي لاتزال بقايا جدرانه وأبراجه موجودة على الواقع بعضها ظاهر للعيان كالجدار الشمالي للجامع الكبير ببرجه نصف الدائري ، إضافة الى سور حي الأربعين . وبعضها الآخر طمس عندما ركبته المباني واستخدمت جدرانه كواجهات أمامية أو خلفية للبيوت المشادة حديثاً أو أنه هدم لسبب أو آخر وانه بني حتماً بعد دمار الكنيسة . إننا نعتقد جازمين بأن الأسوار السابقة للعصر الإسلامي تقع الى الشمال بعيداً عن الأسوار الحالية ولذلك لابد من تقصي معالم المدينة في الجهة الشمالية لملاحظة أية إشارات في طبوغرافيتها قد تشير الى احتمال وجود الأسوار التي تعود الى عصور أقدم .

لكن من الذي قام ببناء هذا السور ؟ وفي أي عهد تم تشييده ؟ إن المصادر التاريخية لاتسعفنا بجواب في هذا المجال وحسب المصادر التي اطلعنا عليها فإنها تتحدث عن قيام الخليفة الأموي مروان بن محمد بهدم أسوار حمص انتقاماً من أهاليها الثائرين عليه وربما فعل مثله الخلفاء العباسيون عندما شارت حمص أيام الرشيد والأمين والمعتصم والمتوكل والمستعين . وفي المصادر المشار اليها ذكر

* - حدثت فتن عديدة في حمص زمن الخلفاء العباسيين في عهد الرشيد سنة ١٩٠ هـ والأمين سنة ١٩٤ هـ والمتوكل ٢٤٠ و٢٤١ هـ وفي عهد المستعين مرة في

سنة ٢٤٨ هـ وثلاث مرات في سنة ٢٥٠ هـ .

لقيام الأمراء الحمدانيين والملوك الايوبيين بتدعيم القلعة والأسوار بينما لا تتحدث تلك المصادر عن مسألة تضيق رقعة المدينة ومن ثم بناء أسوار جديدة .

إن أهمية هذه الاكتشافات تعود لأسباب عديدة إضافة إلى ما ذكرناه آنفا : منها أن الآثار المكتشفة والتي تعود إلى العصور السالفة قليلة في مدينة حمص ولم يعد يوجد فيها من المباني القديمة التي تشهد على مدى عظمتها في تلك العصور ومن هنا تأتي أهمية التنقيب الذي كشف عن أثر يعد من أهم الآثار التي تعود إلى العصر البيزنطي .

إن التنقيب شرقي جامع النوري الكبير فتح أمامنا آفاقا كبيرة للعمل في مجال التنقيب عن الآثار ضمن المدينة القديمة والتي لم تحفظ سابقا بمجهود يذكر على قلته ، وقد طرح التنقيب على بساط البحث أسئلة كبيرة هي بحاجة إلى جواب ومنها أن بعض المعلومات التي وردت عند المؤرخين السابقين ما تزال بحاجة إلى تحقيق وإعادة نظر على ضوء المعطيات الجديدة وبخاصة فيما يتعلق بالكنيسة المكتشفة وبناء الجامع النوري الكبير إضافة إلى الأسوار ومن زاوية أخرى تحققنا من صحة المعلومات التاريخية التي كانت تتحدث عن أهمية حمص في العصرين الروماني والبيزنطي عندما كانت مدينة عامرة ثم كيف بدأت أهميتها تضمحل نتيجة لأسباب عديدة يمكن تلخيصها فيما يلي :

- ١ - ظهور نقمة على السلطنة في أواخر الحكم الأموي .
- ٢ - نقل مركز الخلافة من الشام إلى بغداد أدى إلى إهمال الشام .
- ٣ - الفتن والحركات الثورية العديدة التي قام بها أهالي حمص ضد السلطنة العباسية ووقوف أهالي حمص موقف المعارضة .
- ٤ - ضعف الدولة العباسية وبالتالي قيام دويلات عديدة متصارعة فيما بينها بالإضافة إلى تعرض المنطقة للغارات البيزنطية والحروب الصليبية والمغولية والزلازل والوبئة .
- ٥ - ضعف الأمن وتفشي الأمراض وانحسار الرقعة الزراعية وسيطرة البدو على زمام الأمور .

كل ذلك ساعد في انحطاط شأن حمص ثم ازداد انحطاطها وتسردي
الأوضاع فيها خلال فترة الحكم العثماني .
وقد جاءت الشواهد الأثرية التي بين أيدينا تؤكد هذه الحقيقة
لأن اختراق السور الإسلامي لهذه الأبدية يدل على خرابها واضمحلال
شأنها . لذلك استخدمت بعض الأعمدة الفرانجية التي كانت تزينها
لتدعيم الأسوار إضافة إلى أنه يدل على تقلص رقعة المدينة .
إن المنطقة المجاورة لجامع النوري الكبير تبدو ذات أهمية كبيرة
من الناحيتين التاريخية والأثرية . لذلك فإن التنقيب فيها خلال
الفترة القادمة قد يحمل إلينا الكثير عن تاريخ مدينة حمص وربما
يوصلنا إلى نتائج هامة تنير لنا بعض الصفحات المجهولة وتعطينا الإجابة
عن الأسئلة الكثيرة التي تبدو حالياً بدون حل .



حواشي البحث

- ١ - قلعة حمص : وهي عبارة عن تل أثري يقع في الزاوية الجنوبية لمدينة حمص القديمة وتشرف قلعة حمص على سهلها من أعلى تل جزء منه طبيعي والآخر اصطناعي وتتخذ شكلا مستديرا في ذروتها يبلغ قطرها نحو ٢٧٥م وترتفع حوالي ٣٢م عن سوية الطريق المجاور وتحاط بمنحدر ينحدر بسرعة نحو خندق كان يحيط بها وقامت بلدية حمص بردمه منذ عدة سنوات وتحول مكانها الى حدائق عامة بحيث لم يبق سوى أجزاء صغيرة منه في القسم الشمالي من القلعة .
- ٢ - قامت دائرة آثار حمص في عام ١٩٨٣ بتنقيب طاريء في قلعة حمص حيث تم اكتشاف كسر فخارية من النموذج المعروف بكووس حماة وهي نموذج من الفخار أرخ في الربع الثالث من الألف الثالثة قبل الميلاد وهذه القرينة الأثرية تؤكد وجود سكن في تل حمص معاصر لنفس السويات الأثرية المكتشفة في المشرفة (قطنا) وتل النبي مندو (قادش) وحماة وإيلا نشرت نتائج التنقيب في كتاب الموجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها للاستاذ محمد ماجد الموصلي ، مطابع الروضة النموذجية ، حمص ١٩٨٤ صفحة ٩ .
- ٣ - د . سليم عادل عبد الحق - مقال مدينة حمص - الحوليات الأثرية - المجلد العاشر مطبعة الترقى دمشق ١٩٦٠ .
راجع مقال د . أنور حاتم - الذكريات السورية في روما - الحوليات الأثرية المجلد الحادي عشر والثاني عشر - مطبعة الترقى دمشق ١٩٦١ - ١٩٦٢ .
- ٤ - اسبيرو جبور - قديسون من حمص - المنشورات الارثوذكسية ١٩٨١ صفحة ١٥ .
- ٥ - أحمد وصفي ذكريا - جولة أثرية - دمشق - دار الفكر - طبعة ثانية ١٩٨٤ - صفحة ٣٣٤ وما بعدها .

٦ - شارك في ندوة "أسوار حمص وقلعتها" الزميلان الاستاذان محمد الشاطر ومنذر حمودي عضوا مجلس إدارة الجمعية التاريخية وأدار الندوة الاستاذ محمد علي المعاذ وهنا لابد لي من شكر الاستاذ منذر حمودي على الملاحظات القيمة والمعلومات الهامة التي أمدني بها فيما يتعلق بأسوار حمص وتصوره لمخطط المدينة قبل بناء الاسوار فله وافر الشكر .



حصار حمص والفتح العربي الإسلامي للمدينة (دراسة تاريخية نقدية)

بقلم الأستاذ محمد عبد الصمد الشاهر
عضو إدارة الجمعية التاريخية

في الفترة الأخيرة كثر الحديث عن حمص وكثرت الاتهامات واللوم لآبائنا على تقصيرهم بحق بلدهم ، لان ماعرف عن حمص حتى الان قليل ، معظم المدن السورية درست مرات ومرات فلم يبق فيها قلعة أو سور أو كنيسة أو مسجد الا درس دراسة مستفيضة . أما حمص فما زال يغلفها النسيان . هذا القول فيه كثير من الحقيقة كما يحمل في طياته بعض التجاهل لما قيل وكتب عن حمص ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر المؤلفات التالية :

تاريخ حمص لعبد الصمد بن سعيد ، تاريخ حمص لعمر الاتاسي ، تاريخ حمص لمحمد مكي ، تاريخ حمص في حرايين للخوري عيسى أسعد وابنه منير حمص أم الحجارة السود ساطع محلي ، ربوع محافظة حمص لعماد الدين الموصلي الموجز في تاريخ حمص ماجد موصلي ، رغم كثرة عدد التصانيف والمؤلفات بقيت صورة المدينة ضبابية في بعض جوانبها لعاملين اثنين :

الاول منهما :

ان تفاصيل تاريخ حمص قبل العصر الروماني بقي مجهولا ومشوشا لانعرف عنه الا النذر اليسير ، وخاصة اذا ماعدنا الى ما قبل العصر الهلنستي ، فالباحثون لهذه الفترة توفيقيون تنقصهم المادة التاريخية والخبر الواضح . يقحمون الامور اقحاما ، فهم يتحدثون عن منطقة حمص وعن حمص المدينة وكأنهما شيء واحد ، وغني عن البيان أن قادش وقطنا ودارثودا هي غير حمص .

قالوا انها ايمسيا اليونانية ، (سترابون المؤرخ اليوناني أورد ذلك وكذلك بلنوس الروماني) . ولكن قبل ايمسيا ماذا كانت ؟ . ثم ان ايمسيا هذه نفسها ماذا عنها ؟ لاشيء ولا شيء كثير فيما أعسرف والى حد بعيد فيما يعرفون ويوثقون .

المسؤولون في مديرية آثار حمص نقبوا في قلعة حمص ووجدوا كسرا فخارية يعود تاريخها الى ٢٤٠٠ ق م مما يؤكد وجود سكن في تل حمص خلال هذه الفترة .

كما أن أهالي حمص عثروا عام ١٩٢٨ في الجهة الشرقية من المدينة أثناء الحفر على انسان متحجر غريب الشكل حدا طوله نحو ثلاثة أمتار وطول قبره يزيد عن أربعة أمتار وله جمجمة كبيرة جدا توازي قدر محمطين من الحماجم العادية ، ونابة لطول الاصبع يظن أنه من آثار أقدم العصور المعروفة في التاريخ وأن هذا الشاهد المحسوس يؤكد صحة النظرية بسكن العمالقة في البقعة الحمصية قديما قبل زمن التاريخ وقبل نزوحهم الى جنوب سورية ، ثم حل محلهم الاموريون^(١)

وحمص كما يقول الدكتور جواد علي هي (Emesa - Hemesa - Homesay) فيشبه تاريخها من أوجه عدة تاريخ مدينة تدمر فقد حكمتها أسرة عربية وازدهرت تاريخها في الزمن الذي ازدهرت فيه حكومات المدن الاخرى والتي ظهرت على أثر الضعف الذي حل بالسلوقيين ، وتقع في السهل الذي يرويه نهر العاصي وعلى مسافة ميل منه و عرفت ب (emesa) عند اليونان والرومان ، وفي أيام بومبيوس كانت مدينة Arethusa المجاورة لحمص وهي الرستن مقر أسرة عربية حاكمة وفيها ولد القيصر (Elagabalus) وبلغت أوج ازدهارها في أيام (سبتموس سفريوس) وقد استدل بعض الباحثين من صور أسماء ملوك حمص على أصلهم العربي.^(٢) ماذا نستفيد من هذا النص ؟

المدينة بالاصل تدعى اما خمص أو حمص أو اميسيا .
إذا الصحيح بأنها عرفت عند اليونان بهذا الاسم اميسيا وليس اسمها يونانيا لها ، فحمص بلا شك موجودة قبل اليونان والرومان بفترة طويلة .

(١) - الخوري عيسى أسعد تاريخ حمص ج ١ ص ٣٢ - ٣٤

(٢) - جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٦٢٢ - ٦٢٣ ج ٢

كان هذا القول في السابق يحتمل كثيرا من الجدل فالكثيرون قالوا ما زادت حمص في أقدم أصولها أن كانت بلدا سلوقيا، وآخرون قالوا بل هي رومانية ولم تتجاوز النقود المضروبة في حمص عام ٦٥ قم وتابعوا : ليست احدى ممالك الاراميين كحماة كما أنه لم يرد لها اسم في التوراة ، وتنازلت عملية التعتيم على هذا المنوال ... الى أن قرئت ألواح ايبلا التي ازدهرت بين عامي ٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ قم فانسحبت بعض سحب التعتيم عن هوية حمص القديمة حيث ورد عنها : (ومن المـسـدن التي يأتي ذكرها نورد على سبيل المثال : مدنا مائزال حية هــي مدينة (أرمان) التي يحتمل أن تكون مدينة حلب نفسها . ومدينة ايميسيا أي حمص ومدينة ايمات أي حماة ثم مدينة ديماشكي التي يغلب على الظن بأن تكون دمشق العاصمة السورية الحالية (١) .

إذا حمص وقبل وجود اليونان اسمها ايميسيا وقد عرفها اليونان بهذا الاسم ولم يسموها به . وبهذا رد كاف على من قال بأن حمص مشكوك بقدمها وانها ما زادت في القديم عن تجمع سكاني صغير محصور في حدود القلعة فقد ورد اسمها مقرونا بأكبر المدن السورية الهامة والتجارية الكبرى . والقلعة بسكن أفقي لا تتسع الا لبصرة بيوت أو قرية صغيرة ، فوجود اسمها مقرونا مع أمثال هذه المدن يخرجهـا من هذه الدائرة الضيقة التي رسموها لها .

ليس لاحد أن يتحرج في شيء نريد المدينة تاريخها كما هو لـا كما نريد ، فالتاريخ مجموعة حقائق انقضت لامجموعة أمان تراد .
العامل الثاني :

ان تاريخها الميلادي والاسلامي غير منسق عند معظم من كتبوا لان مصادرهم عن المدينة تكاد تكون واحدة نظرا لقلّة وضآلة هذه المصادر من هنالعبت الالهواء والخيال دورهما في تسجيل هذه الاحداث . اذ نجد أن تاريخ عبد الصمد بن سعيد مازال مجهولا أورده المصنفون فيمـا كتبوا أمثال ياقوت الرومي وغيره وتاريخ ابن مكي لم يلق ضوؤا

(١) - وثائق ايبلا د . عفيف بهنسي ص ٢٨

يستنار به . وتاريخ عمر الاتاسي لا وجود له أورده فقط العلامة كرد علي في خطته^(١) ويوميات الوفاي مازالت مخطوطة لم تنشر. ماذا بقي لنا بعد ؟ فلا بد اذا من التفتيش في صفحات المصادر القديمة (الطبري - ابن الاثير - التاريخ المنصوري - رحلة ابن حبير - رحلة ابن بطوطة - أو لياجلي - وصفى زكريا ... وهكذا نفعل ويفعلون ، وماورد في هذه المصادر غير كاف ولا يروي ظمأ العطاش ، والمشكلة أن أحدا لم يعطف على مكاتب البيوت القديمة ويتصل بأصحابها ليسرى ويرينا ماذا فيها ؟ .. والمشكلة الاهم والاثق تلك هي مشكلة الحفريات الاثرية في مدينة حمص بالذات فمنذ القديم اسمها مسقط من قائمة المدن التي يجب أن تتم فيها الحفريات الاثرية . كل مانستطيعه الان دراسة بعض الاوابد الاثرية فيها وايضاح بعض ماغض من تاريخها بقدر ماتسعف الحال . وهي خطوة متواضعة في آفاق تاريخ حمص العريق .

القلعة :

تل طبيعي ارتفاعه بالاصل لايزيد عن ستة أمتار حفر ماحولـه ووضعت الحفريات في أعلاه حتى غدت القلعة المعروفة ، وغدا ارتفاعها حوالي ٣٢م ومحيطها ٩٠٠م لها في أعلاها أسوار وأبراج دفاعية ، فاذا ماهاحمها عدو ما مليء الخندق الذي يحيط بها من جميع جوانبها بالمياه ويتولى المحاصرون في أعلاها عملية الدفاع . يمدون من المدينة عند الضرورة على جسور متحركة ترفع وتوضع عند الحاجة اليها وهي أقدم ماسكن في المدينة ، وعندما ضاقت بهم توسعوا بالبنا فيما حولها واتخذوا للمدينة الموسعة سورا وأبوابا غير سور القلعة نفسها . وباب القلعة الرئيسي واقع في الجهة الشمالية للاتصال بالمدينة مباشرة .

وقد عرفت قلعة حمص بقلعة (أسامة) مع أن أسامة بن منقذ لم يبنها ، إذ أن أباه نصر بن علي بن منقذ أخذها من خلف بن ملاءب

(١) - خطط الشام كرد علي ج١ ص ٢٠

عام ٤٩٧ هـ ١١٠٤ م . كما أن القلعة الحمدانية انهارت عام ٥٦٥ هـ نتيجة حدوث الزلزال ، فالابراج والجدران القائمة الآن هي من صنع الايوبيين وهي التي امتنعت على السلطان . فعند ما نزل السلطان صلاح الدين الايوبي على حمص دخل المدينة واستلمها وامتنعت عليه القلعة فحلف من يحصرها وسار الى حماة ثم الى حلب ثم رحل عنها بسبب نزول الصليبيين على حمص ووصل الى حماة ثامن رجب عام ٥٧٠ هـ وسار الى حمص فرحل الفرنج عنها فحصر القلعة وملكها في حادي عشرين شعبان ثم سار الى بعلبك^(٥) ويخبرنا ابن نظيف الحموي في التاريخ المنصوري عما صنعه الملك المجاهد للقلعة والاسوار فيقول في حوادث سنة ٦٢٤ هـ (. . .) وكذلك عمّر قلعة حمص ورفعها عما كانت عليه . وحصنها وعمّق خندقها وأحرى المياه من الزراعة الى البلد نفسه وعمل قنوات وأحرى الماء في المدينة وعمل البساتين وتجرّفت المياه في جميع أراضيها الغربية وزرع الارز عليها وغير ذلك وأطاعه العاصي وهذا لم يقدر عليه سواه من الملوك الذين تملكوا حمص^(٦) . بينما نرى أن أولياجلبي يقول عن حمص بأن قلعتها ليس لها خندق وبابها متجه نحو الغرب ويأتي الماء الى المدينة بساقية شقت من العاصي (عاش مسابين ١٦١١ - ١٦٧٩ م)^(٧) .

هذا يوضح كيف يخطيء الرحالة والمؤرخون أيضا لعدم الدقة في تحري الخبر فالخندق موجود قبل الملك المجاهد / هو عمقه / وزيارة أولياجلبي تمت بعد اصلاحات المجاهد بمئات السنين .

(٥) - شفاء القلوب لاحمد الحنبلي ص ٨٦

(٦) - التاريخ المنصوري لابن نظيف الحموي ص ٨٦

(٧) - رحلة أثرية أحمد وصفي زكريا ص ٢٤ - ٢٥

الابواب والاسوار : (٨)

في واقع الحال ما اتفق اثنان في عدد أبواب مدينة حمص ولا في أسمائها الجديدة والقديمة ، ولا غرابة في ذلك اذا أخذنا بعيـن الاعتبار أن كبار المؤرخين لم يتفقوا حتى الان على كيفية فتح المدينة حتى في التفاصيل الاساسية . وأقدم من تحدث عن الابواب بشيء من التفصيل الواقدي في كتابه فتوح الشام فقال بوحود أربعة أبواب للمدينة هي حسب توالي وتوزيع القادة عليها كما يلي : (فقسم أبوعبده عسكره فرقه مع المسيب بن نجيه الفزاري وحعله على باب الجبل) مما يلي الباب الصغير ، وبعث فرقة أخرى مع المرقال بن هشام بن عقبة بن أبي وقاص فنزل بهم على (باب الرستن) وفرقة أخرى مع يزيد بن أبي سفيان فنزل بهم على (باب الشام) ونزل أبوعبيدة و خالد بن الوليد على الباب الصغير) .

مركز القيادة اذا على الباب الصغير ويقع غرب الباب الغربي للجامع النوري الكبير . فالحمام الموحد بالقرب منه لفترة وحيـزة كان يعرف (بحمام الصغير) والباب الذي يليه (باب الجبل) يعرف الان باسم (باب السباع) . فلم يبق بابا يؤدي الى الرستن مباشرة سوى الباب الذي يعرف الان باسم (باب تدمر) وعلى هذا يكون هو (باب الرستن) بقي باب الشام بطبيعة الحال هو (باب الدريب) فهو الباب الرابع المتبقـي والذي يؤدي الى الشام . بعدها تغيب المصادر عنا حول الابواب وأسمائها الى أن يأتي محمد المكي في يومياته عن الفترة (١٦٨٨-١٧٢٢) م فيقول ان للمدينة ثمانية أبواب هي (باب تدمر - باب هود - باب السباع - باب الدريب - باب التكية - باب المدينة - باب البوابة - باب خان العشر) (٩)

(٨) - راجع مجلة البحث التاريخي العدد الثاني ص ١٢٥ في دراسة ميدانية للقلعة والاسوار

(محمد الشاطر - منذر حمودي) . وقد أظهرت الحفريات الجديدة بعض أجزاء السور وبعض الأبراج في مناطق لم يكن للسور فيها أثر . على ضوء ذلك وبناء على معلومات إضافية أخرى أتعرض لصياغة بعض فقرات البحث السابق بما يتفق مع المعطيات الجديدة .

(٩) - تاريخ حمص محمد المكي ص ١٨ تحقيق عمر العمر .

بينما الابواب المعروفة حتى الان عند أهالي حمص وما زالت بعض آثارها قائمة حتى الآن هي : (باب التركمان - باب المسدود - باب هـود - باب السوق - باب تدمر - باب الدريب - باب السباع) وهكذا تختلف الابواب في عددها وأسمائها . أيام الفتح العربي الاسلامي كانت أربعة وفي ق ١٨م كانت ثمانية والمعروف الان سبعة أبواب على ما ذكر أعلاه لاحظ أن الباب المسدود لم يذكر مطلقا لدى ابن مكي مع أنه موحود قبله بكثير اذ تشير الكتابة الموجودة على ساكفته أن بانيه المنصور ابراهيم الايوبي في ٦٤١هـ . بينما يقول الخوري عيسى عنه بأنه باب التركمان الذي دخل منه السلطان سليم فأغلق بالحجارة احتراماً للسلطان وبقي مغلقا حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ويعرف بالباب المسدود^(١٠) . بينما باب التركمان يقع الى الجنوب منه بحوالي خمسين مترا ، وما زال البابان موجودين : الاول بشكل شبه كامل والثاني في آثاره وبقيائه ، شمال القلعة مباشرة . من المحتمل أن اسم باب التركمان كان يطلق على الباب المسدود فلما أغلق/اجللاً للسلطان/فتح في السور باب آخر سمي بالاسم نفسه (باب التركمان) اذ أصبح الباب الاساسي مسدودا . وهذا يفسر قرب البابيين من بعضهما بحيث لا تدعو الضرورة الى وحودهما معا . كما أن باب التركمان لم يذكر لدى ابن مكي مطلقا باسمه مع كثرة ذكره للتركمان بمرارة واساءتهم للمدينة بأعمال النهب والتخريب . ولعل (الثغرة الموجودة في الجدار الشمالي للسور سماها باب البوابة . أما باب التكية وباب خان العشر فلا أثر لهما فيما بقي من آثار الابواب . مع أن آثار الابواب الاربعة الاساسية والاقدم ما زالت موحودة . هذا وضع الابواب المحدثه على امتداد حدران السور . معظمها أقيم في العهد الايوبي ، خلا الابواب الاربعة الاساسية والتي كانت قائمة عند الفتح العربي الاسلامي للمدينة .

أسوار المدينة وأبراجها :

أسوار حمص لم تقتحم عنوة من قبل المسلمين . حاصروها غير مرة

(١٠) - تاريخ حمص الجزء الثاني ص ٢٨٨ الخوري عيسى أسعد

وحررت حروب ومفاوضات كثيرة خارج المدينة كلها انتهت بالصلح. تكاد المصادر تجمع على ذلك مع اختلاف في التفاصيل الحزئية والشكليات. لذا بقيت أسوارها وأبوابها البيزنطية سليمة لم تمس بشكل أساسي، حتى أواخر العصر الأموي إذ قام مروان الثاني آخر خلفاء الأمويين برفع الأسوار وتقويتها عام ١٢٢ هـ بمساعدة القبائل القيسية ضد اليمانية المقيمة في حمص وماحولها. حيث خرجت عن طاعته فقمع ثورتها وحصنها ليأمن الفتنة ثانية. (١١) وفي العصر العباسي لم يتبدل شيء في وضع هذه الأسوار مع وجود ثورات يمنية بدأت تظهر بالمدينة منذ مطلع ق ٣ هـ على عمالهم لانحيازهم الى القيسية. على عكس ما كان عليه الحال في أوائل قيام الخلافة العباسية (١٢) والتبدل الواضح في وضع الأسوار بدأ منذ أواخر ق ٤ هـ وأخر ق ١٠ م حيث أحرقها وهدمها البيزنطيون أنفسهم من خلال الهجمات التي تمت في عهد نيكفورس الثاني وباسلسيوس.

وفي أواخر القرن الذي يليه /الخامس الهجري/ أعاد الزلزال هدمها مرارا. وعاد الزلزال الى تخريبها في أواخر ق ٦ هـ فتهدمت القلعة الحمدانية الى أن جاء الأيوبيون. فالقلعة وأسوارها وخذقها كلها من عمل الأيوبيين. نخص بالذكر منهم الملك المحاهد (١٣) إذ نحده في عام ٦٢٤ هـ يقوم بالاعمال التالية: (وفيها شرع السلطان الملك المحاهد صاحب حمص في حفر خندق القلعة وتعميقه وتوسعته وحصانته لانه من الثغور الاسلامية المندوب الى حصانته، وقد كانت القلعة قبل ذلك مترجلة صغيرة فعلاها وكبرها وحصنها وعني بها أتم عناية لله تعالى. وساق

(١١) - الموجز في تاريخ مدينة حمص ص ٤٠ ماحد الموصلي.

(١٢) - الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام. د أمينة البيطار ص ٥٣.

(١٣) - للملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي ولأه الناصر يوسف حمص بعد

موت أبيه سنة (٥٨١) هـ وكان شجاعا شهاما مقداما يباشر الحرب بنفسه وحفظ

المسلمين من الفرنج والعرب أما من ناحية الفرنج فبنى الأبراج على

مخاض العاصي ويركب لقتال العرب من ناحية البرية (شفاء القلوب لأحمد

الحنبلي ص ٢٣١).

الى حمص الميهاء وأطاعه في ذلك العاصي الذي لم يقطع قبله لغيره من الملوك^(١٤) بعد الايوبيين ما أصاب القلعة ولا أسوار المدينة أي اصلاحات أو أعمال انشائية على العكس تعرضت المدينة بكليتها - بما فيها الاسوار والقلعة - لعمليات التخريب والهدم على يد البدو والتركمان وقطاع الطرق^(١٥).

أما عن مسار الاسوار وأماكنها فقد أكدت الحفريات الاثرية والانشائية الجديدة صحة ما ذهبنا اليه في العدد الثاني^(١٦) اذ أن الاسوار في الجدار الشمالي بعد جامع حي الاربعين أصبحت واضحة وقائمة وتوقيع الباب الصغير مقابل الباب الغربي للجامع النوري الكبير لم يعد مجال مناقشة .

أما فكرة وجود سورين للمدينة فلم نعثر لها (حتى الان) على دليل مادي ملموس كما أن حفريات حي الفاخورة أظهرت امتداد السور في اطار توقعاتنا السابقة ، وقرب الزاوية الشمالية الشرقية للجامع النوري الكبير هناك ظهر السور وعليه من الجنوب مباشرة يقوم بسبب الكنيسة التي أوردتها أخبار الفتوح^(١٧) مازال الباب قائما لم يمسح من الوجود شأن أطلال السور التي أزيلت لتقام مكانه الابنية الحديثة المقررة . وقد ظهرت ضمن غرف الكنيسة لوحات الفسيفساء البديعة التي اقتلعت من مكانها انقاذاً لها وأرسلت الى معامل الترميم في معرة النعمان . ثم قلت العناية بالسور حتى سرح حراس الابواب وألغيت الضرائب والمكوس التي كانت تجبى من كل شخص يدخل المدينة ولم يعد له أي فائدة دفاعية ، في أواخر الحكم العثماني .

(١٤) - التاريخ المنصوري ص ١٣٧ ابن نظيف الحموي .

(١٥) - مقدمة تاريخ حمص ابن مكي تحقيق عمر نجيب العمر ص ٩٣

(١٦) - مجلة البحث التاريخي العدد الثاني محمد الشاطر منذر حمودي (ص ١٢٥)

(١٧) - لاحظ رواية البلاذري في هذا البحث حول فتح مدينة حمص واستثناء

ربع كنيسة يوحنا للمسجد (الجامع الكبير)

الفتح العربي الاسلامي للمدينة :

تهدف هذه الدراسة الى التفريق بين أمور ثلاث :

(١) عملية الفتح وما تبعها من معاهدات وحروب ودور أهل الجزيرة في مد المدينة .

(٢) قضية جلاء المسلمين عن المدينة في طريقهم الى اليرموك

(٣) اضطرابات حمص وتحرك هرقل ومحاولته تحريض الجزيرة مددا لمدينة حمص مما أدى الى فتح الجزيرة نفسها .

هذه الامور نجدتها في مصادرنا القديمة ودراستنا الحديثة أيضا متداخلة مع بعضها بحيث يصعب تمييز بادرة عن أخرى .

١ - عملية الفتح :

(أ) - روايات الواقدي :

وهو أكثر من فصل عملية الفتح هذه - والملفت للنظر أن رواياته في فتوح الشام تختلف عنها في المصادر الاخرى فروايات الفتوح تقول أن المدينة امتنعت على المسلمين أكثر من مرة وجرت حولها معارك طاحنة في أكثر من مكان ومع ذلك لم يدخلها المسلمون عنوة كمالهم يدخلوها بعد الصلح الاخير مباشرة منذ بدء الفتح الاسلامي لبلاد الشام أراد أهالي حمص الصلح مع العرب المسلمين لذا نرى فرقته في حيش ورد ان تنسلخ عن الحيش الروماني الذي جاء مددا لأهالي دمشق وتطلب الصلح من خالد الذي لم يجده مناسبا ولما يصل الى مدينتهم بعد (١٨)

وبعد القاء الحصار على حمص عقب فتح دمشق خاف أهالي حمص ودفعوا الحيش المحاصر (نحن بين أيديكم ان فتحتم حلب قنسسرين وهزمتهم جيش الملك) ومرادهم كسب الوقت ليصل اليهم المدد (١٩).

× (١٨) - الواقدي فتوح الشام ج ١ ص ٢٦

× (١٩) - المصدر السابق ص ٦٤ - ٦٥

وبعد فتح قنسرين وانقضاء العام عاد خالد اليهم مسرعا ثم رفده أبو عبيدة بعد فتح بعلبك ووزع جنده على الابواب الاربعة المصار ذكرها (٢٠). وكانت المدينة قد تحصنت بعد أن أمدها هرقل بالبطريق هربيس فحرت مناوشات أعقبها صلح مقتضاه أن يرحل أبو عبيدة عنهم ثانية لقاء مده بالميرة. فقبل أبو عبيدة لأنه وجد النصر الحاسم على المدينة سيكلف ثمنا باهظا لذلك قبل العرض واشترى الميرة وقايضها بفنائم الجنود فاشترى منهم (أهالي حمص) ما يساوي ٢٠ دينار ابديناريين حتى أفرغت المدينة من المؤمن وكان الشرط أن لا يعود اليهم المسلمون الا بعد أن يفتح الله على أيديهم مدينة من مدن الشام. وغاية أهل حمص الان كسب الوقت بانتظار مدد هرقل ثانية. والمسلمون لم تغيب عنهم النوايا. فردوا عليها بشراء الميرة وترك البلد شبه خاوية من الزاد. وصلت أخبار الصلح هذا الى المدن العربية الاخرى فخافت وأسقط بيدها. أبو عبيدة استغل الفرصة وفتح الرستن حربا وشيـزر صلحا وعاد الى حمص مسرعا ، فقالت الروم غدرت العرب. وأرسلو وفدا منهم للمطالبة بالتقيد ببنود المعاهدة. وبعد المناظرة نفي الغدر وان الحمصيين لم يستوثقوا لانفسهم جيدا ولكنهم أبوا تسليم المدينة واستعدوا للقتال. وفي هذه الجولة استشهد عكرمة بن أبي جهـل وقبره مازال قائما في الحي المسمى باسمه في جنوب حمص) - مع أن هذا يخالف رواية الطبري التي تقول : بأنه جرح واستشهد فـي اليرموك .

وكان الحمصيون يقاتلون في الوقت المناسب ويلجأون الى حصونهم في حال الشدة الى أن كانت المكيدة التي دبرها خالد بن الوليد ومضمونها كما رواها خالد لابي عبيدة نفسه : أيها الامير قد رأيت أن من الرأي أن ننكشف للقوم غدا وندع لهم سوائمنا وابلنا فاذا تباعدنا عن مدينتهم ، وتبعتنا خيلهم وتباعدوا عن مدينتهم وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزقناهم بالاسنة (٢١)

(٢٠) - المصدر السابق ص ٨٧

(٢١) - الواقدي فتوح الشام ص ٩٤ ح ١

فانهزم خالد أمامهم وهو صاحب لواء الحرب يوم حمص فتبعه أهالي حمص وبدأوا عملية النهب فنهاهم أحد القساوسة الكبار قائلاً لهم هذه مكيدة من مكائد العرب لان العرب لا تسلم أولادها وابلهما ولو قتلوا عن آخرهم فلم يسمعوا له وتابعوا ملاحقة الجيش الاسلامي الذي تظاهر بأنه يريد (جوسيا أو الزراعة) . وبعد أن تأكد خالد بأنهم ابتعدوا عن مدينتهم بما فيه الكفاية ثبت لهم والتفت فئسة من جيشه حولهم وسبقتهم الى الابواب وأوقع فيهم مقتلة عظيمة من بينهم هربيس حاكم المدينة وقاتل عكرمة . ومع هذا النصر المبين لم يدخل أبو عبيدة المدينة حتى انه لم يقبل الضيافة والاکرامات التي قدمت له ولحنده ولم يدخلها المسلمون الا بعد اليرموك^(٢٢) . وتبدأ بعدها قصة رحيلهم الى اليرموك التي اختلف الرواة فيها كما سيرد في بابها . ولم تكن شروطا للصلح هنا لانهم تجهزوا لليرموك وهذا من باب حسن المعاملة .

ب - الفتح برواية البلاذري :

وعملية الفتح لدى البلاذري في فتوح البلدان هي أيضا من رواية الواقدي ولكن بشكل مختلف وهي أكثر قبولا من روايته المماثلة في فتوح الشام : (قال الواقدي وغيره : بينا المسلمون على أبواب مدينة دمشق اذ أقبلت خيل للعدو كثيفة فخرجت اليهم جماعة من المسلمين ، فلقوهم بين بيت لهما والثنية فولوا منهزمين نحو حمص على طريق قارا واتبعوهم حتى وافوا حمص فالفوهم قد عدلوا عنها وآهم الحمصيون وكانوا متخوفين لهرب هرقل عنهم وما كان يبلغهم من قوة كيد المسلمين وبأسهم وظفرهم فاعطوا بأيديهم وهتفوا بطلب

(٢٢) - الملاحظ أن الدكتور سهيلة الريماوي في بحثها (الذي قدمته الى المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام) تجعل هذه المعركة بعد انسحاب أبي عبيدة الى اليرموك ورده الاموال الى أهالي حمص . والمعروف أنه بعد اليرموك لم تحر أي معارك مع أهالي حمص (المصدر السابق ص ٢٣٨)

الامان فأمّنهم المسلمون وكفوا أيديهم عنهم فأخرجوا اليهم العلف والطعام وأقاموا على الارند. وهو النهر الذي يأتي انطاكية ثم يصب في البحر بساحلها وكان على المسلمين السمط بن الاسود الكندي، فلما فرغ أبو عبيدة من أمر دمشق استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان ثم قدم حمص عن طريق بعلبك . فنزل بباب الرستن فصالحه أهل حمص على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحاثهم واستثنى عليه ربع كنيسة يوحنا للمسجد واشترط الخراج على من أقام منهم . وذكر بعض الرواة أن السمط بن الاسود الكندي كان قد صالح أهل حمص فلما قدم أبو عبيدة أمضى صلحه . وان السمط قسم حمص خططا بين المسلمين حتى نزلوها وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة (٢٣)

ح - الفتح عند الطبري :

(من رواية سيف بن عمر مبسطة وتتلخص بحصار واحد يلقيه المسلمون على المدينة التي امتنعت شتاء رجاء أن يهلكهم البرد لان طعامهم لحوم الابل وشرابهم ألبانها) . وطال الحصار ولم يفعل الشتاء بالمسلمين شيئا . وبعد أن كبر المسلمون تصدعت الجدران وخاف الناس وطلبوا الصلح فحصلوا عليه . فأحابوهم وقبلوا منهم على أنصاف دورهم على أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم لا ينزلون عليهم فتركوه لهم^(٢٤) فصالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام على كل جريب أبدا أيسروا أو أعسروا وصالح بعضهم على قدر طاقتهم ان زاد ماله زيد عليه وان نقص نقص وكذلك كان صلح دمشق والاردن بعضهم على شيء ان أيسروا وان أعسروا بعضهم على قدر طاقتهم وولوا معاملة ماجلا ملوكهم عنه . وبعث أبو عبيدة السمط بن الاسود في بني معاوية والاشعث بن مثناس في السكون معه ابن عابس والمقداد فسي بلي وبلالا وخالدا في الجيش بن شتير وذهيل بن عطية وذا شمسثان

(٢٣) - البلاذري فتوح البلدان ص ١٣٢ ح ١

(٢٤) - الطبري ح ٣ ص ٦٠٠

فكانوا في قصبتها وأقام في عسكره . وكتب الى عمر بالفتح وبعث بالاحماس مع عبد الله بن مسعود، وقد وفده وأخبره خبر هرقل وأنه عبر الماء الى الجزيرة فهو بالرهاً ينغمس أحياناً ويطلع أحياناً فقدم ابن مسعود على عمر فردّه ثم بعثه بعد ذلك الى سعد بالكوفة ثم كتب الى أبي عبيدة : ((أن أقم في مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام ، فاني غير تارك البعثة اليك بمن يكانفك ان شاء الله)) وبعدها بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد الى قنسرين بعد فتح حمص وهي من حوادث عام ١٥ هـ .

د - الفتح برواية ابن الاثير (٢٥)

((لما فرغ عبيدة من فتح دمشق سار الى حمص فسلك طريق بعلبك فحصرها فطلب أهلها الامان فأمنهم وصالحهم وسار عنهم الى حمص فنزل على حمص ومعه خالد وقيل انما سار المسلمون الى حمص من مرج الروم - غربي دمشق (٢٦) وكان هرقل قد أرسل الى أهل حمص يعدهم المدد وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهز الى حمص فساروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين . فسير سعد بن أبي وقاص السرايا من العراق الى هيث وحصرها وسار بعضهم الى قرقيسيا ، فتفرق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص . فكان أهلها يقولون تمسكوا بمدينتكم فانهم حفاة فاذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم فكانت أقدام الروم تسقط ولايسقط للمسلمين اصبع فلما خرج الشتاء قام شيخ من الروم فدعاهم الى مصالحة المسلمين فلم يحيبوه . فناهدهم المسلمون فكبروا تكبيرة فانهدم كثير من دور حمص وزلزلت حيطانهم فتصدعت ، فكبروا ثانية فأصابهم أعظم من ذلك فخرج أهلها اليهم يطلبون الصلح ولايعلم المسلمون بما حدث فيهم فأحابوهم وصالحوهم على صلح دمشق . وأنزلها أبو عبيدة السمط بن الاسود الكندي في بني معاوية والاشعث بن مينا

(٢٥) - ابن الاثير الكامل ج ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٢ دارالكتاب العربي بيروت .

(٢٦) - حدد موقعه الدكتور عبد الكريم رافق قرب التكية السليمانية (دراسات تاريخية - العدد السادس ص ٦)

في السكون والمقداد في بلي ، وأنزلها غيرهم وبعث بالاحماس الى عمر مع عبد الله بن مسعود وكتب عمر الى أبي عبيدة أن أقم بمدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام فاني غير تارك البعثة اليك ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت وسار الى حماة .

رغم التشابه الظاهري في روايتي الطبري وابن الاثير الانفتحي الذكر فانهما يحملان في مضمونهما الكثير من التباعد والتشويش .

يستفاد من رواية ابن الاثير بأن نجدة أهل الجزيرة لاهالي حمص المحاصرين كانت بطلب من هرقل نفسه لمنع سقوط المدينة ولكن نجدات أهل العراق التي أرسلها سعد دونما طلب واضح من الخليفة عمر بن الخطاب ، منعت هذه النجدات من الوصول وتحقيق أغراضها . وبعد اعلام الخليفة بأمر الفتح بوصول الاحماس مع عبد الله بن مسعود، عمر يكتب الى أبي عبيدة بالاقامة بالمدينة ويوعده بالمدد . فلاي شيء يكون المدد الجديد طالما أن المدينة قد سقطت ونجدات أهل الجزيرة التي هيأها هرقل قد صدت ؟

رواية سيف بن عمر عند الطبري تجلي كثيرا من الغموض حيث نراه يقول أن أبا عبيدة بعد فتحه للمدينة أرسل الاحماس مع عبد الله ابن مسعود أيضا الذي أخبر الخليفة بخبر هرقل وتحريضه لاهالي الجزيرة / فهو ينغمس أحيانا ويطلع أخرى / فيأتي رد الخليفة متوافقا مع واقع الحال هنا / أقم بمدينتك واستعن بأهل الشام فالنجدة قادمة فكانت نجدة سعد . التي انتهت تحشدات الجزيرة .

فهما متفقان في أن هرقل حاول ارسال النجدات من أهالي الجزيرة والاختلاف كما هو واضح حول زمان وأغراض هذه النجدات . وهي من حوادث عام ١٥ هـ عام فتح حمص / بأغلب الروايات / وهو عام التوجه لليرموك بعد أن علموا بالحشود التي سيرها هرقل اليهم فاخترار العرب اليرموك لتكون مكانا للمعركة بعد أن أخلوا مدن الداخل ومنها

حمص .

ثم لنراقب فيما يلي رسالة أبي عبيدة الى عمر بعد الفتح وقصة نزوحه عن حمص الى اليرموك كم تباينت الاراء حول هذه القضية وتشعبت حتى لاندري هل رسالة أبي عبيدة الى الخليفة بشرى بالفتح مع الاحماس

الواجبة؟ أم هي استئذان في الحلاء عن مدن الشام لملاقاة حشود الروم في اليرموك؟ ولماذا غضب الخليفة وطلب من قيادات العراق "وهي أمام مسؤوليات حسام وعلى أبواب القادسية" أن تمد جند حمص وتصد حشود الجزيرة؟ ثم لماذا غضب عمر هذه الغضبة المضربة واستنفر بنفسه ونزل الجابية على أثر انسحاب المسلمين من حمص ثم وفي العام التالي يأتي الجابية أيضا ومنها إلى القدس التي أبت التسليم إلا إليه؟ .

لا أورد الروايات بتفاصيلها دفعا للاطالة وسأكتفي بالإشارة إلى مصادرها لمن أراد التعمق والمتابعة (٢٧).

أرى أن المسلمين بعد فراغهم من أمر دمشق ضربوا حصارهم على حمص فامتنعت المدينة خلف أسوارها المنيعة وجرت مناوشات وحروب حول الأسوار . وعندما يئست المدينة من مدد هرقل سلمت بشروط المسلمين الشامية الأخرى . وعندما شرع هرقل بإرسال قواته وحشوده لملاقاة المسلمين في المعركة الحاسمة (اليرموك) انسحبوا إلى المكان الملائم للمعركة ولتلقى المدد من المدينة المنورة في آن واحد وحسب إشارة خالد بن الوليد عليهم .

تخبرنا مصادر اليرموك بأن المسلمين هم الذين نزلوا المكان أولا ووافاهم الروم بحشودهم الكبيرة إلى هناك . فلا شيء يوجب لوم الخليفة وغضبه واستنفاره فكل شيء يسير وفق خطة محكمة ومدروسة .
والثانية أن أبا عبيدة رد الأموال التي أخذها من الحمصيين عند رحيله إلى اليرموك وأن الحمصيين أقسموا بدفع جند هرقل عن المدينة أورد ذلك البلاذري إذ قال : (حدثني أبو حفص الدمشقي قال حدثني سعيد بن عبيد العزيز قال: بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الحموع وبلغ المسلمين أقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود

فقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد
فأغلقوا الابواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من
النصارى واليهود . وقالوا ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا
الى ما كنا عليه والا فأنا على أمرنا مابقي للمسلمين عدد، فلم
هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنها وأخرجوا المقلسين
فلعبوا وأدوا الخراج وسار أبو عبيدة الى جند قنسرين وانطاكية
ففتحها (٢٨).

وعنه أخذ كرد علي في خطط الشام (٢٩) وكذلك الأزدي الذي قال عنه
الزركلي لم أجد له ذكرا في المتقدمين (٣٠).

بينما الواقدي لا يرى ذلك وعنده ما يخالف هذا التصور: يقول
الواقدي في مسير جيوش الروم الى اليرموك (وأمرهم بالمسير الى اليرموك
(الأمر هرقل) فسارت جيوش الروم يتلو بعضها بعضا لايمرون ببلد من
مدائن الشام التي فتحها المسلمون الا ويعنفون أهلها ويقولون لهم :
يا ويلكم تركتم أهل دينكم وملتكم وملتم الى العرب . فيقولون لهم
أنتم أحق بالملامة منا لانكم هربتم منهم وتركتمونا للبلاء فصالحنا
عن أنفسنا فيعرفون الحق فيسكتون (٣١) هذا يدل على أنهم استقبلوا جيوش
هرقل ولم يقاوموها واستضافهم زعيمهم أبو الحعيد في الزراعة ولكنهم
غدروا به لاسباب مسلكية فقال الواقدي (حدثني أبو عبيدة عن صفوان
بن عمرو عن عبدالرحمن بن حبير أن أبا الحعيد كان رئيسا من رؤساء
حمص فلما اجتمع الروم على المسلمين في اليرموك دخلوا على حمص ونزلوا
في بلدة تسمى الزراعة . وكان أبو الحعيد قد جعلها مسكنه لطيب هوائها
ومائها وانتقل من حمص اليها فنزل عسكر الروم على الزراعة (٣٢).

(٢٨) - البلاذري فتوح البلدان ج ١ ص ١٣٨

(٢٩) - خطط الشام كرد علي ج ١ ص ١٢٧

(٣٠) - الزركلي الاعلام .

(٣١) - الواقدي فتوح الشام ج ١ ص ١٠٠

(٣٢) - الواقدي فتوح الشام ص ١٣٨ ح

٣ - اضطرابات حمص وتحريض أهالي الجزيرة لتغذية هذه الاضطرابات :

هذه تحدث عنها الطبري في حوادث عام ١٧هـ بأن الروم بتحريض من أهالي الجزيرة اجتمعوا يريدون غزو حمص والقضاء على أبي عبيدة وخالد (فلما سمع المسلمون باحتماهم ضم أبو عبيدة اليه مسالحه وعسكر بفناء المدينة (حمص) وأقبل خالد من قنسرين اليهم فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصين فأشار خالد بالمناجزة وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر فأطاعهم وكتب الى عمر بذلك. عمر يستنفر ويكتب الى سعد بن مالك باستنفر أهل العراق فنفسرت قيادات العراق كلها لنجدة أبي عبيدة وخالد في حمص بل نفر عمر نفسه وخرج حتى حل بالجابية ولما بلغ أهل الجزيرة هذا الحشد الاسلامي تفرقوا^(٣٣) . ومن قبل تفرقوا أيضا عندما حرضهم هرقل لنجدة حمص المحاصرة^(٣٣) ومن الهم من ذلك أن نجدات أهل العراق هي التي جعلتهم يتفرقون .

وعند ابن الاثير قبل ذلك فهو يعود الى أخبار حشود الجزيرة لمد هرقل ضد أهالي حمص وذلك في أواخر عام ١٦هـ ثم يذكر الخبر نفسه في حوادث عام ١٧هـ تماما كما ورد لدى الطبري^(٣٤) .

بعد هذا العرض يبدو واضحا أن أبا عبيدة كتب الى عمر يستنفره ويستمدده بسبب حشود أهالي الجزيرة مرتين : الاولى خلال عملية الفتح من عام ١٥هـ . والثانية بعد أن استقر أبو عبيدة والمسلمون في حمص عام ١٧هـ .

فقد حاول أهالي الجزيرة إثارة الروم والبلاد الشامية ضد المسلمين فيما يشبه التحريض على الثورة ، لذلك كتب أبو عبيدة يستمد عمر : (وكتب الى عمر بخروجهم عليه وشغبهم أجناد أهالي الشام عنه) . ثم نجد في نص الرسالة : (أن أهل الجزيرة هم الذين استشاروا الروم على

(٣٣) - ابن الاثير ج ٢ ص ٣٤٢

(٣٤) - المصدر السابق نفسه ص ٣٦٦ و ٣٧١

أهل حمص (٣٥). وبهذا دلالة كافية على تشبث الروم ومحاولتهم المتكررة للعودة الى المدينة مرارا نظرا لمكانتها الخاصة لديهم فقد أولوها الكثير من اهتماماتهم وسخروا الكثير من امكاناتهم للاحتفاظ بالمدينة أو للعودة اليها . أمثال هذه المحاولات لم تبذل تجاه أي مدينة من مدن الشام .

المنصور الأذل صاحب حملة محمد بن تقي الدين العر

بقلم الأستاذ محمد عدنان قيطاز

لم تكن حملة في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط سوى بلدة صغيرة حانية على نهر العاصي في خشوع الزاهدين ، تستعبد ذكريات الماضي البعيد ، أيام كانت - والأراميون في شباب الزمان - بارزة كالأبريز في المعنى الوجيز ، ان لم تألق جنباتها حضارة ونضارة.. توهجت أباء وفداء

وما كاد العصر الايوبي يلقي بجرانه رفيقا شفيقا.. حتى دب في عروقها نسغ الحياة الجديد، فأصبح قفرها خصبا ، ووحشتها أنسا ، وفقرها غنى ، وطلولها الدوارس معاهد علم ، ومنارات فضل ، وغدت حملة في بلاد الشام مدينة العلم والادب" كما يقول محمد كرد علي، بل أصبحت جامعة كبيرة ، كل منزل فيها دار علم ، وبيت حكمة ومجمع أدباء وفقهاء ورجال فكر، ومستودع كتب ومؤلفات شتى ماتزال بقاياها عابقة بأريج العتق وجلال القدم ، وذلك بفضل استنارة حكامها ورعايتهم للحركة العلمية . ويأتي على رأس هؤلاء الحكام المنصور الاول محمد بن تقي الدين عمر .

التعريف بالمنصور محمد :

هو ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (١) كان أبوه تقي الدين عمر - الملقب بالملك المظفر - سندا في البيت الايوبي ، شجاعا شديد البأس ، وعنده فضل وأدب . شارك عمه صلاح الدين في معظم حروبه مع الصليبيين وأبلى فيها البلاء الحسن ، كما ساعده على ارساء قواعد حكمه على مصر والشام ، وكثيرا ما كان يتولى تصريف شؤون مصر بالنيابة عنه . ثم قلده أمر حملة وملحقاتها سنة ٥٧٤ هـ

(١) - مفرح الكروب ٤ : ٧٧ وفيه شاهان شاه ، المختصر ٣ : ١٢٥

وبقيت بحوزته حتى وفاته سنة ٥٨٧ هـ . (١)
أما جدة نور الدين شاهنشاه بن أيوب - وهو الاخ الأكبر لصلاح الدين - فقد استشهد في حصار دمشق سنة ٢٤٣ هـ . (٢)
وأصل البيت الايوبي يرجع الى أيوب بن شاذي بن مروان . وقد حاول بعض النسابة - على عادتهم في التقرب من أصحاب النفوذ - أن يردوا أصل الايوبيين الى العرب العدنانية ، وربما ردهم الى البيت الاموي غير أن المؤرخ أحمد بن ابراهيم الحنبلي المتوفى سنة ٨٧٦ هـ يشير الى أن شاذي - الجد الثالث للمنصور محمد - من الاكراد الروادية ، وهي بطن الهذبانية من بلد دوين في أذربيجان (٣) .
ولادته :

لم يذكر أصحاب التراجم سنة ولادة المنصور محمد بن تقي الدين عمر ، لكنهم أجمعوا على أن وفاته كانت سنة ٦١٧ هـ ، وله من العمر خمسون سنة ، وأن مدة حكمه ثلاثون سنة ، فإذا كانت سنة حكمه على حماة هي سنة ٥٨٧ هـ فإن سنة ولادته تكون ٥٦٧ هـ / ١١٧١م وهي السنة التي قطعت فيها الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ، وخطب باسم الخليفة العباسي المستضيء . وهذا يعني أن ولادته كانت في السنة التي تم فيها القضاء على الحكم الفاطمي في مصر وقيام الحكم الايوبي .
ومن المرحح أن المنصور محمد ولد في "منازل العز" المظلة على النيل في أجمل بقعة من بقاع القاهرة ، وهي المنازل التي بنتها أم الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، وبذلت في سبيلها ماوسعها البذل حتى أصبحت بهجة للناظرين . وكان تقي الدين عمر مغرى بتلك المنازل

(١) - المختصر ٣ : ٦١ - ٧١ - ٧٤ - ٧٦ - ٨٠

(٢) - وفيات الاعيان ٢ : ١٦١ ، شفاء القلوب : ٤٩ ، المختصر ٣ : ٢١

(٣) - شفاء القلوب : ٢١ وماتلاها ، ومن شاء مزيدا من التفصيل حول

أصل الايوبيين فيمكنه الرجوع الى ماكتبه الدكتور علي ابراهيم

حسن في كتابه القيم " مصرفي العصور الوسطى " أنظر : ١٧٢ .

كلفا بمناظرها وجمالها الاخاذ ، فأسكنه اياها صلاح الدين ، ثم أن له
بشائها ، ولكن نفس تقي الدين عمر آثرت عليها مادون ذلك ، وجعلها
مدرسة للشافعية ، وقيل : وقفها على فقهاء الشافعية (١) .
اخوته :

كان للمنصور محمد أخوان يكبرانه سنا ، أحدهما سعد الدين شاهنشاه
وهو والد سليمان شاه صاحب اليمن - وقد أغراه بعض الملبين بالملك
فاطمًا إلى صدقهم ، فلما تفردوا به شدوا وثاقه وأخذوه أسيرًا
وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى افتداه السلطان صلاح الدين (٢) .
والآخر يقال له : شهاب الدين أحمد الذي استشهد في موقعة الرملة سنة
٥٧٣ هـ وهو في ميعة الشباب ، وقد حرضه أبوه على قتال الملبين ،
ورأى من بسالته ما أثار إعجابه وسكن غضبه على أخيه (٣) .
حياته الأولى :

نشأ المنصور محمد في كنف أبيه نشأة صالحة ، وقد تسنى له
أن يأخذ نصيبا من العلوم الدينية والعربية . ولما آنس منه أبوه
فطنة دفع به إلى محدث الاسكندرية أبي الطاهر بن عوف السلفي فسمع منه
الحديث وتآدب بآدابه (٤) .

ولما استقرت حماة بيد تقي الدين عمر ، رحل إليها ووجد على
العاصي ما كان يحده من الجمال والجلال في " منازل العز " على النيل . غير
أن الفترة الأولى من حياة المنصور محمد في ظل أبيه لم تكن وادعة
كما يشتهي ، وإنما كانت مشوبة بالحذر ، فالملبون يمدون
أعناقهم إلى حماة وما جاورها لبسط نفوذهم وتثبيت أقدامهم فسي

(١) - المختصر ٣ : ٥٠ ، خطط المقرئ ٤ : ١٩٤

(٢) - مفرج الكروب ٢ : ٦٠ ، الروضتين ٢ : ٧٠ ، شفاء القلوب : ٢٧٢ - ٤٠٨

(٣) - مفرج الكروب ٢ : ٦٠ ، المختصر ٤ : ٥٩ - ٦٠

(٤) - شذرات الذهب ٥ : ٧٧ ، فوات الوفيات ٢ : ٣١٥

المناطق الداخلية . وكانت رحلات الغزو أو المراقبة موصولة الاسباب وكثيرا ماكان المنصور محمد يرافق أباه في حروبه حتى أصبحت قعقة السلاح وحممة الخيل مما تشتاقه النفس وتلذه العين . ولربما حضر مجالس أبيه ليكتسب خبرة في دنيا الناس ومرانا على أصول الحكم . ويحدثنا المنصور محمد في تاريخه " مضمات الحقائق " أنه ناب عن أبيه في حكم مصر سنة ٥٨٠ هـ خلال فترة وجوده مع صلاح الدين في بلاد الشام ، وعمره لايزيد عن الرابعة عشرة ، وكان الشاعر الكمـال المغربي التنوخي ممن قصده مادحا راجيا نواله ، من ذلك قوله :

واذا خشيت من الزمان سجية تردى فلا تعلق بغير محمد
من معشر أحسابهم لم تنقطع عنا وجمرة عزمهم لم تخمد
زر محده تزر المكارم والعلا وترى الندى يغشاها في وجه ندى^(١)

كما نجد في تاريخه جانباً من هذه الحياة التي استمرت حتى وفاة أبيه سنة ٥٨٧ هـ في حصار منازكرد ، وكان في صحبته المنصور محمد الذي أخفى خبر موته حتى لايتسرب الى الحند فيكون سبباً في اضعاف معنوياتهم ، أو يسرى الى أعدائه فيطمعون فيهم . وكان المنصور محمد من الحزم والصبر بمكان ، ثم قفل راجعاً مع الجند الى حماة ، ودفنه في ظاهرها ، وبنى الى جانب تربة أبيه مدرسة ، وأحرى عليها الاوقاف تخليداً لذكرى أبيه ، وأصبحت تربة أبيه معروفة باسم " التربة التقوية " ^(٢).

علاقات المنصور محمد مع الحكام الايوبيين:

خلف المنصور محمد أباه على حكم حماة وملحقاتها سنة ٥٨٧ هـ ، وقد حاول توسيع دائرة نفوذه ، فاستولى على المناطق الجزيرية - ميفارقين وماحولها - وطلب من السلطان صلاح الدين عهداً بذلك وشرط عليه شروطاً ، ولكن السلطان نسبها الى العصيان ، ورأى هذه الخطوة من جانب المنصور محمد تحدياً لارادته واستهانة بسلطانه . فطلب من

(١) - مضمات الحقائق : ١٩٧ وما تلاها .

(٢) - المختصر ٣ : ٨٠

ابنه الملك الافضل أن يزحف بقواته على المنصور محمد صاحب حماة ، كما كتب الى أصحاب البلاد الشرقية كالموصل وسنحار وديار بكر يحثهم على نحدة الملك الافضل والوقوف الى جانبه .

ولما أحس المنصور محمد بغضبة السلطان ، بادر الى مراسلة الملك العادل - عم أبيه - لاسترضاء أخيه السلطان ، واصلاح ذات البين . وقد نحت وساطة المنك العادل ، فأقر صلاح الدين المنصور محمد على حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم ، واسترد منه الاجزاء الشرقية وجعلها تحت ادارة أخيه الملك العادل مقابل التنازل عما كان تحت سيطرته من بلاد الشام خلا بعض الاجزاء الجنوبية . ولما استتب للملك العادل ما أقر له عاد الى مصر يصحبه المنصور محمد للمثول بين يدي السلطان صلاح الدين وتقديم فروض الطاعة والولاء ، وعندما رآه صلاح الدين نهض اليه واعتنقه وأكرمه وأنزله في مقدمة عسكره ، ونسي ما كان منه وبذلك استقامت الامور للمنصور محمد ، وتحولت حماة من اقطاعية عسكرية الى مملكة وراثية (١) .

وعندما مات صلاح الدين أصبحت بلاد الشام ومصر تحت ادارة أبنائه وآل بيته والامراء التابعين لهم ، ومع ذلك فقد تعرضت الاسيرة الايوبية لخطر عنيف كاد يؤدي بحياة الاسيرة لولا شجاعة الملك العادل شقيق صلاح الدين - ودهاؤه . ولم يأت هذا الخطر من الوحود الصليبي في المنطقة ، وانما حاءها ممن كانوا يتربصون بها الدوائر على أطرافها لاقامة ملك حديد على أنقاضها ، كما حاءها الخطر من داخل الاسيرة الايوبية نفسها .

فقد قاد بكتمر صاحب أخلاط تمردا في الجبهة الشرقية يؤيده صاحب ماردين وصاحب الموصل وصاحب سنجار ، غير أن هذه الجبهة سرعان ما تصدعت بعد أن وقف الملك العادل منها موقفا حازما ، يعضده أبناء أخيه وعلى رأسهم المنصور محمد صاحب حماة ، ويمثلون الجبهة الغربية

(١) - مفرح الكروب ٢ : ٣٧٧ وما تلاها ، المختصر ٣ : ٨٠ - ٨١ ، شفاء

القلوب : ٢٣٤ - ٢٣٥ ، الكامل في التاريخ ١٢ : ٨٢ - ٨٣

ويبدو أن مقتل بكتمر صاحب أخلاط غيلة سنة ٥٨٩ هـ قد عجل بنهاية التمرد ، ودفع بأمراء الجبهة الشرقية الى الاعتذار ودلب العفو^(١) . وماكاد التمرد ينتهي حتى شب النزاع على زعامة الاسرة الايوبية بين الاخوين : العزيز صاحب مصر والافضل صاحب دمشق . . كان الاثنان محور هذا النزاع الذي اشترك فيه أمراء البيت الايوبي ، وقد دام سبع سنوات من ٥٨٩ هـ الى ٥٩٦ هـ ، وانجلت الفتنة آخر الامر بتوحيد البيت الايوبي تحت زعامة الملك العادل الذي دخل أول الامر حكما في نزاع الاخوين ، ثم تحول الى مشارك فيه مع العزيز صاحب مصر ، وأخيرا الى طامع بالسلطة بعد وفاة العزيز وموقف الجند من سلطنة ابنه الصغير وقد تمكن الملك العادل بما أوتي من ذكاء وحسن سياسة من تحقيق مطامعه الشخصية في وراثة أخيه صلاح الدين .

ومن الثابت أن المنصور محمد صاحب حماة انحاز الى جانب الملك الافضل صاحب دمشق منذ بداية الصراع ، وكاد يودي بحياته ، ولكن المنصور محمد بعد أن استقل عمه الملك العادل بالسلطة أحس بضعف مركزه وعدم قدرته على مجابهة قوات الملك العادل ، فأرسل اليه يعتذر عن مساعدته للاخوين : الافضل صاحب دمشق والظاهر صاحب حلب ، ويطلب رضاه . فلما قدم رسول المنصور محمد تلقاه الملك العادل بالترحاب وخلع عليه وأظهر الرضى عن المنصور محمد ، وكتب اليه الملك العادل أبياتا تنم عن أدب الكريم وحكمة الحكيم :

أتظنني من جفوة أتعتب	قلبي عليك أرق مما تحسب
لا يوحشك ما جنيت فتنثني	متحبا . . . وهواك لا يتجنّب
ما أنت الا مهجتي وهي التي	أحيا بها . . . فترى عليها أغضب
أنت البريء من الاساءة كلها	ولك الرضى . . . وأنا المسيء المذنب

وقال للرسول : ان كان قد صدرت منه هذه الزلة الواحدة ، فله من الحسنات ما يمحوها ويمحقها . وطلب المنصور محمد من الملك العادل أن يزوجه

(١) - مفرج الكروب ٣ : ١٦ وماتلاها ، شفاء القلوب : ٢٠٢

ابنته ملكة خاتون ، فأجابه الملك العادل الى طلبه ، وزالت بهـذه المصاهرة كل أسباب الجفاء (١) .

وقد حاول الظاهر صاحب حلب أن يوّلّب المنصور محمد على عمـه الملك العادل في رسالة بعثها اليه ، يذكره فيها بسوء نية الملـك العادل ، ويغريه بتوسيع ممتلكاته . ولكن المنصور محمد اعتـذر عن اجابته متعللا باليمين التي حلفها للملك العادل ، ولايسعه أن يحنث بيمينه . فغيظ صاحب حلب ، وجرد حملة الى حماة وحاصرها سنة ٥٩٧ هـ ولكن المدينة امتنعت عليه . ولما أيقن الظاهر صاحب حلب باخفاق حملته صالح المنصور محمد على مال يدفعه اليه . . وعلى الدخول فسي طاعة الاخوين : الظاهر والافضل ان ملكا دمشق (٢) .

ولم يكن هذا الصلح سوى محاولة من المنصور محمد لكسب الوقت ، وبقي ملتزما جانب عمه الملك العادل ، وقد ساعده على ذلك : اخفاق الاخوين في حصار دمشق ، ووقوع الخلاف بينهما ، ومجيء الملك العادل من مصر . ولما شعر كلا الاخوين بضعف موقفه بادرا الى مصالحه الملك العادل واسترضائه ، وبذلك قطع الملك العادل دابر الفتنة ، وقضى على مظاهر الفوضى في البيت الايوبي ، وأصبح سيد الموقف في مصر والشام . وقد بارك الخليفة العباسي عمل الملك العادل ، وخلع عليه لقب الملـك العادل شاهنشاه ملك الملوك وخليـل أمير المؤمنين (٣) .

وفي عهد الملك العادل ضم المنصور محمد بارين " بعرين " بالقوة الى ممتلكاته ، وكانت بيد عز الدين ابراهيم بن المقدم ، فألزمـه الملك العادل بردها . ولكن المنصور محمد امتنع ثم مالـبث أن أرضى ابراهيم بن المقدم ، وتنازل له عن منبج وقلعة نجم بسبب بعدهمـا

(١) - مفرج الكروب ٣ : ٢٩ - ١١٣ - ١١٤

(٢) - المختصر ٣ : ٩٣ ، شفاء القلوب : ٢١٠ ، التاريخ المنصوري : ١٥ ، الكامل في التاريخ ١٢ : ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) - مفرج الكروب ٣ : ١٣٢ وماتلاها ، المختصر ٣ : ١٠١ ، شفاء القلوب : ٢١٨ .

عن مركز حكمه . وقد اختار المنصور محمد عليها بارين لاكثر من سبب فهي أولا قريبة من حماة ويمكنه الاشراف عليها بصورة مباشرة ، وثانيا فان بارين تشكل خط المواجهة مع الصليبيين الفرنجة المقيمين على الساحل ، ولهذا كان ضمها الى حماة عملا صائبا فرضته الضرورة العسكرية . وبذلك أصبحت ممتلكات المنصور محمد من البلاد : حماة والمعرة وسلمية وبارين (١) .

الحروب مع الصليبيين :

كان موت صلاح الدين ومارافقه من نشوب الصراع على السلطة بين أمراء البيت الايوبي عاملا هاما في خفوت حدة القتال مع الصليبيين ، وأصبحت المراقبة على الثغور أو القلاع ، والغارات الخاطفة أو الحصار المحدود هي البديل عن العمليات العسكرية الكبرى . ولعل الحكام الايوبيين كانوا يريدون التفرغ لتنظيم أوضاعهم الداخلية ، فرغبوا في تحقيق نوع من التعايش مع الصليبيين لانهم رأوا أن الوجود الصليبي على الأرض العربية هو وجود مؤقت وليس بذى خطر بسبب حالة الضعف التي يئن تحت وطأتها الصليبيون بعد هزيمتهم الشنعاء في حطين وخراجهم من بيت المقدس على يد صلاح الدين . لكن مثل هذه السياسة الوادعة لم تجدد قبولا لدى المتشددين الاوربيين الذين كانوا يتطلعون الى الثأر والهيمنة على مقدرات الشرق العربي ، والتوسع ما أمكنتهم القدرة على ذلك . وكانت طوائف الداوية والاسبتارية تغذي مثل هذه الروح العدوانية ، وتعمل على ايقاد نار الحرب كلما استشعروا بانطفائها ، وهذا يفسر لنا دوام المراقبة على الثغور والقلاع والقيام بالغارات الخاطفة المتبادلة .

ففي سنة ٥٩٩ هـ أحرز المنصور محمد نصرا على فرنجة الساحل يعضده حكام حمص وبلبك وحلب . وفي سنة ٦٠٠ هـ عقد معهم - أعني فرنجة الساحل - معاهدة بناء على طلبهم وموافقة الملك العادل . وفي سنة ٦٠١ هـ أغار الفرنج على حماة وتمكنوا من الوصول الى قرية الرقيطا على مشارف حماة ، وعادوا بغنائمهم وأسراهم مسرعين الى طرابلس بعد

(١) - معرج الكروب ٤ : ٨١

تجديد الهدنة الى مدة معلومة ، وهي بالتأكيد ليست طويلة الامد. كما شارك المنصور محمد عمه الملك العادل في حصار طرابلس سنة ٦٠٣هـ رداعلى غارات الفرنج ، ولم يرجع الملك العادل الا بعد أن عقدوا معه صلحا وفي سنة ٦١١ هـ اجتمع الفرنج من قبرص وطرابلس وعكا وانطاكية توازهم قوات أرمنية ، مستفيدين من وجود الملك العادل في مصر مع قواته ، فخشي المنصور محمد أن تكون حماة هدفا لعملية حربية كبرى لاطاقة له بدفعها ، فسارع الى الظاهر صاحب حلب ، وطلب منه التوسط لعقد الصلح ، ونححت الوساطة وبذلك تمكن المنصور محمد من ابعاد خطر الفرنج عن حماة من دون قتال .

وهكذا نجد أن حروب المنصور محمد مع الصليبيين لم تكن معارك ذات بال ، وانما كانت مقتصرة على الغارات والعمليات الثأرية التي تنتهي بالنصر حينا ، وبالصلح حينا آخر ، وهذا النوع من القتال هو الى التحريك أقرب منه الى التحرير ، أو قل هو ضرب من حرب الاستنزاف التي قادها المنصور محمد ضد الصليبيين (١) .

وفاة المنصور محمد :

لم يعمر المنصور محمد طويلا ، فقد أصيب بالحمى بعد وفاة زوجته ملكة خاتون بنت الملك العادل بسنة واحدة ، وكانت امرأة ذات فضل ونبل ، جمعت بين راحة العقل وقسامة الوجه وسماحة اليد ، وقد وجد فيها المنصور محمد ما كان يطمح اليه من كرائم النساء ، واختار أكبر أولاده منها المظفر محمود ليكون وليا لعهدده ، وعندما ماتت سنة ٦١٦ هـ حزن عليها حزنا شديدا ، ولبس الحداد هو وأولاده ، وأمر بصعود أهل حماة الى القلعة للصلاة عليها . ويصف لنا ابن واصل مجلس العزاء في المدرسة المنصورية بقوله : ورأيتـه وهو جالس بمنـة المحراب ، وهو مكتئب حزين ، وهو لابس الحداد ، شوب أزرق وعمامة زرقاء ، والى

(١) - مفرج الكروب ٣ : ١٤٣ - ١٤٤ - ١٦٢ - ١٦٤ - ٢٢٣ ، المختصر ٣ :

١٠٣ - ١١٦ ، شفاء القلوب : ٣٣٧ وماتلاها ، التاريخ المنصوري : ٤٤ والحاشية رقم ١

جانبه أولاده الملك الناصر قلع أرسلان واخوته وعليهم كلهم الحداد،
وقرات القراء بين يديه ، ووعظت الوعاظ ، وأنشدت الشعراء المراثي (١)
ويذكر أصحاب التراجم أن المنصور محمد مات في عهد الملك الكامل
في شهر ذي القعدة سنة ٦١٧ هـ وعمره لايزيد عن خمسين سنة (٢).
وقد أوصى المنصور محمد في مرضه باطلاق جميع مماليكه وامائه
كما أوصى باطلاق كل من في حبوسه ، وأثر عنه قوله : في الحبس من
قد ظلمنا ، وفيه من قد ظلمناه (٣). ودفن في تربة أبيه "التربة التقوية"
شمالي حماة ، وتوهم الصابوني في تاريخه فذكر أنه مدفون بجانب
الجامع الاعلى (الجامع الكبير) والصواب ما ذكرناه (٤)

الادارة والقضاء في عهد المنصور محمد :

يمثل المنصور محمد صاحب حماة رأس السلطة في مجتمع المملكة
الصغيرة الخاضعة لحكمه ، وكان يتولى الاشراف بنفسه على أمور الرعية
منذ فراغه من صلاة الصبح وحتى دخول الليل ، لايشغله في ذلك مايشغل
الحكام من الاستمتاع بملذات الحياة في ساعات لهوهم . وكان نهــاره
موزعا على أوقات العمل وقضاء المصالح ، ولم يحتجب عن الناس في أكثر
أوقاته (٥) يساعده في ذلك وزير يقوم بتنفيذ أوامره ونواهيـه
وآخر من تولى الوزارة في عهده زين الدين بن فريج الذي تأمر مع الجند
بعد وفاة المنصور محمد وساعد على نقل ولاية العهد من المظفر محمود
الى أخيه الناصر قليج أرسلان (٦).

(١) - مفرج الكروب ٣ : ٦٤ - ٦٥ .

(٢) - مفرج الكروب ٤ : ٧٧ ، المختصر ٣ : ١٣٢ ، شذرات الذهب ٥ : ٧٧

النجوم الزاهرة ٦ : ٢٥٠ ، فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤

(٣) - مفرج الكروب ٤ : ٧٧ ، التاريخ المنصوري : ٩٠ - ٩١ .

(٤) - تاريخ حماة : ١٢٠

(٥) - مفرج الكروب ٤ : ٨٠

(٦) - المختصر ٣ : ١٢٦ .

وكانت قلعة حماة هي مركز السلطة في المدينة ، وفيها مقر الحامية العسكرية ومستودعات السلاح والعتاد (الزردخانة) . وقد أعاد المنصور محمد بناء أسوارها وجعلها من الحر والكلس بعد أن كانت من اللبن أيام أبيه تقي الدين عمر ، ووسع الخندق المحيط بها وزاد في تعميقه حتى صارت القلعة كما يقول ابن واصل في تاريخه مضاهية لقلعة حلب ، بل أحود وأحصن^(١) ، وربطها مع حمص بجسر أطلق عليه حـسـر الحديد لمتانة بنائه سنة ٥٩٤ هـ^(٢) وقد عرف هذا الجسر فيما بعد باسم جسر المراكب أو جسر السرايا .

ويساعد المنصور محمد في تصريف شؤون المملكة نخبة من الأمراء والعلماء ، فهناك كاتب الانشاء " كاتب السر " للديوان ، وهناك القضاة والفقهاء للمعاملات والخصومات وإقامة الشعائر الدينية والحسبة والتعليم والنظر في أمور الاوقاف والمساجد وبيت المال والبيمارستان^(٣) . أما بر حماة فله مسؤول خاص يدعى " محافظ بر حماة " وقد عرفنا ممن تولى المنصب في عهد المنصور محمد الفقيه شهاب الدين البلاعي الذي أسره الفرنج في إحدى غاراتهم على حماة ثم تمكن من الفرار والعودة اليها^(٤) .

ولملحقات حماة كالمعرة وغيرها ولاية من قبل المنصور محمد للضبط والربط ، وربما كان الوالي من الفقهاء أو الأمراء تسانده قوة من الحند ، وإلى جانبه قاضي للفصل في الخصومات والنظر في أمور الناس . وقد جعل المنصور محمد لأصحاب الحرف مكانا يجتمعون فيه كل يوم لأعمال البيع والشراء وأطلق عليه سوق المنصورية (سوق الطويل) رتب فيه الباعة ، فكان كل أصحاب حرفة في جهة ، ورفع عنهم ما يدفعونه من

(١) - مفرج الكروب ٤ : ٨٠

(٢) - التاريخ المنصوري ٦ :

(٣) - المختصر ٣ : ١٧١

(٤) - المختصر ٣ : ١٠٦ ، التاريخ المنصوري ٤٤ - الحاشية رقم ١ نقلًا

عن تاريخ ابن الفرات .

مكوس أو خراج (١).

وهناك نقش حجري على قوس كتب في عهد المنصور محمد يعلن فيه بطلان المكوس والبدع من خراج السمن والعسل والقطن والعصفر والعفص وغير ذلك ، ولعن من بدلد وغيره . وقد بقي هذا القوس حتى سنة ١٠٩٢ هـ أي بعد أكثر من أربعة قرون من تشييده (٢).

غير أن القضاء كان له الدور البارز في إدارة المنصور محمد، فقد تولى القضاء في حماة اiban فترة حكم المنصور محمد عدد من القضاة الذين تميزوا بعدالة أحكامهم ورحابة أحلامهم والتزام جانب التقوى في كل ما يصدر عنهم . وقد عرفنا منهم ضياء الدين بن الشهرزوري قاضي قضاة بغداد وكانت وفاته في حماة سنة ٥٩٩ هـ وزين الدين بن عبد المحسن الانصاري، وبهاء الدين أبا اليسر بن موهوب، وحنة الدين بن مراحـلـ السلماني ، ولكن المنصور محمد سرعان ما عزل الأخير وولى مكانه سالم ابن واصل والد صاحب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" غير أن ابن واصل مالـبـث أن استعفى بعد مدة مراعاة للقاضي حجة الدين لما كان بينهما من قديم المودة كما عرفنا من القضاة عماد الدين بن القطب ونجم الدين بن عبد الرحمن بن أبي عصرون وكان عظيمـا جليل القدر عند الملوك بسبب مكانة والده (٣).

وكان للقضاة لباس خاص يميزهم في مجلس الحكم وهو ارتداء الطيلسان ولم تكن لهم دور خاصة بالقضاء بل كان حاكم القلعة في حماة هو مكان التقاضي ، وفيه يحلس القضاة للحكم ، وفيه يحبس الجناة . وقد ذكر ابن واصل في تاريخه أن رحلا وليّ أمرا فخان فيه، فحبسه المنصور محمد بجامع القلعة (٤).

(١) - مفرج الكروب ٤ : ٢٧١

(٢) - تاريخ حماة : ١٢٢

(٣) - مفرج الكروب ٤ : ٧٩-١١٨-١١٩-١٦٥-٢٧٣-٢٧٤

(٤) - مفرج الكروب ٤ : ٨٤

ويقوم القضاة اضافة لما تقدم بمراسيم ولاية العهد ليسبغوا عليها الصيغة الشرعية ، وقد جاء في تاريخ ابن واصل أنه في سنة ٦١٦هـ تقدم المنصور محمد بتحليف سكان حماة لولده المظفر محمود ، وعمره اذذاك سبع عشرة سنة ، فكتب القاضي سالم بن واصل والد مؤلف "مفرج الكروب" نسخة اليمين ، واستحلف له الناس بولاية العهد (١)

وكان في حماة قاضيان : لاول لاتباع المذهب الشافعي ، والثاني لاتباع المذهب الحنفي : وقاضي الشافعية هو المقدم لانه يمثل مذهب المملكة ، وهو الذي يخطب في جامع القلعة ، ويؤم المنصور محمد في الصلاة أما العسكر فلهم قاض خاص يطلق عليه اسم "قاضي العسكر" ، كما يوجد قاض في كل ولاية تابعة لحماة . فهناك مثلاً قاض في سلمية ، وقاض في المعرة ، وقاض في بارين ، وكثيراً ما تجري التنقلات بينهم كما حدث عندما اختار المنصور محمد قاضي المعرة ليكون قاضياً في حماة . وللقضاة جرايات يأخذونها من بيت المال ، وقد يستعفي القاضي من الجراية ورعاً وعفة اذا استغنى ، وهذا ماسوف نجده لدى بعض القضاة الحمويين أمثال شرف الدين البارزي وغيره ، وكانوا في عملهم هكذا قدوة لغيرهم من قضاة العصر .

حركة العلم والادب :

كان المنصور محمد من طراز الحكام المستنيرين الذين عرفتهم أوربة في بداية عصر النهضة ، ورغم الحوادث المتلاحقة التي كانت تشهدها بلاد الشام بسبب الوحد الصليبي ، فان ساحات الحرب ومتاعبها لم تشغل المنصور محمد عن ساحات العلم والادب وما فيها من لذائذ لا يعرفها الا أصحابها .

ويعود الفضل للمنصور محمد في ارساء قواعد النهضة العلمية والادبية التي سطع نجمها في بلاد الشام ابان العهد الايوبي ، حتى أصبحت حماة في عهده والعهود التي تلتها من أبرز مراكز الثقافة العربية على

(١) - مفرج الكروب ٤ : ٦٤

امتداد أكثر من مائتي سنة . واني أعتقد أن عصر المنصور محمد كان
ارهاصا لظهور عصر أبي الفداء الذي طبقت شهرته الافاق .
وقد نحى المنصور محمد - وهو العالم والمؤرخ والشاعر - في استقطاب
العلماء والشعراء حوله ، وأسعدهم بحمايته ورعايته . وأصحاب التراجم
يجمعون على أنه كان يحب العلماء والفضلاء من الناس وبخاصة أهل
الادب والشعر ، ويحب سماع المديح ويجيز عليه . بل ان عدد من الشعراء
الذين وفدوا اليه مادحين قد أتاح لهم فرص العمل في خدمته ، وأجرى
لهم المرتبات التي تكفيهم عناء التنقل والارتحال طلبا للارتزاق ، فكنّا
نجد بين أعوانه من يقول الشعر سواء أكان الشاعر من طبقة العلماء
أم من طبقة الجند، حتى أن قصيدة حسام الدين خستري بن تليل كانت أجود
ما قيل في تعزية المنصور محمد يوم وفاة زوجته ملكة خاتون، ولم يكن
ابن تليل سوى واحد من جنوده (١) .

ولعل أبرز الشعراء الذين نزلوا حماة ابان حكم المنصور محمد
عليها أسعد بن يحيى السنجاري سالم بن سعادة الحمصي وشرف الديـن
الانصاري ، وكانت تهزهم شحاعة المنصور محمد في قتال الفرنج ، وتنشدهم
انتصاراته عليهم ، فتثير في نفوسهم كوامن الابداع ويتبارون في
انشاد قصائدهم في دار المزة بالقلعة ، فلاتنام العين الا على أهازيج
الشعراء أو نعيم النواعير . وحتى قال مارون عبود : لم يكن للملوك
في هذا العصر شعراء مجيدون الا في حماة (٢) .

ولم يكن العلم بأقل حظا من الادب ، فقد حرص المنصور محمد منذ
بداية حكمه أن يكون في حماة من كل طائفة من أهل العلم أفضلهم ،
وطار صيته بذلك ، حتى قصد القاصدون من أصحاب العلم والمعرفة ،
ووجدوا عنده ما لم يجدوه عند أصحاب الرئاسة في زمانه . فأصبحت
حماة في عهده معهدا كبيرا يضم طوائف متعددة من أصحاب الثقافات
كما أصبحت ملجأ لكل عالم أنكره قومه وضائق عليه الارض .

(١) - مفرج الكروب ٤ : ٦٥ و ٧٧

(٢) - أدب العرب : ٣٠٦

ويذكر ابن واصل في تاريخه أنه كان في خدمة المنصور محمد أكثر من مائتي معمم من الفقهاء والنحاة وأهل اللغة والمشتغلين بالعلوم الحكمية والمهندسين والمنجمين - علماء الفلك - والشعراء والكتاب (١). وكان ممن ورد عليه الامام سيف الدين الآمدي، وكان محيدا في العلوم العقلية والنقلية، وله في الاصول والمنقولات عدة مصنفات، رد فيها على الامام فخر الدين الرازي والامام أبي حامد الغزالي وغيرهما من أكابر المتقدمين، وأوضح بطلان أقاويلهم. ولذا تحامل عليه المتحاملون من رجال الدين ونسبوه الى انحلال العقيدة ومذهب الفلاسفة فهرب الآمدي من مصر الى حماة مدينة الفكر الحر. ولما دخل على المنصور محمدرحب به وأكرمه، وبني له مدرسة هي المدرسة السلطانية المنصورية، وجعل القاضي شهاب الدين بن القطب معيدا فيها. وكان المنصور محمد يواظب على حضور مجلس الآمدي ويشغل بجميع فنونه. وقد أثنى شيخ الاسلام العز بن عبد السلام على الآمدي بقوله: ما علمنا قواعد البحث الا سيف الدين الآمدي. وحسب الآمدي شرفا مالقيه في رحاب المنصور محمد من اجلال وتقدير (٢).

أما الكتب فكانت تحظى باهتمام خاص من المنصور محمد، فقد جمع منها أعدادا ضخمة تضم سائر فنون المعرفة، حتى أصبح لديه ما لا مزيد عليه. وكان حريصا على العناية بها وحفظها في خزائن داره في قلعة حماة. ويشير ابن واصل في تاريخه الى أن المنصور محمد كان يكثر من مطالعة الكتب ومراجعتها واستحضار العلماء والبحث معهم (٣) وهذا ما سهل عليه تأليف طائفة من كتب الادب والتاريخ.

(١) - مفرج الكروب ٤ : ٧٩، المختصر ٣ : ١٢٥

(٢) - مفرج الكروب ٤ : ٧٨، المختصر ٣ : ١٥٥، طبقات السبكي: ٥

(٣) - مفرج الكروب ٤ : ٨٠

آثار المنصور محمد :

جمع المنصور محمد في اهابه سجايا الحاكم ومزايا العالم، وكانت حماة في عهده قمة حضارية يفيء الى سفحها أعلام الادب والعلم من كل مكان . ولقد ترك المنصور محمد - فيما ترك من آثار - جملة من المؤلفات عرفنا منها : كتاب مضمار سر الحقائق وسير الخلائق ، وكتاب طبقات الشعراء ، وكتاب درر الآداب في محاسن ذوي الالباب ، وديوان شعر لم يسلم من قصائده الا القليل .

١ - مضمار سر الحقائق وسير الخلائق :

كتاب واسع في التاريخ ، اتبع فيه المنصور محمد طريقة الحوليات في سرد الاحداث . ومن المؤسف ألا يصلنا من هذا السفر الضخم سوى جزء واحد ، قام بتحقيقه الدكتور حسن حبشي عام ١٩٦٨ عن نسخة المكتتب الاحمدية بتونس . وهذا الجزء يتضمن أحداث ثمانى سنوات فقط : من بداية سنة ٥٧٥ هـ وحتى مستهل سنة ٥٨٢ هـ ، ويمثل فترة من عهد السلطان صلاح الدين .

ويلاحظ أن المنصور محمد في تاريخه قد عمد الى بسط أخبار الدولة العباسية في بغداد ، وأعمال صلاح الدين وحروبه مع الصليبيين . وكان اهتمام صاحب المضمار بالغاً بوقائع حملة قراقوش المظفري في المغرب لعلاقة ذلك بالبيت الايوبي ، وهذا الاهتمام نكاد لانحده عند مؤرخ سواه ولما كان المنصور محمد مشاركاً في صنع الاحداث ، فهو يقدم لنا من خلال سرده لها سيرة ذاتية تتضمن تفاصيل أخباره وأخبار أبيه تقي الدين عمر ، حتى لتكتسب أحياناً صفة المذكرات اليومية مما يضيف على تاريخه قيمة خاصة .

وقد حرى المنصور محمد في تاريخه على أسلوب المتأدبين من غير عسرة ولا تكلف ، فألفاظه سهلة المأخذ ، وعباراته واضحة المقصود . وقد يلجأ الى الحوار وهو يسرد الاخبار ، فلا يشعر قارئه بالملل وأحياناً يستشهد بالنصوص الشعرية الكاملة مدلاً على حسن تذوقه للادب وتقديره لاهله ، ولا يختار منها الا ما كان طريفاً نادراً ، ليجعل القارئ

أو السامع مستروحا بين جمال النثر وجمال الشعر ، وكلاهما واضح مبين .
وتاريخ المضمار بعد هذا لا يخلو من حسن نقدي سليم ، وفهم ذكي
لسير الاحداث ، ولذا نرى صاحبه يعلل أحيانا ما يراه بحاجة الى
تعليل ، أو يحلل اذا كان في التحليل ابانة ونور . وقد لانـكـون
مبالغين اذا قلنا ان كتاب المضمار من أهم الاصول التاريخية ،
وأبرعها صياغة ، وأكثرها تصويرا ، وأشدها جاذبية ، وأعظمها متعة
وفائدة .

ومن الواضح أن تاريخ المضمار قد حظي باهتمامات المؤرخين
القدامى ، فمنهم من ذكره منوها بفضله ، ومنهم من نقل عنه نقلا
يتراوح بين الإشارة والعبارة ، ومنهم من شك بصحة نسبته الى
المنصور محمد .

فقد اعتمد عليه ابن واصل في تاريخه ، وقال عنه : هو في
عشرين مجلدة (١) . وأتى على ذكره أبوشامة في صدد الحديث عن المنصور
محمد بقوله : وصنف كتابا سماه المضمار ، جمع فيه حملة من
التواريخ وأسماء من ورد عليه وأقام عنده (٢) . كما ذكره أبو الفداء
في تاريخه بقوله : وصنف الملك المنصور عدة مصنفات مثل المضمار في
التاريخ (٣) وابن شاکر الكتبي حيث يقول : وجمع تاريخا على السنين
في عدة مجلدات ، ونقل عن شهاب الدين القوسي قوله : قرأت عليه -
يعني المنصور محمد - قطعة من كتابه مضمار سر الحقائق وسير الخلائق
وهو كبير نفيس يدل على فضله ، لم يسبق الى مثله (٤) . وقال ابن
العماد : وجمع تاريخا على السنين في مجلدات (٥) . وينقل أحمد بن
ابراهيم الحنبلي في تاريخه عبارة أبي الفداء نفسها (٦) .

(١) - مفرج الكروب ٤ : ٨٤

(٢) - ذيل الروضتين : ١٢٤

(٣) - المختصر ٣ : ١٣٢

(٤) - فوات الوفيات ٢ : ٣١٥

(٥) - شذرات الذهب ٥ : ٧٧

(٦) - شفاء القلوب : ٣٣٨

وأشار الى تاريخ المضمار عدد من المؤرخين المعاصرين أمثال الشيخ أحمد الصابوني في تاريخه^(١) والزركلي في أعلامه^(٢) وكحالة في معجمه^(٣).

أما حاجي خليفة فانه يشكك في صحة نسبة المضمار الى المنصور محمد ، اذ جاء في كتابه كشف الظنون قوله : وتوهم بعض المؤرخين فأسند اليه - يعني المنصور محمد - وانما صنفه رجل من علماء عصره ويعني سيف الدين الآمدي - كما هو المفهوم في المختصر^(٤).

ولدى الرجوع الى تاريخ المختصر في أخبار البشر لم أجد حاجي خليفة على صواب فيما ذهب اليه ، ذلك أن أبا الفداء صاحب المختصر لم يستخدم أية عبارة توحى بالشك في صحة نسبة المضمار ، وانما كان واضح العبارة عندما أسند المضمار الى صاحبه المنصور محمد^(٥).

ويبدو لي أن صاحب كشف الظنون كان يقصد ابن الوردي صاحب تنمة المختصر وليس أبا الفداء صاحب المختصر . ومن المؤكد أن ابن الوردي عندما قام بتلخيص المختصر والتذييل عليه لم يحافظ على جوهر الحقيقة التاريخية كما وردت عند أبي الفداء ، وانما أخل بها عند اختصاره ، فوقع في الخطأ ، ونسب كتاب المضمار الى غير صاحبه . وقد جاء في تاريخ ابن الوردي - وهو يتحدث عن المنصور محمد - مانصه : وكان شاعرا يحب العلماء . وورد اليه منهم جماعة مثل السيف الآمدي وصنف له مصنفات مثل المضمار في التاريخ وطبقات الشعراء^(٦) . وهذه الكلمات التي أوردها ابن الوردي في تاريخه تنفي عن المنصور محمد الصفة العلمية وتجرده من مكانته السامية بين المؤرخين . والحقيقة كما رأينا هي

(١) - تاريخ حماة : ١٢٠

(٢) - الاعلام ٧ - مادة الملك المنصور .

(٣) - معجم المؤلفين ١١ - مادة محمد الايوبي .

(٤) - كشف الظنون ٢ : ١٧١٢

(٥) - المختصر ٣ : ١٢٥ .

(٦) - تنمة المختصر ٢ : ٢٠٧ .

خلاف ذلك ، فهو صاحب المضمـار في التاريخ بلا امتراء ، ويؤيد ما ذهبنا اليه صاحب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " وقد نقل عنه وكان معاصرا له وقريبا منه ، كما شهد بفضلـه ابن نظيف الحموي في " التاريخ المنصوري " وكان أيضا معاصرا له ولكنه غير قريب منه ، فقد جاء في تاريخه قوله : كان حسن السيرة ، عالما بالسير والتواريخ وعلم الكلام (١) .

٢ - طبقات الشعراء :

يذكر الدكتور حسن حبشي أن الطبقات معجم للشعراء ، وفيه الكثيرون ممن طواهم النسيان (٢) ، ويشتمل هذا الكتاب على طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية والمخـرمين . والاسلاميين والمحدثين ، كما يضم طائفة مختارة من أخبارهم وأشعارهم .

وقد أتى على ذكر الطبقات ابن واصل في تاريخه (٣) وأبو الفداء في المختصر (٤) وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات (٥) وابن العماد في شذرات الذهب (٦) وأحمد بن إبراهيم الحنبلي في شفاء القلوب (٧) وحاجي خليفة في كشف الظنون (٨) والصابوني في تاريخ حماة (٩) والزركلي في الاعلام (١٠) وكحالة في معجم المؤلفين (١١) وفي كتابة التاريخ والجغرافية

(١) - التاريخ المنصوري : ٩٠

(٢) - مضمـار الحقائق - ز

(٣) - مفرج الكروب ٤ : ٧٨

(٤) - المختصر ٣ : ١٣٢

(٥) - فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤

(٦) - شذرات الذهب ٥ : ٧٧

(٧) - شفاء القلوب : ٣٣٨

(٨) - كشف الظنون ٢ : ١١٠٢

(٩) - تاريخ حماة : ١٢٠

(١٠) - الاعلام ٧ - مادة الملك المنصور

(١١) - معجم المؤلفين ١١ - مادة محمد الايوبي

في العصور الاسلامية (١). وقد شذ ابن الوردي في تاريخه فنسبه السي
السيف الامدي خطأ ، وقد أشرنا الى ذلك وفندناه عند الحديث عن كتاب
المضمار (٢).

ومعظم هؤلاء المؤرخين يجمعون على أن طبقات الشعراء يقع في
عشرة محلدات وفي مكتبة جامعة ليدن نسخة غير تامة برقم ٦٣٩
محفوظات شرقية . ويشير صاحب فهرس المخطوطات المصورة الى وجود نسخة
في مصر مصورة عن نسخة ليدن وتقع في /٥٨٠/ صفحة . وأعتقد أن هذه
النسخة لا تشكل سوى جزء يسير من المخطوط الاولي المسمى " أخبار الملوك
ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء المتقدمين من الحاهليين
والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين وذكر مختصر من أخبارهم ومختار
أشعارهم ومن تلاهم من الشعراء الى هذا الزمان والاولان " بدليل أن
أول ما في النسخة الباقية ترجمة أبي الحسن علي بن محمد التهامي، وآخرها
تم الجزء الاول من طبقات الشعراء ، يليه الجزء الثاني منه وهو آخر
الكتاب ان شاء الله ، وأوله ذكر سعادة بن عبد الله الحمصي الشاعـر
الضريـر ومختار شعره (٣).

ويستفاد من هذه العبارة أن ما بقي من كتاب طبقات الشعراء هو
جزء من جزأين يشتملان على الشعراء المحدثين فقط ، أما أجزاء الكتاب
الآخرى - أعني تنمة العشرة - فما تزال مفقودة ...
والكتاب - كما يفيد الجزء الباقي منه - من املاء الملك المنصور
محمد في يوم الاربعاء ٢٢ ربيع الآخر سنة ٦٠٢ هـ في دار المزة بقلعة
حماة ، أي قبيل وفاته بخمس عشرة سنة .

(١) - التاريخ والجغرافية في العصور الاسلامية : ١٦٥

(٢) - نملة المختصر ٢ : ٢٠٧

(٣) - فهرس المخطوطات المصورة - الجزء الثاني - القسم الثالث : ١٠ - ١١

٣ - دور الاداب في محاسن ذوى الالباب :

لم يذكر هذا الكتاب سوى مؤرخين معاصرين هما : الزركلي في الاعلام^(١) وكحالة في معجم المؤلفين^(٢) . ونجد لدى الزركلي اشارة الى أن الكتاب مايزال مخطوطا ، غير أنه لم يحدد لنا مكان وجوده ، وقد حاولت مستقصيا أن أقف له على ذكر في معظم الفهارس الخطية أوالمصورة المطبوعة .. ولكني لم أوفق الى ذلك .

٤ - ديوان شعر :

ذكر ابن واصل في تاريخه ديوانا لمحموعا للمنصور محمد^(٣) ويبدو أن هذا الديوان لم يسلم من حوادث الدهور ، فلم تصلنا منه سوى قصائد وسقطعات وأبيات متفرقة أورد بعضها ابن واصل في موضع عدة من تاريخه^(٤) ، كما أورد له صاحب فوات الوفيات^(٥) وصاحب تاريخ حماة^(٦) نتبا من أشعاره . ويكتفي أبو الفداء في تاريخه بذكر العبارة التالية : ركان ينظم الشعر^(٧) أما صاحب شفاء القلوب فينقل عبارة أبي الفداء نفسها^(٨) .

ويشير صاحب الاعلام^(٩) وصاحب معجم المؤلفين^(١٠) الى وجود الديوان ولكني لم أعثر على ما يؤيد ذلك ، ومن المرحح أن الديوان مفقود مع حملة ما فقد من تراث العرب الضخم .

(١) - الاعلام ٧ - مادة الملك المنصور .

(٢) - معجم المؤلفين ١١ - مادة محمد الايوبي

(٣) - مفرج الكروب ٤ : ٨١

(٤) - المرجع السابق : ٦٥ - ٦٨ - ٨١

(٥) - فوات الوفيات ٢ : النرحمة رقم ٤٤٤

(٦) - تاريخ حماة : ١٢٠

(٧) - المختصر ٣ : ١٣٢

(٨) - شفاء القلوب : ٣٣٨

(٩) - الاعلام ٧ - مادة الملك المنصور .

(١٠) - معجم المؤلفين ١١ - ماده محمد الايوسي .

يقول المنصور محمد من أرجوزة مفتخرا :

بحار جود وبحار علم	اني من قوم كرام شمّ
يذبّ عن هام العلا ويحمي	من كل ذي بأس شجاع شهم
يهرب من سهمي حين أرمي	ربّ حسود لي.. ولا أسمي
ولا يمر قتله بوهمي	أغفل عنه غفلة الاصمّ
أدركته بهمتي وعزمي (١)	لو حل من خوف محلّ العصم

وقال يذكر حروبه من الصليبيين :

حامي الحقيقة يوم الحفل اللجب	كم قد أبدت بسيفي كل مفتخر
فصرت أدعى لديهم جالب الرعب	وكم تركت بني الافرنج في رعب
كانوا لدين الهدى كالوالد الحذب (٢)	كفعل آبائي الغر الذين هموا

وقال متغزلا :

أربي راح وريحان ومحبوب وشادي
والذي ساق لي الملك.. له دفع الاعادي (٣)

وهذه الشواهد هي أفضل ما قرأته للمنصور محمد صاحب حماة، ولئن دلت على كرم الخصال وشرف النضال ، فانها لا ترقى به الى سماء الشعر والملوك هم حكام زمانهم ، أما الشعراء فهم ملوك البيان في كل زمان ومكان .

تلكهم هي صورة الحاكم الذي عرفته حماة ، وعاشت في أيامه عصرا زاهيا حافلا بالامجاد . لقد وطد دعائم البيت الايوبي فيها ، وأقام مملكة دامت أكثر من قرن ونصف ، وأرسى قواعد النهضة التي حمل لواءها أخلافة من بعده وعلى رأسهم الملك المؤيد أبو الفداء المؤرخ والجغرافي العظيم .

(١) - مفرج الكروب ٤ : ٨٣

(٢) - المرجع السابق ٤ : ٨٢

(٣) - فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤

* كشاف المراجع والمصادر *

- ١ - أدب العرب : مارون عبود - دارمارون عبود - بيروت ١٩٦٨
- ٢ - الاعلام : خير الدين الزركلي - الطبعة الثانية
- ٣ - التاريخ المنصوري : ابن نظيف الحموي - تحقيق أبو العيد دودو - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق ١٩٨٢
- ٤ - التاريخ والجغرافية في العصور الاسلامية : عمر رضا كحالة - المطبعة التعاونية - دمشق ١٩٧٢
- ٥ - تنمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ بن الوردي) : زين الدين عمر بن الوردي - تحقيق أحمد رفعت البدر اوي - الطبعة الاولى - بيروت ١٩٧٠
- ٦ - الروضتين في أخبار الدولتين : عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الملقب بأبي شامة - القاهرة ١٢٨٧ هـ
- ٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي - دار المسيرة - بيروت ١٩٧٩ .
- ٨ - شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : أحمد بن ابراهيم الحنبلي - تحقيق ناظم رشيد - سلسلة كتب التراث (٦٥) بغداد ١٩٧٨
- ٩ - طبقات الشافعية الكبرى : عبد الوهاب السبكي - الطبعة الاولى - مصر
- ١٠ - فوات الوفيات : محمد بن شاکر الكتبي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مصر ١٩٥١ .
- ١١ - فهرس المخطوطات المصورة - الجزء الثاني - القسم الثالث : فؤاد سعيد - معهد المخطوطات العربية - القاهرة ١٩٥٩ .
- ١٢ - الكامل في التاريخ : عز الدين بن الاثير - دار صادر - بيروت ١٩٨٢ .
- ١٣ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة - الطبعة الثالثة - طهران ١٣٧٨ هـ .

أبو الفداء صاحب حماة (تاريخياً وحضارياً)

بقلم الأستاذ وليد قنبار

ان حديثي اليوم عن الملك العالم أبي الفداء صاحب حماة ذو فنون وشحون ، واني على يقين أننا سنعيش من خلاله حلماً عذباً جميلاً، وستتناهى الى آذاننا وقلوبنا أنباء وأخبار ليس أحمل منها في الاحدوثة ، ولا أحسن في الذكر ولا أطيب في الخبر والنشر .

حماة مدينة أبي الفداء :

فحماة .. ابنة العاصي ، ومدينة أبي الفداء شهيرة في البلدان، وقديمة الصلبة للزمان .. وقد أثبتت التقارير التي رفعتها البعثات الاثرية وفي مقدمتها البعثة الدانمركية برئاسة العالم الاستاذ هارولد أنفولت التي نقت في قلعة حماة من عام ١٩٣١ - ١٩٣٨ أن تاريخ المدينة قديم جداً .. فالمكتشفات التي توصلت اليها في الطبقة الثالثة عشر يعود تاريخها الى العصر النيوليتي ، أي الى الالف الخامس قبل الميلاد (العصر الحجري الحديث) في حين يرى باحثون آخرون أن حماة كانت مرتعاً للإنسان الحجري القديم اذ اكتشف في موقع الشريعة من المدينة فك حيوان ضخم قام بدراسته عالم المتحجرات الهولندي نورمان وتوصل الى أن عمره /٧٥٠/ ألف سنة، كما عثر على أدوات وآثار وسكن في موقع القرماشي - غربي حماة تعود الى /٢٠٠/ ألف سنة أي الى العصر الاشولي الاعلى .

* هذا البحث أعد ليلقى كمحاضرة عامة، ومن هذا المنطلق فقد خلا من الحواشي والاشارات الى المآخذ والمراجع والمصادر في أماكنها .. وسأورد في نهاية البحث ثبوتاً بأهم المراجع والمصادر التي اعتمدت عليها في اعداد البحث المطول والذي استقيت منه البحث المنشور في هذا المكان .

وهذا حميعه جعل حماة - ومن خلال الدراسات العلمية - من أقدم مدن الأرض التي ماتزال الحياة تنبض في أرحائها.. ان لم تكن أقدمها على الإطلاق .

ويبين تقرير العالم آنفولت أن نواة المدينة قد تشكلت في القلعة منذ سبعة آلاف عام ، ثم شرعت النواة في التوسع ، وتمدنت المعلومات بأن الأكاديين استوطنوها في الألف الرابع قبل الميلاد في حين كانت مسكونة قبلهم من قبل العمالقة وهم أقوام من العرب القدماء ويسمون : الروتانيين أو اللوذيين .

ومع بداية الألف الثالث قبل الميلاد أضحت حماة مدينة مسورة وكان سكانها على دراية بالزراعة والري والسقاية والصناعات المحلية البسيطة ..

ومالبثت حماة أن خضعت لسلطة الاسرتين السومرية والأكادية حتى أواخر القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد عندما هاجمها العموريون متسللين اليها من البادية السورية فسلبوها ونهبوها وعاشوا فيها فسادا ، ولكنها سرعان ما عادت الى الحياة والتقدم وأضحت مركزا للعموريين أنفسهم .

وفي عهد العموريين تعرضت حماة لغزوات البابليين ، ثم جاءها الحثيون حوالي عام /٢٠٠٠/ قبل الميلاد وازدهرت المدينة حينما من الدهر

ولكن هذا الازدهار مالبث أن توقف في عام /١٧٥٠/ قبل الميلاد بسبب اجتياح قبائل الهكسوس الرعاة لها ، وبقيت خاضعة لهم حتى عام /١٥٨٠/ قبل الميلاد ، ونالها العسف والتقهقر الى حد كبير في خلال هذه الفترة . ومالبثت حماة أن عادت الى الازدهار والاستقرار ما بين عامي ١٥٨٠ - ١٤٨٠ قبل الميلاد بسبب استقرار الأوضاع في أثناء احتلالها من قبل الحوريين والميتانيين ، ثم خضعت لملك مصر تحوتمس الثالث في خلال الحملة السادسة التي جردها على سورية وبقيت تحت الاحتلال الفرعوني حتى عام /١٣٥٠/ قبل الميلاد حين اجتاحت سورية قبائل الخاير (الحبيرو) فخربت مدنها وعاشت فيها فسادا ، ومن أبرزها مدينة حماة

التي هجرها أهلها وبقيت خالية من السكان وبقايا وأطلالا حوالـي
مائة عام .

ومع أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر قبل
الميلاد ظهر الاراميون وهم الذين أسسوا ممالك مستقلة في أنـحاء
سورية ، وكانت مدينة حماة من أهم المدن التي تحدد بناوـها
فازدهرت ازدهارا كبيرا ونافست الممالك الارامية الاخرى ، وان الاثار
المكتشفة من تلك الفترة تدل على استعمال سكانها معدن الحديد ،
ومعرفتهم بالري والزراعة بشكل جيد .

ثم عانت حماة من ضربات الاشوريين وهجماتهم المتوالية ، ومالبثت
أن خضعت لهم كغيرها من المدن السورية في عهد شالما نصر الثالث
/٨٥٩-٨٢٤/ قبل الميلاد ، ولكنها شارت ضدّهم فنالت التدمير الكامل
على يد الملك الاشوري صارغون عام /٧٢٢/ قبل الميلاد والذي أجبر سكانها
على الرحيل .

ثم أعيد بناء المدينة من جديد ، وخضعت من بعد لسيطرة
الكلدانيين وفي خلال هذه الفترة احتلها فرعون مصر نخو الثاني عام
/٦٠٧/ قبل الميلاد ، ولكن الكلدانيين أعادوها بعد ثلاث سنوات ،
وبانهيار حكم الكلدانيين استولى عليها كورش الفارسي وأعمل فيها
يد الحرق .

وبعد اجتياز الاسكندر المقدوني الاناضول وتغلبه على الفرس
بعد معركة ايسوس عام /٣٣١/ قبل الميلاد ، دخلت حماة تحت نفوذه ،
وبعد وفاته كانت من نصيب القائد سلوقس نيكاتور عام /٣١٢/ قبل
الميلاد ، واستمرت تحت سيطرة خلفائه السلوقيين (الهلنستيين) فترة
طويلة استطاعت في خلالها استفادة شيء من ازدهارها السابق ، وفي
هذه الفترة تطورت فيها الزراعة وفنون السقاية والري ، وتمكن سكان
حماة نفسها من ابتكار أسلوب فريد في فن ضخ الماء من نهر العاصي
بواسطة دواليب خشبية كبرى تدور بقوة تيار الماء اطلق عليها
اسم " النواعير" وقد أصبحت من أبرز مميزات حماة وعلاماتها ، ومازال
هذه النواعير تدور حتى يومنا هذا .

وتمر الايام الى أن كان عام /٦٤/ قبل الميلاد حين دخلت حماة مع جاراتها تحت الحكم الروماني الذي شهدت فيه نوعا من الاستقلال الداخلي واستمرت في تطورها وازدهارها حتى كان العصر البيزنطي الذي ابتداءً في عام /٣٢٤/ م ، وفي خلال هذا العصر تابعت المدينة تطورها وازدهارها وصلاتها التجارية والسياسية المهمة مع ماحولها وبخاصة مدينتي أفامية وانطاكية .

وفي عام /١٧هـ - ٦٣٨م/ فتحت حماة صلحاً على يد القائد العربي المسلم أبي عبيدة الجراح وجعلت من أعمال جند حمص في عهد الخلفاء الراشدين واستمرت كذلك في عهد الامويين ، الى أن كان العصر العباسي الذي أصاب منذ بدايته سورية كلها بنوع من الفتور والاهمال . . .
وحين شرع بعض الولاة في الاستقلال بولاياتهم عن الخلافة العباسية عانت حماة من الطولونيين والقرامطة والاشيديين معاناة كبيرة . . .
ثم مالبت أن دخلت في ظل حكم سيف الدولة الحمداني وتبعت مدينة حلب في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ثم دخلت فسي حوزة بني مرداس ، وطفقت تتبع حلب مرة وحمص مرة ثانية ودمشق مرة أخرى حتى استولى عليها عماد الدين زنكي عام /٥٣٣هـ - ١١٣٨م/ وفي عهد ابنه نور الدين محمود وصلت الى مكانة كبيرة من التقدم والعمران والعطاء ، وفي عهد نور الدين نفسه حدث الزلزال العظيم عام ٥٥٢هـ - ١١٥٧م/ والذي سمي بالزلزلة الحموية ونجم عنه خراب مدن سورية كثيرة ، ولكنه أصاب حماة بسوء كبير اذ تخربت معظم أبنية المدينة وأسواقها وأحيائها ، فأعاد نور الدين بناء معظم مآتهم ، كما أعاد بناء أسوار القلعة والمدينة ، وبنى فيهما الجامع والمشفى المعروفين باسمه .

وحين اجتاحت الجيوش الصليبية في خلال حملاتها العديدة مختلف مدن سورية وفلسطين وقفت حماة سداً منيعاً تجاه الغزاة الصليبيين ولم يستطيعوا دخولها اطلاقاً .

وفي عام /٥٧٠هـ - ١١٧٥م/ دخلها السلطان صلاح الدين الايوبي وولى عليها خاله محمود الحارمي ، وبعد ثلاث سنوات سار الفرنج بجموعهم

الى حماة ، فشددوا عليها الحصار حتى كادوا يفتحونها قهرا ، فجد سكانها في قتالهم ، وأخرجوا الفرنج الصليبيين الى خارج السور بعد أن اخترقوا بعض جهاته ، واستمر القتال أربعة أيام ، ثم رحل الفرنج عنها الى حارم خائبين ، وفي هذه السنة توفي الحارمي فسير صلاح الدين تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه الى حماة وأمره بحكم البلاد وحفظها وكان ذلك في عام /٥٧٤هـ - ١١٧٨م/ فتسمى بالملك المظفر، وألحق له صلاح الدين بمدينة حماة كلا من منبج وكفرطاب وميافارقين واللاذقية وبذلك بدأ حكم الاسرة الايوبية بحماة والذي استمر على مدى مائة وثمانية وستين عاما .

ومن الطبيعي أن مذكرته كان عجالة في تاريخ المدينة ولسوف أتبسط قليلا في الحديث عن ملوك حماة الايوبيين ، ثم أستفيض في احاطة وشمول منذ ظهور أبي الفداء وحتى رحيله الى العالم الآخر ..

الاسرة الايوبية في حماة :

فالملك المظفر تقي الدين عمر كان أديبا محدثا وشاعرا بليغا وقائدا شجاعا ، واستمر حكمه حماة ثلاثة عشر عاما /٥٧٤هـ - ٥٨٧هـ ١١٧٨ - ١١٩١م/ .

وعقب وفاة المظفر الاول ورثه ابنه ناصر الدين محمد الذي لقب بالملك المنصور، وكان صلاح الدين الايوبي مايزال حيا ، فرفض صلاح الدين ماتم ثم مالبت أن تراجع وقرر للمنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم .. وحلب هذا الاعتراف الرسمي من السلطان الايوبي الى الوجود شرعيا دولة حماة الايوبية وحولها من اقطاعية عسكرية الى مملكة وراثية .

واستمر حكم الملك المنصور ثلثين عاما / ٥٨٧هـ - ١١٩١م/ ٦١٧ هـ - ١٢٢٠م/ كانت من السنوات الغر التي حفلت بالانتصارات على الصليبيين وغيرهم ، بالاضافة الى التقدم والازدهار الكبيرين اللذين عما حماة، ناهيك أن المنصور نفسه كان قمة في العطاء في نواح عديدات

بالإضافة الى أنه كان شاعرا ومؤرخا ترك لنا عدة آثار أبرزها: طبقات الشعراء في الادب ، وكتاب مضمار سر الحقائق وسير الخلائق في التاريخ ويمكن تسمية عهد المنصور عهدا رهاصا لظهور ملكنا أبي الفداء .

وبعد وفاة المنصور اغتصب ابنه قليج أرسلان السلطة من أخيه محمود الذي كان وليا للعهد واستمر حكمه حوالي تسعة أعوام/ ٦١٧هـ - ١٢٢٠ م / ٦٢٦هـ - ١٢٢٨ م/، ثم تولى الحكم الملك محمود الذي تلقب بالمظفر الثاني وبقي فيه ستة عشر عاما/ ٦٢٦هـ - ١٢٢٨ م/ ٦٤٢هـ - ١٢٤٤ م/ وكان عهده صورة لعهد أبيه وحده في الشجاعة وحب أهل العلم والادب والشعر، ثم تلاه ابنه محمد الذي تلقب بالمنصور الثاني ، وحكم مملكة حماة ماينوف على أربعين عاما/ ٦٤٢هـ - ١٢٤٤ م/ ٦٨٣هـ - ١٢٨٤ م/، وكانت هذه الفترة حافلة بالحروب مع التتر بخاصة ، وبازدهار العلم والادب بعامة وفي فترة حكم المنصور الثاني انتهى حكم الايوبيين في مصر عام/ ٦٤٩هـ ١٢٥٠ م/ وبدأ حكم المماليك في مصر وسورية معا، في حين استمرت مملكة حماة الايوبية في الحياة ..

وبعد وفاة المنصور الثاني محمد تسلم الحكم ابنه محمود الذي تلقب بالمظفر الثالث وحكم حوالي ستة عشر عاما/ ٦٨٣هـ - ١٢٨٤ م/ ٦٩٨هـ ١٢٩٨ م/ وكان يساعده في الحكم والمشورة عمه الملك الافضل علي والسد ملكنا أبي الفداء واستمر على هذا خمسة أعوام ثم توفي علي ، وبما أن المظفر الثالث لم يكن ذا عقب فان وفاته جعلت السلطان المملوكي في مصر ينتظر رغبة الامراء الايوبيين في حماة باختيار أحدهم للمملكة ، ولكنهم لم يملوا الى رأي واحد وحال واحدة ، فاخترار السلطان مملوكا اسمه (قرا سنقر) لنيابة سلطنة حماة، ومن هنا خرج الحكم من أيدي الايوبيين في حماة ولكن كان في الميدان مناضل قوي ومطالب ملح وساع حثيث في سبيل ارجاع السلطة الى الايوبيين اسمه اسماعيل بن نور الدين علي .. ولقد تمكن من ذلك بعدلأي وفترة عصيبة حافلة .. فمن هو اسماعيل هذا .. ؟

هذا المناضل هو ملكنا العالم اسماعيل بن الملك الافضل نور الدين علي بن الملك المظفر الثاني محمود ابن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه شقيق صلاح الدين الايوبي ابن أيوب بن شاذي .

ولقد ولد اسماعيل عام ٦٧٢هـ - ١٢٧٣م / أميراً من سلالـة الايوبيين في دمشق حينما جفلت عائلته من حماة اثر احاطة الموغول بهـا ، وهو ثالث اخوته : أسد الدين عمر وبدر الدين حسن . كني منذ صغره بأبي الفداء ولقب بعماد الدين ، وبدأ حياته بالدراسة والثقافة والدراية والتدريب على فنون القتال والصيد والقنص والفروسية ولقد حفظ القرآن الكريم مبكراً مع عدد من كتب التـراث واشتغل في العلوم وتفنن في جمع أشـتات الكثير منها ، وتم ذلك حميعه في مدينة حماة بعد أن عادت اليها العائلة عقب زوال الخطر المغولي الذي لم يدم سوى شهور معدودات .

وحين بلغ أبو الفداء الحادية عشرة من عمره توفي عمه الملك المنصور الثاني محمد ، وصار الملك الى ابن عمه المظفر الثالث محمود فأنعم السلطان المملوكي على الملك الجديد وعلى الملك الافضل والسـد أبي الفداء وعلى أبـنائـه حميعا ومنهم أبو الفداء بخلع وتشاريف سلطانية .

وفي العام نفسه وكان أبو الفداء يقترب من عامه الثاني عشر قصد السلطان المملوكي قلاوون دمشق في طريقة الى حصن المرقب لانتزاعه من أيدي الفرنجة الصليبيين ، فسار معه الملك الافضل من حماة ورافـق أبو الفداء أباه في هذه الحملة ، ودخل الحصن مع المهاجمين وكان النصر المبين ، وكان هذا القتال أول قتال رآه .

وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره رافق السلطان قلاوون في حصار مدينة طرابلس الى جانب واحد وابن عمه الملك المظفر ، وكان النصر وهزيمة الصليبيين وعودة المدينة الى العرب بعد أن ظلت تحت حكم الفرنجة مايقارب القرنين من الزمان .

وتابع الامير الفارس أبو الفداء اسهاماته في القتال والجهاد والنصر

فاشترك وهو لم يبلغ العشرين من عمره في فتح مدينة عكا، وكان ذلك
الفتح ايدانا بتطهر سواحل الشام جميعها من فلول الصليبيين .. كما
شارك في العام نفسه في فتح قلعة الروم .. وبعد شهور رغب اليه والده
أن يحمل بعض الهدايا الى السلطان في مصر ، فاجتاز المسافة من حماة
الى مصر في ثمانية أيام فقط على خيل البريد .

وبعد وفاة والد أبي الفداء الذي كان يشارك ابن أخيه الملك
المظفر في المشورة والحكم ، التحق أبو الفداء بخدمة ابن عمه الملك
المظفر الثالث ، وبدأ يحتل المكانة التي كانت لابيه في المملكة ..
وأصبح واحدا من كبار - ضباط جيش حماة الايوبي ..

وفي عام/٦٩٧هـ - ١٢٩٨م/ أسهم وهو ابن خمس وعشرين سنة في
الحملة التي جردها السلطان المملوكي ضد الارمن في بلاد سيس في الاناضول
(أرمينية) ووقعت الواقعة بعد عام واحد حين توفي الملك المظفر الثالث
محمود من دون عقب عن/٤٢/عاما بعد مرض طاريء في أثناء رحلة صيد
كان أبو الفداء رفيقه فيها، ولقد مرض أبو الفداء قبل ابن عمه، ولكن
القدر عاجل محمودا واستبقى اسماعيل لما ينتظره من العظم والعظام ..
وكما ذكرت سابقا أن اختلاف الامراء الحمويين الايوبيين على
اختيار المرشح الخلف جعل السلطان المملوكي يعين المملوك قرا سنقر
الجوكندار نائبا للسلطنة في حماة ، وهو من القادة وامراء الجنود
الذي كان السلطان بحاجة الى استرضائهم والاستعانة بهم ، وبذلك انتهى
حكم السلالة الايوبية وبدأ حكم النواب واضطر أبو الفداء مع أخويه
وأبناء عمومته الى استقبال قرا سنقر الذي نزل في دار الملك المظفر
حين وفد حماة ، وقاموا بوظائف خدمته ..

سعي أبو الفداء في سبيل استرجاع الحكم :

وفي خلال حكم قرا سنقر يتحرك أبو الفداء على رأس جيش حماة منضما
الى الحيوش السائرة لملاقاة الموغول اثر تحركهم الجديد .
وبعد قرا سنقر تولى نيابة السلطنة في حماة زين الدين كتبغا
ومن بعده سيف الدين قبچق ، وفي عهد الاخير خرج أبو الفداء ثانية

على رأس العساكر الحموية للقاء الموغول من جديد .
وفي خلال هذه الفترة نال أبو الفداء وعدا من السلطان في مصر
بإمارة حماة والحق يقال انه كان يعمل بدأب ونشاط مستمرين فـي
استرداد مملكة حماة للأسرة الايوبية واستخلاصها لنفسه ، وتابع في
توطيد علاقاته مع السلطان عن طريق الاتصالات المستمرة والخدمات
المتوالية .

وفي عام ٧٠٢هـ - ١٣٠٢م / شارك في مطاردة الموغول الذين عاشوا
فسادا في وادي الفرات حتى بلغوا القريتين من أعمال حمص ، ولقد
تم النصر وأبيد الموغول عن بكرة أبيهم .

وعندما عزل السلطان الناصر محمد عن السلطنة المملوكية في مصر
وهرب الى الكرك ومنها الى دمشق خف أبو الفداء لملاقاته ومناصرتـه ،
فنال وعدا حديدا بحكم حماة ثم رافق السلطان نفسه في حملته على
مصر لاسترجاع عرشه ، وتم الاسترجاع ونال وعدا جديدا ..

ولكن السلطان لم يف بوعده وعين مملوكا اسمه : اسندمر على
حماة ووقع النزاع بينه - أي اسندمر - وبين أبي الفداء ، فغادر أبو
الفداء حماة واستقر في دمشق ، وحاول اسندمر استرضاءه واقناعه
بالعودة الى حماة ولكن لم يستطع .

وقام أبو الفداء بزيارة صديقة ملك البدو (العرب) في منطقة حماة
عيسى بن مهنا وحثه على تذكير السلطان بوعده ، وذهب عيسى الى مصر
وبالفعل نفذ السلطان وعوده فأصدر أمرا بنقل اسندمر الى حلب وتعيين
أبي الفداء مكانه وذلك في الثامن عشر من حمادى الاولى من عام ٧١٠ /
للهجرة الموافق الرابع عشر من تشرين الاول من عام ١٣١٠ / للميلاد ، وبذا
عادت حماة الى الحكم الايوبي كما يقول أبو الفداء نفسه في تاريخه
بعد احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوما وصار أبو الفداء
نائبا للسلطان فيها .

حكم أبو الفداء في حماة :

وبعد عامين فوز السلطان الى أبي الفداء حكم حماة ملكا لانيابة وأذن له أن
يخطب له في حماة وأعمالها على ما كان عليه الملك المنصور وأضاف اليه

معرة النعمان وبارين (بعرين) .. وبعد فترة يسيرة أضى من أـبـرر ملوك سورية وولاتها جميعا .

وفي عام ٧١٥هـ - ١٣١٥م / شارك أبو الفداء على رأس الحند الحموي في فتوح ملطية في تركيا الى جانب جيوش مصر وعساكر الشام . واستدعاه السلطان الى مصر غير مرة لمرافقته في رحلات الصيد وفي ندوات الادب والثقافة والفكر ثم مالبث أن منحه لقب سلطان في عام ٧٢٠هـ - ١٣٢٠م / وكان عمره حينذاك ٤٧ / عاما ..

وهكذا أضى أبو الفداء سلطانا الى جانب السلطان يزهو بعودة حماة الى حكم الايوبيين وأنه المحتفظ به ، وأنه المجاهد المقاتل الذي قاتل أعداء العرب والاسلام على اختلاف انتماءاتهم ، وأنه قصد الحجاز ثلاث مرات لاداء فريضة الحج ، وأنه لا يني عن التنقل بين مصر والشام وأنه المنهمك في احداث عصره والمتصدى لها قائدا للحند وحاكما لولاية ونائبا مميزا من نواب السلطان ، ثم سلطانا على منطقة مهمة من مناطق سورية .. وهو الى هذا استطاع أن يجمع الى هـذـه الحياة العملية الحاهدة المضطرة حياة التأمل والدراسة والتأليف وأن يشارك في العلوم جميعها مشاركة حييدة بالاضافة الى أنه الحاكم الهادي الذي يتسم بالعدل والحلم والبساطة ولم يتسم بالشره وحب المال والمظهر لانه كان رجل علم وثقافة أكثر منه رجل احتراف سياسة وحكم .. ومن هذا جميعه كان أبو الفداء بدعا في الملوك والسلاطين جميعا .

ولم يتوقف أبو الفداء عن الجهاد والعمل ، ففي السنة نفسها جهز عسكر حماة للاغارة على الارمن في بلاد سيس الاناضول فعادوا غانمين منتصرين وفيها أيضا شرع في عمارة المربع والقبة والحمام على ساقية نحيلة في ظاهر حماة (موقع ناعورة الدهشة وبستانها الى الشرق حاليا) وفرغ منها بعد عام وجاءت جميعها من أنزه الاماكن .. فالمربع هو القصر الذي يسكن في فصل الربيع وهو في أحمل موقع لنهر العاصي فـي حماة وفي الدهيشة .. لان الناظر أو الداخل اليه تأخذه الدهشة والحيرة لما كان يشاهده من جمال موقعه واحكام بنائه وحسن هندسته وبديع زخرفته .. ولقد حاول السلطان الناصر محاراته ببناء دهيشة في قلعة مصر وأرسل المهندسين الى حماة لكشف دهيشتها ورسم تصاميمها ..

والقبة كانت تضم على أحد أركانها المرقب (المرصد) الذي كان أبو
الفداء يرصد من خلاله النجوم والكواكب والمحرات والأفاق .
وأما الحمام فكانت تقع الى الشمال من ذلك كله .

كتاب تقويم البلدان :

وفي هذه السنة نفسها / ٧٢١هـ - ١٣٢١م / فرغ أبو الفداء من تأليف
كتابه العظيم " تقويم البلدان " في الجغرافية والذي بقي في صياغته
وترتيبه وتبويبه أربع سنوات كاملات . . وان تمكن مليكنا العالم
من علم الفلك وعلم الرياضيات وتضلعه فيهما دفعاه الى أن يتخذ
موقف الناقد من سائر الكتب الجغرافية التي ظهرت حتى عصره فهي تهمل
كما يقول - ضبط الاسماء أو ذكر المواقع الفلكية من طول وعرض من
جهة ، أو تهمل الجهات نتيجة الجهل بالاطوال والعروض من جهة أخرى
ولذا اعتمد أبو الفداء على مصادر ثلاثة في تأليف كتابه هذا :

- ١ - مشاهداته الشخصية في بلاد الشام وفلسطين والحجاز ومصر والمعيد
والجزء الشرقي من آسيا الصغرى وأرض الجزيرة العليا .
- ٢ - المصادر الجغرافية التي ظهرت حتى عصره وأشار اليها بأمانة علمية
- ٣ - المصادر التنفوية الموثوقة .

ويتجلى المنهج العلمي في تضاعيف هذا الكتاب فهو يبدأ بمقدمة
عامة يذكر فيها مساحة الارض وشكلها وتقسيمها الى أقاليم سبعة ،
ثم يبدأ الحديث عن الاطوال بدءاً من حزر الخالدات (حزر الكناري)
والمسافات ، ووسائل قياسها ، ثم يشرع في ذكر البحار المعروفة
فالانهار فالجبال ، ثم يجعل لكل بلد اقليمين : حقيقي (أحد
الاقاليم السبعة المعروفة) وعرفي (الناحية أو المملكة الموحود فيها)
ثم يتبع ذلك بدراسة جغرافية اقليمية ، ووضع في خاتمة كل منطقة
من المناطق الثمانية والعشرين التي درسها جدولاً مقسماً الى عشرة أبواب
ذكر في الاول اسم البلد وفي الثاني أسماء المنقول عنهم والثالث
لدرجات الطول والرابع للدقائق الطولية ، والخامس لدرجات العرض والسادس
لكسور درجات العرض من الدقائق ، والسابع للاقليم الحقيقي، والثامن

للاقليم العرفي ، والتاسع لضبط الاسماء والعاشر للاوصاف والاخبار العامة ..

ويرى الباحثون أن أبا الفداء اتبع في ذلك طريقة مبتكرة عن طريق عرض بيانات عن البلدان في شكل جداول لم يستخدمها جغرافيون قبله ..

ويعددون مزايا الكتاب وأبرز أفكاره فاذا هي كثيرة ورائعة ويأخذون عليه بعض المآخذ التي لاتنقص من قيمته عربيا وعالميا .. فتقويم البلدان جعل أبا الفداء أحد الرواد المبكرين للجغرافية الحديثة وطريقة تأليفه جديدة وحديثة ومبتكرة ومن هنا فقيمه الذاتية متفوقة .. ولقد ملأ فراغا كبيرا لكونه مرجعا جغرافيا مختصرا ومركزا بالنسبة للعصر الذي وجد فيه سواء في المشرق العربي والاسلامي والغرب الاوربي .. ولقد اختصره ونقل عنه واهتم به وزاد عليه وذيله وتأثر به واعتمد عليه عدد كبير من علماء العرب والترك والفرس .. وأما الغربيون فقد وحدوا فيه كنزا ثميننا ونال من هذا المنطلق اهتمامهم المبكر وبشكل رائع وملفت للنظر ، فقد ذكروه وأشنوا عليه منذ أواسط القرن السادس عشر وأسموه جغرافية أبي الفداء واشتغلوا بدراسته علميا ونقديا واقتطفوا منه مقتطفات ، ثم نشرها مع ترجمة لاتينية عام ١٧٦٦م في لايبزك على يد العالم جوهان . كوهلر .. ثم طبعوه في ثينا عام ١٨٠٧م ومعهم ترجمته باللغة اليونانية وأصدره المستشرق رايزكه بترجمة كاملة ، ثم أخضعه العالمان الفرنسيان رينود وجوبار للترجمة والدراسة بتكليف من الجمعية الاسيوية الفرنسية .. ثم نشره البارون جوكان دي سلان بالاشتراك مع رينود باللغة العربية في باريس عام ١٨٤٠م / في ٥٣٩ / صفحة وصدره بمقدمة باللغة الفرنسية وهذه الطبعة هي التي صورتها مكتبتا المثنى في بغداد والخانجي في مصر وقدمتاها الى العالم العربي ؟ ..

ومن هنا فكتاب تقويم البلدان لم يطبع بعد في المطابع العربية وانما أخذناه عن أوروبا التي نعمت بنصوصه ومعلوماته على مدى سنين طويلة وبقي أثره قائما فيها حتى أواسط القرن التاسع عشر ونحن عنه

غافلون... وهذه هي شهادات الغربيين :
يقول العالم ميخائيل اساري الايطالي : " ان كتاب تقويم البلدان
قد حاز الاعجاب لاسلوبه المتزن ونقده القويم ".
ويقول العالم الفرنسي رينود : " ان العصور الوسطى الاوربية لم تعرف
كتابا يمكن مقارنته بتقويم البلدان لابي الفداء ".
ويقول العالم الروسي كراتشكوفسكي : " ان كتابين عربيين فقط
أشارا من الاهتمام عند الغربيين أكثر من تقويم البلدان ، وهما
القرآن الكريم وألف ليلة وليلة ".
ويقول العالم البلحيكي الكبير جورج سارتون في كتابه " المدخل الى
تاريخ العلوم " المنشور باللغة الاسكندنافية : " ان أبا الفداء كان أعظم
جغرافي عصره ، لافي الديار الاسلامية فحسب ، بل في أي مكان ".
أبو الفداء العالم الموسوعي :

ولعل بروز أبي الفداء كعالم جغرافي يفتح لنا آفاقا واسعة في
ميدانه الثقافي والفكري ، فلقد كان الرجل موسوعي الثقافة بحيث
استوعب معظم علوم عصره ، وكان في تكثرها من المبرزين الاعلام حتى
قال فيه الاسنوي في طبقاته :
" كان جامعا لاشتات العلوم ، أعحوبة من أعاجيب الدنيا ، ماهرا في
الفقه والتفسير والاصلين ، والنحو والعروض ، وعلم الميقات والفلسفة
والمنطق والطب والتاريخ ، وغير ذلك من العلوم ، وقد صنف في كل علم
تصنيفا أو تصانيف ".
ويقول ابن الوردي : " ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه ".
ومن هنا فقد غدت حماة في عهده محط رحال أهل العلم من كل فن
ومنزلا للشعراء ومركزا للادب ، وكان مجلسه يحفل بالعلماء والفقهاء
والشعراء والفلاسفة والكتاب .. ومن الطبيعي أنه كان بينهم جميعا
الرائد والمقدم والعالم .. الذي رقد المكتبة العربية بهذه المؤلفات :
١ - الكناش : في سبعة علوم وفنون (نحو وتصريف - فقه - طب -
تاريخ - أخلاق وسياسة وزهد - أشياء - فنون مختلفة) .. وتوجد

- في القسطنطينية أقسام مخطوطة منه .
 - ٢ - الموازين : في علم الفلك ، وتوحد نسخة مخطوطة منه في مكتبة بودليان في أوكسفورد - لندن .
 - ٣ - الحاوي : في فقه الامام الشافعي .
 - ٤ - العروض والاطوال : في الجغرافية .
 - ٥ - البئر المسبوك في تواريخ الملوك" وتوحد نسخة مخطوطة منه في دار الكتب المصرية في القاهرة .
 - ٦ - مختصر اللطائف السنية في التواريخ الاسلامية في التاريخ .
 - ٧ - تاريخ الدولة الخوارزمية .. في التاريخ .
 - ٨ - شرح نظم الكافية .. في النحو .
 - ٩ - نواذر العلوم ..
 - ١٠ - المخطوطة في الاخلاق والاداب والزهد والوعظ .. وهناك نسخة مخطوطة منه في المغرب .
- ولعل هذه الموسوعية الشاملة تبدو لنا عمليا الى جانب النواحي النظرية والتأليفية عند أبي الفداء ..
- فهو طبيب .. وصيدلي .. وعالم نبات .. وفلكي .. وفيلسوف .. وفقه .. ومؤرخ .. وجغرافي .. وشاعر .. ونحوي .. وعالم منطق .. وعالم أصول عربية .. وأديب .. وعالم ميقات .. ولكل واحدة من هذه شواهد رائعة وطريقة ومؤلفات سامية وعظيمة جعلت من أبي الفداء واحدا من علماء عصره البارزين وندر بين ملوك المسلمين من بلغ مبلغ علمه ، وكان لهذا يحب العلماء ويقربهم ويحرص على اقتناء الكتب النفيسة النادرة حتى انه جمع في مكتبة جامعة / ٧٠٠٠ / مجلد وقفها للناس كي ينهلوا من كنوزها ومجانيها .. وليس هذا فقط بل ان العلماء أنفسهم كانوا يقصدونه من كل حذب وصوب حتى غدا محاطا بجو علمي يتلاءم مع اتساع أفق ثقافته المتعددة الجوانب .. ولعل الشعراء كانوا في مقدمة الوافدين وأبرزهم : ابن نباتة المصري وصفى الدين الحلي وابن مطروح والشهاب محمود حتى قال مارون عبود في كتابه أدب العرب حين دراسته أدب عصر الدول المتتابعة :

" لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء محيدون الا في حماة حيث بقيت هذه العادة ردحا من الزمن ، ولهذا لم يكن الشعر هناك صناعة لفظية .. "

عود الى سيرة أبي الفداء :

وأعتقد بأنه آن لنا بعد هذه الجولة أن نعود الى أبي الفداء ومسيرته الحياتية بعد أن غدا سلطانا فنراه في عام/٧٢٢هـ - ١٣٢٢م/ يشترك مع عسكر حماة في فتوح آياس من منطقة سيس .. وفي السنة نفسها ذهب الى مصر وانطلق مع السلطان الناصر الى منطقة الاهرام ، وحضر هناك وصول رسول صاحب برشلونة ، ثم رافق السلطان الى المعيد ومنه الى القاهرة ، وعاد الى حماة مغمورا بالانعام والعطايا .. وبعد فترة وجيزة دعاه السلطان ثانية الى مصر ، وهناك حضر استقبال رسل التتر ، ثم انطلق مع السلطان الى الصيد ثم عادا الى القاهرة ، ومنها قصد حماة عاصمة ملكه .

وفي تلك الفترة أنشأ أبو الفداء الحناح الشرقي من جامع النوري وضمه الى الجامع - وهو القسم المطل على نهر العاصي - وأسماه "الروشن" وفي العام/٧٢٦هـ - ١٣٢٦م/ خرج بعسكر حماة شرقا ووصل الى قناة العاشق الواصلة من سلمية الى حماة ، وقام بقسمتها على الامراء والعسكر لانها آلت الى التلف بسبب ما اجتمع فيها من الطين والاحجار واستطاعوا جميعا تحريرها في نحو اسبوع ، ثم عادوا الى حماة .. ويموت أخوه السلطان حسن ، وفي العام التالي تموت والدته فيعمد الى عمارة جامع .. جامع الدهيشة (الواقع الان في حي باب الجسر الى الشرق من القبة والمربع والحمام ، ويسميه العامة عندنا (جامع الحيايا) وذلك لتشابه ثمانية أضلاع رخامية في كل من عضادتي شبابيك حرمه المطل على نهر العاصي على شكل الافاعي ، ولقد بنى في شمالي الجامع ضريحا له وشيد فوقه قبة وبجانبها مئذنة مشمئة ، وحين سئل عن بناء الضريح قال : "ما أظن أنني أستكمل من العمر ستين سنة ، فما في أهلي - يعني البيت الايوبي الحموي - من استكملها .. " .

المختصر في أخبار البشر :

وفي عام /٧٢٩هـ - ١٣٢٩م/ انتهى أبو الفداء من كتابه سفره الثاني الضخم . . المختصر في أخبار البشر " وهو في التاريخ ، ويحدثنا بنفسه عن أسباب تأليفه هذا السفر فيقول :

" انه سئح لي أن أورد في كتابي هذا شيئا من التواريخ القديمة والاسلامية يكون تذكرة يغنيني عن مراجعة الكتب المطولة " .

وهذا السفر مختصر طوّل في تاريخية سابقة وفي مقدمتها الكامل لابن الاثير وقد اختصر التواريخ القديمة في خمسة فصول وقعت في /١٠٠/ صفحة ، ثم أتبع ذلك بالتواريخ الاسلامية مرتبة على السنين بدءا من ظهور الاسلام وحتى بداية الحروب الصليبية ووقعت في /٣٤٠/ صفحة ، ثم أتبع بالفترة التالية حتى عام /٧٢٩هـ - ١٣٢٩م/ فوقع في /٣٧٠/ صفحة ومن هنا يرى بعض الباحثين أنه ليس لأبي الفداء من فضل في الكتاب سوى حسن الاختيار والتنسيق والجمع في العصور السابقة له أما عندما يلج عصره ، فتصبح لمادة الكتاب قيمتها المباشرة وبخاصة فيما يتعلق بالاحداث التي شهدتها المؤلف أو اشترك فيها ، فالكتاب لهذه الفترة الممتدة على حياة أبي الفداء وإلى حد ما للفترة القريبة السابقة ولما يتصل من أحداثها بالدولة الايوبية وبفرعها الحاكم في حماة على وجه الخصوص . . هذا الكتاب هو أصل رائع وفريد يعكس لنا حساسة ذلك العهد ، ونحن مدينون به لحس أبي الفداء التاريخي وشغفه العلمي . ويلاحظ الدارسون أن أبا الفداء مع التفاته للشؤون العسكرية والعامة كان يعنى بالنواحي الفكرية ، ويلتزم بالاختصار في كل الفترات ، ويحدد ذلك عن طريق الانتقاء وهو في ذلك حميعه متوازن ، واسع الصدر ، متزن في أخباره ، معتدل في حديثه حتى عن الخصوم .

ولقد خضع الكتاب للبحث والنقد ورأى فيه العلماء جوانب مضيئة وأخرى كابية . . فالدكتور عمر فروخ يرى في ثناياه علم تحليل التاريخ من طرف وسيطرة القصة على عدد من الجوانب في سرد التاريخ من طرف آخر . . وهناك آراء أخرى عديدة بين مؤيد ومتحفظ وبخاصة فيما يتعلق بالتواريخ السابقة لعهد ، في حين يتفق الجميع على ندرة الكتاب

الاستاذ وليد قنبراز

وروعته بالنسبة لعصر أبي الفداء ، وعلى الرغم من ذلك كله فالكتاب احتل مكانة بارزة قديما وحديثا وأحدث أثرا مرموقا في الشرق والغرب على حد سواء ، فعند العرب هناك من اختصره وذيله وانتخب منه ، وعند الغرب حظي في وقت مبكر باهتمام المستشرقين ، وكان في مقدمة الاصول التاريخية التي اكتشفوها وعمدوا الى نشرها وترجمتها وهكذا أصبح المختصر كما يقول الاستاذ العالم جب : أصلا من أصول الاستشراق في القرن الثامن عشر ، فقد طبع أولا باللغة العربية في أكسونيا في مطلع القرن الثامن عشر ، ثم نشر العالم حادير القسم المختص بسيرة الرسول العربي محمد عليه الصلاة والسلام في أوغسبورغ مع ترجمة الى اللغة اللاتينية . ثم نشر العالم فيرجيس ترجمة فرنسية لهذه السيرة في باريس عام ١٧٣٧م ، وتبعته ترجمة العالم موراي الى اللغة الانكليزية في لندن .

وعني بالتاريخ كله رائد الاستشراق الالماني رايسكه فنشر في عام ١٧٥٤م ترجمته اللاتينية حتى عام ١٧٥٦هـ - ١٧١٦م/وقسام العالم آبلر في كوبنهاجن بترجمته كاملا وأصدره بخمسة مجلدات كبيرة بين عامي ١٧٨٩-١٧٩٤م ثم نشر مع الاصل العربي في فيينا بخمسة مجلدات أيضا .

وفي غوتنجن نقل القسم المتعلق بالجاهلية وطبع على حدة ، كما نقل القسم المتعلق بمصر وطبع مع ترجمة لاتينية وشروح في عام ١٧٧٦م/ كما نقلت أقسام منه وطبعت مترجمة الى اللغة الفرنسية في الفترة ذاتها .

وفي عام ١٨٣٧/ ترجمت منه أقسام ونشرت في باريس مع ترجمة فرنسية لدوفرليه في حين نشر فيشر في لايبزك أقساما مع ترجمة لاتينية وترجم في الهند الى اللغة الاوردية في عام ١٨٥٦/، ثم طبع كاملا باللغة العربية في القسطنطينية عام ١٢٨٦هـ - ١٨٦٩م/ في أربعة مجلدات نقلت عن طبعة أوربا ثم طبع في مصر نقلت عن طبعة القسطنطينية ثم طبع في بيروت نقلت عن طبعة مصر .

ويقوم الدكتور الباحث حسن الساعاتي بدراسة الكتابين معا : تقويم البلدان والمختصر في أخبار البشر، ويخرج من الدراسة بأن لابي الفداء منها خاصة في البحث يقوم على القواعد التالية :

١ - الوفرة في جمع البيانات ، وتظهر في كثرة المصادر التي استقى منها مادة كل بحث من بحوثه .

٢ - الدقة في تفسير البيانات وتفنيدها .. فهي دقة فائقة مرجعها الامانة العلمية التي كان يتحلى بها ، ومنطقه السليم في تفهم الامور .

٣ - الاختصار في العرض وايجازه الشديد في خطبة كل كتاب ، ودخوله المباشر الى لب الموضوع ، فهو انما يكتب مختصرات تكون بمثابة مذكرات يحد فيها الغناء عن مطالعة الكتب الكبيرة في كل موضوع من الموضوعات التي عالجها .

٤ - الوضوح في تناول البيانات وعرضها .. انه وضوح ارادي والتزام بتوضيح ما يكون غامضا منعاً للبس وسوء الفهم ، واجتهاد فـي تيسير الصعب الذي يحتاج من القارئ الى عملية اعمال فكر شاقـة قد لاتوصله بالضرورة الى الرؤية الكاملة التي يصورها المؤلف .

وهكذا استطاع الملك العالم أبو الفداء بفضل سفريته الرائعين تقويم البلدان والمختصر في أخبار البشر .. أن يجعل اسم : أبي الفداء صاحب حماة علما بارزا في كل مكان شرقا وغربا ، ففي قاعة المحاضرات في الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس نقشت أسماء عدد من الذين شادوا علم الجغرافية انسانيا على مر العصور واسم أبي الفداء ثالث الاسماء ..

وعلى واحدة مكتبة السوربون في باريس نقش اسم أبي الفداء في رأس قائمة أسماء الشخصيات العالمية التي أثرت في الحضارة الانسانية كما أن هناك دراسات وأبحاثا أكاديمية في روسيا وفرنسا وألمانيا وانكلترا وبلجيكا وغيرها عن علم أبي الفداء وأبحاثه في التاريخ والجغرافية والفلك ، وقد تعجبون اذا سمعتم بأن أي عالم فلك في العالم اذا توجه الى دراسة القمر فان جبل أبي الفداء في القمر نفسه هو أول ما يصادفه ، والسبب أن أبا الفداء كان أول من اكتشف هذا الجبل في القمر من خلال مرقبه في حماة ووصفه ، فكان أن أطلق العلماء الغربيون على هذا القمر اسم جبل أبي الفداء .. ونحن - وللاسف العميق -

لاندري شيئاً عن الرجل وعن أعماله وعن أثره عربياً وعالمياً ، وكم هو جميل ومشرف أن نستدرك مافات وأن نعوض تقصيرنا الفاضح في هذا المجال .

عودة أخيرة الى حياة أبي الفداء :

ونعود مرة أخيرة الى سيرة حياة أبي الفداء فنجدّه بدايــــة عام/٧٣١هـ - ١٣٣١م/ يصاب بوعكة صحية ، ثم تزداد حالته الصحية سوءاً ، فما كان منه الا أن قام بتوزيع كتبه ومخطوطاته الخاصة على أصحابه من العلماء العاملين ، وحين سئل عن السبب أجاب قــــد يأتي من نسلي وأهلي من لايعرف قيمتها فتضيع ، وأما عند هؤلاء العلماء فهي لن تضيع ..

ومع يوم السبت الثالث والعشرين من محرم عام/٧٣٢هـ/الموافق للسابع والعشرين من تشرين الاول من عام/١٣٣١م ودع أبو الفداء الحياــــة الدنيا وختم أيامه بهدوء وهو لم يكمل الستين من عمره ، وبذلك تحقق كلامه وحده حينما بنى ضريحه بنفسه قبل خمسة أعوام ، وبموته انطوت صفحة مهمة من تاريخ حماة وتاريخ الفكر والثقافة العربيــــين وتاريخ العطاء الانساني ، ولقد خرجت مدينته وماحولها بكل من فيها وراء نعشه مودعة باكية ووقف الشعراء راشرين باكين .



* أهم المصادر والمراجع المعتمدة في البحث *

آ - المخطوطات :

- ١ - المعتبر في تنمة المختصر في أخبار البشر لنوري باشا الكيلاني .
- ٢ - تاريخ حماة لأحمد قدري الكيلاني .
- ٣ - طبقات الشافعية للأسنوي .
- ٤ - الملك المنصور محمد لعدنان قيطاز .
- ٥ - أبو الفداء - حياته وآثاره لوليد قنباز .

ب - الكتب المطبوعة :

- ١ - تقويم البلدان لأبي الفداء - طبعة مصورة عن طبعة باريس/١٨٤٠/
إصدار مكتبة المثنى في بغداد ومكتبة الخانجي في القاهرة .
- ٢ - المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء .. القاهرة/١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م /
- ٣ - تنمة المختصر أو ذيل تاريخ أبي الفداء لابن الوردي - القاهرة
/١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م/
- ٤ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي - القاهرة
/١٣٧٢-١٣٩٢ هـ - ١٩٥٣ - ١٩٧٢م/
- ٥ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي - القاهرة
/١٣٥١هـ - ١٩٣٢م/
- ٦ - صبح الأعشا في صناعة الانشا للقلقشندي - القاهرة
/ ١٣٣٠ - ١٣٣٧هـ - ١٩١٣ - ١٩٢٠م/
- ٧ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني - حيدر
آباد - الهند - /١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م/
- ٨ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي - دار الكتب
المصرية - القاهرة - /١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م/
- ٩ - فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي - القاهرة/١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م/
- ١٠ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة - استامبول
/١٣٦٠هـ - ١٩٤١م/

- ١١- الاعلام لخير الدين الزركلي - دار العلم الملايين - بيروت / ١٣٩٩هـ
٠ / ١٩٧٩م
- ١٢- ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب للمرتضى الزبيدي - دمشق
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م / ٠
- ١٣- تاريخ الادب الحفرافي لكراتشكوفسكي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر في القاهرة / ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م / ٠
- ١٤- تاريخ حماة لاحمد الصابوني - المطبعة الاهلية في حماة / ١٣٧٦ هـ -
١٩٥٦م / ٠
- ١٥- أدب العرب لمارون عبود - دار الثقافة - بيروت / ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م / ٠
- ١٦- رحلة ابن بطوطة - القاهرة / ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨م / ٠
- ١٧- رحلة ابن حبير - القاهرة / ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م / ٠
- ١٨- مملكة حماة الايوبية لاحمد غسان سبانو - دمشق / ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م / ٠
- ١٩- أبو الفداء - عدد خاص صادر عن المجلس الاعلى لرعاية الفنون
والاداب والعلوم الاجتماعية بمناسبة الاحتفال بمهرجان مرور / ٧٠٠ /
عام على ولادة أبي الفداء - مطبعة وزارة الثقافة والارشاد
القومي - دمشق / ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م / ٠
- ٢٠- ديوان صفي الدين الحلي - دار صادر ودار بيروت - لبنان / ١٣٨٨ هـ -
١٩٦٨م / ٠
- ٢١- ديوان ابن نباتة المصري - مطبعة التمدن القاهرة / ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م / ٠
- ٢٢- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لابن الحنبلي - طبعة وزارة الثقافة
والفنون في بغداد / ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م / ٠
- ٢٣- التاريخ المنصوري لابن نثيف الحموي - طبعة المجمع العلمي العربي
دمشق / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م / ٠
- ٢٤- معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف الياس سرقيس - مصر
١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م / ٠
- ٢٥- القاموس المحيط للفيروز آبادي - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة
١٣٧١هـ - ١٩٥٢م / ٠

- ٢٦- مجلة الفيصل السعودية - العدد /٢٦/ لعام /١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م/
٢٧- مجلة العمران الصادرة عن وزارة الشؤون البلدية والقروية في
دمشق - العددان (٢٩ - ٣٠) لعام ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م/٠



قراءة لقرمطية في تاريخ القرامطة (الموحدون)

بقلم الأستاذ منذر حمزة محمودي
عضو الجمعية التاريخية بحمص

إن أهل الشام هم الذين أطلقوا هذا الاسم على التنظيم الإسلامي الثوري الانقلابي المناهض للممارسات الأموية والعباسية، والذي كـــان يتزعمه فلاسفة إخوان الصفا، وذلك لأول مرة، في عهد المأمون العباسي وفي هذه التسمية إشارة إلى أن التنظيم المذكور كان يعمل سياسياً على قرمطة / قضم / الدولة العباسية، ليسهل الانقضاض عليها وتصفيتها، وفي بلاد الشام ذاتها يورد القصاصون الشعبيون العبارة التالية: لسولا سلامك يسبق كلامك لقرمطتك وفصفت عظامك . بينما كان أصحاب التنظيم القرمطي يسمون أنفسهم بالمؤمنين الموحيدين .

إن دراستي للقرامطة، لاتعني أنني سلفي أقدم الماضي لكي ينسخ ويطبق في هذا العصر، ولكنها تعني أنني أقدم تراثاً متقدماً فسي عصره، لأن القرامطة تحدوا غلق باب الاجتهاد واجتهدوا، فكان اجتهادهم محترماً في نظر الأجيال اللاحقة لعصرهم رغم كثرة معارضيهم من أبناء ذلك الزمان، أما عن وعي أو بلا وعي، نعم أقدم هذا الماضي التراث لكي يكون حافزاً لنا اليوم من أجل الإقدام على كسر القيود والخللاص من سبات الجمود .

انني أرى القرامطة حركة سياسية إجتماعية تستلهم الإسلام بحسب اجتهادها كما أنها لاتتجاهل شأن الأديان الأخرى، عملت على تثوير الناس ضد السلطات المستبدة أياً كان دين ومذهب هذه السلطات، تسلحت الحركة القرمطية بنظرية توفيقية تجمع بين العقل والنقل وبين الدين والفلسفة / كما في فلسفة الفارابي وابن سينا / وتوازن بين العقل والزهد كما توازن بين السلم والحرب. إن ما أقدمه اليوم من منجزات القرامطة هو أميل الى الايجابيات منه الى السلبيات وهذا لايعني أنني في المستقبل سوف أتجنب التحدث عن سلبياتهم إزاء عصرهم وتقصيرهم إزاء عصرنا .

أود في هذه الدراسة المجتزأة الذهاب بعيداً في دراسة ظهور

القرامطة وأسباب نشوئهم وانتماءاتهم قبل وصول المعتصم العباسي إلى سدة الخلافة العباسية ، تاركاً هذا العمل إلى دراسات أخرى ، لا أراها لازمة في الوقت الحاضر على الأقل .

لقد أقدم المعتصم العباسي على تسريح العرب من الجيش بعد استقدامه العساكر التركية ، وإحلالها محل العساكر العربية جنساً وقيادة/ بعضهم يعزى ذلك إلى كون أمه تركية وبعضهم يرجع ذلك إلى شجاعة الأتراك ورخص أجورهم ، ولكنني أرى أن الأهم في الأسباب يعود إلى عدم قبول العرب السلطة العباسية بديلة لسلطة الرضا من آل البيت بعد سقوط الأسرة الأموية/ ومع أن الأتراك حتى عهد الواثق العباسي ظلوا أداة مسخرة بيد الدولة العباسية ، لكنهم بعد ذلك العهد ، جعلوا من الدولة العباسية ألعوبة بيدهم ، يتقاذفونها وفق مصالحهم^(١) ونتيجة لذلك عاد العرب المسرحون إلى حياة البداوة ، وإلى العمل السياسي بجانب المعارضة بغية الانتقام من الدولة التي آذتهم في موارد رزقهم ومشاعرهم العربية فاستفادت المعارضة عامة والقرامطة بخاصة من هذه الحادثة ، فضموا إلى صفوفهم قوى نائمة على السلطة العباسية ، وكانت القوى المشار إليها ، مدربة على استخدام السلاح غالباً ومتمرسة على فنون القتال وتحمل قسوة الطبيعة العربية ، فازدادت حماسة لإسقاط السلطة ، بعد أن أشبعت بأفكار الحركة القرمطية المرتكزة على مبادئ الفلسفة وتقوى الدين^(٢) /بمعنى آخر سيادة المنطق والعقل وفتح أبواب الجنة لكل فاعلي الخير والصالح/ . بينما بقيت الدولة العباسية سائرة في ظل التغلب التركي ، نحو ظهور الإقطاع العسكري ، على نطاق واسع ، وتكاثر المكوس والضرائب غير المشروعة والتلاعب بالعملية ، باعتبارها وسيلة للتوفير والإثراء ، بحيث وصل النظام المصرفي في الامبراطورية العباسية إلى درجة متقدمة من التطور ، رافقها ظهور طبقة رأسمالية متحالفة مع السلطة من أجل استغلال الجماهير ، كما كان التحكم البيروقراطي ، محالفاً وملازماً للإقطاع العسكري ، على حساب أملاك الدولة وأملاك الخلفاء الضعفاء بالدرجة الأولى ، وبالضغط والاكراه على حساب المواطنين بالدرجة الثانية ، وبوسائل الرشوة والالجاء

والتهجير والمصادرة والتزويد بالدرجة الثالثة وقد عبر عن هذا الظلم المحقق بالرعية المؤرخ مسكوية بقوله : وصاروا - أي الناس - بيمن هارب حال ، وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره (٣) .

وفي مجال الصناعة ، سخط كل من المستغل والمستغل على النظام العباسي الفاسد ، سخط المستغل ، لأن الدولة لم تحمه من إغارة الأتراك على المؤسسات الصناعية ، بهدف السلب والإبتزاز ، كما أنها لم تحمي المستغل نفسه من تعدي الأتراك المباشر عليه ، ومن جشع الرأسماليين المالكين لوسائل الانتاج (٤) / من قراءتنا للتاريخ العام نرى أن الحكام الذين لا يمثلون شعوبهم وبالتالي يفقدون ثقة هذه الشعوب بهم ، يلجأون الى اصطناع المرتزقة في بادئ الأمر يلتزم المرتزقة جانب الطاعة والقيام بالأعباء الموكولة إليهم ، ثم عندما يطمئن المرتزق الى قوته ويكتشف ضعف سيده ، وبعد تساوي الحاكم والمترزق في عدم الإرتباط بالوطن ومصلحه يظهر الصراع بين السيد والمسود على أشده ، كتنافس بين جانبين على المكاسب الخاصة فحسب / ومن هنا اضطرت الفئسات المسحوقة الى التحالف ، ومن ثم العمل على إيجاد تنظيمات تهدف الى تحسين ظروفها والخلص من المستغلين ، علماً بأن العمال كانوا من الأحرار والعبيد ، وكذلك كان المزارعون من هؤلاء وأولئك (٥) .

لقد استطاعت الحركات الباطنية بعامة والحركة القرمطية بخاصة توظيف مساويء النظام العباسي في نشر دعوتها ، التي بدأت بالعمل في المدن أولاً ، ثم في الأرياف والبادية ثانياً ، فأخذ دعائهم يفندون مساويء النظام العباسي في أوساط العمال الزراعيين والصناعيين وأصحاب الحرف والتجارة والموظفين والجند والملاكين الناقمين والمتذمرين حتى شملت معظم فئات الرعية ، قائلين / أي القرامطة / الى أتباعهم لاتعادوا علماً من العلوم ، أو تهجروا كتاباً من الكتب ، ولا تتعصبوا الى مذهب من المذاهب ، لان رأينا ومذهبنا يستغرقان / يستوعبان / المذاهب كلها (٦) .

ماكان لدعوة القرامطة أن تجذب الناس إليها، لولا فساد النظام العباسي وتملل الجماهير من شدة وطأته عليها، من ناحية، ولولا تسليح القرامطة بالعلم والمنطق المرتكزين على كتب الفلسفة عامة وعلى الفلسفة اليونانية وفلسفة الفارابي وسواه من الفلاسفة العرب بخاصة. حيث عملوا على تطبيق هذه النظريات في كل مكان سيطروا عليه وتبعاً لذلك قال القرامطة: بوجود تضارب حاد بين مصالح الأفراد أي بين الغني والفقير أو بين مجموع الفقراء ومجموع الأغنياء على الغالب... إذ أن الطبقة المالكة، بغية الاحتفاظ بثروتها ومصالحها قد لجأت الى قوتها الإقتصادية والسياسية، تدافع بهما عن وجودها ومكانتها، وبذلك أصبحت الملكية الشخصية في الامبراطورية العباسية أساساً للسلطة العباسية، واستأثرت الطبقة المالكة بالحكم والتشريع، بما يخدم الارستقراطية الحاكمة وأعوانها من ملاك الأراضي، وممن كان تابعاً لهما، فعمل هؤلاء جميعاً على معاداة القرامطة، واستعدوا كل القوى الرجعية على محاربتهم باستمرار. (٧)

وازاء كل التحالفات الرجعية، استقطبت الحركة القرمطية كل المستضعفين، من سائر العناصر والعصبيات المقهورة فضلاً عن الطامحين الى تحسين واقعهم عبر تغيير الحكومات أو سقوط الدول الضعيفة، فانتظم في الحركة القرمطية أهل السواد والاكراد والفرس وبعض العرب ومعظم الأعراب^(٨) وكل المقهورين والمضطهدين بشكل أو آخر. وعلى هذا الاساس نشأ الجيل الاول من القرامطة في شبه الجزيرة العربية، فكان تنظيمهم مهتماً في بادئ الأمر، بسيادة مبادئه الهادفة الى تقديم المصلحة العامة على المصالح الخاصة، ولم يكن يفكر بجمع المال والجري وراء زخرف الحياة الدنيا، وكانت دعواهم: أنهم يعملون من أجل سيادة مبادئ الإسلام بروحه المحمدية، لامن أجل سيادة السلطان^(٩) وانطلاقاً من هذا المنحى، وعندما كان أبو طاهر الجنابي يحاصر بغداد ويضايقها فقد أعطى الأمان الى كل الناس ماعدا أصحاب السلطان، لانهم يشربون الخمر، ويلبسون الحرير، ويعينون السلطان الذي يحب عنه الرعية، ويظلم اليتيم والارملة ويسمع القيان^(١٠).

في الكلام الآنف الذكر إشارة واضحة الى انحراف الخلفاء العباسيين عن روح الإسلام المحمدي وفيه غمزة صريحة الى فساد دولتهم، قياساً بدولة القرامطة الفتية وحكامها الثائرين على مظاهر الضعف والانحراف في دولة الخلافة والولايات التابعة لها . وهكذا كانت الحركة القرمطية تختلف اختلافاً بيناً بالافكار والاهداف عن ثورة الزنج ، فالحركة القرمطية هي حركة ثورية ، ذات افكار إنقلابية ، مسلحة بفلسفة ذات تعاليم اشتراكية عميقة بفكرها ، جديدة بعنفها على المجتمع وذات أهداف بعيدة المدى ، بينما كانت حركة الزنج /التي سبقتها / ثورة لها هدف سلطوي، ولا تتركز على أسس فكرية متكاملة ، وليس لها جذور عميقة تمثل مختلف فئات المجتمع المتضرر من النظام القائم (١١) بخلاف الحركة القرمطية ، التي شددت الناس الى اصلاحاتها الثورية المبنية على أسس فلسفية دينية تمشياً مع مقتضى حياة ذلك العصر ، فشملت هذه الاصلاحات مختلف مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية .

إن صرخة احتجاج ونداء بالمساواة في عصر ، كان فيه الإنسان يباع ويشترى ، تعدل إن لم تفق ، كل أصوات ثوار الحركات الاجتماعية في أيامنا هذه ، علماً بأن القرامطة لم يقفوا عند هذه الصرخات فقط ، بل تعدوها الى حمل السلاح وإشهاره في وجه المستغلين ، بغية تحويل الطروحات النظرية الى ممارسات عملية (١٢) بدءاً من :

١ - التنظيم الطبقي :

وفق مفاهيم العصر الحاضر / : كان اليسار الإسلامي منذ صدر الاسلام ، قد تبني الفهم الطبقي للإسلام ، وعمل على ترسيخ هذا الاتجاه ، ولذلك حاول سلمان الفارسي ، في نهاية خلافة عمر ابن الخطاب وبداية خلافة عثمان بن عفان ، خلق تكتل للحرفيين في الكوفة ، ولم يتح له أن يتم عمله ، لكن هذا الصحابي تحول الى رمز نقابي منذ القرن الخامس للهجرة ، فأصبح الحلاقون والماشطون والحجامون والجراحون يأتون سنوياً في النصف من شعبان لزيارة قبره في المدائن لذا من الانصاف ، أن نسجل للقرامطة ، مهمة تطوير العمل النقابي

ان لم نتمكن من تسجيل فكرة خلق النقابات المهنية لهم (١٣) لانه قبيل القرامطة كانت نقابات العمال تنظيماً عالياً ، يقتصر على رؤساء النقابات والحرف ، الذين يعملون على تكييف علاقاتهم مع السلطة ، فعمد القرامطة إلى تحويل هذا الجهاز النقابي إلى تنظيم سري ، يضم العمال وقادتهم معاً ، وجعلوه جهازاً ثورياً يهدف إلى العمل على إسقاط سلطان القمع والتقصير وبالتالي إلى إقامة مجتمع جديد مبني على أساس سيادة العدل والقانون (١٤) .

ومن الأمور التي عجلت في تبلور دور العمال والفلاحين وصغار الكسبة ، عبر تنظيماتهم النقابية ، ظهور الإشراف السلطوي والإستغلال الطبقي في الدولة العباسية ، فقد أنفق الوزير العباسي ابن الفرات ثلاثين ألف دينار على ستائر قصره من أموال الدولة ، وكان يشتري مسكاً وكافوراً بمبلغ عشرة آلاف دينار في السنة ، في حين كان يكفي الرجل وزوجته وأولاده للعيش الكريم ، مامقداره ثلاثمائة درهم في السنة (١٥) فكانت إحدى مظاهر الرد على هذا الإشراف ، قيام القبائل العربية ، التي شرع أبناؤها بقطع طريق الحج الذي هو أحد موارد الرزق للجياع ممن أعرب القبائل قبل القرامطة وبعدهم ، وذلك بسبب الظلم الإقتصادي الذي جاءته سياسة الانحراف لدى الأمويين والعباسيين على السواء ، فضلاً عن اضطراب حبل الأمن ، وتردي نظام القضاء ، وقد عبر عن هذا الواقع المر أحد شعراء الأعراب راجزاً بقوله :

عليك ثوبان وأمي عارية

فألق لي ثوبك يا بن الزانية

(١٦) وبالطبع كان يعني بذلك أحد الحجاج الموسرين والمحسوبين على السلطة الالهية .

وهكذا نظراً لقيام المدن الكبيرة في أرجاء الامبراطورية العربية الإسلامية ، ونتيجة لظهور التمايز في الشرائح الاجتماعية /، فقد ظهرت على سبيل المثال في بغداد والكوفة الأسواق الخاصة بأبناء المهن، ويذكر لنا التاريخ كثيراً من حوادث الصراع بين الجزارين والحدادين أو بين الحجامين والحلاقين ، وظهرت أسواق اللقطانين والحلاجين والصبانين... (١٧) . ولقد استفاد القرامطة من هذه الظاهرة وغيرها ، فنظموا هذه الفئات

المسحوق في خلايا سرية ، مستفيدين من تجارب الأمم ومن تجارب الحركات الثورية العربية سابقا ، بل ومن ظاهرة الحياة الاجتماعية لدى النحل ، من حيث تقسيم العمل وتوزيع المهام^(١٨) ولكن كل ذلك ما كان ليلغي دور الانتماء الى العشائر والقبائل في الحركة القرمطية من جهة ، وبسبب موقف السلطة الحاكمة ، تجاه أكثرية الرعية ، فاندفعت القبائل المشار إليها وراء تحقيق مصالحها ، وجني المكاسب المادية والمعنوية ، ويظهر ذلك جلياً في حروب القرامطة مع خصومهم لدى الدارسين^(١٩).

كان أكثر الذين اعتنقوا الدعوة القرمطية ، من الفلاحين والعمال وأهل الحرف ، وعلى العموم من الذين كان مستوى معيشتهم منخفضاً الى حد كبير ، /وكان قاداتهم من الفلاسفة حسب تعبير خصومهم/ فكان القاسم المشترك بين كل القرامطة ، وحدة المصالح والمشاغل ، فألف قيادة ومنظرو القرامطة بين هؤلاء الشائرين^(٢٠) وأحلوا اخوانية الحرفة والعمل مكان اخوانية العشيرة والقومية قدر الامكان/ لان الظروف الموضوعية آنذاك كانت لاتسمح بأكثر من ذلك/ ولايتحقق مثل ذلك عادة فسي التاريخ الا في المجتمعات السائرة نحو المجتمع المدني ، وبذلك حقق القرامطة خطوة متقدمة نحو بناء مجتمع متمدن بالنسبة الى جيرانهم الذين تراجعوا عن مبادئ الإسلام الأساسية ، فيما يتعلق بالعرفية والعشائرية والمسؤولية الفردية^(٢١) سعياً وراء ملاذ الدنيا التي تحدث عنها إخوان الصفا/منظرو القرامطة/ بسخرية وأشاروا الى أهل اللذة المستهترين الذين وصفهم تعالى بقوله : (يأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم)^(٢٢) فما دام موقف الله من الأغنياء والمستغلين هكذا فلماذا لايمشي قدماً في هذا الاتجاه كل من يتحلى باليقظة والحكمة ؟ كذي النون المصري الذي قال : لاتسكن الحكمة معدة ملئت طعاما^(٢٣) وهذا القول بما فيه من الوضوح ، غني عن الشرح والتعليق ، وتمشياً مع هذا الفكر، حاول القرامطة عن طريق نظام الألفة ، جمع فئات العمال فسي العالم الإسلامي ، في نقابات ، امتازت بخاصتين اثنتين هما :

١ - الاولى : إنها نقابات مهنية تمثل مصالح أعضائها طبقياً .

٢ - الثانية : إنها مؤسسة قرمطية من حيث أهداف الدعوة القرمطية (٢٤) وضمن هذا الإطار، ساهم القرامطة في تطوير دور الحرفيين ، بغية توجيه الحياة الاقتصادية والسياسية .. نحو ما يحقق بناء مجتمع الكفاية والعدل . ولذلك تطلع القرمطي الى الامام محاولاً بناء المجتمع الجديد ، على مبادئ العدل والإنصاف ، ديناً وفلسفة / بالشرع والوضع / بينما كان غيره يتطلع الى الوراثة محاولاً تكريس الواقع المليء بالظلم والطغيان / على مبدأ : هذا ما وجدنا عليه آبائنا / ولهذا قال شاعر القرامطة مخاطباً خصومهم :

فكنتم وأنتم تهدمون وأبتني

فشتان بين من يبني وآخر يهدم (٢٥)

ومن هنا كان إخلاص الفرد في المجتمع القرمطي ، وما يقدمه من خدمات الى الجماعة ، هو الذي يحدد مركزه بين أبناء المجتمع ، علماً بأن القرامطة ، كانوا يتعهدون بالانفاق على جميع أفراد المجتمع بلا تفریق أو تمييز وبما يتناسب مع مركز الفرد الاجتماعي النضالي ، وهذا المبدأ تأخذ به أرقى الدول الاشتراكية اليوم (٢٦) .

وينبغي لنا ألا نتصور ما بناه القرامطة ، وما حاولوا تحقيقه قد تم بدون مواجهة أعداء ، فمن قراءة تاريخ الشعوب ، يتبين لنا أن الملاك وكبار الاغنياء ، يكونون على رأي سياسة الدولة التي تحمي مصالحهم وتحقق أغراضهم ، وان كانوا من مختلف الأجناس ، بينما يكون الفقراء وكل الفئات المتضررة من سلب الدولة وأعوانها لقوت معيشة الجماهير ، هي من نحلة المعارضة أو أحلافها ، وهم أيضاً من مختلف الأجناس (٢٧) .

ولكن هذا الحكم ، ليس حكماً مطلقاً ، فقد ذكر التاريخ أيضاً أمثلة عن دور عدد من الاشخاص الاغنياء ، قد ساهموا في دفع عجلة التقدم ، الى الامام ، ومنهم كان محمد بن الحسن الملقب بدندان ، أحد أغنياء وعلماء عصره ، الذي كان منظماً في صفوف الحركة القرمطية ، بل وقام بالتبرع الى بيت مالها بمليون دينار (٢٨) ويذكرنا هذا بدور السيدة خديجة بنت خويلد ، التي قدمت كل ماتملك للدعوة الإسلامية ، بهدف

نصرتها وإعلاء شأن كلمتها ، وبدور الشري والمفكر أنجلز، الذي دعم الماركسية بماله وقلمه ..

ومن حسن حظ القرامطة ، أنهم وفقوا في بداية تكوين دولة لهم بقيادة ، كان من أهم رجالها ، أبو سعيد الجنابي وخلفاؤه من بعده الذين كانوا يعاملون الشعب بالعدل والإنصاف ، كما كانوا يسمعون الى مطالب الرعية بكل رقة وتواضع^(٢٩) وذلك من منطلق تطلعاتهم الاشتراكية الإصلاحية في ذلك العصر ، حيث كان نظام الألفة للـدى القرامطة مستوحى من الإسلام بدليل الآيات التالية: /واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا/ وقوله / ولو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم/ وقوله: /وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان/^(٣٠).

وعلى هذا الأساس أعار القرامطة علاقات التعاون الإجتماعي أهمية قصوى ، باعتبار أن الانسان هو الأساسي في خلق المال ووسائل الانتاج بفكره وعمله^(٣١) وتبعاً لهذا الفكر ، كلف في كل قرية رجل من ثقاتها ، بالإشراف على جمع وإحصاء الممتلكات لصالح بيت مال المجتمع القرمطي ، وكلف الشخص نفسه بالإنفاق على حاجات الناس .. وبذلك لم يبق فقير واحد من أتباع الدعوة القرمطية^(٣٢) وإذا انسان ما افتقر في دولة القرامطة أو استدان ، كانوا يتعهدونه حتى يتيسر عمله ، وإذا كان لأحدهم دين على آخر لا يطالبه بأكثر من رأس المال الذي له^(٣٣) بل وكل غريب كان ينزل في بلاد القرامطة وله صناعة ، كان يعطى ما يكفيه من المال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدد وآلات، ويرد الى الحكام ما أخذ حين يشاء ، دون أن يدفع فوائد عن المال الذي استدان^(٣٤)، وكما كانت حكومة القرامطة تعتمد على تأييد العمال والفلاحين في دعم نظامها الاشتراكي/وفق معايير ذلك العصر/ كان لابد لها من تقديم الخدمات اللازمة للجماهير عن طريق الإكثار من المرافق العامة ، للتخفيف من أعباء المواطنين^(٣٥) وبالمقابل عمل أتباع الدعوة القرمطية بحماسة من أجل زيادة الانتاج ، وقدموا إنتاجهم للتنظيم

طوعية وانسجام مع شعاراتهم الاشتراكية المستوحاة من مبادئ أخوة الإنسان للإنسان في الاسلام المحمدي وفي مبادئ العقل السليم لدى الفلاسفة^(٣٦) ولاحكام قبضة الدولة على اقتصادها وبالتالي تمكينها من ممارسة استقلالها فقد حصرت دولة قرامطة البحرين التجارة الخارجية بيدها ، وفتحت الاسواق لها في الخارج ، كما تملكت الحوانيس والمستودعات اللازمة من أجل احكام سيطرة الدولة على مواردها وبالتالي تنظيم عمليتي الاستيراد والتصدير^(٣٧) لما كان اصلاح المنازل والمزارع والمرافق العامة كافة ، من واجبات الدولة التي ألزمت نفسها ، بتقديم هذه الخدمات المشار اليها مجانا^(٣٨) واستكمالا لهذا العمل التعاوني أقامت حكومة قرامطة البحرين نوعا من المصارف ، لتقديم القروض الى الزراعة والصناع ، ومنع التعامل بالربا... كما قدمت للمعوزين الدواء واللباس والطعام مجانا .. وبغية استمرار الدولة في تقديم هذه الخدمات ، فقد أمتت الافران اللازمة من أجل تأمين الرغيف الضروري لقوت الجماهير بعيدا عن الاستغلال ودعمت هذه الخطوة بمراقبة مذابح الحيوان ، وحملت الحمامات مرفقا عاما لتأمين النظافة العامة للمواطنين ، ولكي تحقق شعار الفلاسفة الاطباء والذي يقول : العقل السليم في الجسم السليم^(٣٩) ومن منطلق الشعور بالمسؤولية الاجتماعية فقد كانت دولة القرامطة تعطي الفقراء من مواطنيها بيوتا للسكن مجانا ، وتطحن طواحين الدولة للناس حبوبهم مجانا أيضا^(٤٠) وذلك الى جانب الطواحين الخاصة المشمولة برعاية الدولة ، بحيث اذا خرب منزل أو طاحون أحد الملاك في دولة القرامطة ، ولم تكن لديه القدرة على اصلاحهما ، أمرت الدولة جماعة من العبيد/ الذين أصبحوا موظفين لديها / بأن يذهبوا اليه ويصلحوا المنزل أو الطاحون ولا يطلبون من المالك شيئا^(٤١) مقابل جهودهم المبذولة .

٢ - التنظيم الاقتصادي :

كثرت الثورات في عهد المتوكل على الله العباسي ٨٤٧ - ٨٦١م / حيث كان الضعف المالي والاداري قد تواكبا مع الضعف العسكري والسياسي وبدأ الهزال يتسرب الى جسم الدولة العباسية للأسباب التالية :

- ١ - كثرة نفقات جيوش الدولة
 - ٢ - كثرة نفقات قصور الخليفة ورحال دولته .
 - ٣ - كثرة الرشوة والتزلف وانتشار الفساد .
 - ٤ - قلة الإنتاج وتدهور الوضع الاقتصادي .
 - ٥ - اضطراب خيل الأمن وتحول حاميتها الى حراميتها .
 - ٦ - استقلال أو شبه استقلال حكام العديد من الأقاليم (٤٢)
- وبعد دراسة القرامطة لكل الحركات الثورية السابقة لتحركهم من حيث أسبابها وتطورها ونتائجها ، استخلصوا العبر منها وحاولوا تفادي الأخطاء قدر الامكان بعد ملاحظة جملة من الأمور الاقتصادية كتجمع المال بشكل احتكاري يتنافى مع روح الاسلام المحمدي الذي يعنى بمصلحة المجتمع ويرفض هذا الكنز للأسباب التالية :
- ١ - المال وسيلة تسلط اقتصادي واجتماعي .
 - ٢ - المال وسيلة للهو والترف .
 - ٣ - المال وسيلة للضغط على العمال والشغيلة كافة لكي يبيعوا قسوة عملهم وفق ارادة ومصالح محتكري المال .
 - ٤ - المال وسيلة للوصول غير الأكفأ الى مراكز لا يستحقونها ولهذه الأسباب وسواها رفع أبو ذر الغفاري صوته عاليا محتجا على محتكري المال من المسلمين قائلًا :
- المال للرعية وليس لله لان الله غني عن عباده اذ لو كان المال لله لنصب الحاكم نفسه وكيلا لله وتحقق الاستبداد والاستعباد بما لا يتفق وروح الاسلام .
- وعلى ضوء ما ذكر سابقاً من فهم لروح الاسلام ، فقد أقام القرامطة نظامهم الاقتصادي ، وفق تطلعاتهم الاشتراكية الإصلاحية ، مهتمين بالجوانب التالية :
- ١ - تشجيع الزراعة وتنمية الثروة الحيوانية .
 - ٢ - إقامة صناعة محلية لسد حاجات البلاد أولاً ولتصدير الفائض قدر الامكان .
 - ٣ - تنشيط التجارة بفرعها الداخلي والخارجي .

٤ - توطيد النظام المالي من حيث نمو الواردات وضبط النفقات والاشراف على النقد .

آ - الزراعة والثروة الحيوانية :

بفضل همة ومساعي أبي سعيد الجنابي ، تقدمت زراعة الارض وعمارتهما في دولة قرامطة البحرين^(٤٣) فقبض على كل الاموال في البلاد / بمعنى تأميم الدولة لها / وعلى الثمار ، وعلى الحنطة والشعير^(٤٤) وذلك من أجل توجيه الانتاج الزراعي وزيادة نموه من ناحية ولمنع احتكار المحتكرين ، / أدوات الضغط على كل حركة تقدم من ناحية أخرى / ، ولتوفير قوت الجماهير بعيدا عن الازمات المفتعلة أو الناحمة عن قصر النظر في التخطيط الاقتصادي ، ولتجنيب الناس استغلال بعضهم بعضا .

ولقد كان لحكومة القرامطة أراضيها الخاصة ، فجعلتها مزارع حكومية نموذجية^(٤٥) وهي من الاتساع والاهمية بحيث شغلت فيها ثلاثين ألف زنحي وحبشي ، عملوا في زراعة الارض وفلاحة البساتين^(٤٦) والى جانب المزارع الحكومية ، كان القرامطة البارزون يمتلكون ممتلكات خاصة الى جانب ممتلكات رأسمالية الدولة / بلغة العصر / التي ظلت صامدة أكثر من قرن في وجه خصومها ، ثم تغلب في النهاية القطاع الخاص على القطاع العام من جراء أسباب داخلية وأخرى خارجية ، وبذلك تتضح لنا صعوبة التوفيق بين النظرية والتطبيق ، تلك الصعوبة التي ماتزال تلاحق التجارب الاشتراكية عند الشعوب حتى الوقت الحاضر ، مروراً بكومونة باريز وتجربة محمد علي / باشا / في مصر وتجارب تشيلي واندونيسية وغير ذلك^(٤٧) .

لم تلجأ حكومة القرامطة في البحرين الى نزع ملكية الاراضي من يد أصحابها ، كي يعاد توزيعها ، وذلك لعدم الحاجة الى مثل هذا الاجراء ، لان كل الفلاحين كانت لديهم الاراضي الكافية^(٤٨) بينما لجأت حكومة قرمطية أخرى الى انتزاع ملكية الاراضي من يد أصحابها الاحتكاريين لان الظروف الموضوعية أوجبت ذلك لكون الارض هي مورد الرزق والعيش الاساسي ، كما هو الحال في اليمن ، فقد أقدم ((علي بن الفضل)) أحد مؤسسي دولة القرامطة في اليمن ، على مصادرة أملاك اقطاعيي المخاليف ، ثم وزعها على الفلاحين الذين لم ينعموا بها طويلا ، بسبب

تحالف القوى الرجعية داخل اليمن وخارجه ضد علي المذكور فاغتيال وبالتالي سقطت دولته من بعده تحت ضربات المتآمرين (٤٩).

ومن أهم المناطق الزراعية في دولة قرامطة البحرين ، كانت ((الحسا)) التي يكثر فيها الجوز الهندي المسمى : النارجيل وفيها تمر كثير ، حتى أنهم يسمنون به المواشي ، ويأتي وقت يباع فيه أكثر من ألف من/وزنة تزن مئتين وسبعة وخمسين درهما/بدينار واحد . . والى الشمال من الحسا بسبعة فراسخ ، تقع القطيف ، وهي مدينة كبيرة توجد فيها أشجار نخيل كثيرة (٥٠) وقد قدر ثمن محاصيل الحسا ذات مرة ، بحوالي ثلاثين ألف دينار (٥١).

وأما في ميدان تربية الحيوان ، فقد أقامت حكومة قرامطة البحرين رعاية للابل والغنم ومعهم قوم لحفظها ، والتنقل معها بنوبات معروفة ، وذلك لتنمية الثروة الحيوانية اللازمة لمتطلبات دولـة القرامطة التي كانت تعرف مالها وماعليها ، لكي تدفع باقتصادها ورفاه شعبها نحو الأفضل (٥٢).

ب - الصناعة :

نظر القرامطة الى العمل من خلال نظرية إخوان الصفا الشاملة والتي ظهرت في عصر الإقطاع وتكون بذور علاقات بورجوازية تجارية فـي الإمبراطورية العربية الإسلامية خلال العصر الوسيط (٥٣) فقيموا الإنسان من خلال النزعة الاجتماعية لدى إخوان الصفا ، التي تقول: // بأن نقاء الإنسان وصفاءه ، مرتبطان بالحياة الدنيا ، ويمر الإنسان عبرها اجتماعياً من حيث سلوكه في القول والفعل // وبرايتهم يتفق ذلك مع قوله تعالى: // فمن كان في هذه الدنيا أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً // . ولكي يقتربوا من الصواب قسموا العمل وأكدوا قيمة الإنسان من الناحية الاجتماعية بارتباطه الإنتاجي ، فوضعوا الحوافز المادية للعمال ، من أجل إنجاز العمل وإتقانه . وعلى هذا الأساس ميزوا بين إنسان وآخر ، كما قالوا بضرورة تعدد الأنشطة لأناس كثيرين ، لكي يكمل بعضهم بعضاً ويسرعوا المشي نحو الكمال كهـدف ، ولكي يحصل

الناس على طيب العيش ، استعان القرامطة لتحقيق ذلك الهدف بالعلم والتعلم في ميادين مختلف العلوم ، ومن أجل دفع حركة التطور والتقدم باستمرار^(٥٤) باعتبار العمل اليدوي وعمل الفكر يلتقيان في قوة مشتركة بمعنى وجود تبادل وتكامل بين النشاط الفكري والنشاط اليدوي، ضمن نطاق الدآب الاجتماعي (٥٥) .

انطلاقاً من هذا الوعي لأهمية العمل ، شجع القرامطة الصناع على تأمين حاجات البلاد من المصنوعات الأساسية ، فحلبوا الحديد من سورية باعتبارها معونة مقدمة لهم من قبل الأمير سيف الدولة الحمداني في حلب^(٥٦) وصنعوا السفن من مختلف الأنواع لمختلف الأغراض ، وضربوا السيوف والأسنة ، كما نسجوا الدروع والمغافر/ زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة / واتخذوا الروايا / ثلاثة جلود لوضع الماء / والمزاود/ مايوضع فيه الزاد/ والقرب ، وأقاموا صناعة الغزل والنسيج ، فنسجوا فوطاً حميلة ، صدروها الى مدينة البصرة وغيرها^(٥٧) كذلك أقاموا صناعة دباغة الجلود وصناعة الأحذية والأدوات الحديدية ، وأنشؤوا الصناعات الغذائية مثل مطاحن الحبوب ومعامل التمور ، على مستوى القطاعين العام والخاص ؛ وبذلك مكنوا دولتهم من الصمود والتصدي للطامعين بها عدة أحيان^(٥٨) .

ح - التجارة :

كان أبو سعيد الجنابي ، قبل تأسيسه دولة القرامطة في البحرين مثلاً يحتذى ، في الوفاء والصدق بتجارته/يمارسها في القطيف^(٥٩) وبعد تأسيسه دولة القرامطة في الحسا .. شجع العلاقات التجارية مع شعوب المنطقة المجاورة لدولته ، ولم يعترض على حرية مرور المسافرين عبر بلاده ، مدفوعاً برغبته وتطلعاته نحو كسب الجماهير في طول البلاد وعرضها^(٦٠) ولكنه مع ذلك وضع يد الدولة على التجارة الخارجية وفتح الأسواق لها في الخارج ، كما فعل خلفاؤه من بعده مثل ذلك بهدف تنشيط التجارة ، حيث عينوا المقيمين لهم في المدن الهامة /كالملحقيين والمفوضين التجاريين في السفارات في عسرناء/ ومن المدن التي كان لهم فيها مثل هؤلاء المقيمين البصرة وبغداد ودمشق .. وكللوا ذلك بتنظيم عمليتي الاستيراد والتصدير^(٦١) .

وتبعاً لهذه الاحراءات ، أخذت عائدات الربح تتدفق على بيت المال العام في الدولة ثم تخرج منه لتنفق على مشاريع المجتمع وتحسين أحوال المزارعين والعمال والجنود (٦٢). وليتمكن القرامطة من تحرير تجارتهم من النفوذ الأجنبي ، إمتلكوا أسطولا من السفن/الشداه/ عمل في مياه الخليج العربي والبحار المجاورة /ويدل على ذلك إتساع رقعة نفوذهم وتدفق الاتاوات عليهم/ وأحكموا سيطرتهم على هذه المياه ، فوصلوا الى شرق افريقية حاملين معهم بضائعهم ليعودوا ببضائع افريقية المكونة من العاج والخشب والمعادن الثمينة ، وكذلك وصلوا الى الهند ببضائعهم ليقايضوها بالحديد والمعادن المتعددة والتوابل والمسك ، فكانت أهم صادرات القرامطة مكونة من الفوط واللؤلؤ والتمور فضلا عن البضائع المستوردة من البلدان المجاورة بقصد إعادة تصديرها من بلادهم الى ماوراء حدودها (٦٣).

د - الواردات المالية :

فرض القرامطة ضرائبهم تدريجياً على اتبائعهم بشكل إختياري وبدافع من الحماسة للعقيدة على الشكل التالي :

١ - ضريبة الفطرة : ومقدارها درهم على كل فرد من الرجال والنساء والصبيان .

٢ - ضريبة الهجرة : ومقدارها دينار على كل منتسب أدرك الحنث .

٣ - ضريبة البلغة : ومقدارها سبعة دنانير عن بعض الاعضاء المميزين اجتماعياً .

٤ - ضريبة الخمس : مما يملك عضو الدعوة .

٥ - ضريبة الهبات والتبرعات المقدمة الى الدعوة .

٦ - خطوة الألفة : وهي المرحلة الأخيرة بحيث تساعد الظروف الموضوعية على جعل الملكية جماعية . ولم تكن هذه الخطوة عامة من حيث المكان والزمان ، بل عمل بها بحسب الظروف . (٦٤)

كذلك فرضت حكومة قرامطة البحريين والحساب الضرائب على المراكب وعلى مقاطعة عمان وعلى الحجاج وعلى صيد اللؤلؤ ، كما فرضت الضرائب

على مدن وقرى العراق /التي عجزت الدولة العباسية عن حمايتها والدفاع عنها/ قدرت بمليون ومئتي ألف دينار ، كانت منها الأعشار والخراج ثلاثين ألف دينار فقط^(٦٥) . ومنذ عام ٣٢٥هـ - ٩٣٧م واحتل القرامطة مدينة الكوفة وفرضوا هدنة على الدولة العباسية ، وألزموها بدفع مئة وعشرين ألف دينار كل سنة بالإضافة الى ضريبة معلومة عن كل حاج ، وأخذوا يتدخلون في شؤون سياسة بغداد مدة قرن من الزمن^(٦٦) ، كما كان للقرامطة ديوان/مال وجمارك/ في البصرة ، وكان لهم هناك رجل يأخذ المكوس من الميناء إلى جانب الموظفين العباسيين^(٦٧) وكان الغواصون في الحسا يستخرجون من البحر اللؤلؤ ويقدمون مقابل ذلك الى دولة القرامطة نصف ما يستخرجون^(٦٨) . ومن أرباح التجارة الخارجية توفرت لدى بيت المال العام مبالغ كبيرة^(٦٩) فضلاً عن الأموال المتقاطرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي آنذاك ويظهر ذلك جلياً في الجدول التالي: (٧٠)

مقادير خراج بعض الولايات القرمطية استناداً الى ابن خرداذبة في المسالك والممالك ليدن - ١٣٠٩ هـ .

كرمان	ستة آلاف ألف درهم
مكران	ألف ألف درهم
أصبهان	عشرة آلاف ألف وخمس مئة ألف درهم
سجستان	ألف ألف درهم
خراسان	سبعة وثلاثين ألف ألف درهم
حلوان	تسع مئة ألف ألف درهم
ماه الكوفة	خمسة آلاف ألف درهم
ماه البصرة	أربعة آلاف ألف وثمانين مئة ألف درهم
همدان	ألف ألف وسبع مئة ألف درهم

ألف ألف ومئة ألف درهم	ماسبدان
ألف ألف ومئة ألف درهم	مهرجان قذق
ثلاثة آلاف ألف وثمانمئة ألف درهم	الايغارين
ثلاثة آلاف ألف درهم	قم وقلسان
أربعة آلاف ألف وخمسمئة ألف درهم	آذربيجان
عشرين ألف ألف وثمانين ألف درهم	الري وديملوند
ألف ألف وثمانمئة ألف وثمانمئة وعشرين ألف درهم	قزوين وزنجان وأبهره
ألف ألف ومئة ألف وخمسين ألف درهم	نومس
أربعة آلاف ألف درهم	جرجان
أربعة آلاف ألف ومائتي ألف وثمانمئة ألف وسبعمئة درهم	طبرستان
تسع مائة ألف درهم	تكرت والطيرعان
ألف ألف وسبع مائة ألف وخمسين ألف درهم	والسن والبوازيج
ستة آلاف ألف وثلثمئة ألف درهم	شهرزور والصامغان
ثلاثة آلاف ألف ومئتي ألف درهم	كورة الموصل
تسعة آلاف ألف وستمئة ألف وخمسمئة وثلثين ألف درهم	قردي وبزبدی
أربعة آلاف ألف ومئتي ألف درهم	ديار ربیعة
مئة ألف درهم	أرزن وميفارقين
أربعة آلاف ألف درهم	مقاطعة طرون
ألف ألف درهم	ارمينية
ستة آلاف ألف درهم	امد
	ديار مصر

ألفى ألف وتسع مئة ألف درهم	أعمل طريق الفرات
ثلثمائة ألف وستين ألف دينار	قنسرين والعواصم
مائتي ألف وثمانية عشر ألف دينار	جند حمص
مائة ألف وعشرة آلاف دينار	جند دمشق
مائة ألف وتسعة آلاف دينار	جند الأردن
مائتي ألف وتسعة وخمسين ألف دينار	جند فلسطين
ألفى ألف وخمس مائة ألف دينار	مصر والاسكندرية
مائة ألف دينار	الحرمين
ستمائة ألف دينار	اليمن
خمس مائة ألف وعشرة آلاف دينار	اليمامة البحرين
ثلثمائة ألف دينار	عمان
ومما يدخل في شيء من الارتفاع جزية رؤوس أهل الذمة بحضرة مدينة السلم وهي مائتا ألف درهم	

هـ - النفقات المالية :

كان من أهم مصلحات حكومة القرامطة في البحرين والحسا أنها ألغت الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية ، كما أنها ألغت أو أنقصت الضرائب المفروضة على المزارع والعامل ، وعلى العموم ما كانت هذه الحكومة تأخذ عشوراً من الرعية ، بل ذهب الباحث/بندلي جوزي/ إلى أبعد من ذلك حين قرر أن دولة القرامطة قد أعفت شعبها من دفع الضرائب تماماً ، ولا يفهم سر ذلك إلا إذا كانت وارداتها المالية من أرباح المؤسسات العامة في الصناعة والتجارة ومزارع الدولة بالإضافة إلى الغرامات المفروضة على بلدان أخرى ، قد كانت كبيرة وتكفي لتغطية النفقات المطلوبة (٧١) .

فيذكر أنه أثناء مرحلة الملكية الجماعية في دولة القرامطة ، كان يقوم قيم ثقة في كل قرية أو وحدة جماعية بإكساء العساري والإنفاق على الجميع ما يكفيهم بحيث لا يبقى فقير بينهم ولا محتاج أو ضعيف ، كما كانت الدولة تحري على موظفيها الجريات اللازمة لتفادي العوز والحاجة (٧٢) ويذكر أن قرامطة البحرين قد أقاموا نوعاً من المصارف لتقديم القروض الى الزارع والصناع لمنع التعامل بالربا وتيسير ظروف الشغيلة (٧٣). كما كانت حكومة العقدانية القرمطية في البحرين ، تدفع دين المدينين وتساعدهم على إيجاد العمل المناسب ، وكانت أيضا ترسل بعض المال الى صندوق الامام ووكلائه ، وتنفق أموالاً أخرى على متطلبات دار الهجرة القرمطية (٧٤). وفي مجال النقد / العملة / كان البيع والشراء والعطاء والأخذ في دولة قرامطة البحرين تتم عمليات ذلك التعامل بوساطة نقود من رصاص توضع في زناجيل ، يزن كل منها ستة آلاف درهم فيدفع الثمن عدداً من هذه الزناجيل ، وكانت هذه العملية لا تسري في خارج بلاد القرامطة منعاً لتهريب الاموال وتخريب الاقتصاد الوطني من قبل من مات ضميرهم واختاروا معادات النظام (٧٥) إن إقدام القرامطة على ضرب النقود من الرصاص يقودنا الى الاستنتاج المنطقي في الأمور التالية :

- ١ - كان الأغنياء يهربون بأموالهم خارج البلاد ومن الخارج كانوا يحرضون على القرامطة بل ويشاركون في محاربتهم .
- ٢ - احتكرت الدولة النقود الذهبية والفضية من أجل تغطية حاجة ميزانها التجاري الخارجي من النقود الدولية .
- ٣ - كان الفقراء خارج دولة القرامطة يتطلعون الى هذه الدولة بإعجاب بل كان بعضهم يتوجه اليها ليتمكن من العيش بعيداً عن الاستغلال ولتأمين سبل العيش .
- ٤ - كان كل من القرامطة وخصومهم يحارب ويعمل بشراسة كي يحافظ على وجوده .
- ٥ - كانت معظم الدول المجاورة للقرامطة بل والمعاصرة لهم تناصبهم العداء والبغضاء خوفاً من دعاية نظامهم الشعبي .

وجدير بالأهمية والتنويه ، أنه كان من تعاليم القرامطة العمل على إسقاط الجزية عن أهل الذمة ، انطلاقاً من المبدأ القائل : الدين لله والوطن للجميع وذلك من أجل تساوي جميع المواطنين في المعاملة ، وبعد التأمل في أهمية هذه الخطوة ، ندرك أن القرامطة قد سبقوا العديدين من دول العالم اليوم في التوجه نحو علمنة الدولة اجتماعياً على الأقل فيما يتعلق بالضرائب وبالحرريات العامة ، وبالتالي نجسّد أنفسنا ملزمين بالقول : ان القرامطة قد سبقوا بأفكارهم أبناء عصرهم ، فضيعهم الجهال والسفهاء من قومهم ، وزادوا هم أنفسهم الطين بلة عندما تنازعوا واختلفوا إلى أن ذهب ريحهم ،^(٧٦) وضاعت معظم أخبارهم وآثارهم .



المراجع والمصادر *

- ١ - الحركات السرية في الاسلام
 - ٢ - الحركات السرية في الاسلام
 - ٣ - الحركات السرية في الاسلام
 - ٤ - الحركات السرية في الاسلام
 - ٥ - الحركات السرية في الاسلام
 - ٦ - القرامطة
 - ٧ - القرامطة
 - ٨ - الحركات السرية في الاسلام وقرامطة العراق
 - ٩ - أخبار القرامطة
 - ١٠ - أخبار القرامطة
 - ١١ - القرامطة
 - ١٢ - أخبار القرامطة
 - ١٣ - ثلاثية الحلم القرمطي
 - ١٤ - الحركات السرية في الاسلام
 - ١٥ - ثلاثية الحلم القرمطي
 - ١٦ - ثلاثية الحلم القرمطي
 - ١٧ - ثلاثية الحلم القرمطي
 - ١٨ - ثلاثية الحلم القرمطي
 - ١٩ - ثلاثية الحلم القرمطي
 - ٢٠ - قرامطة العراق وتاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
 - ٢١ - ثلاثية الحلم القرمطي
 - ٢٢ - ثلاثية الحلم القرمطي
 - ٢٣ - ثلاثية الحلم القرمطي
- د . محمود اسماعيل ص ١١٩
- د . محمود اسماعيل ص ١١٥
- د . محمود اسماعيل ص ١١٧
- د . محمود اسماعيل ص ١١٨
- د . محمود اسماعيل ص ١١٨
- د . مصطفى غالب ص ٦٠x٥٠
- د . عارف تامر ص ٦٤
- د . محمود اسماعيل ص ١١٤
- عليان ص ٢٨
- د . سهيل زكار ص ٣٧ و ٢٢٣
- د . سهيل زكار ص ١٥٦
- د . عارف تامر ص ٦٣
- د . سهيل زكار ص ٥
- محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
- د . محمود اسماعيل ص ١٢٠
- محي الدين اللاذقاني ص ١٥٩
- محي الدين اللاذقاني ص ٤٤
- محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
- محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
- محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
- عليان ص ٢٠٤
- بندلي جوزي ص ١٩٤
- محي الدين اللاذقاني ص ٩٧
- محي الدين اللاذقاني ص ٣١٠
- محي الدين اللاذقاني ص ١٢٠

- ٢٤- ثلاثية الحلم القرمطي
٢٥- ثلاثية الحلم القرمطي
٢٦- قرامطة العراق
٢٧- ثلاثية الحلم القرمطي
٢٨- القرامطة
٢٩- من تاريخ الحركات الفكرية والقرامطة
٣٠- الحركات السرية في الاسلام
٣١- القرامطة
٣٢- القرامطة
٣٣- أخبار القرامطة
٣٤- أخبار القرامطة
٣٥- من تاريخ الحركات الفكرية
٣٦- القرامطة
٣٧- القرامطة
٣٨- القرامطة
٣٩- القرامطة
٤٠- القرامطة
٤١- أخبار القرامطة
٤٢- من تاريخ الحركات الفكرية
٤٣- أخبار القرامطة
٤٤- أخبار القرامطة
٤٥- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
٤٦- القرامطة
٤٧- القرامطة
٤٨- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
- محي الدين اللاذقاني ص ٢٠٥
محي الدين اللاذقاني ص ١٦٦
عليان ص ٢٠٠
محي الدين اللاذقاني ص ٧٦
د . عارف تامر ص ٧١
بندلي حوزي ص ٢٠٢
دي خوية ترجمة زينة ص ١٤٤
د . محمود اسماعيل ص ١٣٠
د . عارف تامر ص ٦٧
دي خوية ترجمة زينة ص ٣٥
د . سهيل زكار ص ١٩٦
د . سهيل زكار ص ١٩٦
بندلي حوزي ص ١٩٤
دي خوية ترجمة زينة ص ٣٥
د . عارف تامر ص ٦٦ و ٧١
د . عارف تامر ص ٦٦
د . عارف تامر ص ٦٦ و ٧٠
د . عارف تامر ص ٧٧
د . سهيل زكار ص ١٩٦
بندلي حوزي ص ٧٤
د . سهيل زكار ص ٣٣٦
د . سهيل زكار ص ٣٣٦
بندلي حوزي ص ١٩٧
د . عارف تامر ص ٧١
وبندلي حوزي ص ١٩٦
دي خوية ترجمة زينة ص ١٢٧
بندلي حوزي ص ١٩٧

- ٤٩- ثلاثية الحلم القرمطي
٥٠- أخبار القرامطية
٥١- الاسماعيليون في مرحلة القرمطية
٥٢- أخبار القرامطية
٥٣- النزعات المادية
٥٤- النزعات المادية
٥٥- النزعات المادية
٥٦- النجوم الزاهية وتجارب الامم
٥٧- أخبار القرامطية
٥٨- أخبار القرامطية
٥٩- أخبار القرامطية
٦٠- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
٦١- القرامطية
٦٢- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
٦٣- أخبار القرامطية ومجلة العربي الكويتية
٦٤- ثلاثية الحلم القرمطي ومن تاريخ الحركات الفكرية
٦٥- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
٦٦- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
٦٧- ثلاثية الحلم القرمطي
٦٨- أخبار القرامطية
٦٩- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
- محي الدين اللاذقاني ص ٩٢
د . سهيل زكار ص ١٩٨
سامي العياش ص ٢٤٥
د . سهيل زكار ص ٣٣٦
د . حسين مروة ص ٣٧٤
د . حسين مروة ص ٣٧٨
د . حسين مروة ص ٤٠١
ابن تغري بردي ج ٣ ص ٣٦٦
مسكويه ج ٦ ص ٢٠٣
د . سهيل زكار ص ١٩٨
د . سهيل زكار ص ٣٣٨
د . سهيل زكار ص ٣٣٤
بندلي جوزي ص ١٩٧
د . عارف تامر ص ٧١
بندلي جوزي ص ٢٠٠
د . سهيل زكار ص ٨٣ x ١٩٨
العدد ١٨٠ ص ٩٨
محي الدين اللاذقاني ص ٩٠
بندلي جوزي ص ١٩٦
بندلي جوزي ص ١٩٦
بندلي جوزي ص ١٨٩
محي الدين اللاذقاني ص ٤٥
د . سهيل زكار ص ١٩٨
بندلي جوزي ص ٢٠٠

- ٧٠- ثلاثية الحلم القرمطي
٧١- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
٧٢- من أخبار القرامطة
٧٣- القرامطة
٧٤- من تاريخ الحركات الفكرية وأخبار القرامطة
٧٥- أخبار القرامطة
٧٦- أخبار القرامطة ومن تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
٧٧- قرامطة العراق
٧٨- رسائل اخوان الصفا
٧٩- رسائل اخوان الصفا
- د . مهيل زكار ص ٣٨٤
د . عارف تامر ص ٧٠
د . مهيل زكار ص ١٩٧
د . مهيل زكار ص ٨٤
د . مهيل زكار ص ١٩٦
د . مهيل زكار ص ٨٤
د . مهيل زكار ص ١٩٧
- عليان ص ٣١
المجلد ٣ ص ٤٠٢
المجلد ٣ ص ٥٢٩

٨. - ملاحظة : خلافا لما هو معروف لدي سابقا فقد أعلمني الاساذ محمد الخولي مدير متحف الانار الاسلامية بدمشق ، بوجود عملة ذهبية ، سكها القرامطة فافتض التنوية بذلك وله وافر الشكر .

منذر حمودي



حمص في التاريخ (قصيدة)

بقلم الأستاذ جميل منصور

حمصُ ياموكبُ العُلا والاماني
يا حياة تُعطي المَواتِ انتِعاشاً
أنتِ نورٌ خبأتهُ في ضلوعي
أنتِ وهجٌ إشعاعهُ في كيانِي
كم حباك المولى نفوساً كـباراً
كلُّ روضِ زاهٍ حوَالِيكَ يَبْدُو
أشربُ العالمونَ حُبَّكَ حُبّاً
هل سَلَوُ ليائسٍ دونَ حمصٍ؟
هل شفاءٌ لمدنفٍ دونَ حمصٍ؟
لكِ عاصٍ يشدُّني بالتلاقِي
هل بَعادٌ وبُعْدُكُمْ شَفَّ جِسمِي
أنتِ صَفْوٌ في وحشتي واصطِفِاقُ
أنتِ نَهْرٌ أمواجهُ ساحـراتُ
أنتِ تَبَرُّ من فيضِهِ صَبَّ فـكـرُ
قد تَرَبَّعتُ في سَماءِ عرشِ "روما"
وعلى شطِّكَ البديعِ المَغانِي
شعَّ نورُ الفادي المسيحِ ابتداءً
وتلاه "رومانسُ" الشاعرِ الفـرّ
ثمَّ خاضتُ صافي مياهِك فرسـاً
نحوَ شعبٍ - إيمانهُ يعرَبِي -
سيفُ دينٍ وخالدُ العَرَبِ حَقّاً
تلك حمصُ أطيابها عابِقـاتُ
زاهياتُ أغصانها مائسـاتُ
حولَ هذا العاصي ازدهى شعُرديكِ الـ
وتسامتُ سهولُهُ بضريـحٍ

يا ضياءُ يزهو على الأزمانِ
يا ربيعاً دَامَنْظَرٍ فَتَنانِ
أنتِ وحيٌّ ، في خاطري وجَنانِي
أنتِ فخري وشمختي وبَيانِي
هائماتُ بالحُسنِ والإحسانِ
بجميلِ الأشكالِ والألوانِ
برفيفِ المنى وروضِ الأمـانِ
فيكَ يا حمصُ أعظمُ السلوانِ !!
أنتِ يا حمصُ بلسمُ الهَيـمـانِ !!
هل فراقٌ يـعاصي الخُـلـانِ؟
هل جَفاءٌ يـاكوشِرُ الجـذـلانِ؟
وارتياحُ يـانهلةُ الظمـانِ
كلُّ حَسناء غادةٍ مَفْتـانِ
وابتداءُ "في" نـيـبـرِ "الرُومانِ
بَطـمـوحٍ وعِزَّةٍ واتِّـزانِ
في حمى حمصٍ منبعِ الإيمـانِ
بالمضحي قَدِيسِنَا "إيليانِ"
دُ بـمدحٍ مرثمِ الأـلـحـانِ
ن "أسودُّ" من جَحفلِ العُربـانِ
مستغيثُ بخالدِ الشجعـانِ
حيثُ يَتَوِي في زهرةِ البـلـدانِ
من خُزامى ميماسِها المـزـدانِ
رائعاتُ من القُطوفِ الدَّوانِي
جنِّ بينِ الخـمـورِ والأشجـانِ
لفتى المجدِّ من بني حمـدانِ

فاشمخي ياديَارَ حِمصٍ مديداً
 كم تصدَّى لعصبةِ الرومِ صلباً
 من دم القلبِ صاغ شعراً فريداً
 وجرى عاصينا السريعُ التدانِي
 قائلًا للنَّهرِ الكبيرِ التفانِي
 قول ودَّ "إشبيليا" هي حمصُ
 يالفنَّ مخلُقٍ في علا أنــــ
 كان سحرًا ، أنغامه فائقات
 ثم أضحى العاصي طريحاً اعتساف
 حين غطى ضفافه زحفُ تُسْرُكٍ
 فاستكانت مدينةُ النُّورِ حيناً
 واستفاقت من نومها بعد ضيم
 فإذا النهرُ ينتحي باشتيـاقٍ
 فالتفتاتاً الى السنينِ المواضي
 كلُّ نفسٍ أبيَّةٍ تتحنَّـدِي
 فإذا الغربُ قطعةٌ من نعيم
 شهد الحقُّ أنَّ خيرَ المجانـي
 شهد الحقُّ أنَّ أسمى المعانـي
 من رحيلِ مكبَّلٍ بالرزايـا
 فسلامٌ على مهاجرِ حمصٍ
 وعلى الشاعرِ العظيمِ نسيبِ الرـ
 كيف لاتزهو حمصنا بالـدُّراري
 كيف لاتزهو حمصنا بالمُضحِّي ؟
 أنتِ يا حمصُ ربةٌ تلهمُ الشُّعـ
 أنتِ يا حمصُ طلعةٌ تبرزُ الحـ
 سوف أبقى مناجياً طولَ عُمرِي

فيك يثوي أبو فراس الطَّعان
 وتحدَّى في حلبةِ الاقــــران
 ألَهْبَتُهُ هواجسُ الأحــــزان
 في بلادٍ مخلوقةٍ للحــــان
 نهرٌ " وادي إشبيليا " والجنان
 يالشُّوقِ ولقبةٍ واختــــان !!
 دلّسَ العُربَ رفعةً بالأغانـي
 ببديعِ التلحينِ والاتقــــان
 يتلظى من عصبةِ الطغيــــان
 مشبعٌ بالحقودِ والأضغان
 ثم غابت في عالمِ النسيــــان
 هل تُلاشى مدينةُ العقبيــــان ؟
 أرضُ "أمريكا" واحةُ الصديــــان
 هل ترى غيرَ هُجرةِ الشُّبــــان ؟
 مستحيلاً بعزمها المتفانـي
 وإذا حِمصٌ غصّةُ الأفــــان
 من سقاءِ المهاجرِ المحــــان
 قد تجلّى بهمةِ الإخــــوان
 عمّروا المجدَ أيّما عُمران
 فارسِ الدَّهرِ والحجا الفنــــان
 وحِ والوحي والصِّبَا الولهــــان
 لامعاتٍ في أروعِ التيجــــان ؟
 كم شهيدٍ ضحى فدى الأوطــــان !!
 ر بما فيك من عميقِ المعانـي
 ن بما فيك من عيونِ الرّوانـي
 جنةُ الحبِّ دُرّةُ الأكــــوان

حضارة أمريكا قبل الكسوف الجغرافية

ترجمه بهمن موهبي الموسوعة البريطانية الأستاذ جرجس محول
ناشر رئيس الجمعية التاريخية و مدرس التاريخ في دار المعلمين
والعقائد بمصر

يرجع دور حضارة الاندز (في العالم الجديد) الى حضارة سكان أمريكا الاصليين من الهنود الحمر التي نشأت وازدهرت في المرتفعات الجبلية في الشمال الغربي لأمريكا الجنوبية منذ عدة آلاف سنة ق.م حتى احتلها الاسبان في عام ١٥٣٢م ، وبقايا عناصرها لاتزال موجودة حتى الان لدى الكثير من السكان الهنود للبيرو وبوليفيا والاكوا وادور وكولومبيا ، كما أن حضارة الاندز تشمل بصورة خاصة في أدوارها المبكرة سكان الساحل البوليفي .

ومثل كل الحضارات القديمة اعتمدت حضارة الاندز على الزراعة مع اتاحة الفرصة لعدد كبير من السكان والذين لديهم فراغ من الوقت ليؤسسوا ثقافة متطورة وأهم حضارات أمريكا قبل الكشوف .

١- الانكا : تعد حضارة الاندز بالنسبة لمعظم الباحثين حضارة الانكا ونادرا مايكون كذلك في المفهوم الشعبي ، ومعرفتنا التامة عن حضارة الاندز هي عن الانكا ، كما أن كتابات العديد من المؤرخين الاسبان لفترة الاحتلال تدور حول ذلك ، ولكن لسوء الحظ ليس لديهم اتفاق بخصوص تاريخ الانكا (١)

والسبب ربما أنه ليس للانكا أسلوب للكتابة فتاريخهم نقل طبعاً بالرواية وظهروا بشكل متأخر على مسرح التاريخ كالازتيك ، وحتى أن أساطيرهم لاتتعدى عام ١٢٠٠م وعرف تاريخهم من خلال حكم ملوكهم ، وتجمع معظم التقديرات على ١٣/١ امبراطورا هم :

١ - مانكو كاك ١٢٠٠م

٢ - ستشي روكا

٣ - ليوك يويانكي

٤ - مايتا كاك

١ - الموسوعة البريطانية المجلد ١ - ص ٨٨٩ - ٨٩١

- ٥ - كاباتك يويانكي
- ٦ - انكا روكا
- ٧ - ياهوار هواك
- ٨ - فيرا كوتشانكا
- ٩ - باتشاكوتيك يويانكي ١٤٣٨م - ١٤٧١م
- ١٠ - توباك انكا يويانكي ١٤٧١م - ١٤٩٣م
- ١١ - هويانا كاباك ١٤٩٣م - ١٥٢٥م
- ١٢ - هواسكار ١٥٢٥م - ١٥٣٢م
- ١٣ - اتاهواليبا ١٥٣٢م - ١٥٣٣م

ان الباطرة السبعة الاول أسطوريون محليون ذوو أهمية ضعيفة رواياتهم مليئة بالاحداث المستحيلة وغير المعقولة وخاصة المتعلقة بالمواسم .

شكل الانكا في هذا العصر قبيلة صغيرة كالعديد من القبائل التي لا تتجاوز سلطتها عدة أميال حول العاصمة التي عرفت عند الانكا باسم كوزكو ، كانوا دوما في صراع مع جيرانهم المساوين لهم في الاهمية ، أما التوسع الخيالي وتأسيس امبراطورية الانكا تتم على يد باتشاكوتيك عام ١٤٣٨م الذي يعد من عظماء المحتلين في التاريخ العالمي ، وفي هذا العام ١٤٣٨م يبدأ التاريخ المعول عليه والمتفسق مع معظم الباحثين وقد لقب السيد كليمنت . باتشاكوتيك أعظم رجل أنجب السكان الاصليون لأمريكا كما يشبهه مع ابنه توباك بفيليبس وابنه الاسكندر المكدونيين .

كان باتشاكوتيك بحق أعظم مخطط مدني كما تنسب اليه الرواية وضع مشروع مدينة "كوزكو" وشيد العديد من الابنية الضخمة التي لاتزال آثارها تدهش الزائر لهذه العاصمة القديمة .

كان التوسيع العظيم والمفاجيء لامبراطورية الانكا أحد أعظم الحوادث الغريبة في التاريخ والذي استغرق أقل من قرن/من ارتقاء باتشاكوتيك العرش في عام ١٤٣٨م الى احتلال فرانسيسكو بيزارو في

في عام ١٥٣٢م / . معظمها أنجز على يد باتشاكوتيك وابنه تويـاك انكا بين عامي ١٤٦٣م و ١٤٩٣م خاصة فوصل أعظم امتداد للامبراطورية حيث بلغت مساحة تتجاوز/٣٨٠.٠٠٠ ميلا مربعا / ، أي مايعادل مساحة فرنسا وبلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ وسويسرا وايطاليا مجتمعة ويشبه توسع الانكا توسع أعظم الامم الاخرى في التاريخ ، وربمادفعهم لذلك حب القوة والتوسع . فأول من هزموا في اقليم بحيرة "تيسيكاجا" للمنافسين لهم والناطقين بلغتهم ومن ثم قبائل "تشانكا" ، ومن الحوادث الغريبة في التاريخ أن يحتل بيزارو هذه الامبراطورية العظيمة وليس معه سوى /١٨٠/ جنديا اسبانيا فقد استغل تخاصم ولـدي الامبراطور على العرش فأمر "أتاهوالبا" بقتل أخيه "هواسكار" ثم أمر بأسر أتاهوالبا وأعدمه وحل محله في قصره يصدر الاوامر واستمر الروتين الحكومي كالسابق .

حضارة الانكا :

كانت الزراعة أساس حضارة الانكا بما في ذلك الذرة والبطاطا الحلوة البيضاء والقرع والبندورة وجوز النخيل والفلفل والقطن ومعظم هذه لم تكن معروفة آنذاك في أوروبا ، ويربى البـطـ والخنزير الهندي للاكل ، كما استخدموا حيواني الالاما والالبكا للنقل والصوف ، أما الصناعة فعرفوا صناعة نسيج الصوف والقطن وبنوا بيوتهم من الحجارة واللبن ، والامبراطورية مزدهرة تخضع خضوعا كاملا للنظام فلا أحد يقاسي من الحرمان ، ولكن لايسمح لاحد بتغيير مكان اقامته ولا بتغيير وضعه الاجتماعي ، وملكية الارض جماعية توزع سنويا ولكن بين الاسر الاشد قرابة والاكبر حجما ، وتقسم الاراضي الى ثلاثة أقسام : قسم للدولة ، وقسم للمعبد ، وآخر للشعب الذي يطلب منه أن يزرع للجميع وتخزن محاصيل أراضي الدولة في مخازن خاصة لتوزع عند الحاجة على النبلاء والجيش والفنيين من الناس الذين يقدمون للدولة خدمات عامة ولعامّة الناس في سنوات القحط أو سوء المحصول ، كما يعد الالاما من الممتلكات الرئيسية للدولة الى حد بعيد ، ويمكن أن تستبدل الضريبة

بدعوة المكلف دوريا للخدمة في الجيش أو الاعمال العامة كانشاء الطرق أو المعابد أو العمل في المناجم وتعرف عندهم هذه الخدمة باسم "الميبتا"، والحرفيون موظفون حكوميون يذهب انتاجهم الى النبلاء والكهنة، وينتقى الذكور الممتازون ليكونوا خدما أو معاونين دائمين للامبراطور والنبلاء، أما الفتيات الجميلات فيؤخذن الى العاصمة "كوزكو" ليتدربن كمحظيات للامبراطور والنبلاء أيضا أو ليعملن كعذارى للشمس أو ليعشن في دير خاص بهن ليحكن ثياب الامبراطور والنبلاء والكهنة.

كان ينظر لامبراطور الانكا أنه مقدس سليل الشمس ويتمتع بأعلى الامتيازات لديه عدد كبير من الحريم والاولاد وقد تزوج معظم الاباطرة أخواتهم، وكلمة الامبراطور قانون لكنها مقيدة بالعرف والعادة ونادرا ما يكون مستبدا، ويشكل أقرباؤه الجزء الأكبر من طبقة النبلاء الذين يحتلون مراكز السلطة وخاصة في البلاد الخاضعة يأتي بعدهم في السلم الاجتماعي طبقة الضباط "الكواركا" وهكذا يتدرج السلم الى كبار النظار المشرفين على الاسر العشر.

أما عقيدتهم فنظمت تنظيما عاليا، فهناك العديد من رجال الدين ومعابد الشمس تدار الاحتفالات الدينية من قبل الكهنة بشكـل متقن وتستمر غالبا عدة أيام يقدمون خلالها الاضاحي ويفعلون التنبؤات بعد استشارة الوحي، ويسمعون الاعترافات، وكثيرا ما كانت الاضاحي حيوان "اللاما" ونادرا تقدم الاضاحي البشرية مقارنة مع عادات الازتيك، وتقام هذه الاحتفالات في أوقات منتظمة والهامة منها مرة كل شهر، وهناك مئات الاماكن التي تقام فيها الاحتفالات ولكنها تختلف بحسب درجة قداستها، وقد عبد الانكا اله الشمس، مع اعتقادهم بأن "فيراكوشا" هو الاله الخالق العظيم، كما عبدوا الكثير من الالهة الثانوية التي تمثل مختلف الامور المميزة.

أما الجراحة والطب عامة فقد تطور لديهم كثيرا فنشروا الجماجم لتحديد الكسور أو لاعتقادهم بطرد الارواح الشريرة ولو أن الفكرة غير واضحة، والانكا ككل الحضارات الامريكية القديمة عدا الما ياليس لديهم

أسلوب للكتابة فجميع معارفهم وخبراتهم يتم انتقالها لها بطريق الرواية . ومع هذا فعدة معلومات أو بيانات حفظت بعقد حبال سميت عندهم "كويبو" التي استعملت في المقام الاول لاغراض خاصة كاحصاء السكان وذلك لمساعدة الذاكرة فقط .

وفي السنوات الاخيرة كانت الحرب من سياسة الدولة الرئيسية، وكل الرجال مكلفون قانونا بالخدمة ، فجيوش الانكا كبيرة حسنة التجهيز والتدريب مثل كل الجيوش القديمة يقاتلون مواجهة ويستعملون الهروات والفؤوس والحرايب والمقاليع لقذف الحجارة الى مسافات قصيرة، وممسا ساعدهم على القيام بحملات عسكرية لمسافات بعيدة استخدامهم الجيـد للطرق ومخازن الغلال ، وحالما يتوقف النزاع العسكري مع الشعوب المغلوبة تعامل معاملة حسنة على شرط الاعتراف بسيادة الانكا، وقد تتحسن احوالهم الاقتصادية عن قبل ، أما المجموعات المتشددة في كل اقليم وخاصة القريب من العاصمة " كوزكو " فيجبرون على تغيير اقامتهم وغالبا مايؤخذ منهم رهائن الى كوزكو .

ومع أن الانكا لم يتفوقوا على أسلافهم في الصناعة اليدوية لكنهم أتقنوا صناعة النحاس والذهب والفضة والخزف وخاصة النسيج الذي تفوقوا في نعومته وجماله على الصناعة الحديثة على الرغم من تقنياتها مع أنه كان يحاك من قبل النساء على أنوال صغيرة .

٢- الازتيك : (١)

هم أحد أهم المجموعات الهندية في العالم الجديد والكلمة مشتقة من AZTlon / وتعني الارض البيضاء ، فحسب اعتقادهم فيها نشأت قبيلتهم وهذه التسمية من المحتمل أنها مجرد اشارة عامة لمنطقة الشمال الغربي من مكسيكو ، ويعرف الازتيك باسم " تينوشكا " وهو مشتق من اسم الرئيس الاسطوري " تينوك " أو ربما جاء الاسم من المدينة التي أسسها الازتيك في جزيرة داخل بحيرة "تكسكوكو ، في وادي مكسيكو والمعروفة ببحيرة القمر ، وقد أعطي اسم

مكسيكا لبحيرة تكسكوكووربما أضاف الازتيك مقطع كالهوا ليعرفوا باسم كالهوامكسيكا وليظهروا علاقتهم بأكثر الشعوب حضارة في وادي مكسيكو والذي كان مركزه مدينة كالهواكان .

وكانت لغة الازتيك (نهوا) من المجموعة اللغوية التي بقيت الى فترة اكتشاف أمريكا تسيطر على المساحة الممتدة من غرب الولايات المتحدة حاليا وحتى بناما ، مما دفع المحتلين الاسبان الى استخدام لغة نهوا كاحدى وسائل الاتصال الرئيسية مع الهنود الحمر، وتقريباً لايزال حتى الان حوالي مليون من سكان المكسيك يتكلمون اللغة النهوية . أما امبراطورية الازتيك في العالم الجديد فتعادل في أهميتها امبراطورية الانكا في البيرو ،ويمكن مقارنة ازدهار حضارتهم بالحضارات القديمة العظيمة الاخرى سواء في أمريكا أو العالم القديم وقد وصلنا ازدهارهم السريع وانهيائهم المأساوي من خلال الروايات الشفهية التي يرددها الازتيك ،ومن خلال تدوين المؤرخين الاسبان والمختصين بعلم الاجناس والمخطوطات الهندية ومن اعترافات ومشاهدات المهتمين بالتاريخ القديم .

اتخذ الازتيك أولا مدينة "تولا" (هيرالكو) عاصمة لهم ولهم يرتبط ظهورهم وازدهارهم بازدهار تولا والحضارة التوليتكية بقدر ارتباطه بانهيائهم ولاسباب لم تعرف بعد ،ولكنها متعلقة بالصراعات الدينية والسياسية والاجتماعية الداخلية .

ويقارن انهيار حضارتهم بانهيار الامبراطورية الرومانية ولكن هذا حدث في نهاية القرن ١٢م فهوجمت تولا وبقيّة المراكز، من قبل قبائل دونها حضارة مستغلة الفوضى والانقسام ،حيث جاؤوا من النجد الجاف شمال المكسيك الى مناطق الاستقرار والخصب في وسط الوادي فأسهموا في تدهور وتأخر حضارتهم السريع .

وعلى كل حال فالحقيقة أن الازتيك مزارعون قدامى خدموا لمدة طويلة جيرانهم كعسكريين قبل سقوط تولا على يد قبائل التشيميكس وخلال بداية القرن ١٢ - ١٣م تحول الازتيك الى باحثين عن مكان جديد

للاستقرار بعد هدوء الاحوال في وادي المكسيك فأقاموا مؤقتا قرب
آثار تولا حيث أتقنوا فنون الري والزراعة ، ولكن عقيدتهم دفعتهم
للبحث عن مكان جديد وبدأت رحلتهم الطويلة ، وتجولوا في اقليم
معاد وتعرضوا لمضايقات كثيرة ولكن الحظ ساعدهم بالتحالف الموقت
مع جيرانهم ومنحوا بعض الاراضي مقابل تقديم خدمات عسكرية .

ولم تمض فترة طويلة على حمايتهم من قبل " الكولهاواكان " حتى اضطروا للهرب من جديد ، وكادت رحلتهم تصل الى نهايتها حيث وجد المتجولون الارض التي تتحدث عنها نبوءاتهم في جزيرة صغيرة في بحيرة تكسكوكو وقام المعمرون في القبيلة برسم عقاب كرمسز للشمس والههم " هو تيزيلوبوكتلي " مستريحا على الصبار ، وشيـدوا له معبدا وحوله مساكن القبيلة التي تحولت الى المدينة القويـسة " تينوكتيتلان التي أصبحت عاصمة للامبراطورية المكسيكية لاسبانيا المنتصرة وللامة المكسيكية الحديثة .

أحاط بالجزيرة مستنقع غير مفر باحتلاله ، لكن الازتيك حصنوه وتحالفوا مع عدة قبائل من بينها التيبانيكس فقد كانوا جنودا مرتزقة في خدمتهم حتى أن ملوك الازتيك الثلاث الاوائل وهم (أكابيكتليـي ، هوتيزيلي هوتيك ، كيمال يوبوكا) ساعدوا في ترسيخ سيادة التيبانيك وبدأوا بالتوسع وبهذه الطريقة بدأ بناء الامبراطورية حتى أصبحت مدينتهم غنية مزدهرة من وراء غنائم الحرب والتوسع على حساب الجوار . أثناء حكم " اتزكوتل (رابع ملوك الازتيك (١٤٢٧ - ١٤٤٠ م) استغل انقسام التيبانيكس وهزمهم وأقام تحالفا ثلاثيا بين "تينوكتيتلان وتيكوكو وتاكوبا " وانطلق توسع مكسيكا مع القيادة العسكرية للتحالف الثلاثي وفرض الازتيك هيمنتهم على وادي المكسيك وفي عهد خامس ملوكهم " هوهوميكزوكا " (مونتيزوما الاول) (١٤٤٠-١٤٦٩م) امتد الاحتلال ووصلت حملات أخرى الى خليج المكسيك ولكن خلف مونتيزوما الاول وهو " اكسايل كاتل " شغل معظم حكمه في اخماد عصيـان القبائل الخاضعة باستثناء حملة واحدة الى ساحل المحيط الهادى واحتلال "تلاتيلوكلو" المدينة التوام ليتنوكتيتلان .

وكانت فترة حكم سابع ملوك الازتيك "تيزوك" (١٤٨١-١٤٨٦) قصيرة ولكنها استمرار لسياسة سلفه مع المحافظة على الامبراطورية أما حكم ثامن ملوكهم "أهويتزتزل" (١٤٨٦-١٥٠٢) فلم يحافظ على مكاسب أسلافه الاقليمية فحسب بل توسع على طول ساحل المحيط الهادي ثم خلفه "موكتيزوما أكسكوتيزن مونتيوزوما الثاني" (١٥٠٢-١٥٢٠م) الذي أوجد تعديلا ملحقا لتنظيم الامبراطورية منح بموجبه ضباطه حبق فرض آتاوة على كل اقليم بحسب انتاجه ، وهكذا وجدت سلطات بيروقراطية عسكرية عن طريق الحكام والحاميات وجامعي الضرائب ولكن أكثر ايامهم ازدهارا كانت الاخيرة ، فمنذ عام ١٥١٧م تواصلت الحملات الاسبانية وتمكن كورتيز استغلال عصيان السكان ضد تينوكتيتلان ودمرها بعد مقاومة بطولية وأقام مدينة جديدة وشيدت كنيسة اسبانية بحجارة معبد هوتيزيلوبوكتلي .

حضارة الازتيك :

عبد الازتيك كغيرهم من الشعوب القديمة الشمس وسموها الاله "هوتيزيلوبوكتلي" الذي يبدأ نضاله اليومي ضد النجوم والقمر طاردا اياها بشعاع من النور ، وعند الغروب يموت ويعود الى حضن أمه الارض/كوتيك كو / حيث يستعيد قوته من أجل كفاحه ضد الظلمة الممثلة باخوته النجوم وأخته القمر فهذه الدورة اليومية تسمح باستمرار الحياة ، أما طعامه فالدماء البشرية /سائل الحياة النفيس "كالكي كوتل" / فالازتيك هم شعب الشمس المختار من الاله "هوتيزيلوبوكتلي" لتزويده بالغذاء ، لذا تعد الحرب عملهم المفضل وواجبهم الديني والاسرى من أعدائهم يقدمون أضاحي بشرية لاله ، ويتم ذلك بفتح صدورهم وانتزاع قلوبهم من أجسادهم وتزداد قوة الازتيك بازدياد ضحاياهم ، فجميع الاسرى من المقاطعات المحتلة يقدمون في العاصمة "تينوكتيتلان" وهكذا يمكن استمرار الجنس البشري ، وقد وعدهم الاله بالسيطرة على العالم وسميت امبراطوريتهم بالارض العالمية ودعسي ملكهم بحاكم العالم .

ولقد اعتقد الازتيك بالقدر اضافة الى تقديم الاضاحي البشرية ونجحوا في استخدام الشدة الخالية من الرحمة ويذكر المؤرخون بأنه ضحي ب ٨٠٠٠٠ سجيناً في العاصمة أثناء تنويع أحد ملوكهم، فقدمت قلوب الضحايا لاله الشمس واستخدمت أطرافهم في الاحتفالات الدينية فألقيت بقية الاجسام الى الوحوش المفترسة بعد التمثيل بها .

أما الزراعة فكانت أساس سيطرة الازتيك الاقتصادية المتمثلة بالحرثة والري وقد أخذوها عن " التولتكس " فساعدت في ازدياد السكان حتى قدر في بداية القرن السادس عشر للميلاد بحوالي مليوني نسمة في مدن تينوكتيتلان وتكسكوكو وتاكوبا وأكسوكي ملكو .

وتأمنت التجارة عن طريق البحيرات التي ترتبط مع بعضها بقنوات اصطناعية أغنت عن الطرق ووسائل الاتصال البري وساهمت في تأمين وحدة وادي المكسيك السياسية والاقتصادية المبكرة ، ووفقا لآراء المؤرخين الاسبان لتلك الفترة كان هناك مالا يقل عن ٢٠٠٠٠٠ زورق في القرن ١٦م ، ومما ساعد في تنشيط التجارة اضافة الى واسطة النقل المائي السابقة الذكر تمركز السكان في الوادي والعقيدة الدينية وكان التجار منظمين في نقابات قوية حتى انها تستطيع اعلان الحرب وارسال الحملات التجارية الى الاماكن البعيدة ، فكثيرا ما كانت الحملات التجارية مقدمة للحملات العسكرية التي تعتمد في معلوماتها على التجار ووصول هؤلاء ينبيء عن وصول المحاربين الازتيك ، ولايختلف الاسلوب التجاري عن الاحتلال العسكري من حيث الادارة والضرائب .

أما تنظيمهم الاجتماعي فقد اعتمد على الاسلوب القبلي المتطور فتقسم القبيلة الى بيوت كبيرة " كاليبولي " اعتمد عليها في الازتيك لفائدتها العسكرية والادارية ، وربما كانت القرابة خيالية بين البيوت ، ويتألف المجتمع الازتيكي من الاسرة الحاكمة ثم طبقة النبلاء وبعدهم الفرسان الذين يحق لهم امتلاك الارض ، ثم التجار وأخيرا بقية أفراد الشعب .

٣ - المايا (١) : هم مجموعة كبيرة من الهنود الامريكيين يتكلمون ١٦ لغة ولهجة قريبة من بعضها جدا تعرف بالعائلة اللغوية الماياوية

حضارة المايا :

تشبه حضارة الازتيك المعاصرة لها من عـدة وجوه ،وقد مرت بعد عصور : أولها العصر الكلاسيكي الذي استمر حتى نهاية ٩٠٠م والذي عرف آنذاك بالامبراطورية القديمة كما أسلفنا وأهم ممارسه السكان خلاله الاحتفالات الدينية موضع نواة الرموز الهيروغليفية وبناء الاهرامات التي أقيمت في أعلاها المعابد الدينية . ثم جاء عصر المكسيكان حيث زادت فيه أهمية مدينة "تشن شن اتزا" ثم يأتي عصر المايا بان حوالي ١٢٠٠م ،خضعت فيه تشن شن اتزا لسلطة "هوناك سيل " واستمرت هي كمكان مقدس يحج اليه . لان هوناك سيل وخلفاءه اتخذوا مدينة "كوكوم" عاصمة لكل شبه جزيرة يوكاتان وفي نهاية هذا العصر وقبيل الاحتلال الاسباني انقسمت شبه الجزيرة الى عدة أقسام مما سهل ذلك على المحتلين .

أما أهم ما امتاز به هذا العصر الانجازات العقلية الرائعة للمايا ،وخاصة في مجال الكتابة الهيروغليفية والفلك والتقويم ،فكانت الهيروغليفية رمزية في قسم منها وصورية في قسمها الاخر مع اعتماد كبير على الاشتقاقات اللفظية ،نحتت على نصب تذكارية أو على الابنية والخشب ،وبعضها على الحجارة الكريمة والصدف ،كما كتب بعضها فـي كتب لم يبق منها حتى الان الا ثلاثة أحدهما في "درسدن " يحتسوي جداول دقيقة للتنبؤ عن الخسوف والكسوف ،وعرف المايا التقويم ودوران كوكب الزهرة الذي لم يخطئوا فيه الا بيوم واحد كل ٦٠٠٠ سنة / .

أما في العمارة فعلى الرغم من فشلهم في تطوير القوس واعتمادهم على العقود المنحنية فكانت غرفهم قليلة العرض ،ولكن أهم ما وصلوه رغم تخريب الغابة كان بناء المعابد فوق الاهرامات على ارتفاع ٢٠٠ / قدما / .

أما النحت فاقترص على النصب التذكارية وعتبات الابواب وبعض القطع الخشبية ،ولكن الاعمال الجصية استعملت بكثرة خارجا وداخلا بعضها لتمثيل مشاهد معركة حربية وبعضها لاحتفالات دينية ،وأكثر المعادن المستعملة من قبلهم النحاس والذهب اضافة الى الخشب والعظم

والحجر وخاصة الزجاج البركاني ، كما عرفوا الحجارة الكريمة وخاصة
اليشم أو اليشب الذي وصلوا فيه درجة فائقة من الدقة والمهارة
وعرفوا النسيج واستخدام الريش .

أما في الزراعة فقد اهتموا بشجرة الكاكو والذرة التي زرعت
في الأراضي التي انتزعت مؤقتا من الغابة ، ولعبت الهة المطر دورا هاما
في عقيدتهم ، إضافة الى آلهة أخرى تمثل القمر والشمس ، وانتظمت
عقيدتهم في مجموعة رباعية توافق كل واحدة منها إحدى الجهات الأربع
(الشمال والجنوب والشرق والغرب) أو الألوان الأربعة (الأبيض والأسود
والأحمر والأصفر) ، وانتشرت تجارتهم وخاصة لدى سكان المناطق المرتفعة
وبصورة خاصة تجارة الخزف فعثر على أنابيب فخارية في تشن شن اتزا
مصنوعة في الشمال ومنقولة اليها ، أما أشهر المهارات عندهم فظهرت
على اليشب ، وقد عثر على مستودع كبير للجثث في أحد الأهرامات ، ثم
أصبحت عادة حرق الموتى عامة وذلك في العصر القريب من الاحتلال .

صدر عن الجمعية التاريخية

- ١- العدد الأول من مجلة البحث التاريخي .
- ٢- العدد الثاني من مجلة البحث التاريخي .
- ٣- العدد الثالث من مجلة البحث التاريخي .
- ٤- ندوة عملي للدراسة التاريخية الأولى .
- ٥- العدد الرابع من مجلة البحث التاريخي .
- ٦- العدد الخامس من مجلة البحث التاريخي .

مجلة البحث التاريخي

«مجلة محكمة»

Historical Searching Magazine
published by

Homs History Society

تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

بالتعاون مع مؤسسة علا للصحافة والطباعة والتوزيع

العدد السادس - آذار / مارس / ٢٠٠٠

المراسلات:

سورية - دمشق - ص.ب: ٣١٦٢٥

حمص - ص.ب: ٢٥٢٤

٨٤٨ :

الاشتراكات

أفراد : ٦٠٠ ل.س سنوياً
المؤسسات : ٢٠٠٠ ل.س سنوياً
خارج سورية: ٣٠٠٠ ل.س أو مايعادلها
سعر النسخة: ١٠٠ ل.س أو مايعادلها

أسرة التحرير

رئيس هيئة التحرير

آ. منذر الحايك

المدير المسؤول

أ. دعد تقلا

رئيس التحرير

أ. محمد فيصل شيخاني

مدير التحرير

أ. نصر الدين الإبراهيم

سكرتير التحرير

أ. نضال بشارة

المدير الإداري والإعلامي

أ. ميسر عبود

مجلة البحث التاريخي ترحب بمشاركاتكم وترجو من الراغبين في إرسال بحوث للنشر تحقيق المواصفات التالية:

- ١ - أن لا يزيد عدد صفحات البحث عن ٥٠٠٠ كلمة ولا يقل عن ٢٠٠٠ كلمة.
- ٢ - أن يكون البحث منضداً على الآلة الكاتبة أو على الكمبيوتر.
- ٣ - أن يرفق البحث بالمراجع والصور.
- ٤ - أن يكون البحث جديداً، ولم ينشر في أي مطبوعة دورية أو كتاب.
- ٥ - أن يرسل الكاتب بطاقة معلومات شخصية.
- ٦ - أن يكون البحث على علاقة مباشرة مع الموضوع التاريخي.

كلمة العدد

إن ما تشهده سورية في ظل القيادة التاريخية للرئيس المناضل حافظ الأسد من تقدم وتطور، وسعي حثيث لبناء المستقبل، كان لابد من أن يترافق باهتمام مماثل بالماضي، بتاريخنا، بجذور أمتنا التي تضرب عميقاً في باطن هذه الأرض التي رواها أجدادنا بدمائهم وعرقهم ليدعوا حضارة أنارت العالم رديحاً طويلاً من الزمن. وإذا كان مشعل الحضارة قد انتقل من أيدينا الآن فهذا لا يعني أن علينا مسؤولية أديبة كبرى تتمثل بحفظ تراث الأمة ليكون نقطة ارتكاز لها في عودة قرية للمشاركة في بناء الحضارة. ونظراً للصراع المصيري الذي تخوضه سورية ضد العدو الصهيوني إن كان في معركة الحرب أو في معركة السلام فإننا الآن بحاجة أكثر من أي يوم مضى لوعي تاريخنا في إطاره الحضاري الإنساني. وإنطلاقاً من هذه المفاهيم نسعى من خلال عملنا في الجمعية التاريخية السورية وفي مجلتها (البحث التاريخي) كي نساهم في صياغة صحيحة لتاريخنا وللقيام بتوعية تاريخية أفضل لشعبنا، نركز على الإيمان بأن الأمة العربية وحدة ثقافية متكاملة. مستلهمين قول السيد الرئيس حافظ الأسد: (إننا إذ نحیی تراث أجدادنا فإننا نجدد العهد على الاقتداء بالجنود العرب الأوائل الذين نقلوا حضارة العرب إلى بقية الأمم). ولأننا نرغب أن تكون جمعيتنا بحجم الطموحات الكبيرة المرجوة منها كجمعية متخصصة وحيدة في مجالها في سورية، فإننا نهيب بكل المؤرخين والمثقفين العرب الذين يهتمون بالتاريخ أن يساهموا معنا، فمجلتنا تفتح صدرها لكل جهد مخلص وترحب بأبحاث الزملاء وكتاباتهم، وبكل نقد أو رأي يهدف لتقويم عملنا وتطويره.

منذر الحايك

افتتاحية العدد

بكل الاحترام والتقدير نقدم هذا العدد من مجلة البحث التاريخي الذي تأخر إصداره لظروف خارجة عن إرادتنا نحن مجلس إدارة الجمعية التاريخية السورية. وتفادياً لهذه الظروف انتهجنا منهجاً جديداً نأمل من خلاله أن نحقق غايتنا لبقى نض الحياة يخفق في مسيرة هذه المجلة التي عملت منذ إصدارها على نشر المواضيع التاريخية والتراثية بين طياتها خاصة وإننا في هذه المرحلة نواجه غزواً فكرياً وثقافياً يستهدف النيل من تاريخ أمتنا وتراثها كما يستهدف طمس حضارتها.

لذلك سعمل على تسليط الأضواء على تاريخنا العربي العريق بكل عناصره البشرية والمادية. فمن كهوف ومغاور هذا البلد وغيره من البلاد العربية انطلقت الحضارة إلى الآفاق الرحبة الواسعة لتنتشر في مختلف أصقاع العالم.

ومن خلال مجلتنا «مجلة البحث التاريخي» سنحاول وصل الحاضر بالماضي والتركيز على كل ما يمت إلى الحضارة العربية بصلة التي كانت مهد الحضارات البشرية في عهد تم فيه التركيز على العلم والعلماء وخاصة علم التاريخ ونحن كأُسرة تحرير لهذه المجلة لا يمكن أن نحقق أهدافها لولا تعاون زملاء لنا أفادونا كثير من الأبحاث الجيدة التي أغنت هذا العدد وإنشاء الله ستغني غيره من الأعداد القادمة.

ولابد لنا في هذا من التوجه إلى المسؤولين لرعايتهم الكريمة للثقافة التاريخية ولتركيزهم الدائم على الأصول الحضارية لهذه الأمة المعطاء، ونخص بالشكر العقيد الركن الدكتور بشار الأسد وذلك لحرصه على رعاية الجمعيات العلمية والأدبية والتاريخية، فتحية له.

وتحية من القلب لكل من ساهم في إصدار هذا العدد، وتحية ملؤها الاحترام والتقدير لراعي العلم والعلماء وقائد البلاد نحو النصر والتحرير إن شاء الله سيادة الرئيس حافظ الأسد.

دعد تقلا

الفهرس

قائد وشعب

مسيرة مظفرة وانجاز عظيم

٧

قطنة

وآخر التقييات الأثرية فيها

٢٣

دراسة لمسجد خالد بن الوليد

في حمص

٢٩

صورة

من الفكر الإداري والسياسي

في عهد الخليفة المأمون

٤١

٩

اهل الشام بحكم تطلعاتهم
الوحدوية تميزوا بالانفتاح
الإنساني فكانوا دوماً رواد
حضارة وتفتح وسماحة
وعطاء

٣٠

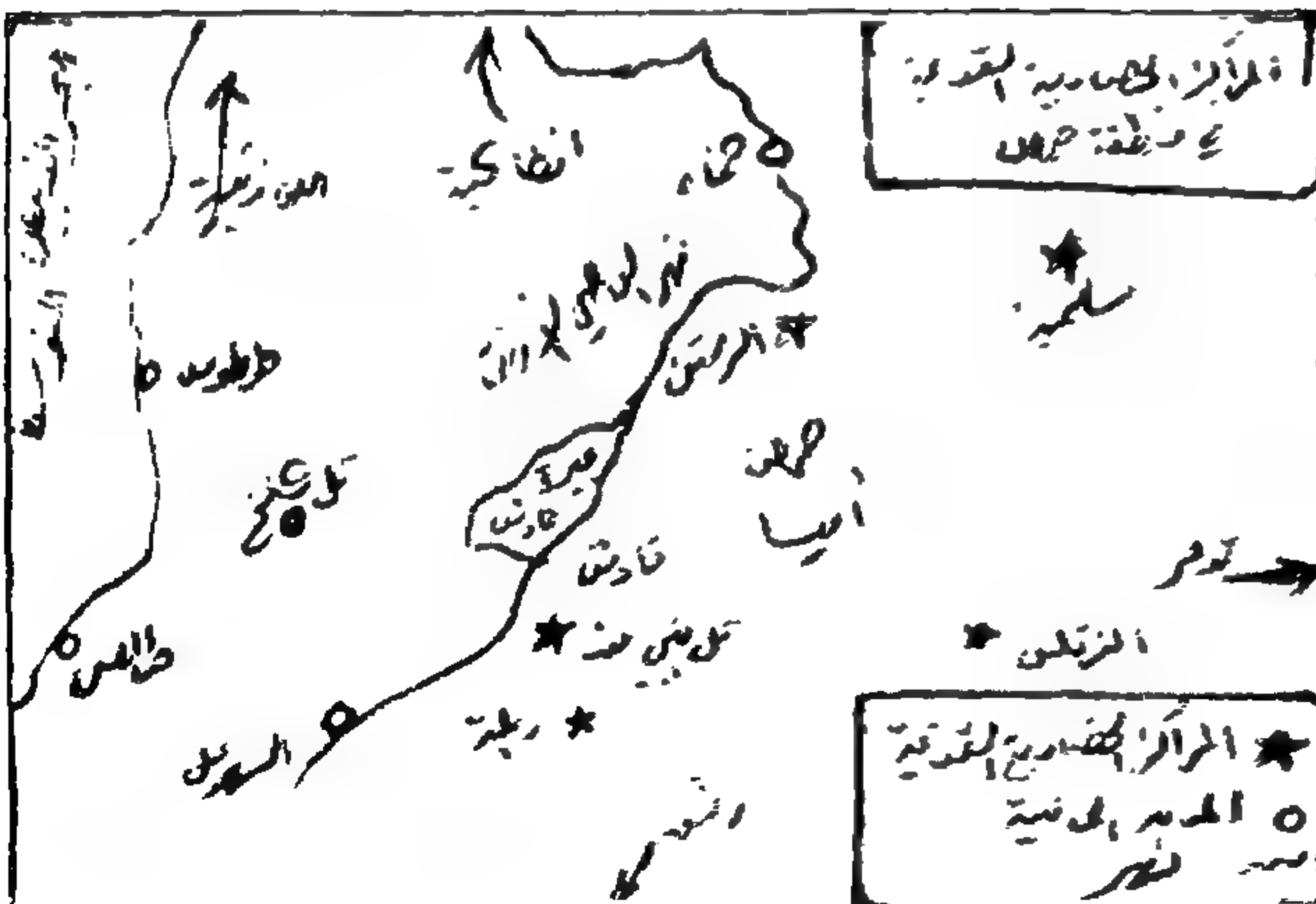
سبق المعماريون
المسلمون المعماريين
الآخرين في استعمال
القباب في السقوف وزادوا
في اطوال اقطارها

٢٤

قطنة:
موقع أثري قديم يشهد على
اهمية المنطقة عبر آلاف
السنين وهي موقع تل
المشرفة الحالية على
مسافة ١٥ كم شمال شرق
مدينة حمص

٤٧

الحاكم: خازن وحافظ وراء
وإنما سمي اهل عملك
رعيتك لأنك راعيتهم،
وقيتهم، تأخذ منهم ما
اعطوك من عفوهم
ومقدرتهم وتنفعه في قوام
امورهم، وصالحهم وتقويم
اودهم



١٠٠

إن كراهية شعوب الأرض
لليهود على مر عصور
التاريخ لا ترجع إلى
عقيدتهم وإنما ترجع إلى
سلوكهم وأخلاقهم
وتصرفاتهم.

٧٧

المنصور من انجم الظفء
الموحدين في قضية الصراع
ضد الاسبان، بالرغم من
مصاعبه الدائرية.

صناعة الورق والوراقة
في بلاد الشام
أواخر العصر العباسي

٥٥

١١٨

استخدام طريقة الكربون
١٤ في تحديد عمر الطبقات
الأثرية

٩١

اللغات: جاءت من (الخوارزمي)
صاحب جداول الخوارزمي
التي ترجمها روبرت
تشستر.

٦٧

الأعمال الحربية
بين الموحدين والاسبان

٨٥

٦٥

القرطاس:
نوع من النسيج المصقول المصنع الرقيق الأبيض، وهو من
الحرير.
اسيران فرنسيان ينقلان سر صناعة الورق إلى فرنسا ثم
أوروبا

اليهود
في العصور الوسطى

٩٩

المصطلحات التقنية / الأثرية
وحدود مدلولاتها

١٠٩

قائد وشعب

مسيرة مظفرة وإنجاز عظيم

د. سجيل زكار

ومع

هذا ظلت هذه البلاد - على الرغم من الواقع السياسي المفروض - تسعى دوماً إلى الوحدة، وأثير للانتباه أن وحدتها كانت في الغالب تقود إلى وحدة عربية كبرى وتأثير إنساني واسع، يضاف إلى هذا أن التمزق السياسي لم ينتج عنه تمزق اجتماعي خطير، وتلون حضاري وعقائدي عميق.

وفي وقفة لتفصيل بعض هذا المجل، نجد أولاً أن الجغرافيين العرب، ومن قبلهم الجغرافيين الكلاسيكيين قالوا حين عرّفوا بلاد الشام: هي صقع كبير من البر الآسيوي يحده من الشرق سقي الفرات على الجانبين، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر، ومن الشمال السفوح الشمالية لجبال طوروس.

وجعل هذا الموقع المتميز من بلاد الشام قلباً لقارات العالم القديم، ولأقول جسراً بين الحضارات، لأن الجسر لا ينتمي إلى أحد، وقد يتبدل في كل ساعة، فالشام بلاد متصلة بالقارة الأوروبية عبر جسر آسيا الصغرى، وعبر البحر المتوسط، وهي متصلة بالقارة الأفريقية عبر مصر وشواطئ البحرين: الأحمر والمتوسط، ومنها يمكن الانطلاق إلى مختلف بقاع القارة الآسيوية: إن إلى شبه جزيرة العرب، فبحر العرب، فالشرق الأقصى، أو عبر بلاد الرافدين فالنهضة الإيرانية، ومن شمالها الشرقي يمكن الوصول إلى أرمينية وأذربيجان وجورجيا وروسيا، ولهذا صلحت هذه البلاد لتكون قاعدة لنشر المعارف والعقائد ذات السمة العالمية الانسانية، وخير مثال على ذلك انتشار كل من المسيحية والاسلام، وقبلهما بكثير الأبجدية والميثولوجيا والفلسفات، والتجارة، وأنظمة المدن، والقوانين والآداب وفنون العمارة وغير ذلك كثير.

وتميزت هذه البلاد دوماً بالاصالة العربية، وبالعطاء الإنساني، وبالتجربة القومية

يرى المستعمر لتاريخ

بلاد الشام - ضمن

إطار الوطن العربي -

أن هذا التاريخ قد تأثر

كثيراً بالموقع

والتركيب الجغرافي،

فالموقع المتميز جعل

هذه البلاد مطموع

بها من جيرانها

وأصحاب

الامبراطوريات، ثم

إن الاطماع بين

تفاعلت مع التركيبة

الجغرافية كثيراً

مادت إلى التمزق

السياسي

والاضطرابات

الداخلية،

**تاريخ بلاد الشام
صنعه جميع أهل
الشام، لكن البنية
الطبوغرافية والموقع
ودول الجوار لونها
بعض هذا التاريخ،**

**العصر المعاصر
بمراحله المتتالية،
التي أميزها مانعيشه
الآن في ظل القيادة
التاريخية للرئيس
الأسد.**

المنفتحة عالمياً، وأبدعت هذه البلاد الكثير، وتلقت تجارب غيرها فأعادت صياغتها، ومزجتها بأصالتها، ونقلتها إلى أم الأرض، فهي بلد مصنع ومنتج مبدع.

ومثلما أثر الموقع على صنع تاريخ بلاد الشام وعلى دورها، أسهمت البنية الطبوغرافية في هذا المجال كثيراً، فبلاد الشام إذا ماتفحصناها من الغرب نجد أولاً شريطاً ساحلياً ضيقاً، ثم سلسلة من الجبال عالية، يليها وديان الأنهار الداخلية الكبرى، وبعد ذلك البادية، وأوجد هذا عدة أنماط حياتية: أمتداداً من النمط الساحلي، إلى النمط الجبلي، فنمط المدن الحرفية التجارية والأرياف الزراعية، ثم نمط الحياة البدوية الرعوية المتنقلة.

ومقرر أن تاريخ بلاد الشام صنعه جميع أهل الشام، لكن البنية الطبوغرافية والموقع ودول الجوار لونها بعض هذا التاريخ، لاسيما من الجوانب السياسية، فمع الاتصال بجميع بقاع الدنيا، امتازت البلدان الواقعة إلى الشرق من بلاد الشام بكونها قارية استهدفت دوماً الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط.

ثم إن البلدان التي جاورت الشام، عرف تاريخها قيام عدة امبراطوريات،

وقد سعت كل امبراطورية إلى الاستيلاء على كل الأراضي الشامية، أو على بعضها، وهكذا غدت الأرض الشامية مسرحاً للصراعات العالمية، ومطموع بها دوماً، عانت من الأعداء، ومن الأصدقاء الألداء، وانعكس هذا عليها سلباً وإيجاباً، وجعل تاريخها يمر بعدد من الأطوار والمراحل، أهم معايير التحقيب فيه هو الوحدة أو التمزيق السياسي.

لأريد الاستطراد في هذا المقام أكثر بالشرح، فلهذا مكان آخر، قد يتحقق من خلال دراسة مفصلة تتناول التاريخ الشامي في الإطار المحلي والعربي والإنساني، وتتناول عصور ما قبل التاريخ، ثم العصور التاريخية حتى نهاية الحقبة الكلاسيكية، فعصور الإسلام حتى العصر الحديث، وأخيراً العصر المعاصر بمراحله المتتالية، التي أميزها مانعيشه الآن في ظل القيادة التاريخية للرئيس الأسد.

وأعود إلى التذكير بأن أهل الشام عانوا أكثر من سواهم من التمزق السياسي، ولذلك كانوا دوماً، وعرفوا أكثر من سواهم أنه عندما توحدت بلاد الشام في العصر الأموي توحد الوطن العربي شرقاً وغرباً، وتحققت معجزة

الفتوحات العربية الكبرى، وباتت الدولة العربية تمتد من تخوم الصين إلى عدن، ومن شواطئ الشام إلى تخوم فرنسا وسويسرا في قلب أوروبا، لكن عندما تمزقت الشام بفعل الثورة العباسية، انفرط من يومها عقد الوحدة العربية السياسية وكذلك عقد الوحدة الإسلامية.

وأهل الشام بحكم تطلعاتهم الوجدانية تميزوا بالانفتاح الإنساني، فكانوا دوماً رواد حضارة وفتح وسماحة وعطاء.

وليس ينبغي استعراض تاريخ متاعب الشام من التمزق كله، لكن بودي التذكير هنا أن هذه المتاعب ازدادت كثيراً إثر قدوم الغزو إليها في القرن الخامس هـ / الحادي عشر م، ثم ما حدث في أواخر هذا القرن لدى وصول الغزاة الفرنجة.

وكانت بلاد الشام قبل هذا تقاد من قبل المدن الكبرى: دمشق، حلب، وحمص، وحماة، وطرابلس، وجبله، وأنطاكية، وعكا، وغزة، والقدس، وأريحا، لكن الآن باتت كل مدينة تحوي قلعة تركز فيها حاكم غريب مع حامية عسكرية غريبة، وفرضت الصراعات مع الفرنجة ومع أنظمى الأقطاع بناء المزيد من القلاع، وتولت

القلاع صنع أحداث تاريخ الشام، وفي ظل التمزق الدموي الحاد، جاء نور الدين محمود، فوحد الشمال الشامي مع الجنوب، ومالبثت حركة التحرر من الفرنجة إلا أن تسارعت، وتنامت عمليات الوحدة فوصلت إلى مصر، وامتدت إلى ليبيا واليمن، وأعدت العدة لتحرير القدس، ولطرد الفرنجة، وتوفي نور الدين، فقام صلاح الدين بإكمال المسيرة، وخاض حطين، وحرر القدس، وأعاد لحمه الوحدة الشامية.

لكن لسوء الحظ توجب على صلاح الدين في أواخر أيامه التصدي لما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، وبقينا لولا وحدة الشام ومصر لأغرق الطوفان الغربي الشام والوطن العربي، ولسوء الحظ ثانية أن صلاح الدين لم يعمر بعد انحسار موجة الحملة الثالثة، وعاد التمزق مجدداً سياسياً وقاسياً ومؤذياً إلى بلاد الشام، وألهمت الصراعات الأيوبية الأيوبية خلفاء صلاح الدين، وبددت طاقات، حتى أن الكامل محمد بن العادل تحالف مع فردريك الثاني ضد أخوانه وآله وسلمه القدس.

وعرفت بلاد الشام يومذاك فورات عارمة ضد التمزق والخيانة والتفريط

**أهل الشام بحكم
تطلعاتهم الوجدانية
تميزوا بالانفتاح
الإنساني، فكانوا
دوماً رواد حضارة
وتفتح وسماحة
وعطاء.**

التي جلس على عرشها امبراطور عثماني لهزيمتها يوم اليرموك، ودار التاريخ دورة رهيبة، وعادت الشام ومصر وأرجاء الوطن العربي تدار من القسطنطينية، كما كا الحال قبل حركة الفتوحات العربية الكبرى، ولم يتوقف أهل الشام ومصر عن النضال التحرري والوحدوي العربي، وتجلي هذا لدى التصدي للطورانية ولسياسات التتريك، وكادت الجهود تنجح لولا تدخل الاستعمار الأوروبي، ومع هذا باتت البلاد على حافة الانفجار الثوري، نظر الثوار العرب من حولهم وفي أوساطهم، فلم يجدوا لا نور الدين ولا صلاح الدين، بل وجدوا «شريف مكة العثماني» صاحب مكماهون وأولاده الذين تلبسوا بالرغبة الملك، على طريقة الكامل محمد - ولو بأي سبيل ومهما كان الثمن: خيانة، عمالة، طغيان، لا بأس، فالمهم الوصول إلى الملك...

وفي ظل هؤلاء الأدعياء مزقت أشلاء بلاد الشام شر ممزق، فانتزعت منها ولاية الجزيرة بما فيها الموصل، وعانت من الحركات العنصرية مالم تعانه ديار في الدنيا، وإذا سلمنا أن أشهر عنصريات هذا القرن وأخطرها هي: الطورانية،

بالحقوق، وشهدت ساحات البلاد قيام حركات ومنظمات شعبية فعالة، لكن هذه المنظمات لم تتوفر لها القيادات القادرة على طرد المتحكم من القلعة وإقامة حكم شعبي.

واستمر هذا الحال طيلة ما بقي من العصر الأيوبي، ثم جاء الغزو المغولي، وحدثت معركة عين جالوت، وكان الدور الشعبي في هذه المعركة كبيراً، مثلما كان يوم حصين، فأعداد المتطوعة كانت أكبر من أعداد الجند المخترف، والشعب هو الذي مَوَّل الآلة الحربية وصنع السلاح، ودعا إلى الجهاد، وقدم الكوادر الإدارية والقيادية.

ووقف الشعب ضد المغول، فالشعب هو الذي انتصر في معركة شقحب لا الناصر محمد ابن قلاوون، والشعب هو الذي دافع عن مدن الشام ضد تيمورلنك، وهو الذي أعاد بناء البلاد بعد انحسار آخر الأمواج المغولية العاتية، وكان شعب الشام في أواخر العصر المملوكي قاب قوسين أو أدنى من استلام السلطة، والحلول محل المماليك.

لكن هو القدر، حيث نجح العثمانيون في احتلال لبلاد الشام، ثم مصر، وفي معركة مرج دابق انتقمت القسطنطينية -

**كان شعب الشام في
أواخر العصر
المملوكي قاب
قوسين أو أدنى من
استلام السلطة،
والطول محل
المماليك**

والصهيونية، والنازية، فأهل الشام عانوا من هذه العنصريات أكثر من أي فئة من بني البشر: اقتطعت الطورانية أنطاكية والاسكندرونة والرها ونصيبين وماردين وغير ذلك، واقتطعت الصهيونية فلسطين (يجمع بين الصهاينة والطورانيين الانحدار من أصل خزري واحد، وكانت الزعامات دوماً من يهود الدونما). وأهل الشام هم الذين دفعوا ثمن آثار النازية.

وهكذا عاش أهل الشام في ظل قرون لأطول ولأحلك، ومع هذا ازدادوا أصراً على الوحدة والتحرير، وفي أثناء النضال ضد الاستعمار الفرنسي، أسهم الشاميون في ثورات العراق، وحركات مصر، ودول المغرب العربي، وقامت ثوارهم في الغوطة وجبل الزاوية، وجبال اللاذقية وروابي فلسطين، وأسماء الشهداء جلها معروف ومدون، وتحقق الاستقلال بفضل النضال الشعبي، لكن لسوء الطالع تسلم القيادة بقايا أسر الاقطاع العثمانية ما يعرف باسم «البرجوازية السورية» وكان هؤلاء يتسمون بقصر النظر والضعف والتخاذل، ولذلك عشنا عصر الصراع على سورية، وعصر الانقلابات.

وقامت الوحدة مع مصر، وجاءت نتيجة لزخم شعبي لامثيل له في أرض الشام، لكن لسوء الحظ، لم يكن هناك ما يكافئه في أرض الكنانة، ولذلك تحولت الوحدة إلى تسلط وحكم بوليسي، لأنه كان من شروط الوحدة إلغاء الأحزاب، أو بالحري إلغاء حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي قاد نضال الجماهير في أرض الشام.

واستعانت سلطات الوحدة ببقايا البرجوازية السورية، الضعيفة لأعطان والقصيرة للنظر، فكان الانفصال الذي لم يشارك في صنعه بعثي واحد، وتحكمت البرجوازية مجدداً بدمشق، ومجدداً أخفقت، وحبطت أعمالها، وسقطت يوم الثامن من آذار عام ١٩٦٣، وسعت الثورة إلى تحقيق الوحدة، فلم تنفك، وقام عدوان عام ١٩٦٧، وتنازل الانتكاسات، وتسلب العقليات المناورة، أو التي بلا تجربة أو خبرة، أو إيمان، أو معرفة بتاريخ هذه الأمة إلى السلطة، وكانت هناك بارقة أمل مع حركة ٢٣ شباط، لكن العقلية المناورة التي لم تتحرر من رواسب الماضي عادت إلى التحكم، وإلى المزيد من الأنغلاق، واستيقظت من جديد

**كان من شروط الوحدة
إلغاء الأحزاب، أو
بالحري إلغاء حزب
البعث العربي
الاشتراكي، الذي قاد
نضال الجماهير في
أرض الشام.**

روائح الطائفية والاقليمية النتنة.

وكنت آنذاك طالباً في جامعة لندن، احضر للحصول على شهادة الدكتوراه، وفي أحد الأيام استدعاني الاستاذ المشرف المستشرق برنارد لويس، وشرع يسألني عن أوضاع سورية، وفاجأني وقتها بقوله: «أصحيح ان السلطة في سورية باتت عدس؟» فأجبت: ماالذي تعنيه بقولك: عدس؟ فشرع يشرح لي بتشيف صهيوني مقيت أن سورية تعيش في أجواء الصراع على السلطة، وباتت بالتالي ميداناً للطائفية والإقليمية.

ونقد كان ذلك اليوم من أقسى أيام حياتي، ثم عدت من الايفاد - بعد غياب سنوات - في أواخر عام ١٩٦٩ ، وشرعت من جديد أتعرف على أوضاع البلاد، وكنت في كل يوم أسمع خبراً وإشاعة، لكن شعرت «أن خلال الرماد وميض نار» وأن هذا الوميض «يوشك أن يكون له ضراماً».

صرت أسمع كثيراً اسم «حافظ الأسد»، وتملكني شعور اقتبسته من مشاعر الشعب أن الأمل هنا، وأن صلاح الدين قريب الوصول، وأن الشعب الذي انتظر - منذ أيام سيف الدولة - مجيء القائد التاريخي من بين صفوفه لن ينتظر

أكثر، فلقد قربت ساعة الفرج، وجاء فجر السادس عشر من تشرين، ونجحت حركة التصحيح، وعشت - مثلما عاش كل مواطن - أفراح مابعد التصحيح، وتبعت أخبار البهجة في كل مدينة زارها القائد الأسد آنذاك، وتسارعت الأحداث، وأدرك الشعب تمام الإدراك ان القائد التاريخي الذي انتظره قرابة العشرة قرون قد خرج من بين صفوفه فارساً يعربياً أصيلاً، ترقى به الأعراق إلى زفر بن الحارث الكلبي، وإلى صالح بن مرداس، وإلى ذات الهمة والبطال، إلى الشعب العربي الأصيل وليس إلى الهجناء.

وحكايتي مع «القائد التاريخي» حكاية طويلة فيها من رعاية الذات مكارم موارد آل مرداس حين تفردوا فأحاطوا العلماء والشعراء بالرعاية، نعم بنو مرداس وحدهم هم الذين منحوا كل شاعر متميز لديهم لقب أمير.

وصلتني مع فلسفة «القائد التاريخي» عميقة: النقطة العلامة فيها سيرة النبي المصطفى «صلعم» وشماله، وفيها خلفاء النبي والأئمة، وآل البيت وأبطال ورجال قدمتهم امتي للإنسانية طيلة أكثر من ألف عام، فلقد ظلت الحضارة العربية

**شعرت «ان خلال
الرماد وميض نار»
وان هذا الوميض
«يوشك ان يكون له
ضراماً».**

الاسلامية تعطي البشرية أكثر من ألف عام، وعندما تولى غير العرب قيادة الحضارة أعطوا بني البشر: الاستعمار، والتلوث، والاستغلال، والتمييز العنصري والكيل بمعايير مزدوجة لأخلاقية، والأسلحة النووية، والايديز وغير ذلك من الآثام كثير، وذلك في مدة لم تتجاوز القرنين، مع حروب كونية كلها رعب وهوب.

والحديث عن القائد التاريخي ممتع، لا يدخل في إطار الحديث عن عبادة البطل الفرد، لأن القائد التاريخي وإن كان بطلاً، هو ليس حاكماً فرداً، إنه صاحب رسالة، مثلما أئمة التاريخ، الذين صدرت رسالاتهم عن رسالة السماء التي أوحى بها الله تعالى إلى نبيه المصطفى، فختتم بها بلسان عربي مبين رسائل الأنبياء قبله صلى الله عليه وسلم منذ آدم عليه السلام.

وترتبط حياة الرسل بالمعجزات، وحياة الأئمة بالكرامات، والكرامة أخت المعجزة، وعلى هذا الأساس يمكن أن أفقه ما حدث في سورية حين زالت الطائفية إلى ما غير عودة، وتحققت وحدة المجتمع، لا على أساس التعايش والتوازن، بل على أساس الاندماج، ولم تعد سورية

البلد المصطرع عليه، بل البلد المسهم في الصراع من أجل البناء والوحدة والتحرير، وهكذا تحول الجيش خلال ثلاث سنوات من جيوش إلى جيش عقائدي، عالي التدريب والانضباط، مستوعب للسلاح، إرادة المقاتلين فيه حرة، يشعر كل منهم بالظهير الشعبي، وبمتعة أداء الرسالة، وكانت أولى المحصلات حرب تشرين التحريرية، وحرب الاستنزاف، والتصدي للمؤامرات وصيانة لبنان، ورفض كامب ديفيد، والوقوف ضد صليبية ٨٢ - ٨٣ حين اجتمعت جيوش وأساطيل الغرب وأمريكا والصهيونية ضدنا.

لقد ناضل هذا الشعب طوال قرون عديدة حتى التقى بقائده التاريخي، ولقد دعا كل واحد من أمتي خلال القرون المديدة حتى يأتي من يجدد له دينه وحياته، وجاءت الاستجابة من رب العزة، والله تعالى وحده قادر على أن يقول للشيء: كن فيكون، أما أساطيل العدوان فعايزة أمام إرادة الله، ومقرر أن صوت الشعب هو صوت الحق، ولم تجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم قط على ضلالة، وهي مجمعة الآن على

الحديث عن القائد

التاريخي ممتع،

لا يدخل في إطار

الحديث عن عبادة

البطل الفرد. إنه

صاحب رسالة، مثلما

أئمة التاريخ.

**قبل الحركة التصحيحية
كانت سورية جمهورية
مفتقرة إلى سمات
الدولة، فعدت في
سنوات قلال، دولة
عربية نموذجية.**

أن حافظ الأسد هو قائد الجماهير العربية
والمسلمة بلا منازع.

قبل الحركة التصحيحية كانت سورية
جمهورية مفتقرة إلى سمات الدولة،
فعدت في سنوات قلال دولة، دولة
عربية نموذجية، تصلح نواة لدولة الوحدة
الكبرى، فسورية جزء من بلاد الشام،
وببلاد الشام بعض من الوطن العربي
الكبير.

وقبل الاستطراد في الحديث عن
منجزات العقود الثلاثة المتقدمة، أجد
من الضروري معاودة الوقوف مجدداً
للهديث أكثر عن فلسفة القائد
التاريخي.

شغلت ظاهر القائد التاريخي المؤرخين
والفلاسفة، وهناك اجماع على أن
شخصيته تشكل استثناء متميزاً،
وظاهرة جددت سماتها الجماهير قبل
ظهورها، وقبل وصولها إلى السلطة
بزمن، وبناء عليه تملك نفوذها على
الجماهير وتأثيرها لأنها أملها ونمطها
الذي صاغته من خلال حاجاتها، ولهذا
يبقى القائد التاريخي مع الجماهير،
لايرحها ملتصقاً بها، ومدافعاً عن
قضاياها وحامياً لها، ومقرر أن الدور
السلطوي هو غير الدور القيادي الشامل،

ففي القيادة التاريخية قضية عظمى
ونضال فعال وجماهير ومواقف، وفي
السلطة تنفيذ لتوجيهات القائد، ومع هذا
قد تلتقي السلطة مع القيادة وتتحدا في
بطل واحد، ووقتذاك يكون الانجاز
محولاً وهاماً جداً.

والقادة التاريخيون ندرة، وإن أطلق
كثيراً من الحكام على انفسهم لقب
القائد والقائد رجل حكيم مخطط،
استراتيجي، فيه مروءة وكرم وشجاعة،
وليس فيه ضغينة، يؤثر على نفسه،
ويوقف ذاته كلياً على قضايا أمتة، فيه
بعد انساني، يجمع بين الدمعة والمضاء،
لايعرف غير الصعود، يتماشى مع
تطورات الأيام، أو بالحرى يقود
التطورات، يرتقي من ذرة إلى أخرى
أعلى حتى لاينزلق، هو صادق وأمين
وصريح، يستوعب الآخرين ويجمع
الشتات، ليس سلطوياً بل صاحب
رسالة، يتخرج من بين الجماهير، ومن
خلال نضالها، ولذلك يظل مرتبطاً
بالجماهير، والإجماع الجماهيري هو
دستور القائد التاريخي ومرشده.

ومنذ قرون طوال لم تجمع الجماهير
في أرض الشام وفي الوطن العربي إلا
على القائد التاريخي حافظ الأسد، ولأن

الأسد قائد تاريخي جاء نسيج وحده
فيه جميع الصفات التي تطلع إليها
العربي دوماً في قائده، قال الشاعر لقيط
بن يعمر الإباضي لقومه:

فقلدوا أمركم لله دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
مسهد النوم تعنيه ثغوركهم
يؤم منها إلى الأعداء مطلعا
مأنفك بحلب در الدهر أشطره
يكون متبعاً طوراً ومتبعاً
والقائد العربي هو من:

قوم إذا اشتجر القنا
حملوا القلوب لها مسالك
اللابسين قلوبهم
فوق الدروع لدفع ذلك
وهو أيضاً من قوم شعارهم:

الموت غايته فلا
قصر ولا عنه جماع
وكأنما ورد المنـ
ية عندنا ماء وراح
«وهالك معذور خير من ناج فرور إن
الحذر لا ينجي من القدر، ولكن الصبر
من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية،
استقبال الموت خير من استدباره، الطعن
في ثغر النحور خير منه في الأعجاز
والظهور».

والقائد العربي هو:

حمال ألوية شهاد أندية
قوال محكمة جواب آفاق
وهو أيضاً كما قالت الخنساء:

رفيع العماد طويل النجاد
ساد عشيرته أمردا
وصحيح أن الحديث في هذا الباب
غني وممتع، وهو والحق يقال يحتاج إلى
افراده في دراسات خاصة، ولعله يفيدنا
الآن ويكفي أن نذكر أن القائد الأسد
ولد في ليلة القدر من عام ١٩٣٠ من
أسرة نضالية عربية أصيلة، وقد أهتم
والداه بتعليمه، وقرأ القرآن الكريم منذ
صغره، ولعله حفظه، ثم انتقل من بندته
القرداحة إلى اللاذقية، والتحق هناك
بثانويتها، وحدثني رفاقه في المدرسة أنه
امتلك المؤهلات القيادية وكان المرجع
لهم والملاذ دوماً، وبعد نيله الشهادة
الثانوية أراد أن يدرس الطب، فلم
يستطع لأسباب مالية، فالتحق بالكلية
الجوية وتخرج ضابطاً طياراً.

وكان القائد الأسد من أوائل الذين
انتموا إلى حزب البعث العربي
الاشتراكي ومن ثم تسلم طوال عمره
قيادة رفاقه في المدرسة وفي المراحل
اللاحقة، وقد تميز بين الضباط في سلاح

«وهالك معذور خير من
ناج فرور إن الحذر
لا ينجي من القدر، ولكن
الصبر من أسباب
الظفر، المنية ولا
الدنية، استقبال
الموت خير من
استدباره، الطعن في
ثغر النحور خير منه في
الأعجاز والظهور».

**بعدما عرف الشعب
قائده التاريخي بدأت
مسيرة الاستقرار،
والانتاج وما زالت
مستمرة، وستبقى
بمشيئة الله،**

السنوات السبع الأولى من حكم قائدنا التاريخي الرئيس الأسد سنواتاً عصيبة، ومع ذلك شهدت إنجازات لا يمكن للدهر أن يحوها، فقد بدأت سورية تشهد مخاضاً اجتماعياً جديداً، ودعت فيه التوازنات الطائفية والاقليمية - أو مايسميه بعضهم التعايش بين الفئات إلى غير مارجعة، وخطت نحو الاندماج، وإلى إزالة كل الحواجز، إذا كان قد بقي حواجز، اندماج قوامه الجبهة الوطنية التقدمية، ومجلس الشعب، والتحضير للإدارة المحلية، وبدأت سورية تأخذ المظهر الفعلي للدولة، ولم تعد البلد المتنازع عليه من قبل الجوار وسواهم، ولا البلد المتنازع على السلطة فيه، فبعدما عرف الشعب قائده التاريخي بدأت مسيرة الاستقرار، والانتاج وما زالت مستمرة، وستبقى بمشيئة الله، هذا بإيجاز على الصعيد الداخلي.

أما على الصعيد العربي: فقد جرت آنذاك محاولات حثيثة لنهضة عربية، ولجمع الشمل العربي والإرادة العربية مجدداً، وتركزت الجهود باتجاه مصر، الشريك التاريخي الدائم لبلاد الشام، وشريك محنة عام ١٩٦٧، واستطاع القائد الأسد أن يقنع الرئيس السادات

الطيران، وتفوق في جميع الدورات التدريبية، وخدم في مصر أيام الوحدة وأعاد تنظيم الضباط البعثيين هناك، وبعد الانفصال جرى تسريحه من الجيش، ولقد شارك بدور قيادي فعال في الإعداد لثورة الثامن من آذار، وتمكن يوم الثورة بمفرده من السيطرة على قاعدة الضمير الجوية، وبهذا ضمن للثورة النجاح المؤكد.

وناضل مع رفاقه من خلال الثورة، وسعى دوماً إلى لَمّ الشمل، ورأب الصدوع، وظل كذلك حتى قاد الحركة التصحيحية المباركة، واستطاع كما أشرنا من قبل خلال سنوات ثلاث من عمر الحركة التصحيحية المجيدة، أن يعيد اللحمة إلى المجتمع وإلى الجيش، وخاض حرب رمضان التحريرية، وقضى على الفتن المدبرة من الخارج لاسيما فتنة الإخوان المسلمين، ثم تدخل لانقاذ لبنان، وكان في انقاذه للبنان انقاذ لسورية.

لقد مضى الآن على عمر التصحيح مايقارب الثلاثة عقود من الزمن، جاءت من حيث التقسيم الدستوري في أربع مراحل:

وتعد المرحلة الدستورية الأولى، أو

**عن نتائج تشرين يطلو
الحديث، ويكفيها أن
نقول: إننا منذ تشرين
وإلى اليوم، ونحن
نحتفل بالإنجازات،
وبقوم العدو بإقامة
المناحات لما حدث،**

بضرورة القيام بعمل تحريري ضد إسرائيل في أسرع وقت ممكن، بهدف تحرير الأرض والكرامة، ولإزالة أسطورة العدو الصهيوني الذي لا يقهر ماحتاج هذا إلى جهود عظيمة جداً، وعمل متواصل في الليل والنهار، لقد احتاج الأمر إلى إعادة توحيد الجيش في سورية، وإلى تطويره، وإلى التدريب المتواصل، والاستعداد المستمر للحركة، وإلى تزويده بالأسلحة المتطورة، والقيام بوضع الخطط اللازمة ليوم التحرير، كل ذلك ضمن تكتم كبير، لكسب عامل المفاجأة في اليوم الموعود، وفي خلال سنوات ثلاث، حدثت معجزة توحيد الجيش، وتوحيد المجتمع، وأمكن للجيش استيعاب السلاح الجديد، وبات جاهزاً للقيام بمهامه، يتحرك بذكاء وفعالية، ويغمر بالعدو، ويربكه، وكانت حرب تشرين العظيمة، والحديث عن حرب تشرين مديد، وعن نتائج تشرين يحلو الحديث، ويكفي أن نقول: إننا منذ تشرين وإلى اليوم، ونحن نحتفل بالإنجازات، ويقوم العدو بإقامة المناحات لما حدث، هذا العدو الذي لم ينل منذ تشرين طعم الاستقرار، ولم ينعم بالأمن، وحاول الانتقام من تشرين في لبنان،

وفي أكثر من مكان، إنما بلا استقرار: العنف يزداد في داخل هذا الكيان المصطنع، والزلازل تلو الزلازل يهز أركانه بشكل متواصل، وزارة تسقط تلو الأخرى، ودور يأتي ومعه وجه قيادي جديد ودور يذهب، ومعه سقوط للوجه القيادي مع اتهامات واختلاسات وفضائح، في حين أن عملية الاستقرار وعملية البناء استمرت لدينا، ففي سورية التي خاضت حرب تشرين للتحرير لا للتحرير استمرت الانجازات، وتحملت سورية تشرين التحرير حرب الاستنزاف، ودخلت إلى لبنان لتصونه من الطائفية، ومن التمزق، ومن التبعية لإسرائيل، وحين كانت سورية تصون وحدة لبنان وأمنه تمكنت من صيانة ذاتها من عملاء الرجعية والمأجورين، ومع هذا بقي الخطاب التاريخي الإسلامي للقائد الأسد واضحاً تمام الوضوح، جوهره التمسك بالإسلام الصحيح، والرفض المطلق للمتاجرة بالإسلام والإرهاب باسم الإسلام، والحرص على علاقات داخلية فيما بين المسلمين وغير المسلمين، علاقات كلها ود وتسامح، وتعاون وانسجام، وبالوقت ذاته الحرص على إبقاء الجسور ممدودة مع بلدان العالم

**اصط آخراً المشروع
الصهيوني في لبنان،
واخفق التحالف الغربي
في صليبية ١٩٨٢ -
١٩٨٣ ، وخرج المارينز
وحلفاء المارينز
مدحورين من لبنان،
وسقط اتفاق ١٧ ايار،**

**لم تتأثر سورية
بانقيار طيفها
الاستراتيجي، واجادت
التعامل مع
الاستعمار الجديد،
الذي اعلن انه يريد
فرض العولمة، وانه
يريد تطبيق مفاهيمه
عن الحرية
والديمقراطية،**

الاسلامي اجمع، ولاسيما مع كل من
باكستان وايران.

وفي الحقيقة هناك تداخل فيما بين
الحقبة الدستورية الاولى والثانية، فقد
استمرت في الثانية الازمة اللبنانية،
واستعضلت في كثير من الجوانب،
ولم تستطع أية قوة من القوى أن تزيل
قائدنا التاريخي عن موقفه القومي
المتوازن، فهو مع لبنان كل لبنان،
وليس مع طائفة دون أخرى، فأهل
لبنان جزء لا يتجزأ من الشعب العربي في
سورية، الذي هو بدوره جزء لا يتجزأ من
الأمة العربية، وكما أنه لا اعتراف
بالطائفية في سورية، لا اعتراف بأمراض
الطائفية والاقليمية والعشائرية في سورية.
وأحبط أخيراً المشروع الصهيوني في
لبنان، وأخفق التحالف الغربي في صليبية
١٩٨٢ - ١٩٨٣ ، وخرج المارينز
وحلفاء المارينز مدحورين من لبنان،
وسقط اتفاق ١٧ أيار، وكان سقوطه
أول ضربة قاتلة لسايكس بيكو، وبات
لبنان كتلة جهادية بنادقه ضد الصهاينة
وأعداء الأمة، وانتقلت هذه الروح
الجهادية إلى فلسطين المحتلة، فكانت
ثورات أطفال الحجارة ثم قيام حماس
وكتائب عز الدين القسام

وسواها، واستعد لبنان في الوقت نفسه
لخوض تجربة البناء والاستقرار، ولم
تتوقف سورية أثناء ذلك كله عن تقديم
كل المساعدات، فدائماً الأخ الكبير
يحنو على الأخ الصغير ويرعاه، وستظل
العلاقة فيما بين لبنان وسورية علاقة
أخوية.

وفي أثناء ذلك كله امتلكت القيادة
التاريخية للرئيس الأسد وضوح الرؤية
تجاه المسلسل التدميري للمنطقة العربية
واستمرت في مسيرة البناء الشاملة
والاستقرار الذي لانظير له، والتطور
الديمقراطي العقلاني المتوازن، والنماء
الاقتصادي، فقد بنيت عشرات السدود،
وخاضت سورية معركة الأمن المائي
بكل نجاح اعتماداً على الذات، وصارت
البلاد تمتلك شبكة استراتيجية من
الطرق، وجرى تطوير الجامعات
واحداث جامعات جديدة، وتأمين
الكوادر اللازمة، وتضاعف عدد
المدارس عدة مرات، وتضاعفت أعداد
الطلبة في كل المراحل، وظل التعليم
مجانياً وللجميع، وتطورت الصناعة،
وصارت سورية هي البلد العربي الوحيد
الذي ينتج من القمح والحبوب ما يؤمن
من كفايتها ويحقق الأمن الغذائي.

وازدادت أعداد المشافي والمعامل، وشهدت البلاد مسيرة ازدهار اقتصادي واعدة، على الرغم من الحصار غير المعلنة ضدنا.

كل هذا والجهد مستمر لجمع الشمل العربي، ومواكبة التطورات العالمية، فبين أواخر المرحلة الثالثة وفي المرحلة الرابعة التي نعيش نهايتها في أيامنا هذه، انهار الاتحاد السوفييتي، وانتهت الحرب الباردة، وأعلنت أمريكا عن زعامتها للعالم، وأنها الوريث للامبراطورية البريطانية، التي لم تكن الشمس تغيب عن أطرافها، وذلك مع الامبراطوريات الاستعمارية الغربية الأخرى، ولم تتأثر سورية بإنهيار حليفها الاستراتيجي، وأجادت التعامل مع الاستعمار الجديد، الذي أعلن انه يريد فرض العولة، وأنه يريد تطبيق مفاهيمه عن الحرية والديمقراطية، لكن بوساطة الصاروخ وطائرات الشبح وأحدث الاسلحة المدمرة.

والشير للدهشة أن هذه الدولة العظمى سمحت داخلياً لمواطنيها بالتنافس الديمقراطي، لكنها لم تسمح بذلك فيما بين الدول والشعوب، وتحدثت دوماً عن مصالحها، وتجاهلت تماماً مصالح

الشعوب وسيطرت على مجلس وسخرته لأهوائها، ولجأت دوماً إلى القوة المدمرة، واستنزفت طاقات الأمة العربية واموالها، وصدرت إلينا الاسلام الإرهابي الذي صنعتته في أفغانستان.

واستطاع القائد التاريخي، أن يقلل إلى أبعد الحدود من هذا الأذى الذي لايعرف حدوداً ولاضوابط، وتمكن من ضبط الأمور، ومن ثم الاستمرار في مسيرة الاستقرار والنماء، وظل ثابتاً في مواقفه تجاه اسرائيل، ولم يتنازل قط، وفي عصر التنازلات أمام إسرائيل والولايات المتحدة، فقط سورية حافظت على الشرف العربي، وعلى كرامة الماضي، وضمان عدالة الحاضر والمستقبل، وهذا الموقف هو الذي ساند.

ومايزال يساند - رفض التطبيع مع العدو في كل مكان من الوطن العربي، وبات القائد الأسد وحده الصائد للهوية العربية، ولأول مرة في تاريخ العرب الحديث، كان هو الزعيم العربي الذي امتلك شرعية الجماهير العربية عن قناعة كاملة. لاعن عاطفة وانفعال.

وفي واقع الأمر عندما نتناول المراحل الدستورية الأربع التي مرت، نجد القائد الأسد قد وصل في نهاية كل مرحلة إلى

لأول مرة في تاريخ العرب الحديث، كان هو الزعيم العربي الذي امتلك شرعية الجماهير العربية عن قناعة كاملة. لاعن عاطفة وانفعال.

**الخط الكونغوشي
وتمثله الصين،
وسيشكل هذا الخط
خلال سنوات القوة
الأعظم في جميع
المجالات البشرية
والاقتصادية،**

ذروة شامخة على الصعد العربية والداخلية والاسلامية والعالمية، وهو بحكم مواكبته للتطور وللتقدم لم يركبه الغرور ليخلد إلى النجاحات، بل ثابر على التقدم والعطاء، وهكذا كانت كل ذروة بالنسبة له قاعدة للانطلاق نحو ذروة جديدة، أيضاً متجددة موائمة دوماً لمقتضيات التطور السياسي والاجتماعي لعالمنا الذي يودع الآن قرناً عجيباً في التاريخ، هو القرن الذي شهد ذروة الاستعمار وزاوله، وفيه كانت الحرب الكونية الأولى ثم الثانية، وبعد ذلك الحرب الباردة والتبدل في القوى، وتعمد الصراع ضد اسرائيل، وما نحن في أواخر هذا القرن قد دخلنا إلى عصر المعلوماتية ومن ثم نحن في طريقنا نحو المرحلة المقبلة التي نتمنى من الله تعالى أن تلوها مراحل أخرى، وأن يمد الله في عمر قائدنا التاريخي، ويمنحه القوة للاستمرار في حمل الرسالة.

ومرحلة الاستحقاق الدستوري الجديدة قد تختلف عن جميع المراحل المتقدمة، وصحيح أنها استمرار لها، لكنها متميزة لأن العالم داخل الآن في عصر جديد، عصر ستظهر فيه قوى جديدة، وستكتمش فيه بعض القوى

القديمة، عصر ستكون المواجهات فيه للثقافات أو لنقل الحوار بين الحضارات أو الصدام، وأهم خطوات الحضارات العالمية الآن هو الخط الغربي الكاثوليكي البروتستانتي بزعامة الولايات المتحدة، مع محاولة للتخلص من مظلة هذه الزعامة من قبل عدد من الدول الأوروبية الغربية بزعامة فرنسا (دول اليورو).

والخط الثاني هو الخط الكونغوشي وتمثله الصين، وسيشكل هذا الخط خلال سنوات القوة الأعظم في جميع المجالات البشرية والاقتصادية، وربما العسكرية، وقد ينجح في احتواء دول شرقي آسيا، ولربما سيكون بين ذلك اليابان، لابل أكثر من ذلك، لربما استراليا، والخط الآخر المفتت، لكنه الواعد جداً هو الخط الاسلامي، ثم هنالك الخط الأرثوذكسي الذي لم تظهر ملامحه بوضوح بعد، أي خط موسكو - بلغراد - صوفيا - أثينا، والذي نتلمس آثاره في حروب الصرب ضد مسلمي البلقان، لابل حتى ضد الكاثوليك، والمهم أن هذه الخطوط ستكون محور أحداث القرن المقبل.

ويحتاج الخط الاسلامي إلى دولة

مرجع او مركز عربية، ووحده القائد الأسد هو الذي يمتلك الرؤية الاستراتيجية، ويمتلك الإدراك والثقافة والحنكة، ويمتلك الثقة الجماهيرية العربية والاسلامية، وهو الذي يستطيع العمل بسرعة ونجاح في سبيل ايجاد دولة مركز عربية، تقود العرب والمسلمين، فدمشق العصر الأموي هي وحدها التي وحدث العرب والمسلمين، ولعل دولة المركز تكون في البداية مكونة من سورية ومصر والسعودية مع من يود الانضمام إليها، أو لنقل: الرئيس الأسد هو وحده الذي يملك القدرة على تطوير اعلان دمشق إلى دولة أو هيئة عربية مرجعية للعرب والمسلمين.

هذا إذا تركنا الصعيد الخارجي، تستدعي مقتضيات النجاح أعمالاً كثيرة في الداخل، على رأسها إعادة النظر في برامجنا وخططنا التعليمية والثقافية والاعلامية لتحمل مقتضيات المرحلة المقبلة والقيام بأعبائها، فنحن الآن نمتلك بنية تحتية صالحة لأن تشكل منطلقاً لما نستهدفه، ومتوجب علينا القيام علينا بها، وألح على كلمته المتوجب، لأن القائد الأسد أحرص الناس على أداء الواجب.

من غير الممكن ان نفي في محاضرة واحدة ذكر الانجازات العملاقة التي نعمنا بها، وحكم الاختصاص أقول: إن الحاجة قائمة لتوثيق هذا العصر بشكل علمي، وعلى العموم نلاحظ:

لقد نعم الناس خلال العقود الثلاثة الماضية بالاستقرار والأمن، وتطلعوا إلى السلم الاجتماعي الكامل، وإلى النمو الاقتصادي المتواصل، وإلى السلام والوحدة وإلغاء التخلف، ومواكبة مسيرة العصر، وتطلع الشعب بلهفة إلى الاستمرارية، ومثلما اكتشف يوم التصحيح قائده التاريخي، رأى شروط الاستمرار متوفرة في الباسل، النجل الأكبر للسيد الرئيس، وخلال حقبة قصيرة بات الباسل مالىء الدنيا وشاغل الناس، لقد بات هوية متميزة، وإن كانت متينة الروابط وعميقة الجذور، وقوية الأواصر بالمدرسة التي تخرجت منها.

وكان كلما ازداد الباسل تألقاً كلما عظمت أحلام المستقبل، وازدادت الطمأنينة على الوطن وعلى الأولاد، وعلى الرسالة وعلى التحرير والحضارة، وعلى أمانة الماضي وتطلعات المستقبل، لكن لامرد لقضاء الله، قضى الباسل

الباسل مالىء الدنيا وشاغل الناس

كلما ازداد الباسل
تألقاً كلما عظمت
أحلام المستقبل،
وازدادت الطمأنينة
على الوطن وعلى
الأولاد،

كان بيننا غريباً،
فطوبى للغرباء،
الصالحون إذا فسد
الناس.

ورسالته ترقى به لتقديم التعازي لمواطنيه،
وهذا ما حصل، وكلنا يذكر حديث
السيد الرئيس ورسالته إلى مواطنيه.

أسأل الله تعالى الذي فجعنا بفقدان
الباسل، وابتلانا بفراقه أن يغفر للباسل
يوم الحشر، وأن يفسح له في القبر، وأن
يجعل سبيل الخير سبيله، ودليل الرشاد
دليله، فلقد عاش حميداً رشيداً،
واستشهد فقيداً سعيداً، فلقد كان
عظيم الفهم، كثير الحلم، رفيع العماد
واري الزناد، منبع الحريم، سليم الأديم،
ولقد كان في المحافل شريفاً، وعلى
الأراميل والمحتاجين عطوفاً، وعن الفحشاء
عفيفاً، لقد كان بيننا غريباً، فطوبى
لغرباء، الصالحون إذا فسد الناس.

أمد الله بعمر السيد الرئيس، قائدنا
التاريخي، وأعان الدكتور بشار وأنار
سبيله.

★ ★ ★

شهيداً، فصنع بشهادته آخر الملاحم من
جلجامش، إلى كربلاء وذات الهمة،
وعترة وحمزة البهلوان والملك الظاهر،
ومثلما تفجرت المآقي تفجرت الأقلام،
وكتبت شعراً ونثراً عن الباسل.

وكنت قد شهدت عشية الفاجعة
شباب وفتيات جيل الباسل يندفعون
بحزن عميق وعفوية مطلقاً نحو سفوح
قاسيون لتوديع الباسل، وكان الوقت -
كما نعلم - شتاء، البرد فيه شديد، ومع
هذا شاهدت الفتيات والفتيان يندفعون
بملايس خفيفة، وبأحذية وبدون أحذية،
أنستهم النازلة أنفسهم.

وشهدت في اليوم التالي - في الطريق
إلى القرداحة، أمواج من شعبي، جاءت
من جبل لبنان ومن كل مكان في
وطني، لقد شعرت وقتها أن أمتي عادت
فأتحدت، مشاهد لن أنساها، لن أنسى
مطلقاً صورة السيد الرئيس، وهو داخل
إلى حرم المسجد ليصلي على الباسل،
يا لهول تلك الساعة، وفي اليوم التالي
صافحته معزياً، فإذا به هو الذي يعزيني،
وفي هذا مصداق لما قلته: غدا الباسل
هوية، امتلكها كل مواطن، وفقدانه كان
فاجعة لكل مواطن، والقائد التاريخي،
وإن كان الأول في الخسارة، لكن ريادته

قطنة

وأخر التنقيبات الأثرية فيها

دعد تقلا

وقد أهتم المؤرخون وعلماء الآثار بهذه البقعة من الأرض منذ بداية القرن الماضي وركزوا بحثهم وثقلهم العلمي على دراسة بعض الأوابد الأثرية والتاريخية والتي كان بعضها مجهولاً مستندين في ذلك على دراسة الطبوغرافية التاريخية لهذه المنطقة معتمدين على أمرين أساسيين وهما علم الآثار واللغات القديمة إضافة إلى الوثائق التاريخية، فالطبوغرافية التاريخية للمدن والقرى يعود تاريخ نشأتها وازدهارها إلى العصور الكلاسيكية (العصور الهلنستية والرومانية والبيزنطية) والطبوغرافية التاريخية للعصور المسماة بالعصور الشرقية أي تلك التي سبقت العصر الهلنستي. وكان من رواد البحث في تلك الفترة الأساتذة مارتين هاراتان الذي كتب عدة أبحاث حول Sxinidshope.

واعتمد الدارسون في أبحاثهم على المصادر المتعلقة بالعصور القديمة في سورية والعراق والتي تقسم إلى (مصادر مصرية - مصادر حثية - مصادر آشورية - مصادر آرامية).

وفيما يلي عرض لأهم المعلومات التي عرفناها عن مدينة قطنة (المشرفة) قطنة: موقع أثري قديم يشهد على أهمية المنطقة عبر آلاف السنين وهي موقع تل المشرفة الحالية على مسافة ١٥ كم شمال شرق مدينة حمص على طريق سلمية تنتصب المدينة فوق تلة صخرية وكانت تزرها ٤ كم من الأسوار فيها أبواب وتحصينات دفاعية قوامها حجارة ضخمة، وتتميز بها حصون وقلاع هامة. وأهم من بدأ التنقيب في هذه المنطقة الفرنسي الكونت (دو سينيل دبوسون في الأعوام /١٩٢٤ و ١٩٢٧ حتى عام ١٩٢٩/ على سجلات معبد الرب بين أغال التي أثبتت بجلاء أن

سورية بلد الحضارة
والحياة عاشت
كمملكة معروفة لها
تاريخها العريق
وأثارها الباقية إلى
الآن تحكي قصتها مع
الحضارة والتاريخ
وهي دولة حضارة
محاطة بها الصمراء.

قطنة: موقع أثري
قديم يشهد على
أهمية المنطقة عبر
آلاف السنين وهي
موقع تل المشرفة
العالية على مسافة 10
كم شمال شرق مدينة
حمص

تل المشرفة هو مدينة قطنة القديمة وقد كتب أسمها في هذه الوثائق ووثائق ماري وآلاخ ورسائل العمارنة (قطنة). أما في اللغة المصرية فقد كتب (قادن) أي قطنة. وأوردته الوثائق الحثية بثلاثة أشكال: قطنة، جتما، كنتنا. وليس لهذا الاختلاف في كتابة الأسم أي مغزى فالمعول عليه هو كيف وردت بالوثائق المحلية.

وأثبتت التنقيبات أن الموقع قد أستوطن في الألف الثالث ق. م وكان على صلات وثيقة مع مناطق بلاد الشام الأخرى وبلاد ما بين النهرين، وقد عثر نتيجة هذه التنقيبات على بعض الجرار الفخارية من صنع بلاد سومر، وكانت من عصر سلالة أور الثالثة (٢١٥٠ / ١٩٥٠ ق. م كما ارتبطت هذه المدينة بعلاقات تجارية مع مصر حيث وجد تمثال (ايتا) ابنة الفرعون امين ايمحب الثالث (١٩٢٩ / ١٨٩٨ ق. م) والذي عثر عليه في قطنة والمؤكد من خلال حفريات ألواح أرشيف معبد بين أغال أن قطنة كانت عاصمة المنطقة خلال الألف الثاني ق. م فقد كان لها علاقات تجارية جيدة مع مصر وغيرها من الدول القديمة في المنطقة. ومن المفيد أن نقول ان نقل

البيوت السكنية من تل المشرفة سيساهم حتماً في إعطاء صورة أوضح عن هذه المنطقة وقبل أن أتحدث عن آخر المستجدات التي وصل التنقيب إليها لابد وأن نعتمد على وثائق ماري وآلاخ في كتابة تاريخ قطنة. فالوثائق التي تم العثور عليها في مملكة ماري القديمة استطاعت أن تعطي نتائج جيدة خاصة وأنه كان هناك علاقة مشتركة بين ماري وقطنة بسبب اعتداءات البدو على القوافل التجارية بين المملكتين طيلة القرن الثاني عشر ق.م. ومما ساهم في تمتين الروابط بين هاتين المملكتين علاقات المصاهرة. فقد طلب (شمسي آدد) ملك آشور من ملك قطنة (يسخي آدد) ان يزوج ابنته من ولده (يسمخ آدد) ملك ماري. فمن وراء هذا الزواج مصلحة لقطنة فما أن وصلت العروسة حتى عقد الطرفان (شمسي آدد) و(يسخي آدد) معاهدة تعهد فيها الأول بالوقوف إلى جانب قطنة في تعرضها لأي اعتداء من جارتها مملكة يمحاض (حلب). ويقال بأن هذا الزواج لم يكن موفقاً. لكن المهم في الأمر أن علاقات قطنة مع أواسط بلاد الشام وماري على الفرات وأشور على دجلة قد

ساعد هذا الموقع الجغرافي في السيطرة على الطرق التجارية بين بلاد الشام والأناضول من جهة وبلاد بابل من جهة أخرى.

وساهم أيضاً في منع مملكة يمحاض (حلب) من التوسع شرقاً، وهذا في عهد (يسخي آدد) أما في عهد خليفته أموت بي ال تحسنت علاقات قطنة مع مملكة يمحاض وذلك لأن مملكة يمحاض استطاعت أن تتوسع حتى سواحل البحر المتوسط غرباً ونهر الفرات شرقاً إضافة إلى عودة (زمرى ليم) إلى عاصمة مملكة ماري بعد أن تعاون مع أخوانه ملوك يمحاض في طرد (يسمخ آدد) من ماري فانقلبت بذلك موازين القوى وتغيرت العلاقات بين الدول.

فبعد أن كانت ماري حليفة قطنة ضد يمحاض أصبحت حليفة يمحاض. إلا أن هذه الدول الثلاث لم تتحارب ولم تحاول أي منها التعدي على جاراتها فقام في المنطقة نوع من التوازن يأخذ بعين الاعتبار مصلحة كل مملكة وقد حافظ أموت بي ال على مكانة قطنة السياسية وحسن علاقاته التجارية مع بابل وفي عهده تنقل تجار قطنة بين معظم عواصم ممالك عصرهم، فوصلوا إلى حلب

وكركميش وبابل وماري وآشور وغيرها، ولكن هذه العلاقات المتوازنة لم تستمر فقد ضرب بها حمورابي هذا الحلف بهجومه على ماري وقضائه عليها ولم تقم بها قائمة كعاصمة من بعد وكان ذلك عام ١٧٥٩ ق.م تقريباً.

عمليات التنقيب في المشرفة

بعد أن تم نقل البيوت السكنية من تل المشرفة بدأ موسم التنقيب الأول ١٩٩٤ بتكليف من المديرية العامة للآثار والمتاحف بقيادة البعثة الوطنية التي قامت بالتنقيب ولمواسم متتالية شارك فيها عدد من المختصين من المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق ومن دائرة آثار حمص إضافة إلى مشاركة عدد من طلاب قسم الآثار بجامعة دمشق وبعض المتخرجين من معهد الآثار بدمشق.

طبعاً تم تقسيم هذه المدينة إلى مواقع أعطيت أسماء (ب - ج - د) وبدء العمل بالطبقات السطحية وبشكل دقيق وبطيء حتى يستطيعون سبر أغوار هذه المنطقة، والعمل في هذا المجال لا يعط نتائج بين ليلة وضحاها، وإنما العمل في التنقيب يحتاج إلى فترات طويلة ولأيدي خبيرة لذلك كانت الأعمال محصورة في الطبقات السطحية تقريباً فقد بُوشر

البعثة الوطنية تقوم

بالتنقيب باشتراك

عدد من المختصين

العمل في هذه الحقول الثلاثة بدءاً من حقل (ج) الذي يقع عند الأطراف الجنوبية للأكروبول ويبعد حوالي خمسين متراً إلى الغرب من الحقل (ب) حيث بدء بتنفيذ سبر لمعرفة طبيعة الطبقات حيث توضح أنها تعود إلى فترة الحديد الثاني المتأخر (القرن السابع قبل الميلاد) والتي نقب عنها سابقاً والذي يميز هذه الفترة أن الجدران كانت تبنى من اللبن وأساساتها حجرية مربوطة بأرضيات من التراب المدكوك والممزوجة مع نماذج فخارية من الأنماط المعروفة في تلك الفترة والنسماة (Redslip) والدراسة المعمارية لبداية فترة الحديد الثاني تحمل الكثير من التعقيد وتتألف بشكل أساسي من مجموعتين معماريتين متتاليتين طبقياً، فوق المجموعة الأولى وهي (الأحدث) توضح طبقة سميكة من التراب المسود بسماكات متفاوتة والناجمة في أغلب الظن عن حريق كبير قضى على جدران وأرضيات هذه المجموعة. أما المجموعة الثانية (الأقدم) التي تتم دراستها بشكل منهجي مربوطة مع مجموعة من الكسر الفخارية التي تحمل في شكلها وزخارفها الكثير من خصائص المنتجات الفخارية لبدايات

فترة الحديد الثانية، والدراسة النمطية لهذه المجموعة الفخارية سيكون لها أهمية كبيرة حيث يتوقع أن تسلط الضوء على طبيعة ودور منطقة حمص في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد بين مواقع الشمال (حماة - تل أفس - تل قرقر - تل رفعت).

ومواقع الساحل السوري (تل الكزل - تل عربة - تل سوكراس - رأس ابن هانيء). وبنفس الحقل (ب) تم متابعة سبر الطبقات الأولى حيث ظهرت على أعماق بين (١,٧٠ م إلى ٢,١٥ م) مجموعتان معماريتان طبقياً تقودان إلى فترة البرونز الوسيط الثاني درست المجموعة الأحداث بشكل دقيق ومفصل وهي تتألف من جدران من اللبن محفوظة بشكل معقول ومربوطة مع أرضيات من التراب المدكوك والتي أنهار فوقها عدد كبير من الكسر الفخارية التي تحمل الكثير من الأشكال والزخارف المميزة للإنتاج الفخاري لمنطقة حمص وسهل عكار في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وبعد أو وصل التنقيب إلى هذه المرحلة في الحقل (ب) قامت البعثة الوطنية التي كلفتها وزارة الثقافة برئاسة

**تسليط الضوء على
طبيعة ودور منطقة
حمص في النصف
الأول من الألف الأول
قبل الميلاد بين مواقع
الشمال (حماة - تل
أفس - تل قرقر - تل
رفعت).**

الدكتور ميشيل مقدسي بأعمال الرفع الهندسي والتوثيق العام وأخذ المناسب ثم القيام بأعمال التصوير الفوتوغرافي إضافة إلى دراسة بعض المقاطع الهامة التي تظهر بشكل جيد التسلسل الطبقي للسويات المكتشفة على أن تتابع مواسم التنقيب المقبلة طبعاً هذا بالنسبة إلى الحقل (ب) أما الحقل (ج) فقد تم التركيز على المربعات (E.VII/1.20 و E.VIII/1.1 و E.VIII/m.1 و E.VIII/n.1) وهذه المربعات واقعة عند القسم الغربي من الحقل حيث كُشف عن مجموعة معمارية مؤرخة في النصف الثاني من فترة الحديد الثاني تتألف من جدران من اللبن مربوطة مع أرضيات سكنية قاسية تتألف من الكلس المدكوك والمزوج مع الجص والتراب المصفر. هذه الجدران تؤلف فيما بينها مجموعة من العرف المتصلة مع باحة كبيرة بينما المنتجات الفخارية فقد كانت كثيفة ومربوطة بشكل مباشر مع الأرضيات الأمر الذي يسهل دراستها بشكل منهجي. ولدى الكشف بنفس الموقع (ج) في المربع (E.VIII.2,1) كشف في أعماق تصل إلى ٢,٧٠ م عن كتل من اللبن والتراب المدكوك قد تكون

مؤرخة من البرونز الوسيط الثاني. كما كُشف بنفس المربع على أعماق تتراوح بين (٣,٨٠ و ٤ م) كشف عن سوية تتميز بأرضية قاسية من اللبن المدكوك المربوطة مع مجموعة من الأحجار المتوسطة الحجم والتي قد تؤلف فيما بينها جداراً من الحجم المتوسط. وتعود المنتجات الفخارية ضمن هذه السوية إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد (وتتميز بشكل أساسي من كوؤس سورية مزخرفة من النمط المعروف بـ (Reservedslip) والمؤرخة في تل مردوخ. وفي القسم الغربي من هذا الحقل تم الانتهاء من دراسة وكشف المجموعة المعمارية المؤرخة في النصف الثاني من فترة الحديد الثاني وقد بوشر بأعمال التصوير والرفع الهندسي. أما ما يخص الحقل (د) فقد تم متابعة التنقيب في المربعات (G.IX/F.14 و G.IX/F.13 و G.IX/F.12 و G.IX/e.13 و G.IX/F.15 و e.15) حيث كشف عن سوية معمارية تعود إلى النصف الثاني من فترة الحديد الثاني تتألف بشكل أساسي من مجموعتين معماريتين منفصلتين. المجموعة الأولى ضمن المربعات الجنوبية، عشر فوق

**الانتهاء من دراسة
وكشف المجموعة
المعمارية المؤرخة
في النصف الثاني**

**مجموعات من
العظام الإنسانية
المخلوطة بشكل
عشوائي مع عدد من
الكسر الفخارية
المؤرخة في فترة
البرونز الوسيط
الثاني،**

أرضياتها على مجموعات فخارية هامة منها على سبيل المثال صحن له قاعدة طويلة من النمط المعروف (Redslip) بالإضافة إلى أجزاء من جرة تخزين من النمط السوري.

وبنفس الحقل (د) تم كشف سوية معمارية تعود إلى النصف الثاني من فترة الحديد الثاني وهذه السوية محفوظة بشكل سيء على أعماق قرية جداً من سطح الموقع وفي المربع (G.IX/F.II).

اسفر السبر الطبقي وفي أعماق تتراوح بين ١,٤٠ و ١,٦٠ م عن فوهة بئر منحوتة بالصخر الطبيعي لها مسقط منتظم له شكل مربع. وبعد تفريغ هذا البئر ظهرت مجموعات من العظام الإنسانية المخلوطة بشكل عشوائي مع عدد من الكسر الفخارية المؤرخة في فترة البرونز الوسيط الثاني، هذه الكسر الفخارية تنتمي إلى أوان من الحجم الصغير والتي وجد ما يشابهها في الكثير من المدافن التي كشف عنها في العديد من المواقع السورية مثل (قلعة حماة، رأس شمرة، تل سوكاس، تل عمريت) وبنفس الحقل وفي المربع (G.IX/F.II) ثم متابعة تفريغ الحقل (٧٠٢) الواقعة في النصف الغربي من المربع تم كشف تراكمات تجمعت بصورة عشوائية ضمن بقايا فخارية تعود إلى فترة البرونز الوسيط بالإضافة إلى عظام بشرية وحيوانية مختلفة ممزوجة مع كتل هشة بألوان مختلفة (بني مصفر، بني مسود، وأصغرها فاتح). وتوقف الكشف عن هذه البئر على عمق يصل ١٢,٩٠ م من سطح المربع لعدم وجود الإمكانيات الفعالة والسريعة لإخراج الأتربة وقد ظهر عند هذا المستوى مجموعات من الأحجار المختلفة الأحجام والمختلطة مع تراب بني هش.

وأخيراً نتمنى التوفيق للبعثة الوطنية الجديدة التي كلفتها المديرية العامة للآثار والمتاحف في متابعتها أعمال الحفر والتنقيب في هذا العام.

مراجع البحث:

- ١ - الحوليات الموحدة في مديرية الآثار بحمص.
- ٢ - الندوة الأثرية الأولى الصادرة عن الجمعية التاريخية السورية.
- ٣ - وثائق ماري وآلاخ.
- ٤ - تقرير موسم التنقيب الثالث في موقع المشرقة.

القباب تتوج سقوف المساجد

دراسة لمسجد خالد بن الوليد

في حمص - الشام

محمد فيصل شيخاني

أمين سر الجمعية التاريخية السورية

ومتحف الآثار الإسلامية في جامع خالد بن الوليد

والقبة وثيقة الصلة بالسقف القوسي على شكل هلال وتوجد بعض السقوف المبنية بشكل أقواس في أبنية قديمة كما في بعض جوانب الأبنية الموجودة في رأس شمرة في الساحل السوري في حضارة أوغاريت وترجع إلى ١٤٠٠ سنة ق.م.

وتمتاز الأسقف المبنية على شكل قباب بأنها تريح الناظر إليها وتشعره بالرحابة والانطلاقة المتجهة نحو العلا ومشابهة السماء الزرقاء لها وهذا الشعور له مايرره في دنيا المساحات، ففي حساب وتطبيق قوانين المساحة في الدائرة المستوية ونصف الكرة اللتين تشتركان بنفس قياس القطر الواحد نجد أن مساحة الكرة تشكل ضعف مساحة الدائرة المستوية، فإذا أضفنا مساحة الرقبة التي تستند إليها القبة الكروية أحياناً أدركنا أن المساحة ستزيد عندئذ عن الضعف في القبة عنها في المساحة المستوية.

وارتفاع قمة القبة عما جاورها يزيد في رحابة المساحة التي تعطيها القبة لناظرها وشعورهم بالرحابة والراحة والإطمئنان وقد أتيج لي أن أشاهد القبة الوسطى في

١- القباب في العمارة:

يعرف صاحب المنجد

القبة (Dome) بأنها

بناء سقفه مستدير

مقعر، وجمعه قباب

وقبيب، والقبة الزرقاء

يكنى عنها بالسماء

ويقال عن الخيمة

القبة.

مسجد وجامع السلیمانیة فی استانبول وشاهدت جموع السیاح الألمان والإنکلیز والفرنسیین ینظرون الدقائق الطوال إلى القبة الکبری والقباب الأخری وهم مشدوهون من عظمة هذا البناء السامق.

ومما لاشک فیہ أن أبنیة الکنائس قد سبقت ببناء هذا النوع من القباب ومما لاریب فیہ أيضاً أن أولى المساجد فی الإسلام كانت أسطححتها مستویة بسیطة وخاصة ما بنی منه زمن الرسول الکرم (ص).

كما لا ینیب عن ذاکرتنا أن أول مسجد وجامع عظیم بنی فی بلاد الشام کان فی دمشق زمن الأمویین قد بنی جزء من سقفه بشكل سقف جملون هرمي galgele roof ولم یکن بشكل قبة.

ولکن الذی حدث فیما بعد أن سبق المعماریون المسلمون المعماریین الآخرين فی استعمال القباب فی السقوف وزادوا فی أطوال اقطارها وبخاصة المعماری العثماني سنان باشا.

وکان هذا المعماری المبدع والبارع قد بنی أول معمارية له فی مجمع الخسرفیة فی مدینة حلب بقبة متسعة تغطي سطح

الجامع بدون أعمدة وذلك فی عام ١٥٣٦ .

واننی افترض بأن عمالاً حلبیین عاونوا سنان باشا فی العمل الریادی وهذا فی رأیی لا یعیب عمل هذا المعماری المبدع وبخاصة أننی شاهدت فی بعض أنحاء حلب قباباً كاملة بنیت من الحجارة البیضاء المنحوتة ولیس من الآجر الذی بنیت منه القباب الکبیرة الأخری.

وقد وصف سنان باشا بأنه یرج من الملاحظات والأفکار التي یلتقطها من هنا وهناك التقالید المعماریة التریکیة^(٤) وکان استاذاً کبیراً فی بناء القباب وتنسيق المساحات فقد بلغت قبة جامع السلیمانیة ٢٦,٥ متراً فی قطرها وفی الثمانین من عمره أبدع مسجد السلیمیة فی أدرة بقبته ذات القطر ٣١,٥ متراً بأزید من قطر کنیسة آیا صوفیا بعدما استحوذت فکرة لدى المعماریین الأوروپیین بأن لأحد یجسر أن یرید عن قطر آیا صوفیا.

وسواء أكانت الأقیبة تشبه السراذیب تحت الأرض Catacomb بدون دعامات أو بدعامات buttress فقد انتشر استعمالها فی الأبنیة الأوروپیة والشرقیة علی السواء وقد انتشرت فی

سبق المعماریون المسلمون المعماریین الآخرين فی استعمال القباب فی السقوف وزادوا فی أطوال اقطارها

اسقف الأبنية المتنوعة في الشرق الإسلامي فغطت الأضرحة والحمامات العامة والمدارس والقصور والمساجد وصار يضاف إليها في قاعدتها رقبات تحتلها نوافذ تدخل الهواء والضوء لداخل الأبنية.

وفيما بعد صارت تقليداً تراثياً فلكلورياً تدخل في بناء البيمارستانات والمدارس والتكايا وقد وجد لها غرض مزدوج في الحمامات فهي تمد في ساحة الراحة بالإتساع ويمكن إضافة فناجين زجاجية للإضاءة في النهار وفي مقاصير الإستحمام.

وعندما استعملت مادة الإسمنت في البناء في أوائل هذا القرن عادت أسقف الأبنية والمساجد إلى الإستواء ولم تستعمل مادة الإسمنت إلا فيما بعد عندما أدخلت التقنية والمهارة لدى المهندسين والمعماريين.

فصارت القباب تتوج رؤوس الأبنية من جديد وبخاصة في المساجد المحدثه.

ب - قباب مسجد وجامع خالد بن الوليد في حمص

مسجد وجامع خالد بن الوليد معلّمة تاريخية وأثرية ومعمارية متميزة، ولها من المكانة والشهرة مايتجاوز حدود حمص

ليصل إلى كل قطر عربي أو إسلامي، ولايتجاوز الواقع إذا قلنا أنه يصل إلى أكثر من ذلك بكثير.

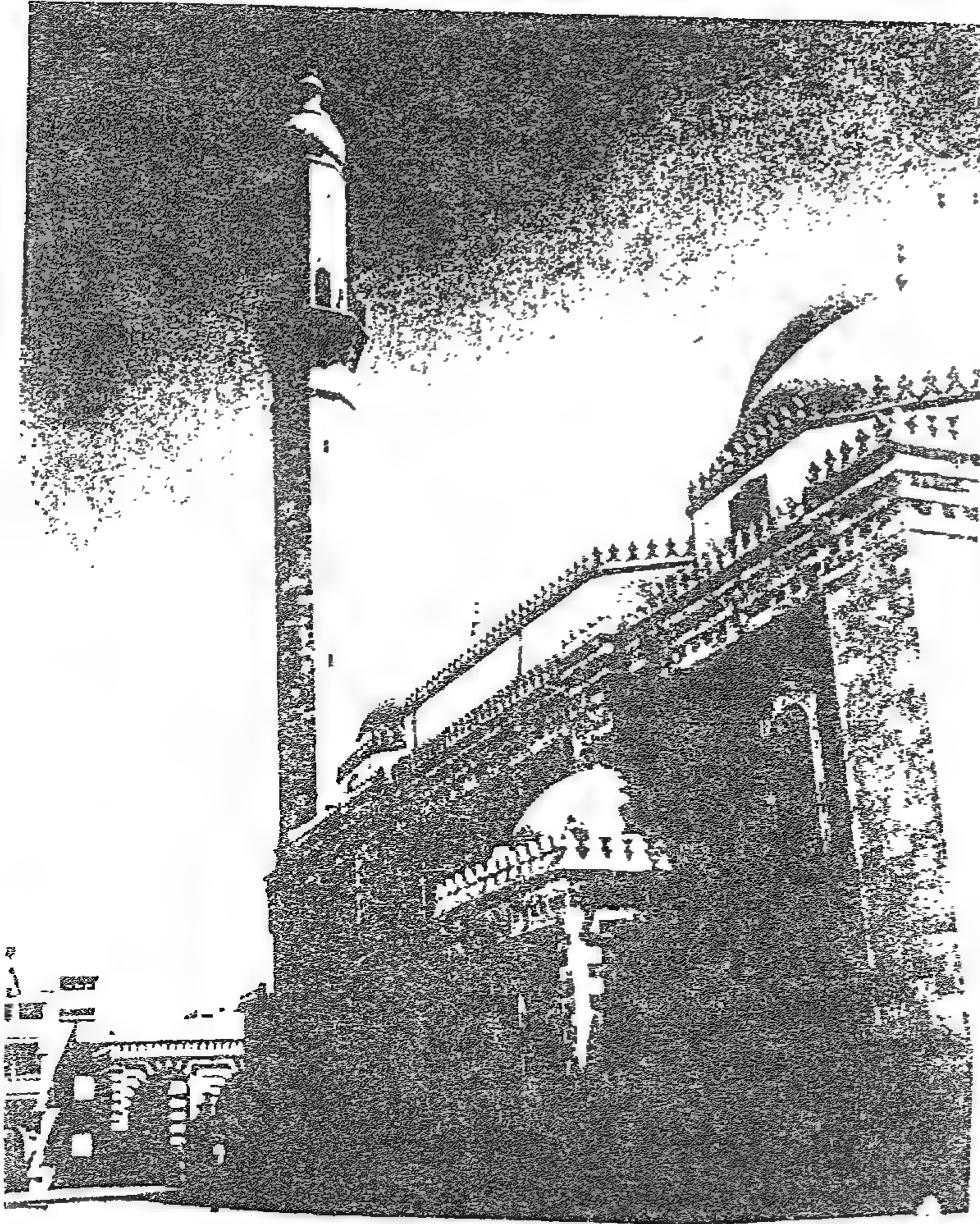
لاغرو في ذلك لأن ميزات شخصية الصحابي خالد بن الوليد قد عمت الأسماع في كل الأصقاع بما قام به من الفتوحات المذهلة وبما حباه الله من مهارة عسكرية لاتضارع في كل معاركه التي خاضها في الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام.

إن مساحة المناطق التي حررها ابن الوليد والتي تبلغ مليوناً وثمانمائة ألف كيلو متر مربع لأمر بالغ الفخر لكل من يعشق البطولة والفداء والتضحية في كل زمان ومكان في دنيا القيادات العسكرية المتميزة بالاستراتيجية الواحدة والتكتيكات المعقدة في كل معركة على حدة.

لكل ذلك اكتسبت اعمال خالد بن الوليد الشهرة والمكانة اللائقة في نفوس القواد والعظماء وعامة الناس وصارت الصلاة في هذا المسجد تعبيراً عما يكنه الناس من تقدير ومحبة لهذا القائد خلال القرون.

لقد استمر التقدير لهذا القائد الفذ في نفوس العظام من القادة والزعماء أمثال

**مساحة المناطق التي
حررها ابن الوليد
والتي تبلغ مليوناً
وثمانمائة ألف كيلو
متر مربع**



جانب من مسجد خالد
وقد بدت مئذنته حالية من
نقاووق المحروطي الذي يميز
المآذن العثمانية ويرى في
الصورة وضوح ألوان
الحجارة السوداء البركانية
الواردة من منطقة الوعر في
حمص

أخذت الصورة عام

١٩٩٦

الظاهر يبرس البندقداري الذي بنى أول
مسجد فوق ضريح خالد بن الوليد ولم
يصلنا شيء عن تصميم هذا المسجد
ولكن يظهر أنه كان مبنياً على شكل
مسجد بسيط مستطيل يشبه مأقيم على
ضريح عز الدين أبو حمرة خارج ريف
حمص لأن المسجد المذكور كان في
قرية الخالدية في ظاهر مدينة حمص
وسقفه مستو وفي نهاية القرن التاسع
عشر لم يعد المسجد بالشكل الملائم
لمكانة هذا البطل ولأن قرية الخالدية التي
يقع فيها المسجد صارت ضمن حدود
المدينة بعد التوسع المعماري وقد اتجهت
النية لتجديد هذا المسجد استطاع
المسؤولون المحليون في حمص اقناع
السلطة العثمانية الممثلة بشخص

السلطان عبد الحميد الثاني وقد امتد به العمر مبلغ ٧٧ عاماً بإعادة بناء المسجد بشكل جيد بعد هدم المسجد الأول. أرسل السلطان المال والموافقة والمهندس المعماري التركي علاء الدين عبد الله أولصون وساهم المعماريون الحمصيون المهرة في تصميم المسجد وعمرانه واتخذ صفات معمارية متميزة بالخصوصية الحمصية بالمواد الموجودة وساهم أبناء حمص في جمع التبرعات وفي إتمام عمارة المسجد وصار أبناء كل حي يتبرعون يوم عمل مجاني وبخاصة بعد انقطاع المدد السلطاني الحميدي بعد الانقلاب الذي أطاح به، وقد بدى بإشادة جامع خالد بن الوليد في بداية

القرن العشرين وانتهى من أشادته عام ١٩١٢ وأما الرواق الشمالي فقد انتهى من عمارته عام ١٩٤٢. وما يهمنا من هذه الدراسة لهذه المعلمة الحضارية الإنسانية هو إخراج الفن المعماري لهذه الأنماط من البناء في هذه المعلمة وامتزاج الخبرة المحلية في الخبرة الوافدة، فأبعاد بيت الصلاة جاءت على النمط العثماني، والقباب جاءت على نفس النمط، لكنها صنعت وبنيت بأيدي حمصية عربية وإذا ألقينا نظرة متفحصة على المذنتين المنارتين اللتين تنافسان لون السماء في ألقيهما ورياضهما نرى فيهما لمحة من المعمارية المملوكية بكثرة أضلاع كل منهما وبما فيهما من

الفن المعماري لهذه
الأنماط من البناء في
هذه المعلمة وامتزاج
الخبرة المحلية في
الخبرة الوافدة،



جامع السلطان أحمد بمناراته الست وجوامع أخرى كلها تنتهي بالقاووق المخروطي

مقرنصات بديعة وشيقة.

أما التراث المعماري الشعبي الحمصي فقد بدأ باستعمال الحجارة التي يصفها المعماريون بالسوداء الزرقاء كناية عن صلابتها ومن وعمر حمص والذي أعطى البناء الصلابة والقوة وبدا في بساطة الألوان الداخلية وخلو البناء من القيشاني والرخام فيما عدا المنبر والتكسية الجزئية للمحراب وماحوله.

وبدت العمارة الحمصية في الشبك الحديدي البسيط المجهز لدى الحدادين الحمصيين والذي ساد في فترات طويلة والذي يغطي المساحة الكلية للتوافذ بتناسق وجمال واستمرارية.

وما تم انجازه في هذه المعلمة هو تمازج الخبرة العثمانية للمهندس الإستانبولي مع الخبرة والتجربة الحمصية في تصنيع الفخار المشوي والقرميد الذي استعمل في إشادة القباب وأنصاف القباب في سقف الجامع.

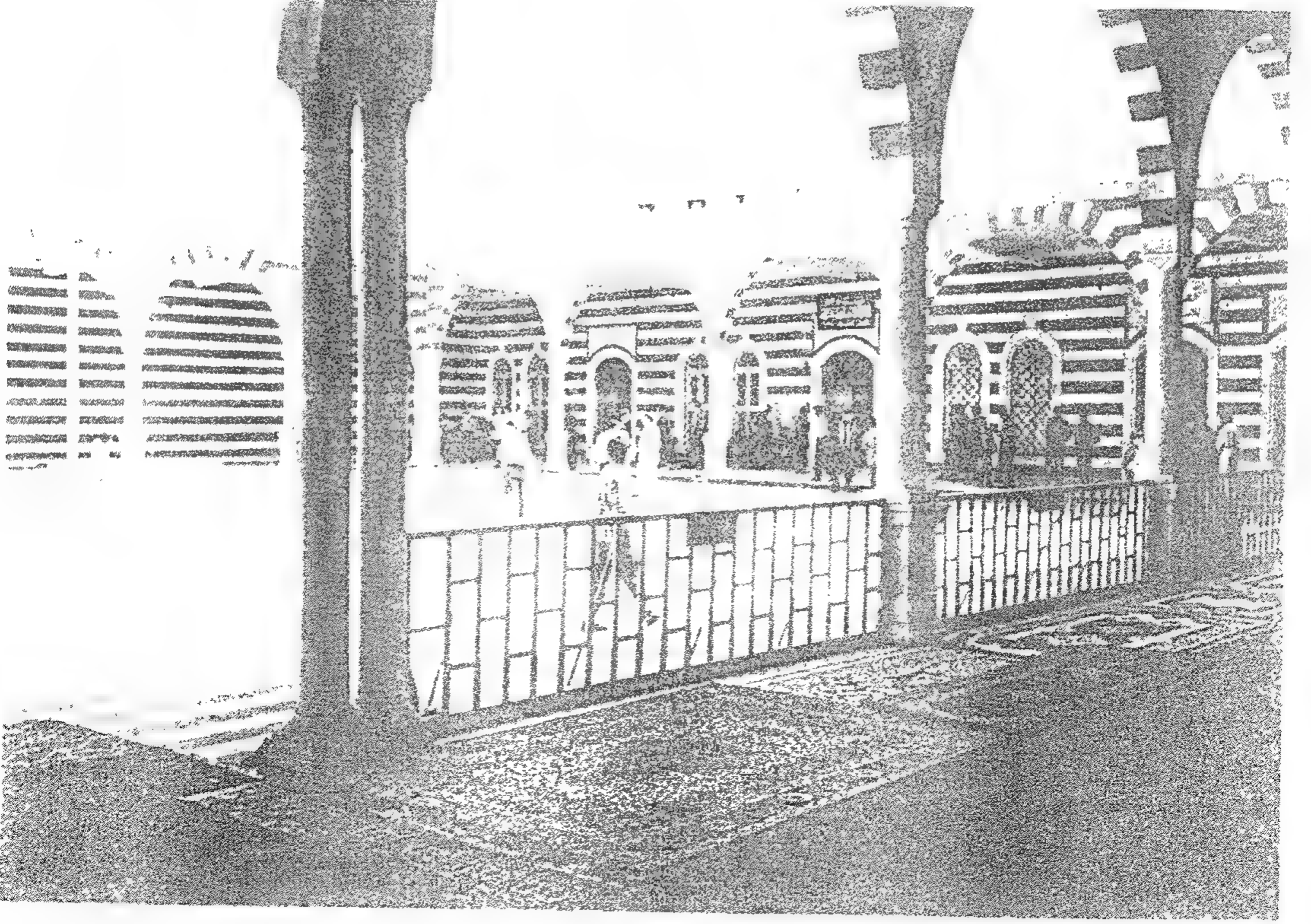
وقد حدثنا أحد أبناء آل الفاخوري الصانع البارع الذي صنع هذا القرميد ضمن التعليمات الخاصة بقياس اللبنة الفخارية من المهندس المسؤول وقام بإنشاء فرن قريب من منطقة الجامع لشي الفخار وقد بلغ عدد الفخاريات

المستعملة حوالي /٥٥٠٠٠/ فخارية وقرميدية وقد كان ثمنها /٥٥٠٠/ ليرة ذهبية، ويتابع هذا الشاب الذي هو حفيد صانع الفخار بأن المهندس الإستانبولي قد قام بعمل قبة صغيرة تجريبية على أرض الجامع وعمرها بالكلس وتركها سبعة أيام ليتأكد من تشابكها وصلابتها، ثم أقدم بالفؤوس والمعاول والمطارق ضرباً بهذه القبة فلم تنفصل ولم تنكسر قرميداتها فتأكد له موافقة تربة حمص لهذا النوع من القرميد ومن ثم بدأ ببناء القباب.

ولا بد من الإشارة إلى أن القبة ذات القطر الذي يبلغ /١٤/ متراً مؤلفة من أربعة صفوف من الفخار فوق بعضها أما القباب الأربع الصغيرة فمشكلة من ثلاث طبقات وكذلك أنصاف القباب. ويهمننا أن نذكر أن أبعاد هذا المسجد تكاد أن تقربه ليشكل مكعباً فأبعاده ٣٠ x ٣١ متراً وارتفاع القبة الكبرى عن الأرض ٣١ متراً أيضاً.

وتحمل القبة الكبيرة والقباب وأنصاف القباب أربع دعائم سلمية متدرجة بدت بهذا التدرج رشيقة لطيفة وقد دخلت هذه المعلمة وصاحبها في عمق أفكار الجماهير ووجدانها وتراثها

القبة ذات القطر الذي يبلغ /١٤/ متراً مؤلفة من أربعة صفوف من الفخار فوق بعضها



باحة مسجد خالد وقد احتل الرواق الشرقي معه متحف الآثار الإسلامية والمعهد العلمي ١٩٩٦

لتوروث فلا نجد أحداً في هذه المدينة إلا ويذكر أن أباه أو جده عمل فيه، فخالد بن الوليد رمز البطولة والفداء والشجاعة، وعندما يهرع الزوار والسياح للتفرج على هذا المكان الذي يضم مسجده وضريحه فإنما يرهنون على حبههم للمثل العليا وللفداء والشجاعة التي تحلى بها هذا القائد الفذ.

ونضيف إلى ميزات هذه المعلمة عام ١٩٥٤ ولا يزال العلم الخاص بجامعة

خالد بن الوليد موجوداً في متحف الآثار الإسلامية الكائن في الرواق الشرقي للجامع.

وتتلى في رحاب هذا المسجد في كل عام قصة المولد النبوي الشريف بتجمعات جماهيرية كبيرة وياحتفال رسمي برعاية محافظ حمص وكبار رجالات المدينة ولهذا لانستطيع إلا ان نردد مع باني المنبر الخشبي القديم هذه الأبيات اللطيفة المحفورة على هذا المنبر:

لخالد بقعة للخير جامع

فلا يضام ولا يرتاع جامعها
شاد السباعي اسماعيل منبرها
وافته من نعمة الباري عواطفها
حوى زخاريف نوع في صناعته
حيث أشرقت تاريخ ظرايفها
جـ - اسلوب معمارية جامع خالد بن الوليد

مما لاشك فيه أن المصلى في جامع خالد تشبه أنماط العمارة العثمانية قاعة مربعة مسقوفة بقبة لها رقبة ويتقدم المصلى رواق مسقوف بالقباب لكن بناء هذا المسجد اختلف برواقه غير المقبب مثل جامع الخسرفية بحلب ذي القبة الواحدة، ولكن اختلافات بينه وفرقه عن اسلوب هذه العمارة: فمآذن المساجد

العثمانية تنتهي بقلنسوة مخروطية مكسوة بالرصاص وتعتني الكسوة الداخلية بطلاط من القشيانى تكسو الجدران، كما نجد أن الكسوة الخارجية مصنوعة من الرخام وجزئياً من القيشاني أحياناً وإذا القينا نظرة متفحصة على مسجد السلیمانية وعلى كنيسة أيا صوفيا وعلى مسجد أبي ايوب الانصاري ومحمد الفاتح في استنبول وعلى مسجد محمد علي في القلعة في مصر وحتى في مسجد الخسرفية في حلب.

نجد أن الفخامة والتزين بالغة الحد الأقصى في الخطوط والإضافات والأبراج والقبيبات والشرفات والزخاف الخارجية المعقدة مما لانجده في جامع خالد حيث تتألف كسوته الداخلية من لون أبيض وحيد فيما عدا المحراب المزين بالنقوش والألوان.

زيادة في التوضيح نجد منبر جامع الخسرفية العثماني يكاد يصل إرتفاعه إلى السقف بينما منبر خالد الرخامي بدا بإرتفاع معتدل بالنسبة لبقية المساجد ذات الاسلوب المعماري العثماني البحت.

وحتى عندما دخل الاسلوب

كسوته الداخلية
تتألف من لون أبيض
وحيد

فاز في كل معركة خاضها خال عشرة اعوام في الجزيرة العربية والعراق والشام

بعد عصر الركوكو وانتقل إلى السلطنة العثمانية.

د - لمحات من حياة خالد بن الوليد

خالد بن الوليد بن المغيرة بن مخزوم ولد سنة ٥٨٥ م وأسلم في السنة الثامنة للهجرة وكان عمره يزيد على الأربعين عاماً، واتصف منذ صغره بالفروسية والمبارزات مع أقرانه كما اتصف بالكرم والشجاعة والأقدام والحزم.

فاز في كل معركة خاضها خلال عشرة اعوام في الجزيرة العربية والعراق والشام حارب وانتصر ضد جيوش امبراطوريتين عالميتين وعقر انفيهما في الرمال كما انتصر في معارك ضد المسلمين في البدء ثم صار أكبر قادتهم وحارب وثني قريش ثم المرتدين ثم القبائل العربية المخالفة للفرس أو البيزنطيين.

كانت له استراتيجية حرية تتمثل بسرعة الهجوم على اعدائه فلا يترك لهم فرصة للتمسك بهم كما كان يجعل خطوط تموينية من ورائه دوماً.

أما تكتيكاته فهي متنوعة حسب موقع المعركة وزمنها فطوراً يستعمل القتال الليلي وأخرى يستعين بالنبالة وثالثة بالإحاطة بعدوه ورابعة بالتقسيم

الامبراطوري على العمارة العثمانية التي سبقت بناء جامع خالد نجد الاختلاف بيناً بين مساجد هذا العهد مثل مسجد اوطاكوي على البوسفور ومسجد خالد الذي خلا من أي نوع من انماط العمارة الامبراطورية التي استمدت بعض اساليبها من العمارة الامبراطورية الأوروبية.

لذلك يمكننا القول أن مسجد خالد بن الوليد الذي شابه جزئياً بعض المساجد العثمانية لكنه في مواد بنائه من الحجر الأسود البركاني الوارد من وعر حمص ومن قلة التعقيدات فيه وفقدان البلاطات القيشانية والكسوة الخارجية الرخامية ومن ندرة النقوش الكورنيشية وعدم وجود نمط الاكساء والأبلى في داخله وعدم وجود الزناجير بالآيات القرآنية وبمآذنه التي خلت من القاووق المخروطي الرصاصي ومن جزئيات غنية عديدة تقول انه بناء قائم بذاته عبر عن تأثيرات محلية ولكنه بدا ببساطته ورشاقته بناءً قوياً معبراً عن شخصية صاحب القبر البطل خالد بن الوليد الموجود فيه.

* ظهر الاسلوب الامبراطوري في أوروبا في عهد الامبراطوريات الأوروبية

الخماسي لجنده كما في معركة اليرموك. تحدث عن خالد بن الوليد وكتب عنه
وهو على العموم قدوة لجنده وضباطه وحاضر الكثيرون وقد وجدت من
بقيادة المعركة امامهم يتلفح بالإيمان المناسب أن أذكر بعضاً الملامح
وحب الاستشهاد والجلد والصبر بتعاون والصفات الإنسانية فيه ومنها:
تام وانضباط كامل وديموقراطية عفوية. تأكيد على قوميته العربية في مجادلته



الكتابة التأسيسية المنقوشة فوق المدخل الرئيسي للجامع

إنه يمثل عبقرية عسكرية عالمية عربية مع بعض العرب من حلفاء الفرس قوله:
قل أن وجود الزمان يمثلها ولكنه قبل هذا إذا كنتم من الفرس فلماذا لم تدخلوا في
يمثل إنساناً اجتماعياً وشخصيته قوية عدالتنا؟ وإذا كنتم عرباً فلم لا تحالفوننا؟
جذابة وإدارياً مهيباً. وهذه العبارة وما شابهها قالها خالد لعمره

بن عبد المسيح واصلوبا.

- وما لاشك أنه يعد من الخطباء المفوهين وإلا لما استطاع أن يقود هذه الجيوش الجرارة كما يعد من المحبين للمداعبات اللفظية التي تسحر مستمعيه من جنوده وضباطه فعندما دخل العرب المتصالحة معه في الصلح طلب انتقاء رسولين منهم لاعلام جيشين فارسين بالدعوة إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب فقال لرسول صلوبا: مأسمك؟ قال هزقيل! فقال امام الجمع (خذ الكتاب وقل اللهم أزهِق نفوسهم) وقال للرسول الثاني: مااسمك؟ قال: مرة! قال: (خذ الكتاب فات به أهل فارس، لعل الله يمر عليهم عيشهم، أو يسلموا).

- ترد على لسان خالد بن الوليد كلمات حكيمة في الطبري وغيره تدل على قوة بيبانه حتى أن بعض ذهبت ضمن نسائم الأمثال، كقوله: (قتلت أرض جاهلها، وقتل أرضاً عالمها) وله مثل قوي آخر: (أردت أمراً واراد الله غيره) في حادثة كرامة ام شويل ويكفي خالد فخراً قول بعض أدباء العصر الحديث فيه (إنه رجل الطاعة والنظام) ويكفيه فخراً عند وفاته في حمص عام ٢١ هـ قوله: لانا مت أعين الجبناء!

هـ - البرهان على وجود ضريح خالد في حمص

وفي الجهة الشمالية الغربية من جامع خالد بن الوليد يقوم ضريح خالد بن الوليد وبجانبه ضريح ولده عبد الرحمن بن خالد الذي بقي والياً على حمص ما بين ٢٦ - ٤٦ هـ وقد جاء ذكر وفاة خالد في حمص من الواقدي والطبري في أحداث عام (٢١) للهجرة مايلي (في هذه السنة مات خالد بن الوليد في حمص، وأوصى إلى عمر بن الخطاب، شكك بوجود ضريح خالد في حمص ياقوت الحموي الذي اضاف إلى أن هذا الذي يزار هو خالد بن يزيد!! ولكن الموافقين عن وجود ضريح خالد في حمص يوردون مايلي:

- ١ - إن ياقوت يناقض نفسه بنفسه عندما يقول أن قبر عياض بن غنم بجانب قبر خالد في حمص في جانب آخر من أقواله عن حمص.
- ٢ - إن هناك فرقاً في المدة يصل إلى ٧٠ عاماً ما بين وفاة الرجلين فخالد بن الوليد توفي عام ٢١ هـ بينما توفي خالد بن يزيد على رأي ابن خلقان سنة ٨٥ هـ وعلى رأي ابن عساكر في ٩٠ هـ.
- ٣ - وقد ذكر المصدر أن وفاة خالد بن يزيد في دمشق وليس في حمص كما قال

ياقوت الحموي

هذا الذي يزار في

حمص هو خالد بن يزيد

- ياقوت الحموي. شاهدوا حجارة تدل على وجود الضريح.
- ٤ - ليس من المعقول أن تنقل رفاة خالد بن يزيد إلى حمص لتدفن بجانب رفاة عبد الرحمن خالد.
- ٥ - تذكر كثير من الوثائق أن خالد اشترى قرية في حمص.
- ٦ - ما كان الظاهر يبهرس لبنني مسجد خالد لو لم يتأكد ورجاله من وجود ضريح خالد فيه عام ٦٦٤ هـ ونفس الأمر في القرن التاسع الهجري ما كان تيمورلنك ليقول قوله (تركت حمص لخالد) لو لم يكن هناك تأكيد لوجوده.
- ٧ - ونفس الأمر ذكره من شاهد عمارة جامع خالد عام ١٩٠٠ م من أنهم شاهدوا حجارة تدل على وجود الضريح.
- ٨ - ليس من المعقول أن يعود خالد بن الوليد إلى المدينة بعدما ساءت العلاقة بينه وبين عمر بن الخطاب.
- ٩ - لم يقل أحد من محققي المدينة المنورة أن خالد بن الوليد قد دفن فيها.
- ١٠ - ذكر البعض أن هناك ذكر لخالد المخزومي في أخبار المدينة ونحن نعتقد أن يخص ذكر خالد بن عبد الرحمن بن خالد الذي انتقم لقاتل والده في حمص وعاد إلى بيته.

ملاحظة: اضيف إلى ذلك ماأطلعت عليه جاء في كتاب صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية الأخيار لمؤلفه السيد الشريف عبد الله محمد سراج الدين وينفي فيه انتهاء عقب خالد بن الوليد وانهم موجودون في الشام ونجد والكتاب مطبوع عام ١٣٠٤ في مصر.

صورة

من الفكر الإداري والسياسي في عهد الخليفة المأمون

(الاستاذ نبيل صافي)

لا شك أن إحياء التراث يعني إضافة إلى نشره وإخراجه إلى حيز التداول، واجب القيام بقراءته، وبالتالي استخلاص المعرفة الكاملة بمكوناته، هذه التي تكفي لرسم صورة عنه مع تفهم خلفيته.

وفي

الثلاثينيات من هذا القرن عمل «أحمد زكي صفوت» من مصر على نشر شيء من هذا التراث، فقد قام بتحقيق وضبط ماصطلاح على تسميته: «جمهرة رسائل العرب» واحتوى المنشور على جملة من الرسائل بين الطويلة التي تجاوزت العشرات من الصفحات، والأخرى التي لم تتجاوز الكلمات، وبالتالي تراوحت بين الفث والسمين في مادتها.

من المؤكد أن الرسائل تعكس حالة حضارية معينة إن لجهة الشكل والاسلوب اللغوي والفني التي صيغت بها مما يهتم به مؤرخ الأدب عادة، أو لجهة المضمون الفكري أو السياسي، أو الإداري الذي تحمله مما يهتم به المؤرخ وستحاول الدراسة هنا الإطلالة على واحدة من هذه الرسائل الآتية إلينا من عصر الخليفة المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ وعلى لسان رجل هام من رجاله، هو طاهر بن الحسين ت ٢٠٧ هـ ووجهها إلى ولده عبد الله عندما ولاه الخليفة الرقة والجزيرة عام ٢٠٦ هـ. ونقل صاحب الجمهرة نصها من مصادر عدة هي:

تاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير، ومقدمة ابن خلدون، مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي، وتاريخ بغداد لابن طيفور.

لا شك أن المكان الأقدم لوجود النص هو كتاب الطبري الموف إليه، والطبري هو

**فكراً سياسياً وخبرة
إدارية، مؤطرة
بخلفية دينية
واضحة.**

شيخ المؤرخين العرب توفي عام ٣١٠ هـ، ويعتبر رائد مدرسة التاريخ بالرواية تلك التي تعتمد التاريخ بالمنقول، وتحرص على النص بشقيه السند والمتن مع الحرص على عرض روايات متعددة للخبر الواحد مع بقاء الناقل خارج الرواية: «فنحن نؤدي على نحو ما أدبنا» ولقد أورد الطبري أخباره دائماً متبوعاً في الوقت نفسه المنهج الحولي في العرض، كذلك إستعان في عرضه في أغلب الأحيان بالوثائق أو الرسائل، أو الشعر لتأييد عرضه، لعل هذه إحداها، أشار إليها عند تقديمها بقوله: «كان طاهر بن الحسين، قد كتب إلى ولده عبد الله حينما وُلِّي ديار ربيعة كتاباً نسخته» دون أن يشير إلى كيفية حصوله عليه.

وطاهر بن الحسين هو ابن قائد المأمون الذي دخل بغداد على رأس الجيش الذي وجهه الثاني لقتال أخيه الأمين بعد أن قام الأخير بخلعه، وتمكن هذا القائد من الخليفة وقتله وأخذ البيعة للمأمون، فولاه المأمون شرطة بغداد، ومالبت أن ولاء خراسان سنة ٢٠٥ هـ، أما ابنه عبد الله فقد ولاء المأمون الرقة وديار ربيعة لحرب نصر بن شعث ومُضَر سنة ٢٠٦ هـ كما

تولى أعمالاً كثيرة للدولة منها ولاية الاسكندرية حيث قضى على من تغلب عليها من أهل الأندلس سنة ٢١٠ هـ. ومن هنا تأتي أهمية الوصية فهي تأتي من قمة السلطة في الفترة الأزهى من العصر العباسي، وبالتالي تعكس فكراً سياسياً معيناً من جهة، وخبرة إدارية مؤكدة من جهة ثانية، مؤطرة ذلك كله بخلفية دينية واضحة.

إن الملامح العامة للوثيقة الوصية تندرج في ثلاث أطر هي:

- ١ - الإطار الأخلاقي الديني.
- ٢ - الإطار الإداري.
- ٣ - الإطار الذرائعي.

١ - الإطار الأخلاقي الديني:

بدء ابن طاهر وصيته بتذكير ابنه بتقوى الله والخوف منه ومراقبته، مع التذكير بالمعاد الأخير: «والعمل في ذلك بما يعصمك الله، وينجيك يوم القيامة من عذابه، وأليم عقابه».

كما خصه في الإطار ذاته على المواظبة على الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قبلها في مواقيتها وعلى سننها وفي أسباغ الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله فيها، والترتيل في قراءتها، والتمسك من ركوعها،

وسجودها، وتشهدها، «ولنصدق فيها لربك نيتك، واحضض عليها جماعة من معك ومن تحت يديك». وكذلك اقتفاء آثار السلف الصالح، واستخارة الله وتقواه، ولزوم ما أنزال الله في كتابه من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وإتمام ما جاءت الآثار به عن النبي صلى الله عليه وسلم.

كما حذره من الحدة و الطيش والغرور، والقول أنه مسلط يفعل ما يشاء، ويذكره بانه: «الملك لله يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء».

٢ - أما الإطار الثاني الذي تدرج ضمنه الوصايا فهو الإطار الإداري وبيان الأساليب التي يجب اتباعها للوصول بالعمل إلى مراتب الكمال من حيث الغاية والوسيلة.

فهو يوصيه بإحسان اختيار عماله، بأن يكون من ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة، والشهرة بالعفاف، لكنه لا يقتنع بحسن الاختيار وحده قاعدة لضمان حسن سلوك العمال والولاة، وأما يطلب من ولده أن يتابع عمله بالمساءلة، والبحث عن الأمور ومباشرتها بنفسه إحتياطاً للرعية، والطريق إلى ذلك برأيه يئن وسهل وهو

أن يختار في ظل كورة من عمله أميناً يخبره أخبار عماله، ويكتب بسيرتهم وأعمالهم، على أن لذلك مزاقه ومخاطره التي يدعوه إلى اجتنابها، بالإبتعاد عن سوء الظن: «لاتتهم أحداً ممن توليه»، وأقبل الحسنة وادفع بها. وابتعد عن الكذب والزور والنميمة، ولاتقرب أهل الكذب، وجانب الشبهه والبدع. وأحب أهل الصدق والصلاح....

ولعل ميزان الأمر كله لديه، هو الاقتصاد في كل شيء والبعد عن التطرف لكن دون أن يعني ذلك الشح أو البخل، بل يدعوه إلى: «إبعاد أهل الذمة والبخل، واجتناب الشح وأهله» ويبقى للقضاء دوره الأهم برأيه، فيوصي بالعناية به، وإقامة العدل، وتبعاً لذلك يؤكد على ضرورة إقامة الحدود في الجرائم، والابتعاد عن الشبهه، والبدعة، مع التفرد بتقويم النفس تفرد من يعلم أن مسؤول عما صنع».

٣ - تشغل الذرائعية الحيز الأكبر من وصية طاهر، ولعلنا نلمع بشكل مؤكد الفهم الواضح لديه لعنصريها، الغاية والواسطة.

فالغايات لديه دينية إلهية، أو دنيوية

«الملك لله يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء»

أرضية تهدف إلى تحقيق مرضاة الخليفة من جهة أو اكتساب محبة الرعية من جهة ثانية.

فإرضاء الله سبحانه وتعالى غاية مثلى يحض ابنه عليها: «فإن الله قد أحسن إليك، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقه وحدوده فيهم، والذود عنهم، والدفع عن مرميهم والحقق لدمائهم، والأمن لسيلهم، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم، ومؤاخذك بما فرض عليك، وموقفك عليه، ومسائلك عنه، ومشييك عليه بما قدمت وأخرت».

وأضاف: «ولاتقصر في طلب الآخرة، والأجر والأعمال الصالحة، والسنن المعروفة فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له، إذا كان يطلب به وجه الله، ومرضاته، وكذلك قوله: «ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنته».

كما كانت الذريعة الدنيوية المتعلقة بإرضاء الخليفة والحرص على الولاء له والوفاء لأمره واضحة كل الوضوح في سياق الوصية حيث يقول: «ولاتقبل من أحد منهم إلا الوفاء، والاستقامة والعوق

في أمور أمير المؤمنين، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك».

فإنها ستحسب له عند العامة، فعليه: «المواظبة على الصلوات الخمس

لاتقبل من أحد منهم

إلا الوفاء،

والاستقامة والعوق

في أمور أمير

المؤمنين، ولا تضعن

المعروف إلا على ذلك

الاتفاق يكون مانعاً للثورة ومبرراً لجمع الخراج

واقفاء آثار السلف الصالح، واستخارة الله، واتباع آثار النبي، والاقتصاد في الأمور وعدم إتهام الناس قبل أن تكشف الأمور، واعتبار المتهم بريء حتى يدان، وتحسين الظن بالأصحاب، ومحبة أهل الصدق، والصلاح، مع إعزاز الإشراف بالحق ووصل الضعفاء.. كذلك أوصاه: «لاتمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت، لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله، والدين وحملته، وكتاب الله والعاملين به...».

ولعل هذا الاتفاق برأيه يكون مانعاً للثورة ومبرراً لجمع الخراج إذ يشير بوضوح إلى هذه القضية الذرائعية. وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك، وعملك أقدر ولتعظم حسبتك فيه فإتما يبقى من المال ماأنفق في سبيل حقه.

ولتأكيد ذرائعية الاستخدام لهذا الأمر الهام فقد أوضح له ميزاناً استثنائياً يستند إليه في تنفيذ ذلك إذ يقول: «واعرف للشاكرين شكرهم وأبئهم عليه..». لاشك أن كسب مرضاة الجند كانت هي الأخرى الوسيلة المباحة الثانية التي يوصي بها طاهر ابنه بالحرص عليها سواء بتفقد أحوالهم، أو إيصالهم إلى إعطياتهم «تفقد أمور الجند في دواوينهم، ومكاتبهم، وأدر عليهم أرزاقهم، ووسع عليهم في معاشهم، ليذهب الله فاقته، ويقوم لك امرهم، أما مؤسسات الدولة المتوفرة والمباحة لخدمة الغايات فعديدة لديه منها مؤسسة بيت المال، تلك التي عرفت في فترة ما باسم بيت مال المسلمين، والمال فيها مالهم، لا يلبث وفقاً لهذه الوصية أن يصبح وسيلة مباحة لكسب رضا العامة منها الحث على الاتفاق في أوجه مختلفة ليحصل على ذلك الرضا، فمن هذه الأوجه الاتفاق على الرعية، وعلى الجند.

فالإنفاق على الرعية متنوع منه، عمارة البلاد، والتفقد لأمر العباد، وإغاثة الملهوف.. (ولتكن ذخائر ككنوزك، البر والتقوى والعدالة، واستصلاح الرعية، وعمارة بلادهم، والتفقد

- ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً، وإنشراحاً. وحسب ذي سلطان من السعادة أن يكون على ضده ورعيته رحمة في عدله، وحيطته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته..
- إضافة إلى ذلك فإن إقامة القضاء هي إحدى تلك الوسائل المتاحة للحصول على رضا الله من جهة، ورضا العامة أيضاً.. يقول: «واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور لأنه ميزان الله الذي تعادل عليه» أحوال الأرض، وإقامة العدل تصلح الرعية، وتأمين السبل، ويتنصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدي حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة. أحمل الناس كلهم على الحق فإن ذلظ أجمع لالغتهم وألزم لرضا العامة».
- وإذا كانت الدراسة قد قامت حتى الآن بإبرار الأطر التي قدمت الوصية نصائحها من خلالها، فإن تلك الوثيقة عملت أيضاً في ثناياها مفاهيم محددة بدأت في النضوج في هذه المرحلة من تاريخ المجتمع العربي الإسلامي توضح مدى تطور الفكر السياسي والإداري وتبلوه بالتأكيد، من استعراض لواجبات الحاكم وبالتالي حقوق الرعية لديه، إضافة إلى إبراز آلية الشورى واتخاذ القرار لدى ذوي السلطة، كما تبدي تصور أولئك للخراج وغرضه في المجتمع العربي الإسلامي، وكذلك مرجعية الحكم والملك في هذا المجتمع.
- لعل أوضح ما أبرزته الوثيقة كانت تعداد واجبات الحاكم تجاه الرعية وحقوق هذه عند الحاكم وهي:
- ١ - العدل فيهم - بينهم.
 - ٢ - القيام لحقه، وحدوده، وإتمام حدود الله في أهل الجرائم.
 - ٣ - الذب عن الرعية، والدفع عن حريمهم.
 - ٤ - الحقن لدمائهم.
 - ٥ - إدخال الراحة عليهم في معاشهم.
 - ٦ - استعمال ذوي الرأي، والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف.
 - ٨ - التوسع على الرعية بالرزق.
 - ٩ - مصادقة أحرار الناس.
 - ١٠ - إعطاء أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة.
 - ١١ - النظر في أمور الفقراء والمساكين.
 - ١٢ - تعهد البؤساء واليتامى، والأرامل بارزاق من بيت المال.

القضاء هي إحدى تلك الوسائل المتاحة للحصول على رضا الله من جهة، ورضا العامة أيضاً..

١٣ - إعطاء المال لحملة القرآن والحافظين لأكثره.

١٤ - انشاء دور للمرضى المسلمين وإقامة أطباء يعالجون أسقامهم.

١٥ - تسهيل دخول الناس عليه.

١٦ - محاسبة العمال على ما جمعه من الأموال.

١٧ - جماع القول أن: «الحاكم خازن وحافظ وراع، وإنما سمي أهل عملك رعيته لأنك راعيهم، وقيمهم، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم، وصلاحهم، وتقويم أودهم».

كما حددت الوصية آلية لاتخاذ القرار تقتضي مشاوره الفقهاء، وأهل التجارب ودوي العقل، والرأي، والحكمة، والابتعاد عن أهل الدقة والبخل في هذا الأمر وهذه الآلية استتسائية كما يمكن الملاحظة تتواءم وطبيعة العلاقة بين عبد الله ومن هم حوله ومزاجية تلك العلاقة وحرارتها.

كذلك بلور النص مفهوماً يختلف كلياً عن «الخراج» وطبيعته الذي بداء اصلاً كتعويض تحصل عليه الدولة لقاء ترك الأراضي المفتوحة بيد أصحابها في

إطار العمل على استمرارية الحياة الزراعية فيها وصيانة للمصلحة العامة، التي عرفت باسم المصالح المرسله فقها، وقد نسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب البدء بالعمل في هذا النظام، لكننا هنا نرى تجلي الفكر البيروقراطي المحض المجسد للتسلط البعيد عن فهم روح الاسلام بقول: طاهر بن الحسين في وصيته: «انظر إلى هذا الخراج الذي هو للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر ذلاً وصغاراً..» الأمر الذي يعني ابراز التعالي وتأكيد التمايز البعيد كل البعد عن روح التعاقد الاجتماعي بين الدولة، وبعض مواطنيها، تجاوزت خلاله الدولة تلك اللحظة التي أفرزت غالباً ومغلوباً.

وليس هذا التغير وحده هو البارز بل مصير هذا الحال العام وكيفية استعماله من قبل رجال الدولة، هذا الأمر ظهر هنا دون أية قيود سوى ما يوائم مصلحة السلطة ولرجالها وهكذا انتهى وبموجب هذا النص وبصورة عملية واقعية تلك النصوص المقدسة التي توضح آلية صرف هذه الأموال.

كذلك تعرضت الوثيقة لمرجعية الحكم العليا، وأكدت الصفة الآلهية له فالملك

الحاكم خازن وحافظ وراع، وإنما سمي أهل عملك رعيته لأنك راعيهم، وقيمهم، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم، وصلاحهم، وتقويم أودهم

لله يعيطه من يشاء وينزعه ممن يشاء. يمكن القول أن أهمية الوثيقة تأتي من تكريسها جملة من ممارسات ومفاهيم كانت تتراكم عبر السنين وتجسد تجربة الحكم والإدارة والسياسية في المجتمع العربي الإسلامي فالوصية تؤكد على ترابط الإداري السياسي بالديني من جهة والذرائعي من جهة أخرى، فالحاكم الذي يؤدي الصلوات الخمس، يرضي الرب كما يكسب رضا العامة ويضمن تغطية دعائية مسبقة لأي عمل سيقوم به رجل السلطة إستناداً إلى مظهرية الايمان لديه المتأتية من اداء الصلاة، ومما لاشك فيه أن التأكيد على هذه المظهرية كانت نتيجة لحاجة رجال السلطة العباسية، ربما لتأكيد هويتهم العربية الإسلامية التي كثيراً ما شكك بها من خلال الصراع العروبي والشعوبي، ولقد ظهر هذا الأمر بداية باتهام نصر بن سيار الوالي الأموي الأخير في خراسان لأبي مسلم الخراساني بالزندقة، وكرر الجاحظ الاتهام لكتاب الدولة العباسية من الفرس بعدم الجدية والصدق في اسلامهم. كما أكدت الوثيقة وعددت مايراه طاهر واجبات للحاكم وحقوقاً للمحكومين، هذا الأمر التي كانت بدايته في خطبة أبي بكر الأولى: «القوي عندكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه» وتراكم الأمر على مر السنين، والممارسة على الأرض سلباً وإيجاباً وجرى التأكيد عليه من خلال الخطب، والرسائل التي كانت تصدر عن رجال السياسة والحكم وقتئذ، وتحسس رجال الفكر والأدب ضرورة تدوين ذلك بشكل مباشر أو بالمواربة من خلال مترجمه ابن المقفع في كلیلة ودمنة، وفي رسائل عبد الحميد الكاتب على لسان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، لتكون تلك بذوراً لما سيعرفه الأدب العربي من كتب السياسة المتنوعة التي ألفها من كانوا على صلة وثيقة بالعمل السياسي في المجتمع العربي الإسلامي، وعلى امتداده، كالفخري في المشرق، والتذكرة الحمدونية في المغرب، تلك التي بدأت ترى النور بعد القرن الرابع الهجري.

وإذا كانت الوثيقة قد أكتفت بتعداد واجبات الحاكم فهي لم تلمح إلى آلية تنفيذ هذه الواجبات، ولا ماهية المؤسسات التي ستقوم بذلك والتي على السلطة ايجادها مثل هذه الغرض،

**الله يعطي الملك امن
يشاء وينزع الملك
ممن يشاء**

هذا إذا تم تجاوز أن العدل يتحقق بالقضاء الذي أكدت الوثيقة على وجوده، وكذلك الأمن بالجند، وأبرزت الوثيقة في هذا المجال بشكل مؤكد إقامة المشافي للعناية بالمرضى، وتخصيص الأطباء لمعالجته اسقامهم، بينما تركت مسألة مساعدة المحتاجين والفقراء دونما توضيح لكيفية تحقيق هذا الأمر، أو المؤسسة التي من الممكن أن تؤمن ذلك.

ولقد أكدت الوثيقة على أن الحكم والملك وتولي أمور الناس إنما هي منحه إليه فالرب يعطي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ولعل هذا القول جاء تكرساً لمفهوم بدأت ملامحه بالظهور في نهاية العهد الراشدي عندما نسب إلى عثمان بن عفان قوله للذين طالبوه بالتنحي وترك الخلافة والله لأخلع قميصاً، أو سروالاً ألبسنيه الله وفي بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم حذر عثمان بالقول: «إن الله ملبسك قميصاً، فإن أراذك المنافقون على خلعك فلا تخلعه» ومع بداية العهد الأموي، وعلى لسان معاوية ورد في جداله مع الحسن بن علي بن أبي طالب أنه الله نصر معاوية على والده الذي

مازعه ملكاً خصه الله به، ولقد شجع الأمويون هذه الفكرة، وكان لفرقة المرجئة دوراً مهماً في الترويج لها بالتأكيد على الجبرية إلى أن جاء العصر العباسي ومنذ بدايته تمسك المنصور بآلهية الخلافة ولقد برز ذلك واضحاً من خلال رسائله المتبادلة مع منافسه زعيم الشيعة الحسينية، محمد النفس الزكية... بقوله: «وميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل في الجاهلية أو إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه». على أنه لا بد من الإشارة إلى أن هذه الجبرية الواضحة لاتتماشى وماسيئناه المأمون فيما بعد ومنذ العام ٢١٨ هـ من فكر المعتزلة.

تبقى القضية الأخيرة التي تبلورت كمفهوم مختلف عما بدأته ألا وهي قضية جباية الخراج، والتي لا بد من وقفة مطولة حول تاريخته ذلك المفهوم وتطوره عبر العهود الإسلامية المتعددة. في البدء تجب العودة إلى تحديد معنى المصطلح، ويجب أن يترافق ذلك بتحديد المقصود من مصطلحات أخرى جرى تداولها، وهي الغنime والضياء والجزية والعشر. فالغنime

**ميراث النبي له
والخلافة في ولده فلم
يبق شرف ولا فضل في
الجاهلية أو إسلام في
دنيا ولا آخرة إلا
والعباس وارثه
ومورثه.**

**الخراج، وهو أن
مايجب عموماً من غير
المسلمين، إنما يجبي
لقهرهم وإذلالهم،**

ماغلب عليه المسلمون بالقتال والضيء
ماصالحوا عليه، أي من الجزية والخراج
والجزية هي ضريبة على الرؤوس تؤخذ
من غير المسلمين، ويحدد تعدادها ضمن
شروط الصلح، والعشر ضريبة تؤخذ من
المسلمين لقاء استثمارهم الزراعي.

ولعله من المفيد التأكيد على أن كلمة
الخراج أكثر شمولاً من غيرها إذ أنها
تشكل كل مايجبيء من ضرائب من غير
المسلمين، ويبدو أن التباساً مستمراً شاب
استعمال هذا المصطلح مع ملاحظة أن
ماورد جاء من خلال مصادر فقهية ليس
إلا. وبالتالي ليست هي التي تهم
الدراسة هنا فهي لاتعطي صورة للفكر
وبالتالي الغاية المحركة بقدر ماتقن قضية
مادية وتنظمها.. ولعله بالرجوع إلى
تاريخية المصطلح مايفيد في معرفة تلك
الفكرة والغاية المحركة ورائها.

**إن التضاد الواضح هنا هو بين
أمرين:**

١ - الخراج: وهو أن مايجبي عموماً
من غير المسلمين، إنما يجبي لقهرهم
وإذلالهم، وهي ماعبر عنه طاهر بن
الحسين، المذكور سابقاً يؤيده ظاهر الآية
٢٩ من سورة التوبة «حتى يدفعوا الجزية
عن يد وهم صاغرون».

٢ - الخراج: بشقيه جزية الرؤوس، أو
ضريبة الأرض، تجبي كواجب لقاء حق
يحصل عليه الدافع، وبالتالي فهو حصيلة
عقد بين الدولة، ومجموعة من رعاياها
الجدد، تقدم فيه الدولة الحماية ويدفع
المواطن لقاء ذلك ضريبة محددة بموجب
عقد الصلح.

بالتالي فإن تمثل رجال السلطة في
المجتمع العربي الإسلامي وتبينهما لأحد
هذين المفهومين هو مانريد رصده لمعرفة
كيف توصل طاهر بن الحسين إلى هذا
التقرير اللفظ لمفهوم الخراج بنظره.

قد يبدو للوهلة الأولى أن الآية ٢٩
من سورة التوبة هي الأساس الفكري
العقائدي للمفهوم الأول، لكن الرجوع:
إلى أسباب النزول وليس التفسير توضح
الظروف التي نزلت خلالها الآية وبالتالي
الخلفية الموضوعية لها، فالآية الكريمة إنما
كانت توجيهها لحالة معينة ورداً على تحدٍ
قام به المشركون من سكان الجزيرة
العربية بمنع توريد الطعام إلى مكة المكرمة
بعد فتحها في العام الثامن للهجرة،
وشكوى بعض المسلمين لذلك، مما
شكل استفزازاً كانت الآية الكريمة الرد
المناسب عليه.

وسرعان ماأنتفى هذا المفهوم من

خلال الممارسة العملية حيث ارتدت الجزية لتأخذ صفتها التعاقدية البحتة، وخلال فترة لاحقة وجيزة، وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم الذي عقد مع أهل نجران صلحاً ثم تلاه آخر مع أهل هجر في البحرين، وفي المرتين نوضع أن المال المؤدى هو في مقابل الحماية والمنفعة وتمتع الطرف الآخر بكل مميزات الاستقلال الذاتي، والحرية التامة في الأمور الاجتماعية والدينية، (ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله، على أموالهم، وانفسهم، وأرضهم وملتهم، وعشيرتهم وبيعهم، وكل ماتحت أيديهم، لا يغير اسقف من أسقفية، ولا راهب من رهبانته، ولا كاهن من كهانته، ولا يبطأ أرضهم جيش....).

أعاد إليهم الجزية عندما أراد إخلاء المدينة بعد حشد هرقل الذي أدى إلى وقعة اليرموك.

وإذا كانت الجزية مقابل المتعة، فإن المسلمين رضوا في بعض الوقائع أن يعفوا أهل الذمة من الجزية، حين تعهد هؤلاء أن ينهضوا معهم بواجب الدفاع ويحملوا عبء القتال إلى جانبهم، كما حدث حين غزا حبيب بن مسلمة الفلهري أهل الجرجومة فطلبوا الصلح على أن يكونوا أعواناً للمسلمين، وعيوناً، ومالح في جبل اللكام فقبل منهم ذلك، وكذلك حين توجه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي إلى ناحية الباب جهة قزوين عرض عليه عامل الفرس الصلح دون جزية قائلاً: «يدي مع أيديكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبون» وقد أجاز الأمر عمر بن الخطاب، وهكذا تبرز بوضوح الطابع التعاقدية للأمر حيث الجزية مساهمة مالية في واجب الدفاع، نظير ضريبة الدم التي كان يدفعها المسلم في حوقة القتال للدفاع عن الدولة كلها، وبالتأكيد فإن الظروف الموضوعية لذلك العصر هي التي فرضت ذلك، ولقد استمر هذا المفهوم سائداً طيلة العهد الراشدي فعمر

ولعل هذا المفهوم العقائدي استمر في العهد الراشدي ففي صلح الحيرة الذي عقده خالد بن الوليد مع أهلها ورد في النص: «عاهدكم على.. وعلى المتعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وكذلك مع تحسن الناطف، الذي جاء في صلحه.. (فإن منعناكم فلنا الجزية، إلا فلا حتى تمنعكم، وتأتي واقعة أهل حمص مع أبي عبيدة عندما

ولنجران وحاشيتها
جوار الله، وذمة
محمد النبي رسول
الله.

الجمال السياسي في عهد المنصور، ثم أخرى في عهد الرشيد، وقد تبلورت هذه خلال طلب الخليفة الأخير من قاضيه أبي يوسف يعقوب بن آدم أن يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي.. وغير ذلك مما يجب عليه والنظر فيه والعمل به وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصالح لأمرهم وقد استجاب القاضي مبيناً أنه قد كتب له مأمراً وشرحه، وأنى لاجور إن عملت بما فيه من البيان أن يوفر للأخراجك من ظلم مسلك ولا معاهد، ويصلح لط رعيته.. ورغم الصيغة القانونية الفقهية التي طبقت الكتاب إلا أنه أكد على الروح التعاقدية للجزية والخراج كضرائب مفروضة على جزء من الرعايا مبيناً تاريخية هذه الضرائب بعيداً عن ذلك المفهوم الذي ظهر من خلال وصية طاهر ابن الحسين التي نحن بصدددها.

ويظهر أن رجال السلطة لم يكونوا دوماً من المتقبلين للمفهوم التعاقدي يدل على ذلك قيام الثورات في مناطق مختلفة من الدولة في عهد المأمون، شاكية من الخراج وممارسات عماله،

يوصي الخليفة من بعده قائلاً: أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، خيراً أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، وكتب عثمان بن عفان إلى عماله: «إن الله أمر الأئمة أن يكونوا راعاة.. ولم يتقدم إليهم بأن يكونوا جباة».

على أن هذه الممارسة ومن خلفها المفهوم سقطت في العهد الأموي بدأ من معاوية الذي قبل إضافة إلى الخراج والجزية هدايا الفيروز والمرجان، وفرض الوظائف الضريبية المختلفة، واعتبر الأمر سيادة لغالب، وقهراً لمغلوب، وقد اتخذت هذه القضية أبعادها خلال هذا العهد بين مد وجزر إلى تام نصر بن سيار وإلى خراسان بإيجاد حل للأمر بحيث أعفى المسلم الجديد من جزيته مع تحميلها لمن بقي على دينه من الموالي ولم يكتب لمحاولة الخليفة عمر بن عبد العزيز رد الممارسة التعسفية إلى المفهوم العقائدي الناجح.. ذلك أن الخراج بشكله الكامل كان المورد الذي تعيش عليه الدولة ومنه تأتي نفقاتها.

وفي العهد العباسي الذي نحن بصددده جرت محاولة اصلاحية رئيسية أولى في

وصي الخليفة من
بعدي بذمة رسول
الله صلى الله عليه
وسلم، خيراً أن يوفى
هم بعهدهم، وأن
يقاتل من ورائهم،
ولا يكلفوا فوق
طاقتهم

فمصر ثارت عام ٢١٣ فأرسل المأمون أخاه المعتصم وجعل على الخراج صالح بن شيرازاد، فظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فإنتفض المصريون وعسكروا وهزم جيش المعتصم.

يبدو أن الأمر قد جرننا إلى الإفاضة لكنه يبقى بشكل أو بآخر أحد أهم المعضلات التي عانت منها الدول والمجتمعات، وهي قضية الموازنة بين الإيرادات والنفقات والعدل فيها، بين متطلبات الانفاق والقدرة، والطاقة على ذلك النوع من الإدخار الإجباري، كي يبدو أن حاجة السلطة الدائمة للمال

تدفع رجالها دائماً إلى إيجاد الذرائع، والمسوغات لتلك التي اظهرها طاهر بن الحسين بقوله: «فانظر إلى هذا الخراج الذي جعله الله...»

وبعد فمما لاشك فيه أن الوصية كانت جامعة شاملة تعكس الفكر السياسي والخبرة الإدارية لرجل لعب دوراً مهماً في الحياة العامة لذلك العهد الذهبي للدولة العربية الإسلامية، ولقد تأكدت أهمية الوصية بما أشار إليه الطبري بعد نصها من أن المأمون أمر بنسخ الوصية وتوزيعها على العمال للعمل بمضمونها.

**أن حاجة السلطة
الدائمة للمال تدفع
رجالها دائماً إلى إيجاد
الذرائع، والمسوغات**

دعوة إلى الكتاب والباحثين

إن هذه المجلة «مجلة البحث التاريخي» يصرها
مشاركاتكم والاستفادة من معلوماتكم لكي نقدم
المادة الأفضل لقرائنا الأعزاء.
نتبنى ممن يرفق في الكتابة أن يرسل بطاقة
تعريف

مع الشكر والامتنان
أسرة التحرير

صناعة الورق والوراقة

في بلاد الشام

أواخر العصر العباسي

د. محمد زيود

استعمل الإنسان مواد كثيرة في الكتابة من أقدمها الطين والحجارة ثم لحاء الأشجار والعظام والجلود وسعف النخل، كما أستعمل الحرير الأبيض، عالي القيمة في الكتابة أيضاً، وتفاوتت الأمم في ذلك كتب أهل الصين على ورق صنعوه من الحشيش والكلأ، وعنهم أخذ الناس صناعة الورق، وكتب أهل الهند في خرق الحرير الأبيض، واستعمل الفرس الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش، وعلى اللخاف «وهي حجارة بيض رقاق» والنحاس والحديد وغيرها وفي عظم اكتاف الأبل والغنم. وفي كتابة القرآن في عهد الرسول (ص) اللخاف والغسب فعن زيد بن ثابت أنه قال عند جمعه للقرآن «فجعلت اتبع القرآن في الغسب واللخاف» وفي حديث الزهري «قبض الرسول (ص) والقرآن في الغسب» والورق جمع واحدة ورقة وجمعة أوراق وجمع الورقة ورقات وسمي الرجل الذي يكتب وراقاً واطلق عليه القرآن الكريم قرطاساً وصحيفة، ويسمى أيضاً الكاغد، ويقال للصحيفة أيضاً طُرُس ويجمع على طُرُوس، ومُتَهَرَّق ويجمع على مهارق واحسن الورق ماكان ناصع البياض، واستعملت أوراق البردي، منذ العصور القديمة، واحتكرت مصر صناعته وتصديره منذ العصر الروماني، وبعد أعظم ماقدمه المصريون للحضارة، وبذلك خطت الحضارة البشرية خطوة واسعة في تحسين مواد الكتابة،

- اسهم الورق
اسهاماً كبيراً في حفظ
الحضارة ونقلها
وتطورها وعد بحق من
أهم العوامل الداعمة
لها، والابن دور
وأهميته عن دور
اختراع الطباعة
ومساهمتها في تاريخ
الحضارة البشرية.

الكتان وكان يسمى بالخرساني، ويعتقد أن مدن الشام صنعت الورق قبل هذا التاريخ فقد صنع في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة، ومنبج، ويستدل على ذلك من بيت شعر لطرفة بن العبد البكري في معلقته أن القرطاس ينسب إلى الشام ويقول طرفة:

وخذ كقرطاس الشامي ومشفر
كسيف اليماني قده لم يجرد
وإذا ماصدق طرفة فتكون القرطاس
من الصناعات القديمة التي تعود للفترة
الجاهلية خلافاً لما ذكره مؤرخو العرب،
وأن دمشق وطبرية كانت تصدران
كميات كبيرة منه على ما أورده المقدسي
وغيره من دون تحديد لزمن هذا
التصدير، ولابد لنا من مناقشة هذه
الفكرة التي أوردها بعض الدارسين
والباحثين، ويبدو من قول طرفة أن
القرطاس كان يصنع في الشام قبل
الإسلام ولكنه ليس بالورق وإنما هو نوع
من النسيج المصقول المصنع الرقيق
الأيض وقد كان من الحرير، واستمر
تصنيعه كذلك في العصر الأموي، ومن
ثم تم استبدال الحرير بالقطن لأنه
أرخص، وذلك في عهد الوليد بن عبد
الملك (ت ٩٦ هـ - ٧١٤ م)، وربما

وكانت صادرات مصر إلى بيزنطة
القرطاس المصرية، وهي الطواير التي
عدت من خصائص مصر، وأفضل
ما كتب فيه «وهو من حشيش أرض
مصر ويعمل طوله إلى ثلاثين ذراعاً
وأكثر من عرض شبر»، ولقد نافس
تصدير القرطاس المصرية في بداية القرن
الرابع الهجري وحل محله نوع من
الورق المصنوع من الكتان سمي الكاغد،
وبهذا يقول الثعالبي «إن كواغد سمرقند
هي من خصائصها وقد عطلت قرطاس
مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون
فيها لأنها أنعم وأحسن وأرق ولا تكون
إلا سمرقند والصين».

- ويذكر المؤرخون بأن الورق اختراع
صيني يعود إلى سنة (١٢٣ ق.م)،
وعندما فتح العرب المسلمون سمرقند
جلبوا منها مجموعة من أسرى الحرب
الصينيين، وكان بعض هؤلاء الأسرى
بارعاً في صناعة الورق فعمل على إقامة
صناعة الورق في سمرقند في سنة ١٣٤
هـ / ٧٥١ م فنشطت فيها، وصنعوه من
القنب والكتان والياق الحشيش،
وصدرت للعراق وغيرها من المناطق
العربية والإسلامية.

- وفي العصر الأموي صنع الورق من

**الورق اختراع صيني
يعود إلى سنة (١٢٣
ق.م)،**

**القرطاس،
نوع من النسيج
المصقول المصنع
الرقيق الأبيض، وهو
من الحرير.**

الوزير البرمكي الفضل بن يحيى يقيم أول مصنع للورق في

الوراقة والوراقون، ولم يمض القرن الثالث الهجري حتى صار في بغداد أكثر من مائة وراقة، ويبدو أن الورق ظهر بشكل متدرج ومتطور واستعملت أنواع منه مختلفة في نفس الوقت وذلك تبعاً لجودتها وغلائها ورخصها، ووجد في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي عراقياً محباً للكتب كان لديه في خزانة كتبه مخطوطات فيها الجلود، والصطام، وقرطاس مصر، والورق الصيني، والورق الشامي، وجلود آدم وورق خرساني.

ونظراً للنهضة الفكرية، والاقبال الكبير على استهلاك الورق في العصر العباسي الأول، أقدم الوزير البرمكي «الفضل بن يحيى سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م» على إقامة أول مصنع للورق في بغداد، ثم امر أخوه فيما بعد جعفر البرمكي باستخدام الورق محل الرق في دواوين الدولة وكان أخوه في السنة نفسها والياً على سمرقند، وهذا يوضع لنا أن دخول تركستان في الفلك السياسي والاقتصادي للعالم العربي الاسلامي سهل هجرة التقنيات الصينية نحو الغرب الإسلامي، ويؤكد الرأي القائل بانتقال صناعة الورق من الصين إلى سمرقند ومنها إلى بغداد ثم إلى بلاد

تكون الحاجة الماسة والكبيرة الى القراطيس، وخاصة بعد تعريب الدواوين في عهد الملك عبد الملك (ت ٨٦ هـ - ٧٠٥ م)، هي التي كانت وراء هذا الابتكار الذي أصبح القرطاس الدمشقي يصنع من القطن، واستمر الخلفاء في العصر الأموي يستعملون ورق البردي المصري لأنه أرخص من القرطاس الشامي القطني هذا، ونظراً للطلب المتزايد عليه ولأسباب أخرى كثيرة تعود لطبيعة الصراع العربي الإسلامي والبيزنطي - فقد توقف تصديره إلى بلاد الروم وابتداء من عهد عبد الملك بن مروان وتعريب الدواوين، وبقي الطلب على القرطاس المصري متزايداً في العصر العباسي الأول واستمر غالي الثمن، وقد شكا الناس من ذلك الوقت من ندرته وغلاء ثمنه، ولقد أعطت القراطيس المصرية، من البردي اسمها الدرب من دروب بغداد وسمي «درب القراطيس»، ولبعض الباعة حيث عرف بعضهم «بالقراطيس»، غير أن هذه القراطيس، تراجعت أمام الورق الصيني بعد أن بدأ بالانتشار من الشرق في أواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وكثر على اثر ذلك ظهور

الشام وغيرها من الأقاليم العربية الإسلامية. ويقول بعض الكتاب ان صناعة ورق البردي وإعداده للكتابة انتهت نحو منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، ونجد أن ورق البردي المؤرخ ينتهي في عام ٣٢٣ هـ / ٩٥٣ م في حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وهناك وثيقة تؤكد استعماله قبل سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م، وانتشرت هذه الصناعة بسرعة كبيرة لمواجهة الاستهلاك المتزايد جداً وذلك بسبب كثرة المترجمات والاقبال العام والكبير على اقتناء الكتب ومارافق ذلك من طلب كبير على الورق، فازدادت معامل الورق ونقلت مطاحنه إلى بلاد الشام وأسست معامل لصنع الورق في دمشق بعد تأسيس معمل في بغداد في (١٧٨ هـ) كما أشرنا، ثم تتابعت بعد ذلك مواكب صناعة الورق المتقدمة وزحفت سريعاً، فاقامت المعامل في معظم المدن الشامية أمثال طرابلس، وطبرية وغيرها، وذلك ابتداء من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وهذا مايشير إليه المقدسي وغيره حيث صادفت زراعة القنب ظروفاً مناسبة في بلاد الشام، ومنذ القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، أصبح الورق أهم مادة للكتابة في العالم العربي والإسلامي إن لم نقل المادة الوحيدة، وكان مثل السكر يصنع في مصانع ضخمة وينتج بكميات وفيرة وبنوعيات والوان مختلفة، ويبدو أن صناعة الورق في العالم العربي الإسلامي كانت بيد الحكومات، حتى ظهر المصنعون الكبار في الأزمنة اللاحقة، ولقد نقل العرب استعمال عجينة الكتان في صناعة الورق من سمرقند إلا أنه سرعان مااستبعد الكتان فيما بعد وحل محله القطن لأنه أقل كلفة وأكثر انتشاراً في الشام وغيرها.

- وكانت طرابلس من أهم مراكز صناعة الورق في بلاد الشام وفاقته سواها من البلدان في ذلك، وقد زارها الرحالة ناصر خسرو واطرى على ورقها بقوله أن أهل هذه المدينة «يصنعون فيها الورق الجميل مثل ورق سمرقند بل أحسن منه، واشتهر ورقها بمختلف أنواعه المعروفة في ذلك الوقت، من الكاغد، والطوامير، والقراطيس وسد حاجة حوانيت الوراقين، وكانت

بغداد، طرابلس من
أهم مراكز صناعة
الورق في بلاد الشام
وفاقت سواها من
البلدان في ذلك،

**دمشق وهي أم المدن
الشامية فقد اشتهرت
اشتهاراً كبيراً في
ذلك، وقد نوه بورقها
المؤرخون البيزنطيون**

دائمة بلغ عددهم أكثر من مئة وثمانين ناسخاً كانوا يعملون بشكل دؤوب لصيانة محتوياتها وتجليد مخطوطاتها وزخرفتها بالذهب والفضة والكتابة عليها بخطوط جميلة وانيقة، وبلغ في عدد محتوياتها من الكتب حتى لقد قيل أنها وصلت إلى ثلاث ملايين مجلداً منها خمسون ألف نسخة من القرآن الكريم وثمانون ألف نسخة تفاسير، ولهذا فقد اعتقد الصليبيون خطأ أنها لاتتحدث إلا القرآن وتفسيره فدمرت المكتبة أثناء الغزو الصليبي لبلاد الشام. وامتازت طبرية بصناعة الورق ايضاً وقد ذكر ذلك المقدسي البشاري وأما دمشق وهي أم المدن الشامية فقد اشتهرت اشتهاراً كبيراً في ذلك، وقد نوه بورقها المؤرخون البيزنطيون، أما المؤرخون العرب والمسلمون فقد مدحوا الورق الدمشقي واثنوا على محاسنه وجماله، فقال أبو البقاء البكري «وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقي أوصاله»، ونظراً لجودة ورق طرابلس ودمشق وتفضيله على الورق المصنوع في سمرقند لقيت تجارته رواجاً عظيماً وكان يصدر بكميات كبيرة إلى مصر، وتحدث أحدي الرسائل عن

مصانعها تمد المشتغلين ببيع أو نسخ أو تأليف الكتب بكميات وفيرة من الورق يختلف أنواعه، وكان لهذا أثره على حركة التأليف والكتابة والترجمة والنسخ التي نشطت في طرابلس خلال العصر الفاطمي، فكثرت فيها الوراقون والمؤلفون، والكتاب، والمجلدون، وفي سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٩٧ م قام جلال الملك ابن عمار (ت ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) ابن أخي أمين الدولة (ت ٤٦٤ هـ / ١٧٠١ م) بتجديد «دار القلم» في طرابلس^(٢٤) وبالغ المؤرخون في عدد الكتب التي كانت موجودة في مكتبة طرابلس عندما هاجمها الصليبيون. ومن المعروف أن الفاطميين قد اهتموا بنشر مذهبهم واولوه اهتمامهم، وعملوا على نشر التشيع وتعليم الدعاة والعلماء والفقهاء وغيرهم، ولهذا اكثروا من دور العلم حتى أصبحت طرابلس مركزاً هاماً لنشر المذهب الشيعي ونشطت فيها الحركة العلمية، واستمرت دار العلم فيها تؤدي رسالتها الدينية والفكرية في ايام بني عمار الشيعة ايضاً حتى لقد قيل «إن طرابلس في زمن آل عمار صارت جميعها دار علم»، وكان في هذه المكتبة عدد كبير من النساخ ممن يعملون بصورة

حمولة ٢٨٨ جمل (١٤٠٠ ألف رطل تقريباً) من الورق تحمل العلامة (أو الماركة المسجلة) الخاصة بابن إمام من دمشق، وفي الوقت نفسه أرسل هذا التاجر إلى الأسواق المصرية عشرين بالة من الورق الدمشقي عن طريق البحر من صور، ويستدل من هذا إلى جانب ماسبق بأن كمية كبيرة من الورق الدمشقي كانت تصدر للخارج ومنها الأسواق المصرية والأقطار الأخرى «فقد كانت أوروبا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة على مايشهد بذلك اسم الورق الدمشقي (شارتاداماسينا). وعبر العصور كان معظم الورق الشامي يصدر إلى مصر وبعضه يصدر إلى بيزنطة أيضاً. وقد وصف محمد كرد علي ورق الشام وطريقة صنعه وبين أهم المواد التي تدخل في صناعته كالخروق البالية، والحرير، واستبدل ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي بالحرير في سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م رجل اسمه يوسف بن عمر كما اشرنا سابقاً، ولايزال في خزانة دار الكتب العربية (الظاهرية) بدمشق كتاب سُطر سنة ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م على ورق يظن أنه من الورق الشامي وهو أقدم

مخطوط عرف بالشام ولايزال على متانته. وكان الورق المعروف بورق الطير الذي تكتب به البطائق وتعلق في أجنحة الحمام الزاجل صنف من الورق الشامي الرقيق للغاية وفيه وعليه ملطغات الكتب وبطائق الحمام، ويعد هذا النوع من الورق مفخرة لتقنية صناعته في هذه الفترة. وأما حلب فقد امتازت فيها صناعة الورق من حيث الجودة والكمية وصدر ورقها داخلياً وخارجياً، ولشهره صناعته فيها وكثرته، سمي حي من أحيائها، حيث اقيمت معامل الورق باسم الوراقة، وحافظ الورق الحلبي الصقيل المتين على شهرته حتى العصر الحديث، كما اشتهرت مناطق أخرى في بلاد الشام بصناعة الورق، وقامت مصانعه في حمص، وحماه، ومنبج، واستمرت هذه المدن بإنتاج الورق في الأزمنة اللاحقة. رافق صناعة الورق وازدهارها ظهور طائفة من الناس يعملون بالورق والكتابة والكتب، فقد كان الورق عاملاً مساعداً على النشاط العلمي وتقدمه، وظهر التنافس الكبير في إقتناء الكتب والمكتبات وزاد عدد العاملين بالوراقة

**أوروبا الشرقية تبتاع
ورقها من بلاد الشرق
الأدنى مباشرة على
مايشهد بذلك اسم
الورق الدمشقي
(شارتاداماسينا)**

وتجارتها، وكثر المشتغلون بتجليد الكتب ونسخها وبيعها، ونشطت صناعة الأقلام والبحث عن الحبر والصمغ واختيار أجودها، وتقدم فن التجليد وظهرت الحاجة إلى الجلود من الغزلان والماعز والعجول، واستخدم الحبر والدياج والأطلس في تجليد المصاحف بشكل خاص، ومهر أهل الشام بفن تجليد الكتب وما يذكر في هذا المجال أن الجغرافي المقدسي كان قد برع في فن التجليد على الطريقة الشامية وكان في رحلاته يطلب لتجليد الكتب كلما نزل من منطقة، وعندما زار اليمن ونزل في عدن أعجب الأهالي هناك بتجليده وكانوا يدفعون له دينارين عن تجليد كل مصحف، وتعلم العرب المسلمون من المسيحيين العرب جمع الصحف بين دفتي كتاب مشدود، والمسيحيين العرب في بلاد الشام والجزيرة وغيرها كان لديهم من الكتب الدينية المجلدة مما اتبع لبعض العرب المسلمين رؤيته والإعجاب بالجلود التي كانت تحفظ ما فيها حق الحفظ، وفكر العرب المسلمون في اتباع هذه الطريقة وجمع صحف القرآن بين لوحين لحفظها، واستخدموا الأغلفة من الخشب وذلك قبل أن يتعلموا صناعة

الجلود واتقانها عن القبط، لتأخذ عنهم بعد ذلك مدينة البندقيّة أساليبهم هذه وتنشرها بدورها في انحاء أوروبا. كما أرتبط بالوراقة مهنة الخطاطة، واشتهر هؤلاء الخطاطون في العالم العربي والإسلامي، واحتلوا مراكز ممتازة في المجتمع، وأعجب المؤرخون بمشاهيرهم وأصبحوا يكتبون أسماء من يخط المخطوطة أو الكتابة عليها فيما إذا مأرادو الرفع من أهمية المخطوطة وقيمتها.

ورافق الوراقة أيضاً مهنة المذهب وهو يلي الخطاط في المرتبة، ويقوم بعملية الزخرفة وكانت العناية تتجه إلى المقدمة والفاصلة/ بحيث تلون وتذهب وتزين بعض المخطوطات وبالرسم والصور، متأثرة بالصناعة الفارسية في هذا المجال، وتقدمت هذه الصناعات وحفظت معظم المخطوطات في جلود جميلة النقوش بديعة الصنعة مما حدا بالممالك فيما بعد للنسج على منوالها، وقام الأوروبيون بدورهم بأخذ هذه الأساليب واستعملوها.

وعرف الناس في هذه الفترة كثرة الدلائل، واقتصرت مهمتهم على البحث عن الكتب النادرة وشرائها

رحلاته يطلب لتجليد الكتب كلما نزل من منطقة، وعندما زار اليمن ونزل في عدن أعجب الأهالي هناك بتجليده وكانوا يدفعون له دينارين عن تجليد كل مصحف، وتعلم العرب المسلمون من المسيحيين العرب جمع الصحف بين دفتي كتاب مشدود، والمسيحيين العرب في بلاد الشام والجزيرة وغيرها كان لديهم من الكتب الدينية المجلدة مما اتبع لبعض العرب المسلمين رؤيته والإعجاب بالجلود التي كانت تحفظ ما فيها حق الحفظ، وفكر العرب المسلمون في اتباع هذه الطريقة وجمع صحف القرآن بين لوحين لحفظها، واستخدموا الأغلفة من الخشب وذلك قبل أن يتعلموا صناعة

رافقة مهنة الوراقة،

التطيد..

الخطاطة..

المذهب..

....

دكاكين الوراقين ملتقى الأدباء والعلماء

ومن ثم يبعها، ولهذا كانوا يجوبون الأمصار ويبحثون في الأسواق والمكتبات للحصول على أندرها وأفضلها وشكل هؤلاء همزة وصل بين تجار الكتب في العالم العربي والإسلامي وسبب اتباع استخدام الورق انتشار الكتب في كل مكان، وقامت أسواق بيع الكتب والوراقين، وامتلات حوانيتها، بالنساخين والخطاطين، وغدت مصدر زرق لعدد كبير من الناس، وألحق في هذه الفترة بمعظم الجوامع مكتبات عامة، غدت مقصد طلاب العلم للإطلاع عليها والنهل من مهارفها. وزاد الإقبال على هذه الأسواق كل يفتش عن علمه، فالشاعر، والفيلسوف، والفلكي يبحثون عن كل جديد من الكتب وفي هذه الحوانيت كانوا يعيشون ويلتقون فقد استقبل ابن النديم ندماءه وخلانه وتعرف إليهم في السوق حيث كان وراقاً يعمل تاجراً بالكتب على الرغم من أنه كان عالماً مشهوراً ألف الفهرست الذي يتضمن أسماء جميع الكتب والترجمات التي ظهرت بالعربية حتى أيامه، وكانت واجبات الوراق كثيرة إذ كان ينتخب الورق وينسخ الكتب ويقوم بعملية

النسخ والتصحيح حتى لا يقع فيه التحريف ومن ثم يجري عملية التجليد والبيع، ولقد اشتهرت الوراقة في هذه الفترة وتدل الكتب التي صدرت، وتعدد المكتبات ودور العلم والنهضة الثقافية على مبلغ رقي صناعة الورق وتطورها ونشاط الوراقة وتفنها، فالوراقة كانت مهنة محترمة عمل بها علماء أجلاء ومؤلفون مشهورون منهم كما أشرنا ابن النديم، وكذلك كان ياقوت الحموي وراقاً يبيع الكتب ويقوم بنسخها وغيرهم كثيرون من أكابر العلماء كابن الجوزي، وابن الفوطي، وكانت دكاكين الوراقين ملتقى الأدباء والعلماء، ولعبت دوراً كبيراً في تثقيف المجتمع العربي والإسلامي، وكان الكثيرون من الوراقين يعرفون بدلالي الكتب.

وكان للاهتمام الكبير بالكتب والمكتبات أكبر الأثر على النهضة التي شملت كل مرافق الحياة فقد نهل الجميع من العلوم والمعارف وأهتم بها رجال الدين والحكام والأمراء والأغنياء والتجار، وعملوا جميعاً بسخاء على دعم النهضة الثقافية، ويكفي أن نذكر سيف الدولة الحمداني ومجالسه وتشجيعه للشعراء والأدباء والاسراف

الكبير في العطاء وسكه الدنانير الخاصة لمنحها للشعراء والأدباء، وكان يزن الدينار منها عشرة مثاقيل، وجود سيف الدولة شمل كل من عمل وساهم في النهضة الحضارية والثقافية بشكل خاص وشمل الصناع، والعاملين والمبدعين وكل من احترمتهم الأمير العربي فكانت النتيجة إبداعهم المتميز الذي ظهر في عصره وكان يضاهي شجاعته في ساحة الحروب وانتصاراته الباهرة والوقوف في وجه الأعداء، وقد اهتم أكثر ما اهتم برعاية الأدباء والشعراء وكانت ندوته المشهورة التي كان يقيمها وقت السلم في قصره حافلة بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة يقصدونه من كل صوب يلقون من كرمه ما يدفعهم ذلك إلى تجديد صناعتهم والإرتقاء بها ويكفي أن نتذكر كرمه مع أبي فراس عندما أعجب في بيت واحد بشعره فأعطاه ضيعة بمئذنة تغل ألف دينار، وما صنع مع المتنبي حين أنشده قصيدة فأكثر له الأمير العربي في العطاء لحد الإسراف، وأما قصته مع أبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني فقد قدم له ألفا دينار معتدراً لقله هذا المبلغ.

ويذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات

الأطباء أن سيف الدولة كان له أربعة وعشرون طبيباً منهم عيسى الرقي الذي كلف بالترجمة من السريانية إلى العربية وكان سيف الدولة يعطيه ويغدق عليه أربعة أرزاق، كما شجع سيف الدولة أصحاب الخط الجميل وأجزل العطاء للخطاطين الماهرين ولهذا فقد ازدان قصر الحلبة، قصر سيف الدولة في حلب بالآيات القرآنية وآيات الشعر المكتوبة بخط مذهب جميل يثير الإعجاب والدهشة، وكان سيف الدولة لفرط إعجابه بصحائف ابن مقلة «وهو أخو الوزير أبي علي محمد بن علي بن مقلة» حيث كان هذا خطاطاً لسيف الدولة - كان يصحبها معه حتى وقت خروجه لغزو الروم ويذكر ابن العديم مشيراً إلى ذلك إن سيف الدولة خسر في معارك ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م خمسة آلاف ورقة بخط أبي عبد الله الحسن بن مقلة، ولا شك أن حلب في عهد سيف الدولة احتوت على مكتبة عظيمة كثيرة الكتب وقد ذكر أن مجلس سيف الدولة تضمن ملوك الشعراء وكان منهم الأخوين هما الخالديان: (أبو بكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم، وكانا من خواص سيف الدولة وندمائيه وتوليا

سيف الدولة
الحمداي يسك ديناراً
خاصاً لمنحه للشعراء
والأدباء

الأشراف على خزانة كتبه).

واورد ابن العديم في كتابه الانصاف والتحري خبراً مفاده أن خزانة كتب الشرقية التي بجامع حلب نهبت في فتنة في بعض أيام عاشوراء، وكان ذلك في زمن ابي العلاء المعري، ولم يبق في خزانة الكتب إلا القليل وجدد الكتب فيها فيما بعد الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان، ثم وقف غيره كتباً أخرى بها.

وكان هذا هو الحال في العصر المرواسي في الاهتمام بالكتب وبالعلم والمكتبات كما لم يقصر بنو منقذ من حيث الاهتمام بالكتب والمكتبات عن سيف الدولة ومما يذكر في هذا الصدد، شغف اسامة بن منقذ بالكتب وبالمكتبات، ويتضح ذلك من ملاحظة ابداءها عندما عادت أسرته من مصر فوقعت في أيدي الأفرنج وخسر الكثير من المال فلم يأسف عليه اسفه على ما فقد من الكتب وعددها أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، وملاحظته جاءت «فإن ذهابها علي ما قال حرازة في قلبي ما عشت».

وبالغ الفاطميون كثيراً في اهتمامهم بالكتب والمكتبات، وينقل المقرئ علي

بن أبي طي قوله «إن لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقصر في القاهرة ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان نسخة من تاريخ الطبري، وبلغ عدد مجلداتها مليون وستماية ألف بالإضافة لدار الحكمة بالقاهرة وهي التي أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م وبلغ عدد مجلداتها مائة ألف مجلد.

وفي طرابلس وصل المستوى الحضاري والثقافي أوجه في عصر أسرة بني عمار وساهم كما سبق القول مصنع ورق طرابلس في إثراء المكتبات بما يلزمها من كميات وفيرة من الورق الأمر الذي كان له الأثر الكبير على حركة التأليف والترجمة والكتابة والنسخ، وقد أقام امين الدولة بن عمار دار علم جمع من مكتبتها ما يزيد على مائة ألف كتاب، وارتفع هذا الرقم حتى وصل إلى ثلاثة ملايين في عهد فخر الملك عمار بن عمار ولا يفوتنا إلا ان نتذكر هنا ابن العميد وزير البويهيين ومكتبته الرائعة التي زهت بأن خازنها كان المؤرخ الشهير ابن مسكويه، وكان ابن العميد يحب الكتب حباً شديداً فقد جمع مكتبة حوت كل علم وكل نوع من أنواع

طرابلس...
مائة ألف كتاب في
عهد امين الدولة ابن
عمار...
وثلاثة ملايين كتاب في
عهد فخر الملك عمار
بن عمار

المعارف والآداب وظهر طوال حياته مهتماً بها يتفقدوها ويغذيها ويشتري لها الكتب ويأمر باستنساخها، وفاقه بحب الكتب والمكتبات تلميذه اسماعيل بن عباد المعروف باسم الصاحب ابن عباد فجمع مكتبة كبيرة بلغ فهرستها عشرات مجلدات ويعلق ول ديورانت في قصة الحضارة على ذلك بقوله «وكان عند بعض الأمراء كالصاحب ابن عباد من الكتب بقدر مافي دور الكتب الأوروبية مجتمعة».

ويجب ان نتذكر دائماً بأنه من المآثر الهامة لبلاد الشام على الغرب الأوروبي نقل الورق إليه، فخلال الحروب الصليبية تعلم اسيران فرنسيان في دمشق سر صناعة الورق وعندما عاد إلى بلادهما نشر هذا السر. وعمت بعد ذلك صناعة الورق في فرنسا، وأوروبا. كما كان لمصانع الورق التي اقامها العرب المسلمون في صقلية والاندلس أكبر الأثر في نقل هذه الصناعة إلى ايطاليا وبقية بلدان العالم الغربي التي كانت تزود مباشرة بالورق مما تصنعه معامل الورق في بلاد الشام لفترة طويلة، ومعروف ان الاوروبيين في القرون الوسطى كانوا يكتبون على رقوق من

جلود الحيوانات غالية الثمن وكان ثمنها المرتفع عائقاً كبيراً أمام انتشار المؤلفات المكتوبة، ومع تقدم الزمن اصبحت الرقوق نادرة وقليلة مما اضطر الرهبان إلى حك المؤلفات القيمة لعظماء الرومان والاغريق ليكتبوا مواعظهم الدينية عليها، ولولا العرب لفقدت أكثر المؤلفات الخالدة القديمة ويكفي أن نتذكر فضل العرب في هذا الميدان لنذكر مبلغ اسهامهم في الحضارة البشرية وفضلهم في الحفاظ على التراث الانساني وتطويره، وما على الذين يريدون الانتقاص من شأن العرب والحضارة العربية الاسلامية إلا أن يفكروا قليلاً، ويتذكروا في آثار ونتائج هذه الصناعة الخالدة ودور العرب الايجابي في النهوض بها وتطويرها فقد جاء في الموسوعة البريطانية «ولما سقطت دولة العرب في اسبانيا وانتقلت صناعة الورق من ايديهم إلى النصارى الأقل كفاءة منهم انحطت الصناعة وانحط الصنف». وكل هذا وذاك يؤكد على الدور الهام الذي قام به العرب من حفظ الحضارة البشرية وتطويرها والإبداع في جميع مفرداتها وعناصرها وما مساهمتهم في الاهتمام بالورق

اسيران فرنسيان

ينقلان سر صناعة

الورق إلى فرنسا ثم

أوروبا..

وصناعته وتطويره ومانقله إلى أوروبا إلا
 شاهداً ودليلاً أكيداً على الدور الهام
 والفعال للعرب في النهضة الأوروبية
 الحديثة وقيامها، وستبقى هذه الحضارة
 بمختلف أشكالها المتطورة مهما علت
 شاهداً على أصالة وعراقة ودور الحضارة
 العربية الإسلامية في تقدم وتطور
 الحضارة البشرية بجميع اتجاهاتها
 وفرعها.

ستبقى الحضارة
 الغربية بمختلف
 أشكالها المتطورة
 مهما علت شاهداً على
 أصالة وعراقة ودور
 الحضارة العربية
 الإسلامية

الأعمال الحربية بين الموحدين والاسبان

دبلوم دراسات عليا تاريخ عرب وإسلام
عبد الكريم الشيخ حمود (*)

ولكن مالبث المرابطون أن ضعفوا وقامت الثورات ضدهم في الأندلس ولكنهم بالرغم من سقوط دولتهم في المغرب حافظوا على سلطانهم في الأندلس لفترة أطول وحينما بدأت الأمبراطورية الموحدية تمتد نفوذها إلى الأندلس طلب الناثرون والمرابطون النجدة من أعداء الأمس الاسبان الشماليين ورحب الاسبان بمد يد العون لأن ذلك يعني مد نفوذهم ويعني إضعاف الجبهة العربية المعادية وتفتيتها ولذلك وجد في شبه الجزيرة الإيبيرية قوتان كبيرتان متصارعتان:

- ١ - الاسبان الذين اطلق عليهم المؤرخون العرب اسم الروم أو الإفرنج أو أسماً مشتقاً منه ديانتهم ألا وهو النصراري.
- ٢ - الموحدون.

واتخذ الصراع شكلين:

- ١ - صراع مباشر ويتمثل بالمعارك البرية والبحرية التي دارت بين القوتين الكبيرتين.
- ٢ - صراع غير مباشر وذلك بتشجيع الأعمال التي تضعف العدو وتؤدي إلى انهياره

كان المرابطون يقفون في وجه الاسبان في القسم الثاني من امبراطوريتهم اعني الأندلس واستطاعوا صد الخطر الذي يهدد بابتلاع الأندلس العربية في عدة معارك خاضها المرابطون بنجاح مثل معركة الزلاقة ومعركة إفرغة ومعركة اقلش

(*) أثناء الإعداد لإصدار هذا العدد وخلال مراجعة ملفات الأعداد القديمة وجدت هذا البحث، وعند قراءتي اسم صاحبه وجدت نفسي أردد: رحمه الله، والذاكرة تقود بي سنوات طويلة عبر الزمن، نحو شاب كله تفتح على الحياة، طموحه بلا حد، وآماله بلا قيد. بكل جهد حصل ودرس، وبكل عصامية بنى نفسه وثقفها، إنه الزميل المرحوم عبد الكريم الشيخ حمود، الذي قضى شهيد العلم وهو يعد لرسالة الماجستير في بغداد. وكان لزاماً علينا أن نفي لذكرى زميل عزيز بذل نفسه وهو يسعى في سبيل العلم. فقدمت موضوعه هذا إلى هيئة التحرير بعد تحكيمه ومناقشته تمت الموافقة على نشره.

رحمك الله يا عبد الكريم. لقد فقدناك صديقاً وباحثاً ومحباً للتاريخ، وعهداً لتابع الطريق الصعب الذي اخترته، وأن نبذل كل جهد لمعث تراث أمتنا

كالثورات مثلاً وتأبيدها مادياً ومعنوياً.

هذا الصراع هو موضوع بحثنا القادم.
الصراع المباشر بين الموحدين والاسبان

١ - في عهد عبد المؤمن بن علي:
عين أبو زيد عبد الرحمن بن يخيت والياً على قرطبة CORDOBA وعين عبد الرحمن بن حفص والياً على اشيلة SEVILLA وذلك سنة ٥٥٠ هـ.

فهاجم ابن يخيت الحصون الإسبانية القريبة ومنها حصن البطروج LOSPEDROCHES ومايليه من الحصون وذلك سنة ٥٥٠ وفتح واسر قائده القشتالي القمط وبعثه إلى مراكش ومالبت أن قام بحملة ثانية استولى فيها على حصني منتور والمدور ALMODOUAR جنوبي قرطبة وخرج عبد الله بن أبي حفص لغزو ابن الرنك - ابن الريق في بعض المصادر - في غرب الأندلس وكان معه براز صاحب المخزن وابن الحمام صاحب بطليوس BADAIOZ فعبر نهر التاجة عند قنطرة السيف ALCANTARA وهاجم حصن اطرونكش من أحواز بطليوس وانتصر عليه وقتل الاسبان الموجودين فيه فلما سمح الفتح بذلك

أرسل قوة لإغاثة الحصن ونشبت معركة اخرة انتصر فيها العرب وقتلوا ٦٠٠ من عساكر الفتح - الأذفونش - وعاد ابن أبي حفص إلى اشيلية ومعه الغنائم والسبي.

استعادة المرية ALMERIA

كانت المرية مركزاً للبحرين العرب الذين يغيرون منها على شواطئ اسبانيا وفرنسا وإيطاليا فجهز الفرنج حملة صليبية برية وبحرية اشترك بها كل من قشتالة والنافار وارجون وقطلونية وجنوه ويزرة وحاصروها ثلاثة أشهر ودخلوها عنوة في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢ بقيادة السليطين - الفونسو السابع ريموند - الموافق ١١٤٧ م. وكان وجود الفرنج في المرية يهدد مواصلات الموحدين البحرية بين الأندلس وشمال افريقيا فأرسل عبد المؤمن ابنه السيد أبو سعيد عثمان ومعه الشيخ أبو حفص فأرسل السيد حملة استطلاعية من غرناطة CRANADA وصلت باب المرية وقتلت عدداً من الفرنج ثم ارتدت إلى حصن برجة في الشمال الغربي من المرية وذلك سنة ٥٤٦.

ثم مالبت ان سار السيد بنفسه على رأس جيش ضخم وحاصرها براً واثاها

المرية
مركزاً للبحرين العرب
على سواحل اسبانيا،
فرنسا، وإيطاليا

سطول سبتة وحاصرها بحرأ بقيادة عبد الله بن سليمان وذلك سنة ٥٥٢ هـ ربنى سورأ على الجبل المشرف عليها إلى لبحر وعمل عليها فندقأ حتى يمنع لتجذات للفرنج المحاصرين بها. واستغاث لتصارى بالفنش - الفونسو السابع - لتسلطين فسار على رأس ١٢٠٠٠ نارس وسار معه ابن مرونيش بـ ٦٠٠٠ نارس وحاولوا كسر الحصار والوصول إلى الحامية المحاصرة ولكنهم فشلوا وعاد كل إلى بلاده ولم يصل السليطين إلى بلاده لأنه توفي في الطريق إلى طليطلة TOLEDO في مورتله في ٢١ آب ١١٥٧ واستمر حصار الموحدين للمرية بضعة اشهر حتى سقطت سنة ٥٥٢ تامان.

وفي ربيع الأول سنة ٥٥٢ جرت رقعة زغبولة قرب اشبيلية وهزم بها ابي يعقوب يوسف ابن الخليفة واستشهد فيها ابن عزون وابن الجمام والحافظ ييمون وهرب ابو يعقوب وابن وزير راسر الكثير من المسلمون.

وفي سنة ٥٥٥ استولى ابن الرنك - الفونسو هنريكيز على قصر ابي دانس ALCACEDOSAI وقتل جميع حاميته.

وفي نفس السنة جاءت «من جهة جيان» (JAEN) سرية من الاسبان لتتطلع الأخبار فخرج الأمر العزيز باتباعهم فادركهم الموحدون فغزوهم وسبوهم....

وفي سنة ٥٥٦ ارسل عبد المؤمن جيشأ إلى فحص البلقون فانهزم الاسبان وكان على القبائل ابن الشرقي وعلى الأندلسيين ابن صناديد.

وفي نفس السنة أرسل عبد المؤمن قائدين هما ابو سعيد بن الحسين وابو عبد الله بن يوسف وعندما وصلا اشبيلية أرسلوا ٥٠٠ فارس لبطليوس فغزوا شنترين SANTAREN وهزموا الاسبان وملك الموحدون بطليوس وباجه BEJA ويايره وحصن القصر واراد عبد المؤمن أن يحقق انتصارأ ضخمأ ضد الاسبان بغزوة عظمى برأ وبحرأ فأمر ببناء السفن فبنى منها ٢٠٠ قطعة على قول ابن صاحب الصلاة و ٤٠٠ قطعة على قول ابن أبي زرع وجمع الجنود وسار إلى سلا في يوم الخميس ١٥ ربيع الأول سنة ٥٥٨ فأجتمع له اعداد ضخمة قدرها ابن صاحب الصلاة بـ ١٠٠ ٠٠٠ فارس و ١٠٠ ٠٠٠ راجل بينما قدرها ابن أبي

٢٠٠ او ٤٠٠ قطعة
عدد السفن التي أمر
ببنائها عبد المؤمن
ليغزو الاسبان برأ
وبحرأ

زرع بـ ٣٠٠ ٠٠٠ فارس و ١٠٠ ٠٠٠ هـ. ٥٦٠ هـ.

راجل و ٨٠ ٠٠٠ من المطوعة جهات: وكذلك مهاجمة جراندة لمدينة
١ - جهة ابن الرنك بقلمرية
COIMBRA

٢ - جهة البيوج بالبطاط.

٣ - جهة ادفونش بطليطة.

٤ - جهة برشلونة BARCELONA.

من ذلك نرى ان عبد المؤمن كان يفكر بهجوم عام وشامل ضد الاسبان ولكن القدر لم يمهلهم فمرض وتوفي يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ ١٦ أيار ١١٦٣ ولكن ابن صاحب الصلاة يذكر أن اليوم هو يوم الجمعة ١٠ جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ.

٢ - في عهد أبي يعقوب يوسف:

كان يولي غزو الاسبان اهتماماً خاصاً حتى أنه كان أول الملوك الموحدين الذين غزوا بأنفسهم وقد شغل في بداية حكمه بالقضاء على خصومه وتثبيت دعائم حكمه فاستغل الاسبان ذلك وقاموا بمهاجمة العرب بالأندلس. فمثلاً مهاجمة اسبان شترين نظر طليطة بجهة اشبيلية فارسل ابو عبد الله بن أبي ابراهيم عسكر اشبيلية بقيادة ابو العلاء بن عزون فأدركوهم واندكروا الغنائم واسروا مائة فارس منهم وكان ذلك سنة

و كذلك مهاجمة جراندة لمدينة
ترجاله TRUJILLO في جمادى
الآخرة سنة ٥٦٠ ومهاجمته لمدينة
يايرة EVORA في ذي القعدة من نفس
العام وهاجم قامرش في صفر عام ٥٦١
وحصن متانجش في جمادى الأولى من
نفس السنة وحصن شيريه في آخر
جمادى الأولى وحصن جلمانية حيث
اتخذها لمهاجمة بطليوس حيث احتل
هذه الأخيرة بمساعدة ابن الرنك وحصر
الموحدين في قصبتها وكانوا بقيادة أبي
علي عمر بن تمصيلت وكان ذلك في
رجب سنة ٥٦٤ وشدد الاسبان الحصار
على الموحدين مما أدى إلى جواز الشيخ
أبو حفص عمر بن يحيى إلى اشبيلية
وبينما هو يستعد للسير إلى بطليوس إذ
جاء الخبر بأن فرناندة البيوج جاء لطرده
ابن الرنك وجراندة وفعلاً استطاع
الانتصار عليهما بمساعدة من الموحدين
المحاصرين في العقبة الذين فتحوا باباً من
أبواب المدينة وادخلوا جيش البيوج
المدينة ودارت المعركة بين البيوج
والغرب من جهة وابن الرنك وجراندة
من جهة أخرى ففر ابن الرنك وكسرت
ساقه اليمنى اثناء الفرار ثم اسر في

أبي يعقوب يوسف
أول الملوك الموحدين
الذين غزوا بأنفسهم

الموضع المعروب بقاية ولكن البيوج أحسن معاملته واطلقه وفر جراندة ايضاً وبذلك خرج الاسبان من بطليوس في ٢٢ شعبان سنة ٥٦٢ ثم عين ابو يحيى بن ابي حفص والياً عليها بعد تحريرها ودارت بينه وبين جراندة المقيم في حصن جلمانية عدة معارك وفي آخر هذه المعارك خدعة جراندة إذ تحالف مع أهل شنترين فامدوه بقوة كبيرة فأكمنهم ثم اغار على بطليوس فلاحقه ابو يحيى وجراندة يفر أمامه حتى وصل إلى مكان الكمين فخرج عليه الكمين وانهزم العرب واسر جماعة منهم ولم تكن الجبهة الغربية هي الجبهة الوحيدة وإنما وجدت عمليات حرية بين الطرفين في القطاع الأوسط فمثلاً في جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ غزا أهل جراندة المقيمين في وادي اش GUADIX مدينة رندة RONDA فغنموا فعلم الشيخ ابو عبد الله بن ابي ابراهيم والي غرناطة بذلك فأرسل قوة لاقت الاسبان بين نظر وادي آش وبين نظر غرناطة فالتجأ الاسبان إلى جبل شاهق فهاجمهم الموحدون وانتصروا عليهم وقتلوا وسبوا واسروا ٥٣ منهم ساقوهم إلى غرناطة حيث قتلوا.

وتعرضت رندة إلى هجوم آخر من قبل نونة ظئر اذفونش بن السليطين ووصل في هجومه إلى الجزيرة الخضراء ALGECIRAS ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط وقتل العرب وباسر منهم، وإذا عدنا إلى جبهة بطليوس نجد أن جرندة قد حاصرها بطليوس مما أدى إلى ضائقة تموينية بها مما سبب ارسال ٥٠٠٠ دابة ميرة من اشيلية وكان قائد القافلة ابو يحيى زكريا بن علي ولكن عندما وصلت القافلة قرب بطليوس خرج جراندة عليهم ومعه أهل شنترين وهزمهم وقتلهم واسرهم ونهب الميرة وكان ذلك يوم الخميس ٢٦ شعبان ٥٦٥ واستشهد قائد القافلة في هذه المعركة.

ولكن مالبث الموحدون بقيادة السيد ابو سعيد ان ساروا إلى بطليوس لإخراج الاسبان منها وفي نفس الوقت وصل فرناند البيوج إلى قرب بطليوس قاصداً احتلالها حتى لايتغلب عليها ابن الرنك وجراندة مما يدلنا على انقسام في جبهة الاسبان ثم مالبث أن عقد الصلح بين العرب والبيوج وتابع السيد ابو سعيد هجومه باتجاه حصن جلمانية وفتحته عنوة وطرده جراندة منه وكان ذلك في

**انقسام في جبهة
الاسبان وعقد الصلح
بين العرب والبيوج**

بلغ يوم السبت ٣٠ شوال وحصن الكرس ALCARAZ يوم الجمعة ٦ ذي القعدة ثم سار إلى بلاط الصوف ثم إلى غدر ثم إلى مرج البسيط ثم إلى وادي جزيرة شقر JUCAR حيث ارسل اخاه أبا سعيد في ١٢٠٠ فارس للإغارة على أول بلاد الاسبان بجهة وبذة ففتح حصن بمرج خمل ثم سار إلى وبذة حيث جرت معركة انتصر فيها الغرب وبات ابا سعيد على الجبل المطل على المدينة أما ابو يعقوب يوسف فقد وصلها يوم الثلاثاء ١٧ ذي القعدة. حيث اشتبك مع الاسبان وادخلهم المدينة وحاصروهم ومنع عنهم الماء وتجددت المعارك يوم الأربعاء ودخل العرب المدينة وحاصروا الاسبان في القسبة ولم يبق في المدينة قتال إلا في جهة الغرب جهة أبو العلاء ابن عزون الذي طلب العون من أبو يعقوب ولكن هذا لم يمهده لاشتغاله بمذاكرة الطلبة.

في يوم الخميس ١٩ ذي القعدة وصل موفد من الاسبان لتسليم المدينة مقابل تأمين أهلها ولكنه صرف دون جواب طمعاً بفتحها بالقوة وعاد الموفد يطلب الأمان مساء اليوم نفسه ولكنه أيضاً لم يجاب. واستمر الحصار وفي يوم الأحد

ربيع الأول سنة ٥٦٦ وفي سنة ٥٦٦ جاز أبو يعقوب يوسف إلى الاندلس بنية الهجوم على الاسبان فوصل اشبيلية يوم الجمعة ١٢ شوال واقام بها (١٠ ايام) ثم سار إلى قرطبة فوصلها في أول ذي القعدة ووجه منها عسكرياً يقدر بـ ٢٠٠٠٠ وعليهم أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن تقيجين إلى طليطلة فغير وادي تاجه وغنم ثم انصرف إلى قرطبة ووجه الميره على ٤٠٠ دابة إلى بطليوس وبعد ائصال الميرة عرج الموحدون أثناء عودتهم على حصن ليون وفيه اسبان من اصحاب جراندفة ففتحوه.

وحدثت غزوتان لطليطلة الأولى بقيادة أبي يعقوب نفسه والثانية بقيادة السيد ابي بكر ابن الخليفة وقابل في هذه الغزوة شانسوفيمينو (ابو يرذعة) فانتصر عليه ابي بكر وقتله وقتل جميع جنوده وعددهم ٣٦٠٠٠.

غزوة وبذة HUETE

خرج ابو يعقوب بنفسه لهذه الغزوة يوم الاثنين ١١ شوال سنة ٥٦٧ فوصل قرطبة الأحد ١٧ شوال واقام بها حتى الاثنين ٢٥ شوال ثم سار إلى القصير واندوجر ANDUJAR حتى وصل قرب ياسة BAEZA ثم فتح حصن

المطر سقى الاسبان
المحاصرين في
القسبة ومنع العرب
من اسقاطها.

مطار الصيف (الغبر) مالوف (سبباً في فشل غزوة كبرى

وادي برج قبله حيث عانوا قلة التموين -
عقبة الالبالس - مرج القبداق - حصن
ركانه - مجمع الأدوية - حصن بنيول -
شاطبة - حصن بليانة - حصن عصف -
حصن الج - حصن اوريوhle - مرسية -
غرناطة - اشيلية حيث وصلها يوم
الخميس ٨ ربيع الأول ٥٦٨.

ما هو سبب فشل هذه الغزوة
علماً أن الجيش كان يقدر بـ
١٠٠٠٠٠ فارس وراجل؟

١ - الظروف الجوية السيئة وذلك أن
الأمطار نزلت في فصل الصيف
وهذا غير مألوف.

٢ - الغلاء وقلة الأقوات وسوء الحالة
التموينية للجيش.

٣ - فساد البنية في الجهاد.

وفي أثناء تراجع ابو يعقوب وفي شهر
محرم من سنة ٥٦٨ هاجم ابن الرنك
مدينة باجه واخذها من عمر بن
مسحون.

وفي شعبان من نفس السنة خرج شان
منوس - الأحذب - من مدينة آبله وعبر
الوادي الكبير وهاجم استجه ECIJA
فغنم ٥٠٠٠٠ رأس وأسر من العرب
مايزيد على ١٥٠ رجلاً ثم عاد وعبر
الوادي من مخاضة بليارش فارسل ابو

٢٢ ذي القعدة جاء مطر وابل سقى
الاسبان المحصورين وهبت ريح شديدة
وكذلك حدث صبيحة الاثنين مما
أضعف معنويات العرب وتجددت
المعارك بعد ظهر يوم الاثنين وفي ليلة
الأربعاء ٢٥ ذي القعدة خرج الاسبان
المحاصرين وهاجموا قبيلة هسكورة مما
اضطرها إلى الفرار وفي يوم الجمعة ٢٧
ذي القعدة عرض الأمان على الاسبان
وبذه فرفضوه وفي يوم الأحد ٢٩ ذي
القعدة اقلع ابو يعقوب عن وبذه وبعد
ان عجز عن فتحها فلما شاهده
الاسبان المحاصرون خرجوا وهاجموه
واشعلوا النار في معسكره وقتلوا
الضعفاء والمرضى. وسار عائداً على
طريق قونكة CUENCA فوصلها يوم
الثلاثاء ١ ذي الحجة ثم سار منها إلى
البورت يوم الأربعاء ٢ ذي الحجة حيث
التقى باذفونش الصغير وقمطة نونة فليجاً
ابو يعقوب إلى جبل حصين على الضفة
الأخرى من وادي شقر بينما الاسبان
على جبل توبنس وفي يوم الجمعة اشتبك
الفريقان وانتصر العرب ثم انسحب
اذفونش إلى بلاده في ٥ ذي الحجة.

ثم عاد أبو يعقوب إلى اشيلية على
طريق جبل الصومعة - وادي تامطة -

يعقوب خلفه اخاه ابو زكريا يحيى يوم الخميس ١٣ شعبان وعبر الوادي الكبير من مخاظة قطيفان وسار إلى قرطبة حيث سار معه الشيخ ابو حفص ثم ساروا إلى حصن البطروج ثم لحقوا شان منوس بفحص كركوي قرب قلعة رباح CALATRAVA فهرب إلى جبل في المنطقة فهاجمه الموحدون وهزم الاسبان وقتل الأحذب وجميع من كان معه عدا مائتين واسترجعت الغنائم والأسرى يوم الأربعاء ١٩ شعبان. وفي سنة ٥٦٨ ايضاً ارسل ابو يعقوب ٤٠٠ فارس ومعهم ميرة على ٣٠٠٠ دابة إلى بطليوس فاوصلوا الميرة ثم خرجوا غازين لنظر طلبيرة TALAUEA فغنموا ٣٠٠ رأس وسبوا وقتلوا وارسل ايضاً من غزا طليطلة ايضاً.

وفي سنة ٥٦٩ غزا ابو يعقوب مدينة كركونة في شرق الأندلس.

وفي سنة ٥٧٠ يبدو أن الصلح بين الموحدين وفرناندة البيوج قد انقضت عراه لذا نرى هجوماً من قبل الموحدين على البيوج واحتلالهم لقسم من اراضيه يتمثل بقنطرة السيف وناخوش.

وهذه الأعمال كلها كانت غارات دائمة يقوم بها الطرفان ضد بعضهما

بعضاً بداعي الجهاد ولم تكن أعمالاً حربية كبيرة ذات اثر حاسم، وتستمر هذه الغارات فمثلاً:

في سنة ٥٧٢ نشبت معركة بين الموحدين والقتاليين وانصارهم الأرجوانيين فانهزم الموحدون واستولى المتحالفون على قونكة.

وفي شوال من نفس السنة اغار ابي الحسن على جهات طليطلة واغار ابو علي على طلبيرة وفتح حصناً على وادي تاجه.

وكرر على هجوم الموحدين على أراضي البيوج نجد أنه يغير في هذه السنة على أركش ARCOS وشريش DEAFRONTERA ولكن جند اشبيلية يلاحق جنوده ويهزمهم ويأسر ٨٠ منهم وفي الجهة الغربية حيث كانت الحرب تدور ضد ابن الرنك نجد هذا قد حاصر مدينة باجة BEJA في سنة ٥٧٣ ثم اقلع عنها وتوغل في أراضي العرب حتى وصل طريانة قرب اشبيلية وتغلب عليها ورد العرب بهجوم ابن تمصليت على فحص ابي دانس وبينما هو يقاتل إذا اتت الامدادات من أهل شنترين لاعدائه فانهزم العرب.

غارات دائمة بين
العرب والاسبان ولم
تكن أعمالاً حربية
كبيرة

وفي ١٠ محرم سنة ٥٧٦ حاصر محمد بن بوانودين الهنتاني يابرة ولم يتمكن من فتحها فرفع الحصار وسار إلى حصن فنج وفتح.

وفي سنة ٥٧٧ اغار اهل شنترين على الشرف ALJARAFE فخرج عليهم عسكر اشبيلية وقتلوا منهم ١٧٠ وتبعوهم فخرج على المسلمين كمين فانهزموا. واغار اهل طليطلة على اتجه وجهة قرطبة وفي سنة ٥٧٨ اغار اهل شنترين واشبونة ALSBONA على شلوقة من منطقة الشرف في ١٠٠٠ فارس و ١٠٠٠ راجل وكذلك اغاروا على حصن القصر.

أما في جبهة قشتالة فقد جرت حوادث برية هامة في سنة ٥٧٨ قام بها اذفونش الصغير اذحاصر قرطبة في ٤ صفر ثم سار إلى مالقة MALAGA ورندة وغرناطة واتجه واحتل حصناً من عمل روندة واسر فيه ١٤٠٠ مسلم ثم استولى على حصن شنتفيلة وحصن المنار في ١٧ صفر فاسر ٧٠٠ عربي ووضع فيه ٥٠٠ فارس و ١٠٠٠ راجل وعاد إلى بلاده في ١٣ ربيع الأول ولكن هذا الحصن مالبث أن عاد إلى العرب في ١٥ جمادى الأولى.

ورد العرب في ٨ جمادى الآخرة حيث خرج عبد الله بن وانودين من اشبيلية إلى حصن بته فاسر ٢٠ فارساً ثم سار إلى طليطلة فغنم وعاد فبعه أهل طليطلة فاشتبك معهم وهزمهم وقتل منهم ١٠٠٠ ومن اليهود أحلافهم ١٠٠٠.

وهذه المعارك كانت كلها برية ولكن كانت هنالك معارك تدور في البحر أيضاً بين الطرفين على الشواطئ الشرقية والغربية وعند مصب نهر التاجه ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة.

فقد غزا غانم بن مردنيش اشبونة بحرأ وغنم قطعتين وعاد إلى سبتة وكان ذلك سنة ٥٧٥ فرد القرنج بغزو شلطيش SALTES فاسروا عدداً من العرب وفي منتصف محرم سنة ٥٧٦ اغار الاسبان على سبتة واسروا غانم وغنموا كثيراً من القطائع. فرد العرب على ذلك بهجوم بحري قاده عبد الله جامع وابو العباس الصقلي بعد أن اجتمعوا بقادس GADIZ وكان معهما ٤٠ قطعة وجرت معركة مع اسطول اشبونة وانتصر العرب وغنموا ٢٠ قطعة واسروا ١٨٠٠ من الاسبان وكان ذلك في منتصف محرم ٥٧٧ .

هجوم عربي وآخر
اسباني على مواقع
هامة واسر وغنائم
من الطرفين.

غزوة شنترين SANTAREN:

لكي يضع ابو يعقوب حداً لهذه الغارات رسم خطة لضرب الدويلات الاسبانية وأراد أن يبدأ بضرب اقوى أعدائه حتى إذا ماعم الرعب بعدها بقية الدويلات من جراء الانتصار اخضع بقية الدويلات بسهولة.

لتطبيق هذه الخطة اراد مهاجمة البرتغال براً وبحراً حتى إذا وصل نهر دويرة DUERO زحف على ضفاف التاجو ودويره إلى قلب قشتالة وليون LEON.

خرج أبو يعقوب من اشبيلية يوم الخميس ٢٦ صفر سنة ٥٨٠ فوصل في طريقه إلى حصن العرجة يوم الجمعة ٤ ربيع الأول ثم سار إلى بطليوس وتركها يوم الخميس ١٠ ربيع الأول حتى وصل شنترين وحاصرها يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول بينما يجعل ابن ابي ررع بدء الحصار في ٧ ربيع الأول واستمر في الحصار حتى يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول بينما يجعل ابن أبي زرع نهاية الحصار يوم الثلاثاء ٢٢ ربيع الأول وارتكب ابو يعقوب خطأ وذلك بتحويل معسكره من شرق شنترين إلى شمالها وغربها مما يعرض الجيش لخطر التطويق. وحدث

سوء فهم للأوامر الصادرة عن الخليفة فقد امر أبو يعقوب ابنه أبا اسحق ان يكر صباحاً بالقيام بهجوم تجاه اشبونة لكي يحمي الهجوم على شنترين من مفاجأة من هذه الناحية وان يكون رحيله نهاراً.

ولكن أبا اسحق ظن أنه امره بالرحيل ليلاً وعبر نهر التاجو باتجاه اشبيلية بدلاً من السير باتجاه اشبونة واشيع عن عزم الخليفة على الرحيل بسبب رحيل أبو اسحق وبسبب جملة تلفظها الخليفة في مجلسه الخاص «نحن راحلون غداً ان شاء الله» ولكنه لم يصدر أمراً بالرحيل فقوض أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن المالقي خبائه وقوض الناس اخبيتهم عندما رأوه والخليفة لاعلم عنده بذلك وفي الصباح لم يجد الخليفة الا خاصته. فلما رأى الاسبان المحاصرين ذلك هاجموا الموحدين ووصلوا إلى خيمة ابو يعقوب وطعن عدة طعنات، وعاد أبو اسحق في هذه الأثناء بمن معه وجرت معركة اخرى انتصر فيها العرب وقتلوا ١٠.٠٠٠ من الاسبان ثم مالبت ابو يعقوب ان توفي. واختلف المؤرخون بكيفية هذه الوفاة:

١ - يذكر ابن زرع ان الخليفة طعن عدة

جملة تلفظها الخليفة
أودت بحياته

طعنات وانه توفي متأثراً بها يوم السبت ١٨ ربيع الآخر.

٢ - يذكر عبد الواحد المراكشي أن الخليفة طعن تحت سرتة وانه توفي في ٧ رجب.

٣ - يروي ابن الاثير انه مرض وتوفي اثناء الحصار ويؤيده في ذلك الحميري. ولكن بصورة عامة لم يكن أبو يعقوب موفقاً في قتاله للأسبان لا في حصار وبذه ولا في حصاره لشترين حيث فقد حياته في هذا الحصار.

٣ - في عهد أبو يوسف يعقوب المنصور:

يعتبر المنصور من أنجح الخلفاء الموحدين في قضية الصراع ضد الأسبان بالرغم من أنه عانى بعض المصاعب الداخلية عند تسلمه السلطة فاستغل الأسبان في الجهة الغربية ذلك وأرسل ابن الرنك - ابن الريق - جيشاً برياً ودعمه بصليبيين قدموا من انكترا إلى مدينة شلب Slives فدخلها وسبى وقتل إذ كان عدد سكانها ٦٠ ٠٠٠ فلم ينجو منهم سوى ١٣٠٠٠ ثم تابعوا زحفهم واستولوا على باجة ويابرة.

أما القشتاليون فقد كانوا بقيادة اذفونش - الفونسو الثامن - فاستولى

على حصن المنار اثناء غزوه لقرطبة واشبيلية وحاصر أم عزالة واحتل ريبة ووصل إلى حصن شلير ثم سار إلى الجزيرة الخضراء وتحدى المنصور واستمر في غزوته من ربيع الآخر حتى أوائل جمادى الآخرة سنة ٥٨٥ .

أما رد فعل المنصور تجاه هذه الأحداث فقد ويخ قادة الأندلس عند سماعه سقوط شلب وأمرهم بغزو الغرب وفعلاً سار والي قرطبة محمد بن يوسف في سنة ٥٨٦ واعاد فتح شلب وباجه ويابرة وفتح قصر ابي دانس ورجع إلى قرطبة ومعه ١٥ ٠٠٠ سبيه و ١٣٠٠٠ أسير في شوال ٧٥٨ وفي سنة ٥٨٥ أي قبل خسارة شلب عبر المنصور إلى الأندلس وأغار على شترين لينتقم لهزيمة والده وعلى الأشبونة وقتل ومبا وعاد إلى العدو بـ ١٣٠٠٠ سبية.

معركة الأرك ALARCOS:

في سنة ٥٩١ وبعد قدوم كتاب التحدي من الفونسو عبر المنصور البحر في جمادى الآخرة واسرع إلى لقاء عدوه الذي كان ينتظره في مكان يدعى الأرك بين قرطبة وقلعة رباح وقبل وصول المنصور إلى المكان بمرحلتين عقد مجلساً حرياً يوم الخميس ٣ شعبان ٥٩١

المنصور من انجح الخلفاء الموحدين، في قضية الصراع ضد الاسبان. بالرغم من مصاعبه الداخلية.

القلب... الميمنة...
الميسرة...
المقدمة... خطة...
انتصر فيها المنصور

الأرك وبعض التلال.

سير المعركة:

خرج القادة يشجعون المقاتلين ولما أندفع للهجوم انقض عليهم ٧ - ٨ آلاف من الفرسان القشتاليين الثقيلين بالدروع ورد العرب الهجوم مرتين وعززت قوى القشتاليين وهجموا للمرة الثالثة على القلب ووصلوا إلى القائد العام وقتلوه ولكن الجناح الأيمن بقيادة ابن صناديد التف على المهاجمين واصبحت المعركة أكثر عنفاً وتقدم الموحدون وحيث هجم المنصور ببقية الجيش وحطم بقية المقاومة وهزم الأسبان وفر الأذفونش في ٢٠ فارساً. أما بالنسبة للخسائر:

١ - يذكر ابن عذاري ويوافقه الحميري أن قتل العدو كان ٣٠ ٠٠٠ بينما خسائر العرب ٥٠٠.

٢ - بينما يذكر ابن الاثير أن قتل الأفرنج ١٤٦٠٠٠ وان الأسرى ١٣٠٠٠ وخسر العرب ٢٠ ٠٠٠ قتل واستفاد المنصور من النصر فحاصر قلعة الأرك ودخلها عنوة واسر في الحصن ٢٤٠٠٠ اطلقهم المنصور وغير كنيسة الحصن إلى مسجد وصلى بها المسلمون.

استشار الأشياخ وخاصة الأندلسيين منهم وذلك لخبرتهم بقتال الاسبان فأترح عليه ابن صناديد ان يقدم أحد شيوخ الموحدين بالجيش للقتال وبقاء المنصور مع احتياطي جيوش الموحدين قريباً لحماية المنهزمين وبنفس الوقت يكون العدو قد انكسرت شوكته من قتال المتقدمين فوافق المنصور على الخطة وفي ٥ شعبان عين ابي يحيى بن أبي حفص قائداً للجيش المتقدم. التعبئة عند المسلمين:

القلب: وفيه القائد العام أبو يحيى ومعه قبيلة هتاتة.

الميمنة: وفيها ابن صناديد ومعه جنود الأندلس.

الميسرة: وفيها العرب بقيادة جرمون بن رياح ومغراوة بقيادة منديل المغراوي ومرين بقيادة محيو بن أبي حمامة وهسكورة والمصامدة بقيادة تجليد بن علي.

المقدمة: وفيها المطوعة بقيادة أبي خزر يخلف الأوروبي.

وتقدم الجيش وكان الأسبان على ربة عالية فنزل العرب أمامهم في الوطا يوم الأربعاء ٩ شعبان ٥٩١ - ١٩ تموز ١١٩٥ وكان يحيى جناح العرب قلعة

وفي سنة ٥٩٢ خرج المنصور يوم الاثنين منتصف رجب وفتح حصن منتانجش وترجاله وطلبيرة وشن الغارات على طليطلة وقطع اشجارها وانكى في الروم.

وجد غاراته في السنة التالية ٥٩٣ وتوغل في بلاد الروم ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملك من العرب فقد فتح رباح ووادي الحجارة GUADAJARA ومجريط MADRID وجبل سليمان واقليج UCLES وحاصر طليطلة وفيها الفونسو لمدة ١٠ ايام ثم رحل إلى طلمنكة TALAMANKA فدخلها عنوة وفتح البلاد وترجاله وعاد إلى اشبيلية في صفر ٥٩٣.

٤ - في عهد محمد الناصر:

استولى العدو البرجلوني على حصون من نظر بلنسية VALENCIA وكان ذلك سنة ٦٠٧ وجرت في عهده وقعة العقاب.

وقعة العقاب LASNAVAS DELOLSA

في سنة ٦٠٧ نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين العرب وقادهم الفونسو - اذفونش - عدة مرات إلى الأندلس يقتل دليسيبي وخرب اراضي

جيان وبياسة BAEZA واندوجر ووصل اهواز مرسية MURCIA وعاد إلى طليطلة فاستغاث المسلمون بالناصر الذي استنفر المسلمين للجهاد وجمع الجيوش وجاز بهم إلى الأندلس في ١٩ ذي القعدة سنة ٦٠٧ وقسم جيشه خمسة فرق: الأولى وتضم الاندلسيون والثانية الموحدون والثالثة المتوعة وعددهم ١٦٠٠٠٠ من الفرسان والمشاة والرابعة العرب ولايذكر ابن أبي زرع الفرقة الخامسة بينما السيد سالم يجعل الفرق كالآتي:

الأولى للعرب والثانية لزناقة وصفهاجة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل العرب والثالثة للمتوعة والرابعة للاندلسيين والخامسة للموحدين. وكان عددهم ٥٠٠ ٠٠٠ دون المرتزقة. في أول صفر ٦٠٨ سار الناصر إلى قشتالة ونزل على حصن شلبطرة بخيرة جنده وحاصره ثمانية أشهر حتى فتيت ازواد الناس وقتل العلوفات وكلت العزائم وغلت الأسعار واشتد البرد ومرض الجند وحاول الفونسو مد الحصن إلا أنه فشل وفتح حصن شلبطرة بفعل الجوع في آخر ذي الحجة ٦٠٨ هـ. وفي أثناء ذلك كان وزيره ابن جامع يسيء الأشياء

الجوع يفتن حصن
شلبطرة أمام محمد
الناصر

**قتل الناصر ابن قادس
آثار حق الأندلسيين
ودفعهم إلى الفرار**

الموحدين واهان قواد الأندلس ففسدت نياتهم.

وعند سقوط شلبطرة طلب ملك قشتالة تنظيم حملة صليبية ضد عرب الأندلس وفعلًا نجد أن ملوك الأسبان قد اتفقوا فيما بينهم وقدمت قواتهم إلى طليطلة واصبحت هذه القوات تتألف من قوات قشتالة وفرسان رباح وشانت ياقب SANTIAGO والفرسان الاستبارية والفراسن الداوية ونافار وارايجون وجيلية والبرتغال وكذلك اتت جيوش من فرنسا وايطاليا والمانيا.

وزحفوا من طليطلة ٢٠ حزيران ١٢١٢ - ٦٠٩ هـ وساروا في ثلاثة جيوش باتجاه الجنوب: الجيش الأول وقائده ديجولوبيت دي هارو وفيه ١٠٠٠٠٠ مقاتل.

الجيش الثاني وقائده بدرو الثاني ويضم الأرغونيين والقطلونيين وفرسان الداوية.

الجيش الثالث وقائده الفونسو الثامن ملك قشتالة ويضم القشتاليين والليونيين والبرتغاليين وفرسان رباح وشنت ياقب والاستبارية.

تقدم الجيش الأول وهاجم حصن مجلون في ٢٤ حزيران وقتلوا من فيه ثم

اجتمع الجيش على قلعة رباح وحاصروها وسقطت المدينة ولكن القلعة لم تسقط ثم أعطي العرب المدافعون عن القلعة وعددهم ٧٠ فارساً بقيادة ابن قادس. الامان وانسحبوا دون سلاح مما أدى إلى انقسام في الجيش الفرنجي لعدم قتل العرب ثم تابعت الجيوش مسيرها واستولوا على حصن الأرك. أما الناصر فقد تألم لسقوط قلعة رباح وقتل ابن قادس فور وصوله مما آثار حنق الأندلسيين ودفعهم إلى الفرار من المعركة دون قتال.

خرج الناصر من اشيلية في المحرم سنة ٦٠٩ على رأس جيشه فوصل قرطبة ثم سار منها إلى جيان ثم إلى بياسة ونزل بفخص البلوط بين جيان ورباح واحتلت سرايا من جنده ممرات جبال الشارات المؤدية إلى ابد UBEDA وبياسة ومنع الفرنج من عبور هذه الممرات ولكنهم مروا من طريق في مرتفع آخر دون أن يفتن العرب وانحدروا إلى سهل ابد دون أن يتمكن العرب من اعاقتهم وبقي قسم من الجيش بمكانه لخداع العرب.

التعبئة:

الاسبان:

القلب وفيه ملك قشتالة وفيه ٤ فرق.

الجنح الأيمن وقائده سانشو ملك نافارا.

الجنح الأيسر وقائده بيدرو الأرجواني وفيه ٤ فرق.

العرب:

المقدمة وفيها المتطوعة وهم ١٦٠٠٠

الميمنة وفيها الاندلسيون.

الميسرة وفيها البربر

القلب وفيه الموحدون ومعهم الناصر الساقة

اشتبك الجيشان في ١٥ صفر ٦٠٩ وهاجم المتطوعة ولكن الفرنج انطبقوا عليهم وافغروهم عن آخرهم ثم تقدم القشتاليون وهاجموا فقر الاندلسيون لقتل ابن قادس ومعاملتهم السيئة من قبل ابن جامع ومع ذلك صد هجومهم وتابعهم الفرسان العرب ولكن اتت الأمدادات للفرنج الفارين فعادوا للهجوم باتجاه القلب وكان جناحا الجيش العربي قد تحطما بسبب فرار الاندلسيين ثم مالبت القلب أن تحطم وفر الناصر باتجاه ياسة ثم إلى اشبيلية.

خسائر المسلمين: لم ينج من المسلمين سوى ١٠٠/١ أو كانت السبب في هلاك الأندلس إلى الآن. بينما يقدر

العدو خسائر المسلمين ٦٠٠٠٠ كحد أدنى إلى ٢٠٠٠٠ كحد أعلى.

خسائر الأسبان: تقدر كحد أدنى بـ ٢٥ شخصاً وكحد أعلى ٢٠٠ شخص.

نتائجها: سقطت حصون فرال وبلقس وتولوسا وياسة حيث احرق العرب اللائذون بالمسجد وحوصرت مدينة ابدة وقتل فيها ٦٠ ٠٠٠ من العرب وسبي منها مثل هذا العدد وسقطت مدينة بسطة أيضاً وباغور.

وفي سنة ٦١٤ هـ هزم العرب بقصر ابي دانس هزيمة تقرب من هزيمة العقاب إذا حاصر الفونسو الثاني ملك البرتغال قصر ابي دانس فخرجت جيوش اشبيلية وقرطبة وجيان وغرب الأندلس لاعانة القصر ولكن المسلمين وقد خامر قلوبهم الرعب بسبب هزيمة العقاب فلم يلتقوا بالعدو إلا وقد فروا فقتلهم العدو عن آخرهم ثم عاد الفونسو إلى قصر ابي دانس وحاصره ودخله بالسيف.

الصراع غير المباشر بين الموحدين والاسبان

ويتمثل هذا الصراع بتشجيع كل طرف لكافة الأعمال التي تؤدي إلى اضعاف الطرف الآخر كتشجيع الثورات

**هزيمة العقاب كانت
السبب في هلاك
الاندلس وسقوطها**

وتأييدها مادياً ومعنوياً.

الجانب المسيحي:

حالف النصارى ابن مردنيش القائم بالثورة ضد الموحدين في شرق الأندلس وتمثل هذا التحالف بمساعدة كل طرف للطرف الآخر من الناحية العسكرية وقد مر معنا مساعدة ابن مردنيش لاذفونش عندما حاول الأخير امداد المرية المحاصرة من قبل الموحدين سنة ٥٥٢ هـ، أما ابن مردنيش فقد «استدعى النصارى.. فجعلهم اجناداً له واقطعهم.. واخرج كثيراً من أهل مرسية واسكن النصارى دورهم» وفعلاً نجد أنهم ساعدوه في كثير من معاركه ضد الموحدين وساعدوا صهره ابن همشك قبل توحيد.

ففي سنة ٥٥٤ قام ابن مردنيش بمساعدة «اصحابه النصارى» باحتلال جيان وحصار قرطبة ومهاجمة اشبيلية. وكذلك هاجم ابن همشك قرطبة في نفس السنة وكان «يستعين باخوانه النصارى» وهاجم غرناطة واحتل المدينة وحاصروا الموحدين في القصبه وطلب النجدة عن ابن مردنيش وحلفائه النصارى الذين امدوه بـ ٢٠٠٠ فارس ورجالة كثيرة عليهم الأقرع حفيد البرهانس وساعدوه في موقعة مرج

الرقاد ضد نجدة موحدية للمحاصرين في القصبه وكانوا بسبب انتصاره في هذه المعركة، ثم وصل ابن مردنيش واصحابه النصارى وقوادهم الأقرع والقمط ارجال واخوه وكان عددهم ٨٠٠٠ فارس ولكن الموحدين انتصروا عليهم في معركة جبل السبيكة وقتلوا الأقرع حفيد الب هانس وكانت المعركة يوم الجمعة ٢٨ رجب ٥٥٧ .

ونجد النصارى يساعدون ابن مردنيش في معركة الجلاب التي جرت يوم الجمعة ٧ ذي الحجة ٥٦٠ ولكن ذلك لم يمنعه من خسارة المعركة. وكان النصارى أكثر قتلى المعركة.

وكمكافأة لمساعداتهم نجد أن ابن مردنيش يعطيهم بعض الحصون مثل: حصن لبة وحصن بلح وحصن الكرس. ونلاحظ أن ابن مردنيش قد اسكن النصارى بعض الحصون كحصن لبسة واسكن ٤٠٠ من النصارى مدينة لورقة LORCA مع قائده أبي عثمان بن عيسى.

ولكن النصارى فقدوا حليفهم بوفاته في ١٠ رجب ٥٦٧ وتوحيد اولاده.

وتدخل النصارى في الصراع على السلطة الذي جرى في فترة انقسام

يتمثل الصراع في
الأندلس بتشجيع كل
طرف للأعمال التي
تؤدي إلى إضعاف
الطرف الآخر

الجانب المسلم:

كذلك نجد المسلمين قد حالفوا فرناندة البيوج رايس صاحب ترجاله في سنة ٥٦٣ على ان يضمن عن نفسه ثغور الموحدين وان يكون حليفاً للمسلمين ثم حالفوا فرناندة البيوج صاحب البسطاط الذي كان على خلاف شديد مع القمط نونه ضئر اذفونش ونجد الموحدين يستجيبون إلى طلبه المساعدة العسكرية ليقا تل نونة فارسلوا معه عسكر اشيلية بقيادة ابن عزون وابن تمصليت وابن حمو فصاروا إلى بلاده وقاتلوا اعداءه ووصلوا في حروبهم معه إلى اشتريش واقاموا عنده خمسة اشهر.

وفعلاً نرى البيوج يرد الجميل حينما احتل جراندة وابن الرنك بطليوس نجدة قد سارع وآمد الموحدين المحاصرين في قلعتها وتمكن من هزيمة ابن الرنك وترك بطليوس بيد المسلمين وكان ذلك في ٢٢ شعبان ٥٦٤.

وجدد الصلح مع البيوج في سنة ٥٦٦. ولكنهم مالبثوا ان خسروه فهاجموا اراضيه واحتلوا قسماً منها.

وضعف الدولة الموحدية فقد ايدوا بعض المطالبين بالعرش بشروط كانت في صالحهم فمثلاً طلب السيد عبد الله البياسي التحالف مع الفونسو ضد أخيه العادل مقابل سياسة وقبجاجة QUESADA فامده الفونسو بـ ١٠٠٠٠ فارس. ولم يكتف البياسي بذلك وإنما اعطاهم ايضاً اندو جر ومرترس ومدسس والتراب و ٢٠ حصناً ثم اعطاهم شلبطرة.

وكذلك نجد ملك قشتالة يسارع إلى دعم المأمون الذي استنصره على الموحدين الذين نكثوا بيعته وبايعوا يحيى فارسل معه ١٢٠٠٠ فارس بشروط قاسية:

١ - اعطاءهم ١٠ حصون مما يلي قشتالة.

٢ - بناء كنيسة بمراكش.

٣ - ان اسلم أحد من الروم لا يقبل اسلامه ويرد إلى إخوانه.

٤ - من تنصر من المسلمين فليس لاحد عليه سبيل.

وحققوا له النصر على يحيى بالقرب من مراكش يوم السبت ٢٥ ربيع الأول ٦٢٧.

بوفاة ابن مزهنيش
فقد التصاري طيفهم

المصادر

- ١ - علي بن أبي زرع الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ط الرباط ١٩٧٢
- ٢ - ابن عذارى المراكشي البيان المغرب ط تطوان ١٩٦٠
- ٣ - عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص اخبار المغرب ط القاهرة ١٩٦٣
- ٤ - محمد عبد الله عتات عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ط أولى القاهرة ١٩٦٤
- ٥ - السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ط ١٩٦٦
- ٦ - ياقوت الحموي معجم البلدان ط بيروت - دار صادر ١٩٦٨
- ٧ - ابن الأثير الكامل في التاريخ ج ٩ اصدار المكتبة التجارية الكبرى
- ٨ - عبد الملك بن صاحب الصلاة تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين لأن جعلهم اللدائمة وجعلهم الوارثين ج ٢ ط بيروت ١٩٦٤
- ٩ - أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ط القاهرة ١٩٣٧
- ١٠ - ابن حلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ط دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨ .

فضل العرب في تطوير أوروبا العلمي

نقولا زيادة

وبدل أن تكون الجيوش حصناً للامبراطورية أصبحت، في حالات كثيرة، أداة تخريب وتدمير إذ آل أمرها إلى أن صارت الاعيب في أيدي قوادها الطامعين في العرش الامبراطوري وأحياناً كان القواد أنفسهم العوبة في أيدي الجيوش الرومانية.

وفي مقابل ذلك كانت هذه القبائل البربرية نشيطة قوية، كانت موزعة الأصول: فهناك الجرمان، وهم الذين استقروا في القرن الخامس وما بعده في إطار الامبراطورية الرومانية، وهناك السلاف الذين انتهى بهم الأمر ان عمروا أواسط أوروبا وشرقها: وهناك المغول (مثل الهون والماغيار) الذين انتشروا بين هنغاريا وفنلندا.

خلال القرنين الثالث والرابع، وحتى في أوائل القرن الخامس، كانت هذه القبائل، ولنحصر اهتمامنا بالجرمانية منها، تقاتل وتحارب فإذا انتصرت جازت الحدود واحتلت. لكن في القرن الخامس قبلت هذه القبائل الإقامة داخل الحدود معترفة للإمبراطورية الرومانية بوجودها. وحتى لما قضى على الامبراطورية نهائياً ظلت بعض هذه الدول الجرمانية مقيمة، مثل القوط الشرقيين، في ايطالية وما إليها (٤٨٩ / ٥٢٥). ومملكة الفرنجة التي قامت في أوائل القرن الخامس، توسعت بعد سقوط أوروبا أيام ملكها كلوفيس (٤٨٦ / ٥١١). وكانت هذه اقوى الدول الجرمانية، ويعود ذلك إلى أن الفرنجة، بعد ان استقروا في جزء كبير من فرنسا والمانيا الحاليين لم يرحلوا عن بلادهم، بل توسعوا فتحاً وضمّاً. وكانت دولة القوط الغربيين قد قامت في اسبانيا سنة ٤١٥ واستمرت هنالك حتى الفتح العربي سنة ٧١١ .

(١) مقدمة تاريخية
في القرن الثالث
للميلاد اتخذت القبائل
البربرية، كما دأب
المؤرخون على
تسميتها، خطة
الهدوم على
الامبراطورية
الرومانية، وكانت
الحرب بين الفريقين
سجالاً، فالامبراطورية
كانت قد أصابها
الانهطاط (الذي
انتهى إلى زوالها
رسمياً سنة ٤٧٦ م)

وليس من شك في أن دولة الفرنجة شهدت أكبر عصورها نشاطاً لما حكمها شارل الكبير (شارلمان ٧٧١ / ٨١٤)، وقد اعترف به البابا ليون، فتوجه امبراطوراً على ماعرف في التاريخ باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة وذلك في عيد الميلاد سنة ٨٠٠ .

إلا أن امبراطورية شارلمان تدهورت تدريجياً حتى انتهى امرها سنة ٨٩٩ ، واقتصرت على مملكة فرنسا.

وفي القرن العاشر نعمت الأجزاء الألمانية من امبراطورية شارلمان السابقة بحكام أقوياء، وفي مقدمتهم اوتو (الأول) الكبير (٩٣٦ / ٩٧٣)، لكن اوتو الثالث (٩٨٣ / ١٠٠٢) الذي جرب ان يقلد شارلمان، كان دون هذا مقدرة بمراحل، فتسربت نواحي الضعف إلى الامبراطورية، إلا أن الدولة لم تنحل، وقد تمكن الأباطرة الألمان، على العموم، من دفع عادية قبائل جديدة اتجهت نحو أوروبا الغربية مثل الصقالبة (السلاف) والدانين والهنغارين، ومن ثم فإنها مكنت لهذه المنطقة من السير في طريق الحضارة، ولو بخطوات بطيئة جداً.

ومنذ أواسط القرن الحادي عشر تصبح فرنسا وانكلترا مسرحي العمل الجدي وليس من شك في أن دولة الفرنجة شهدت أكبر عصورها نشاطاً لما حكمها شارل الكبير (شارلمان ٧٧١ / ٨١٤)، وقد اعترف به البابا ليون، فتوجه امبراطوراً على ماعرف في التاريخ باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة وذلك في عيد الميلاد سنة ٨٠٠ .

إلا أن امبراطورية شارلمان تدهورت تدريجياً حتى انتهى امرها سنة ٨٩٩ ، واقتصرت على مملكة فرنسا.

وفي القرن العاشر نعمت الأجزاء الألمانية من امبراطورية شارلمان السابقة بحكام أقوياء، وفي مقدمتهم اوتو (الأول) الكبير (٩٣٦ / ٩٧٣)، لكن اوتو الثالث (٩٨٣ / ١٠٠٢) الذي جرب ان يقلد شارلمان، كان دون هذا مقدرة بمراحل، فتسربت نواحي الضعف إلى الامبراطورية، إلا أن الدولة لم تنحل، وقد تمكن الأباطرة الألمان، على العموم، من دفع عادية قبائل جديدة اتجهت نحو أوروبا الغربية مثل الصقالبة (السلاف) والدانين والهنغارين، ومن ثم فإنها مكنت لهذه المنطقة من السير في طريق الحضارة، ولو بخطوات بطيئة جداً.

ومنذ أواسط القرن الحادي عشر تصبح فرنسا وانكلترا مسرحي العمل الجدي

البابا ليون، يتوج
شارلمان امبراطوراً
على الامبراطورية
الرومانية المقدسة.

المثمر.

على أن قعقة السلاح التي لم تنقطع عن الدوي خلال الفترة التي تحدثنا عنها وحتى فيما تلا ذلك، لم تكن الصوت الوحيد الذي كان يسمع في انحاء أوروبا الغربية. فقد كان إلى جانبها أصوات خافتة، لكنها كانت ذات شأن في بناء تلك المنطقة مع الزمن، فصوت المحراث الذي كان يكشف من الأرض سطحها دون أن يعمق اسنانه في أعماقها كان عاملاً مهماً في تطوير اقتصاد البلاد الزراعي، ولأن القبائل كان عدد افرادها يتزايد، وكانت قطعانها تتكاثر، ولم يكن للسكان معرفة فنية كافية لاستثمار الأرض، فقد كانت هجرات السكان، خاصة حتى القرن السابع، هي الطابع الذي ترك أثره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ربوع أوروبا الغربية، وكان ثمة صوت القلم الذي كان الراهب يديره في عزلة ناسخاً بعض ماتبقى من الآداب الكلاسيكية، ذا أثر في تطوير الحياة الفكرية فيما بعد.

وكان هناك صوت المدرس الذي كان يعلم من تصبو نفسه إلى رتبة كنائسية أو وظيفة في البلاط، يترك بصماته في

روما ضمير الحضارة كما يراها الأوروبيون العصور الوسطى.

هذا الجو الفكري الذي حاولنا وصفه يمثل الناحية الوضاعة من حياة أوروبا في العصور الوسطى، لأنه يتحدث عن الذين تعلموا ودرسوا وكتبوا. أما القراء فكانوا أيضاً قلة، وهم الذين وصلت إليهم الخلاصات التي تحدثنا عنها. أما السواد الأعظم من الأوروبيين فلم تصل إليهم حتى هذه المعرفة. وقد استمر هذا الوضع حتى مطلع القرن الثاني عشر إذ تبدلت الحال. على أنه حري بالذكر أن التبدل لم يأت دفعة واحدة. فشؤون كثيرة ظلت تحتل حيزاً لا يستهان به في حياة أهل الفكر.

فتحن إذا أخذنا مثلاً مكتبة محترمة تعود إلى سنة ١١٠٠ وجدنا أنها تحتوي على الكتاب المقدس، وقد يكون في نسخ متعددة وكتابات آباء الكنيسة من القرن الثاني حتى ذلك التاريخ والشروح والتعليقات على الموضوعين، والكتب المدرسية التي وضعها أمثال بوتيوس وسواه، ومن المرجح أن يرصع هذه المجموعة ايزيدور ومؤلفات الكتاب الكلاسيكيين باللاتينية. وكان من النادر ان تعثر فيها على كتاب باللغة اليونانية. فهي أصلاً لم تنتشر مافيه الكفاية في المنطقة الواقعة إلى الغرب من هنغاريا

نفوس الناشئة. ويجب أن لاننسى صوت الراعي الكنسي أو المتعبد في ديره أو صومعته الذي كان ينشد ترانيم التسبيح بكرة واصيلاً. هذه الأصوات تستحق منا نظرة خاصة، لأنها كثيراً ما كانت تلجأ إلى ماكتبه آباء الكنيسة الأوائل كي تحصل على ماتنشد أو ترنم أو ترتل.

(٢) عناصر الحضارة القديمة

ونحن إذا حاولنا التعرف إلى العناصر الحضارية، على ضآلتها أحياناً، وحياتها من بساطتها أحياناً أخرى، لوجدنا أموراً كثيرة ظلت في ضمير أوروبا الغربية، ولما آن لها ان تُستغل استغلالاً صالحاً مفيداً جاءت بشمار جيدة.

فإن أوروبي العصور الوسطى، كانوا يرون في رومة ضمير الحضارة. فهي التي تركت في نفوس الناس آراء هامة تتعلق بالوحدة والعالمية والنظام وحاول أوتو الكبير، ملك المانية وأمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة (Otto I, the Great ٩٣٦ / ٩٧٣) وخليفته، أن يقوموا بالعمل الذي قام به شارلمان، لكن النجاح كان هنا حتى أقل مما أصابته آخن. وذلك أن اتو لم يكن له بلاط مثل بلاط شارلمان، فلم يكن للحركة مركز دفع ونشاط.

الحالية. والأفراد القليلون الذين كانوا يعرفون بعض اليونانية جاءهم ذلك من علاقاتهم التجارية مع بيزنطة.

أما بعد سنة ١٢٠٠ فقد كانت مثل هذه المكتبة تزيناها مدونة جستنيان القانونية والتشريعات والمراسيم البابوية وكتب اللاهوت التي وضعها انسلم (Anselm) وبيتر لومبارد (Peter Lombard) وهي حديثة العهد نسبياً. وأهم من هذا أنه كانت تحتوي على كتب في الرياضيات والفلك والفلسفة ودواوين الشعر البطولي والغنائي، خاصة البروفنسالي. كان الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة تحتفظ بمكانتها. وكان هناك أيضاً مؤلفات بوتيروس وايزيدور وأمثالهما.

وحتى الموسوعة التي وضعها لامبرت (Lambert) سنة ١١٢٠ كانت تحتوي الكثير الكثير مما ضمنه ايزيدور موسوعته، مع إضافات وقع عليها، إلا أنها لا تمثل إلا خطوة أولى نحو التطور الذي شمل أوروبا في القرن الثاني عشر.

ما بين سنة ١١٠٠ وسنة ١٢٥٠ خطت أوروبا، خاصة فيما وراء البرانيز، خطوات كبيرة في العلم والفلسفة، أقل ما يقال فيها أنها كانت خطوات تختلف

نوعاً وكماً عما عرفته البلاد نفسها في تاريخها القريب، بحيث أصبح العالم والفيلسوف، كل في المجال الذي يحبه، ولأقول الحق الذي يتخصص فيه، فهذا أمر هو من تطورات العالم خلال القرنين الماضيين، أصبح العالم والفيلسوف يجادل ويناقش ويبحث ويجرب ويقارن ويقابل لأنه حصل على مادة جديدة واطلع على نهج جديد في التعامل مع المشكلات الفكرية والعلمية. الترجمة والنقل من العربية إلى اللاتينية

أن الذي أحدث هذا التبدل، في أوروبا والغربية خاصة، كان حركة النقل والترجمة من العربية إلى اللاتينية أصلاً، مع بعض الترجمات من اليونانية إلى اللاتينية - على أن نذكر أن العمل الأول (أي النقل من العربية) كان الأسبق والأوسع نطاقاً والأعمق أثراً في تطوير الحركة الفكرية الأولى في أوروبا.

كانت الرقعة التي تم فيها نقل المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية واسعة - فقد امتدت من بلاد الشام عبر الشمال الأفريقي (تونس) وصقلية إلى إسبانية. وكان الجزء الأقل إنتاجاً في هذه الناحية بلاد الشام. فاولئك الذين حملوا السيف

**حركة النقل والترجمة
من العربية إلى
اللاتينية، كان الأسبق
والأوسع نطاقاً في
تطوير الحركة الفكرية
الأولى في أوروبا.**

اسبانيا، ثم عبرها
نقل القسم الأساسي
من العلم إلى أوروبا

سلرنو (Salerno) وهي أول معهد
لدراسة الطب باللغة اللاتينية في أرض
أوروبية إذ لعله كان يعني بالترجمة لهذه
المؤسسة أو لاسانذتها. وقد قضى
قسطنطين سنيه الأخيرة في دير مونتي
كاسينو (تو ١٠٨٧).

وكان شيء من بقايا المعرفة الطبية
والتنجمية قد ظل بين أيدي الناس في
جنوب إيطاليا وكان الناس يتناقلون ذلك
فيما بينهم، لكن دور هذه المنطقة بالنسبة
لترجمة من العربية كان محدوداً جداً.
أما البلد الذي تم نقل القسم الأساسي
من العلم العربي عن طريقه فهو اسبانية.
وكانت الترجمة تتم في برشلونة وترزونة
وسيفوفيا وليون (الاسبانية) وبامبلونة،
لكنها تركزت أخيراً في طليطلة. أما
شمالي البرانيز فقد كانت يبتزها وناربون
ومرسيليا من الأماكن التي اسهمت
بالترجمة أيضاً.

والذين عملوا في نقل العلم والفلسفة
العربيين إلى اللغة اللاتينية كثر. وقد جاء
أكثرهم من خارج اسبانية بالذات - من
انكلترا وفرنسا والمانيا وسواها.

ونود، قبل أن نعرض لعمل المترجمين
والنقلة، أن نشير إلى بضعة أمور مرتبطة
بالعمل ذاته.

للقاتال في أيام الحروب الصليبية لم
يكونوا، في غالبيتهم، من أهل القلم،
لذلك فالفترة التي امتدت قرنين من
الزمان تمت فيها ترجمة كتابين: الواحد
مؤلف لعللي بن عباس (٩٩٤/٣٨)
 والمعروف باسم الكتاب الملكي (Liber
regius) الذي نقله اسطفان البيزي
 والمعروف أيضاً باسم اسطفان الانطاكي
(لاقامته في هذه المدينة) وذلك حوالي
سنة ١١٢٧ والثاني فهو «سر الأسرار»
المعزو لارسطو، وقد نقله فيليب
الطرابلسي (philip of tripoli) بعد
ذلك بنحو القرن.

أما تونس فقد كان لها دور خاص،
ذلك أن قسطنطين الأفريقي
(Constantinus africanus) الذي
كان يتردد على مدرسة القيروان
الطبية، التي يرجع انشاؤها إلى أواخر
القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع
للهجرة (أواخر التاسع أو أوائل العاشر
للميلاد). وقد وضع اسانذتها اسحق بن
عمران واسحق بن سليمان وأحمد بن
الجزار وسواهم كتباً طبية قيمة نقل عدداً
منها قسطنطين وكان يدعي تأليفها.
وأكثر الباحثين يربطون بين ماترجمه
قسطنطين وبين تدريس الطب في جامعة

- (١) لم يكن ثمة جرد للكتب الموجودة، على أن يتخير النافع والضروري والمفيد منها للترجمة. أن المصادفة أصلاً والميل الشخصي ثانياً كانا المرشدين للمترجمين.
- (٢) عمل المترجمون في أماكن متباعدة، فلم يكن بينهم اتصال يحول دون التكرار في نقل الكتب.
- (٣) لعل بين مترجم مالم يكن يستحق الجهد، وإلى جانب ذلك فقد كانت ثمة كتب كثيرة لم ينتبه إليها، ومن ثم فقد خسرها العالم،
- (٤) إلا أن الأمر الذي لاخلاف حوله بين الباحثين هو أن جماع مترجم كان كبير الفائدة وعميق التأثير بالنسبة للحضارة العالمية، ويرى هوسكتر مثلاً أنه لولا ذلك لما تقدمت أوروبا في ذلك الوقت.
- ليس من اليسير التأريخ حتى لاشهر الترجمات، ذلك لأن المترجمين انفسهم لم يؤرخوا دوماً لأعمالهم، كما أن بعض الأرقام أتمحت أو محيت عمداً وزورت التواريخ واسماء المترجمين، فضلاً عن ذلك فهناك ترجمات على درجة من الأهمية لكننا لانعرف اسماء العاملين في الترجمة.
- يجدر بنا ان نتذكر ان المترجمين لم يتقنوا جميعهم اللغة العربية بحيث انهم كانوا يستطيعون تفهم النص بشكل دقيق. ومن ثم فقد كان لابد من واسطة بين النص العربي والنص اللاتيني بشكله النهائي. وكانت الواسطة واحدة من اثنتين: أما أن ينقل النص من لغة الكتاب الأصلية إلى اللغة المحكية (ويغلب عليه في هذه الحالة أن ينقل شفويًا) وبهذه الطريقة يمكن للمترجم الأجنبي بالتعاون مع آخرين أن يصيغه باللاتينية. وفي هذا الأسلوب مافيه من ضعف ومايؤدي إليه أحياناً من تشويش في المعنى. وعلى كل فالذين درسوا تاريخ الترجمة في هذه الحقبة لم يعثروا على الكثير مما ثم نقله عن هذا السبيل.
- وكان الأسلوب الآخر هو الذي يتم عن طريق علماء يهود كانوا قد شاركوا في الحضارة العربية إلى العبرية ثم يساعدون المترجم الأجنبي على نقله إلى اللاتينية. ونحسب ان هذا الاسلوب كان يؤدي أحياناً إلى اساءة فهم النص أو تفسيره. ومن ثم نقله إلى اللغة الأجنبية أي اللاتينية نقلا فيه شيء من البعد عن الأصل.
- قد يكون من الصعب تتبع خط زمني

**المصادفة والميل
الشخصي من أهم
اسباب الترجمة**

**الفارغاني جاء من
(الخوارزمي) صاحب
جداول الخوارزمي التي
ترجمها روبرت
تشستر.**

متعددة في فروع الهندسة والجبر والبصريات. لكن أكبر جزء من فهرست ترجمات جيرار كان في ميدان الطب. فقد نقل عن العربية مؤلفات جالينوس وابقراط وقانون ابن سينا وكتابي المنصور والحاوي للرازي وماوضعه أبو القاسم الزهراوي الأندلسي في الجراحة. وهو إلى ذلك الذي نقل مآكثبه الفارابي، خاصة في شرحه لأرسطو.

وعندنا أن جداول الخوارزمي ترجمها روبرت تشستر (Robert Chester) سنة ١١٢٦ ، وفي السنة ١١٤٥ ترجم روبرت نفسه الجبر للخوارزمي (ومن هنا جاءت كلمة الفارغاني). وفي سنة ١٢٠٢ وضع أو ترجم (؟) ليونارد البيزي (Lenardo of Pisa) كتاب في الأباكوس، (وهي «مَعْدَّة» تحسب فيها الأشياء على أسياخ تتعلق بها كلل خشبية صغيرة)، ولما تم نقل هذه الأمور في الجبر وصل هذا العلم إلى الدرجة التي ظل عليها حتى القرن السادس عشر.

ليس من اليسير وضع جدول كامل بأسماء الكتب جميعها التي نقلت إلى اللاتينية ولا بأسماء النقلة، لكن حري بنا

للترجمة، فهناك ترجمة لجداول فلكية قام بها ادلارد الانكليزي (Adelard of Bath) مؤرخة سنة ١١٢٦ . ولعله يصح القول بأن الربع الثاني من القرن الثاني عشر هو فترة الانطلاق نحو الترجمة.

ويعتبر جيرار الكريموني (Gerard of Cremoma ١١١٤ / ١١٨٧) شيخ المترجمين. أحب جيرار أن يتعرف إلى كتاب المجسطي من تأليف بطليموس القلودي^(١) (القرن الثاني م) والذي نقل إلى العربية (٨٢٧ م). فرحل إلى اسبانية، وهناك تكشفت له، بالواسطة لأنه لم يكن يعرف العربية، محتويات المكتبة العربية. فاستقر في طليطلة وتعلم اللغة العربية وعمل في الترجمة، فنقل فيما أحصى، واحداً وسبعين مؤلفاً إلى اللاتينية، إذ ظل يقوم بعمله حتى وفاته سنة ١١٨٧ ، ويؤكد الباحثون أن الفترة التي قضاها في طليطلة متعلماً ومترجماً زادت عن الستين سنة. وقد حقق عمله في ترجمة المجسطي سنة ١١٧٥ .

كان بين مآثله جيرار كتب أرسطو في المنطق مع شروح يمينوس والفارابي ومبادئ أقليدس وكرويات ثيودوسيوس ورسالة لأرخميدس فضلاً عن كتب

و ذات صناعات راقية فكانت عوناً لروجر وفردريك ومانفرد في تطوير الحياة في الجزيرة. بل أن روجر نفسه دعا الجغرافي العربي الكبير الأدريسي ليقم في بلاطه وكلفه رسم خريطة للأرض ووضع معها كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» (١١٥٤م). وكان في حاشية ملوك صقلية منجمون وفلكيون عرب.

فالبلد كان جوه الفكري والاجتماعي والسياسي مهياً لأن يقوم بدور في هذا العمل الكبير - نقل العلوم من العربية إلى اللغة اللاتينية. صحيح أن العمل كان في النصف الأول من القرن الثالث عشر، لكنه كان يجاري الإحياء العلمي الذي كانت أوروبا قد أخذت نفسها به، فكان كل عمل يتم هو لبنة في البناء.

والذين عملوا في البلاد الصقلي هم الأمير يوجين (Eugene the Prince) وثيودور الانطاكي (Theodor the Antichian) ومايكل الذي مر ذكره. وقد نقل يوجين البصريايت البطلمية، وقام ثيودور بترجمات متنوعة تتعلق بالحيوان بشكل خاص لأن الأمبراطور كان مغرمًا بالحيوانات والطيور وكانت عنده حديقة كان شديد العناية بها عملاً

أن نتذكر أن افلاطون التيفولي (Plato of Tivoli) نقل زيج البتاني إلى اللغة اللاتينية سنة ١١٥٠ ، وتمت أيضاً ترجمة جداول الخوارزمي (ادلارد) ثم جداول الزرقالي الاندلسي والفرغاني (فرغانة في اواسط اسيا)، وتم نقل المجسطي رأساً من اليونانية سنة ١١٦٠ ، فأصبح في متناول المشتغلين بعلم الفلك كل المادة الأصلية، وصار بإمكان فلكي مونييلي أن يكون لديهم مركز أساسي لهذا العلم.

وقد شهد القرن الثالث عشر ثلاثة من كبار المترجمين هم الذين يضعهم مؤرخو الفكر العربي بعد جيرار في الأهمية وهم الفرد الانكليزي (Alfred the Englishman) ومايكل الايقوسي (Michael the scot ١٢٥٣) وهرمن الجرمانى (Hermann the German) تو (١٢٧٢) فهم، من هذه الناحية، معاصرون للذين عملوا في بلاط فردريك الكبير أو الثاني (Frederick II, the great ١١٩٤ - ١٢٥٠) وابنه وخليفته مانفرد Manfred المتوفى سنة ١٢٦٦ ، ذلك بأن خروج صقلية عن سلطان العرب سنة ١٠٩١ لم ينتج عنه رحيل سكانها العرب المسلمين عنها. لذلك بقيت هناك جاليات عربية متعلمة

**الفرد الانكليزي
ومايكل الايقوسي
وهرمن الجرمانى اهم
المترجمين في القرن
الثالث عشر**

وعلماً.

ولنعد الآن إلى مترجمي القرن الثالث عشر، كان الفرد الانكليزي فيلسوفاً من حيث نشأته واتجاهه، وكانت فلسفة ارسطو في الطبيعة هي موضوع عنايته، وهذا معناه، عندما يحاول أن يترجم هذا الصنف من الفلسفة الأرسطية، فلا بد له من أن يشد على ابن رشد بالنواجذ، فكان الفرد من أوائل الذين أوصلوا ابن رشد إلى أوروبا، ولو أن بعض ما كان معروفاً قد نقل من قبل، وكان لجاكوب اناتولي (Jacob Anatoli ١٢٩٤ / ١٢٥٦) فضل في أنه أول من نقل فلسفة ابن رشد إلى أوروبا.

أما مايكل الايقوسي الذي عمل في طليطلة (كان فيها سنة ١٢١٧) فقد نقل دوائر (افلاك) البطروجي (في الفلك) سنة ١٢٢٠ وعمل على نقل ما كتبه ارسطو في الحيوان، وبذلك وضع بين ايدي العلماء اللاتين دروساً منظمة مبنية على المشاهدة والأختبار، فهذا هو المعروف عن الحيوان لأرسطو، ومع هذا كانت هناك تعليقات عربية، لكنها كانت في علم الحيوان قليلة، إذا قيست بغير ذلك من نواحي المعرفة. وعني مايكل بنقل شروح ابن رشد

لأرسطو، ومايكل كان أول من ترجم القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية. وكانت عناية هرمان الألماني تدور بأرسطو وخاصة بالأخلاق النيقوماخية وقد نقل كتاب الشعر وكتاب البيان (البلاغة) لأرسطو مع الشروح التي دارت حولهما وعليهما.

حري بنا أن نتوقف هنا لنشرح نقطة اشترنا إليها من قبل، وهي أن الكثيرين من المترجمين الأوروبيين كانت معرفتهم بالعربية بحاجة إلى مساعد ومعين. لذلك فإننا نعر على أسماء لهؤلاء المساعدين منها غاليبوس (Galippus) الاسباني الذي كان ساعد جيرار الأيمن، واندراوس (Andrew) الذي كان يعرف العربية والعبرية والسريانية واللاتينية، وذلك بشهادة البابا فيه (سنة ١٢٢٦)، وبطرس الفونسي (Petrus Alfonsi) الذي انتهى به الأمر بأن طب لهنري الأول ملك انكلترا، وسافاسوردا (Savasorda)، واسمه الأصلي ابراهام بن حيا، وقد كان ضليعاً في اللغة العبرية وآدابها والفلسفة اليهودية، لذلك كان عوناً للذين نقلوا أرسطو وشروح ابن رشد، وابراهيم بن عزرا (١٠٩٢ - ١١٦٧) كان أيضاً

كتاب الشعر وكتاب
البيان لأرسطو مع
الشروح نالت اهتمام
هرمان الألماني فنقلها

عاملاً مساعداً في الترجمة. فضلاً عن ذلك فهناك أسماء وردت في مناسبات مختلفة، لكن لم يتضح دورها بعد مثل جون الاشبيلي وابن داود.

كان ابن رشد، فضلاً عن بروزه في الفقه والفلسفة الأرسطية، طبيباً، وقد نقل كتابه الكليات في الطب الى اللاتينية باسم (Colliget) في بادوا سنة ١٢٥٥ . ومع أننا لا نؤرخ هنا لما أنجزه في نواحي المعرفة، فنحن معنيون بالترجمة والمترجمين، فإنه حري بالذكر ان ابن رشد وجه نقداً علمياً لجالينوس في شؤون التنفس. وبهذه المناسبة فهناك طبيبان عربيان آخران وجهاً نقداً لجالينوس هما ابن بطلان (٤٥٩/ ١٠٦٦) وابن النفيس (٦٨٧/ ١٢٨٨) وهذا هو الذي اهتمدى، بطريقة التعليل المنطقي، الى دورة الدم الصغرى.

وقد كان للعرب تفوق في طب العيون، ويعود ذلك، فيما يرى بعض الباحثين، الى امرين - الأول انتشار امراض العين في المنطقة، والثاني اهتمام العلماء العرب بقضايا البصریات. واشهر اطباء العيون العرب هو علي بن عيسى الذي ترجم كتابه مرتين الى اللاتينية كما

نقل إلى العبرية.

ثمة عدداً من الكتب نقلت عن العربية إلى اللاتينية لكنها مجهولة المؤلفين والمترجمين، وتشمل هذه كتباً متفرقة في التنجيم والطبيعة وما وراء الطبيعة واعمالاً صغيرة في العلوم معزوة لأرسطو، وقد ظهرت هذه في الغرب حوالي سنة ١٢٠٠ . وثمة نسخة من المجسطي مجهولة المترجم (غير ترجمة جيرار) ولكنها نقلت عن العربية، وقد ظهرت في أواخر القرن الثاني عشر ووائل القرن الثالث عشر رسائل لاتينية في الكيمياء اصلها عربي وهي منسوبة إلى جابر بن حيان.

وهنا نتوقف لنشير إلى أن أموراً هي في غاية الأهمية:

أولاً - ان لغة العلم كانت، بين القرن الثالث والسادس/ التاسع والثاني عشر، العربية، ونقل الكتب التي اشرنا إلى نموذج منها من العربية إلى اللاتينية كان الخطوة الأولى في انتقال المعرفة العلمية إلى أوروبا.

ثانياً - ان الذي نقل إلى أوروبا لم يكن العلم وتفاصيله فحسب، بل كان ثمة منهج مبني، في كثير من الأمور على التجربة، فقد أدخل العرب، وهم

**تفوق العرب في طب
العيون بسبب
انتشار امراض العين،
واهتمام العرب
بالبصريات.**

الأدب الجغرافي العربي لم ينتقل من العربية إلى اللاتينية.

يطورون مأخذه عن سبقهم وينمونونه، اسساً جديدة، فضلاً عن التطوير الذاتي للعلوم، هذا هو الذي يصح أن يسمى عادات عقلية ورغبات في إجراء التجارب، هذا كله انتقل إلى الغرب المسيحي.

ثالثاً - ان الرازي ترجمت أعماله الطبية إلى اللاتينية قبل أعمال ابن سينا. ولكن ابن سينا هو الذي أصبح «قانونه» كتاب الطب التدريسي في جامعات أوروبا. ويعود ذلك، على ما يرى الذين بحثوا هذه القضية، إلى أن أسلوب ابن سينا كان على القاريء ايسر.

رابعاً - ان واحداً من أكبر اهل العلم الذي ظهر في دنيا العرب، وهو ابو الريحان البيروني (بعد ٤٤٢ / ١٠٥٠)، لم تنقل كتبه إلى اللاتينية، ويبدو ان صعوبة لغة هذا العالم، مع فصاحة أسلوبه، حالت دون ذلك. ولسنا نشك في ان نقلة تلك الأيام وخلفاءهم قد خسروا الكثير لأن آراء هذا العالم لم تصلهم.

خامساً - ثمة أدب / علم لم ينقل من العربية إلى اللاتينية، وهو الأدب الجغرافي العربي.

ان حركة الترجمة للمؤلفات العربية

إلى اللغة اللاتينية لم تتوقف في اسبانية بانهاء القرن الثاني عشر. ذلك أن طليطلة ظلت مركزاً للدرس والنقل حتى في القرن الثالث عشر، فإن الفونس الحكيم، ملك قشتالة (١٢٥٢ / ١٢٨٤) كان يرعى مدرسة تعلم فيها العربية، وكان يرئسها ابو بكر الريقوتي. ويرى بعض الباحثين أن عدداً من الذين تعلموا العربية فيها قام بترجمة كتب من العربية إلى اللاتينية. ولعل الترجمة كانت هنا اقرب إلى الصحة من بعض مانقل من قبل.

رغبة منا في اتمام الصورة نشير إلى مترجم رأساً من اليونانية إلى اللاتينية، وقد تم أكثر هذا في بلاط الملوك النورمان في صقلية. فهي، وجنوب ايطاليا، كانا ملتقى اليونانية واللاتينية والعربية على مامر بنا. في صقلية عمل هنريكوس ارستيبوس (Henricus Arstippus) والامير يوجين (Eugene). فنقل يوجين بصريات بطليموس وكليلة ودمنة، وعمل ارستيبوس على نقل اعمال آباء الكنيسة وترجمة مينو وفيديو لافلاطون وجزء من كتاب الأنواء لارسطو. فضلاً عن ذلك فقد عمل هذا الراهب، الذي كان رئيساً

على أيديهم نقل المنطق الحديث لارسطو وأعمال آباء الكنيسة وشروح نيميسيوس على افلاطون ومختارات من خلاصة قانون جستنيان على افلاطون ومختارات من خلاصة قانون جستنيان وحتى ماورد في كتاب قديم في الفلاحة عرف باسم جيوبونيك (Geoponica)^(٢)

واما إلى الشمال من جبال الألب فقد تمت ترجمات من اليونانية مباشرة إلى اللاتينية، وهي في مجملها فلسفية لاهوتية، الأمر الذي اقتضته الخلافات بين البابوية ومناوئها، إلا أن هناك ترجمات لأعمال ارسطو، فضلاً عن ترجمات مجهولة النسب والزمن. وثمة ترجمات من اليونانية ومن العربية إلى اللاتينية لكنها غير مؤرخة.

يجدر بنا، بعد أن أشرنا إلى الترجمة المباشرة وتحدثنا ببعض التفاصيل عن الترجمة عن طريق العربية، أن نقارن بين نوعي العمل (ولو أننا أشرنا إلى بعض ذلك من قبل) كي تكون الصورة واضحة على قدر الإمكان.

أولاً - الترجمات المباشرة، على العموم، أصح وأدق إذ أنها تمت دون وساطة كما حدث بالنسبة للنقل من العربية، فالوساطة (العبرية أو العربية

للكوريا (المجلس الكنسي) في صقلية، على حمل مخطوطات بيزنطية إلى صقلية (حفاظاً عليها بسبب اضطراب الأمور في الدولة الشرقية)، وكان بينها مخطوط جميل للمجسطي وعنه نقلت أول ترجمة لاتينية مباشرة عن اليونانية، وقد كان ليوجين الأمير دور في عمل ارستيبوس.

يلاحظ من هذا ان الغالب على البلاط الصقلي ايضاً، كان النزعة العلمية، هذا الاهتمام العلمي في صقلية كان يجاريه وجود مدرسة سلرنو الطبية الايطالية، فكان للمؤسستين - البلاط والمدرسة اثر في توجيه العناية نحو العلم.

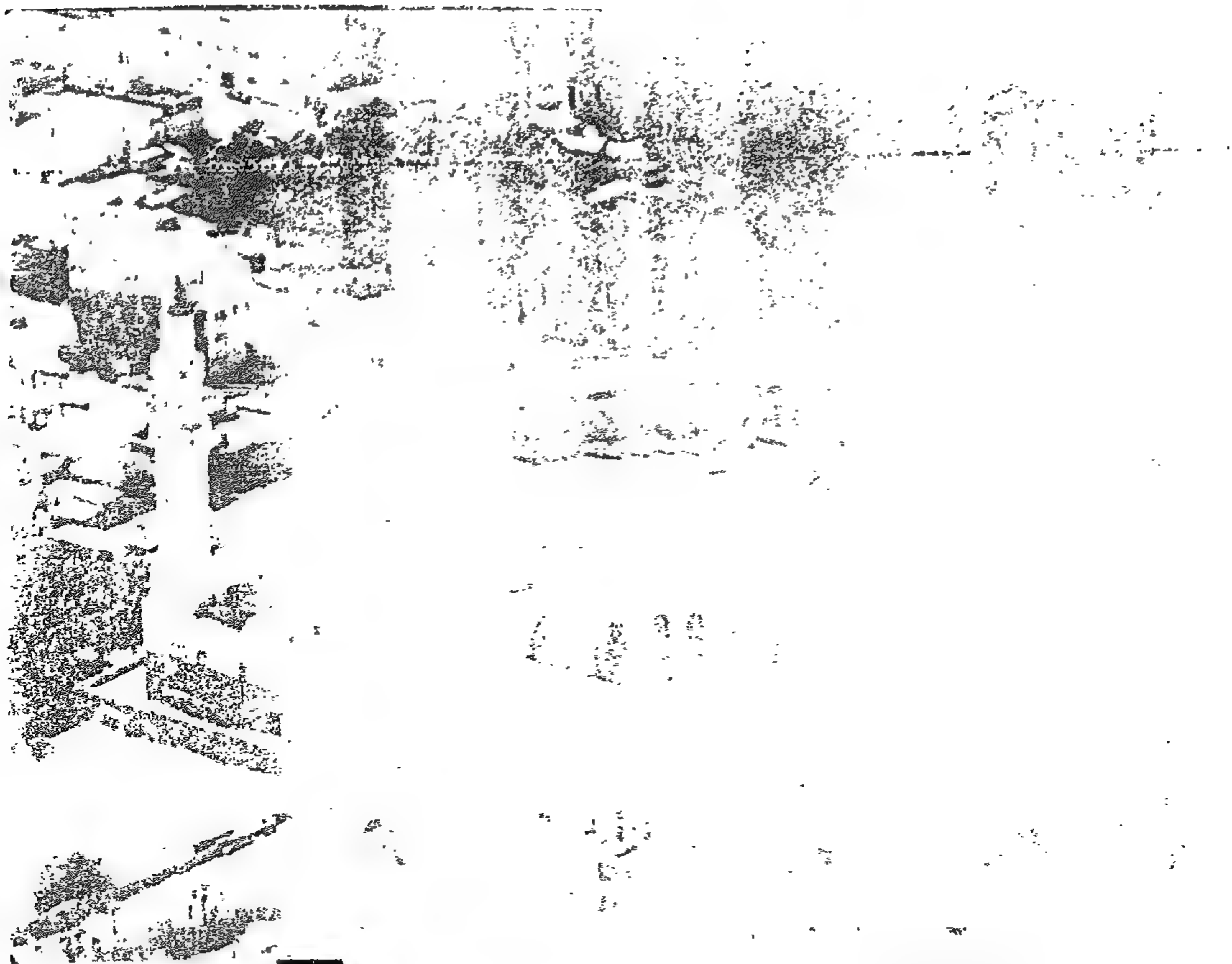
إلا ان العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين القسطنطينية في الجهة الواحدة وبين البندقية ويزا في الجهة الأخرى، يسرت للكثير من الأدب الفلسفي واللاهوتي واليوناني الانتقال إلى العالم اللاتيني مترجماً، وتظهر في تاريخ هذه الفترة (العقود الأولى من القرن الثاني عشر) ثلاثة أسماء هي جايمز البندقي (James the Venetian) وبرغنديو البيزي (Burgundio the Pisan) وموسى البرغاموي (Mises of Pergamo) وكان هذا ايطاليا. وقد تم

**الترجمات في الشمال
تمت من اليونانية إلى
اللاتينية مباشرة.**

المحكية) سهلت النقل لكن لعلها يسرت
للأخطاء ان تتسرب إلى المتن.
ثانياً - الاهتمام في الحالتين كان يشمل
الفلسفة والرياضيات والطب والعلوم
الطبيعية.
ثالثاً - لقد ظل افلاطون يونانياً، أما
أرسطو فقد تعرب في الطريق وحمل
معه، لما نقل إلى اللاتينية، الشروح
والإضافات التي ضمها العلماء العرب
اليه.

رابعاً - اللاهوت والنحو انتقل من
اليونانية إلى اللاتينية مباشرة، أما
الموضوعات الأخرى فقد جاءت بطريق
الواسطة، وثمة علم (أو شبه علم)
التجيم الذي كان يغلب عليه الطابع
العربي.
والذي يتفق عليه الباحثون هو أن
نهضة القرن الثاني عشر في أوروبا
كانت علمية وكانت عربية / يونانية.

- ١ كان بطليموس كلوديوس (Cjaudius Ptolemaeus) يونانياً مقيماً في الاسكندرية، وفيها وضع مؤلفاته المتعددة ومنها كتابه «الجغرافيا» الذي عرف باسم الكبير (magestus)، ولما نقل هذا الكتاب إلى العربية سمي المجسطي، وظل اسمه كذلك خلال العصور الوسطى، والكتاب في الجغرافيا الفلكية.
- ٢ كتاب في الزراعة وضعه كاسيانوس باسوس (Cassianos Bassos) بناء على رغبة الأباطور البيزنطي قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩ م).



علا
OLA EST.

مؤسسة علا

صحافة - طباعة - توزيع

سورية
حمص
هاتف 433140
ص ب 2524
دمشق
هاتف 2311067
ص ب 31625

اليهود في العصور الوسطى

دراسة مقارنة بين الشرق والغرب

د. حسن مبيض

وتختار الدعاية اليهودية أمثلة واقعية في التاريخ وخاصة تاريخ العصور الوسطى - متتقات من أدق الوثائق والمصادر، ليستشهدوا بها على ملاقاه اليهود على أيدي المسيحيين جميعاً من اضطهاد في تلك العصور، حتى أنهم كثيراً ما شردوا في الأرض، بل ربما تعرضوا لمذابح جماعية، راح ضحيتها آلاف من الأبرياء. ويدعون أن كل ذلك حل بهم لالشيء، سوى أنهم اتباع موسى عليه السلام.

وأمام الأمثلة الواقعية التي تسوقها دعاية اليهود قد يخدع الإنسان، ويتسرب العطف إلى قلبه على تلك الجماعات التي عانت الكثير بسبب عقيدتها الموسوية، فهل حرية العقيدة جرم يؤخذ عليه الأفراد والأمم والشعوب؟ وهل التمسك بديانة الأباء والأجداد ذنب لا يغتفر تعاقب عليه الأجيال بالقتل والتشريد.

ولكن مهلاً، إن نظرة فاحصة دقيقة تعتمد على دراسة علمية عادلة، كفيلة بأن تظهر لنا أن الدعاية الصهيونية لاتسائر الحقيقة. وإذا سايرتها فإنها لاتظهرها كلها كاملة، وإنما تظهر جانباً وتخفي آخر.

وبعبارة أخرى فإن الدعاية اليهودية تقول ماليهود لاتقول ماعليهم، وبذلك تظهر المعتدي في صورة الضحية، وماهم بضحايا ولكنهم كانوا دائماً معتدين آثمين.

حقيقة أن اليهود تعرضوا لكراهية مختلف الشعوب في مشارق الأرض ومغاربها، وهي كراهية لاتنكر أبداً أنها تحولت في بعض حلقات التاريخ إلى اضطهاد وتشريد، ولكن هل كانت هذه الكراهية لليهود لمجرد الإحساس بأنهم يدينون بعقيدة معينة؟

دأب اليهود في دعايتهم الواسعة التي سسموا بها الرأي العالمي، في القرنين التاسع عشر والعشرين، على ناكته فكرة شائعة، هي أن أمة من أمم العالم لم تتعرض كما تعرض له اليهود في تاريخهم الطويل من اضطهاد وتشريد.

إن كراهية شعوب
الأرض لليهود على مر
عصور التاريخ ترجع
إلى عقيدتهم وإنما
ترجع إلى سلوكهم
وأخلاقهم
وتصرفاتهم.

وهل تحولت هذه الكراهية في كل بلد
حلّ فيه اليهود إلى اضطهاد وتشريد
لأشياء، سوى أن تلك الجماعة تتمسك
بشريعة موسى عليه السلام وهنا يبدو
الجانب المستر الذي تحرص الدعاية
اليهودية على إخفاءه وإسدال الستار عليه
لحجبه عن الأنظار.

إن كراهية شعوب الأرض لليهود على
مر عصور التاريخ لا ترجع إلى عقيدتهم
وإنما ترجع إلى سلوكهم وأخلاقهم
وتصرفاتهم تجاه الشعوب التي حلّوا
بينها، وهو سلوك لا يتغير ويقوم دائماً
على أساس الاستغلال ومقاولة الإحسان
بالإساءة والمعروف بالجحود والجميل
بالأذى.

إن عيسى عليه السلام عندما اصطدم
ببني إسرائيل لم يصطدم بهم لمجرد أنهم
اتباع موسى عليه السلام، ولكن لأنه
نصحهم بتعديل سلوكهم الجشع فلم
يستجيبوا، فقال لهم في صراحة:

«إنكم تركتم وصية الله وتتمسكون
بتقليد الناس» بل لقد أنذرهم وقال:
«ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم تحملون
الناس أحمالاً عسرة الحمل» ولكن اليهود
كانوا لا يستطيعون أبداً أن يتخلوا عن
سياستهم في حب المال، وعندما خيروا

بين الله والمال، اختاروا المال لأن فيه
حياتهم وسعادتهم الدنيوية، ونسوا
النصيحة التي قدمت لهم بأنه «لا يقدر
خادم أن يخدم سيدين، لأنه إما أن
يغض الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدر أن
تخدموا الله والمال»، ولم يعجبهم هذا
الكلام فاستهزأوا به «أي المسيح» وهكذا
نادى اليهود بصلب المسيح، وكان في
أمره عليه السلام ما كان.

وعندما دمر تيطس أورشليم ٦٩ م
تفرق بنو إسرائيل في الأرض، وانتشروا
بين مختلف الأمم والشعوب، في المشرق
والمغرب جميعاً، وأقبلت العصور
الوسطى لتشهد على أن اليهود ظلوا
طوال تلك الحقبة يمثلون طبقة رجال
المال في العالم المعروف. حقيقة أن
اليهود انتشروا في بلاد واسعة متعددة
ولكن ربطت بينهم ثلاث روابط، هي
الدين والدم والمال. وهكذا احتكر اليهود
في العالم المسيحي النشاط المالي طوال
العصور الوسطى. وسيطروا سيطرة تامة
على التجارة المحلية والعالمية. وقد بلغ من
سيطرة اليهود على التجارة الأوروبية أن
لفظ يهودي في الغرب الأوروبي أصبح
مرادفاً للفظ تاجر، ومن المعروف أن
الكنيسة في العصور الوسطى حرّمت

أكل الربا الذي نهى عنه الأنجيل
والمسيح، ولذلك لم يجرؤ المسيحي في
للك العصور على المجاهرة بإقراض المال
فائدة، فاستغل اليهود هذه الظاهرة التي

اتفق وأخلاقهم وحبهم للمال، واحتكروا
لنشاط المالي في غرب أوروبا على أوسع
نطاق، فأقرضوا الفرسان والأمراء، بل
أقرضوا الكنيسة نفسها لتتمكن من اتمام
نشاطها الضخمة الباهظة التكاليف.

وكما يحدث في مثل هذا النوع من
للعاملات كثيراً ما يكون المدين فريسة
لدائن، إذ لاتلبث ان تتراكم الديون
رتكاثراً أرباحها وفوائدها الفاحشة، حتى
بعجز المدين عن الوفاء بالتزاماته ويصبح
هو واملاكه تحت رحمة الدائن، الأمر
لذي يولد الضغائن في قلوب المدينين
ويحرك الرغبة في الثأر.

وهكذا تلفت ملوك أوروبا وأمرائها
وفرسانها وأساقفتها وعلية الناس فيها،
نوجدوا أنفسهم أمام شرادم من اليهود
نعيش بينهم، يزدادون غنى ويزدادون هم
نقرأ، يمتصون دماءهم وينتزعون
ممتلكاتهم، دون أن تعرف الرحمة
طريقاً إلى قلوبهم، وكان هذا وحده
هو السبب الرئيسي لما يتعرض له اليهود
على أيدي المسيحيين في غرب أوروبا

من كراهية تحولت أحياناً إلى اضطهاد،
إنه شعور الضيق والتذمر في جماعة
اتصفت بغلظة القلب والحرص على
الأذى.

وليس هذا مجال الإفاضة فيما تعرض
له اليهود نتيجة لما كسبت أيديهم - من
اضطهادات في غرب أوروبا طوال
العصور الوسطى، ولكن تكفي الإشارة
إلى أن لويس التاسع ملك فرنسا
(١٢٢٦ - ١٣٧٠) ضاق ذرعاً باليهود
فالغى ديونهم التي على الكنيسة
والحكومة، كما ألغى قلق كل ماكان
لهم على رعاياه من المسيحيين، ولما علم
أن التلمود (وهو مجموعة التعاليم
اليهودية التي وضعها الأحرار شرحاً
للتوراة) يحوي عبارة نصها الحرفي
«يحق لليهودي أن يغش غير اليهود

ويبتز مالهم» عن طريق «الربا الفاحش»،
أمر بجمع كافة النسخ من بلاده واحرقها
جميعاً في باريس، ثم أمر بطرد اليهود
من فرنسا، وإذا كان لويس التاسع قد
سمح لهم بالعودة بعد عشرين سنة، إلا
أن فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤) عاد
فطردهم. وهكذا ظل عمال اليهود في
فرنسا، يتقلب بين الإقامة والطرد إلى أن
ضاق الشعب بهم، فقامت ثورة شعبية

اليهود في أوروبا،
أقرضوا الفرسان
والأمراء، بل أقرضوا
الكنيسة نفسها
لتتمكن من اتمام
نشاطها الضخمة
الباهظة التكاليف.

النجاة بأرواحهم وأموالهم فغادروا البلاد ولم يستطيعوا العودة إليها حتى عهد كرمويل.

أما في ألمانيا فكانت أكبر موجة لاضطهاد اليهود في العصور الوسطى مرتبطة بالحركة الصليبية، ذلك أن اليهود أنفسهم وقفوا في تلك الحركة موقفاً معادياً لاعتقادهم أنها ستعرق نشاطهم المالي، ليس في الغرب فحسب بل في الشرق أيضاً. وفي الوقت نفسه أحس الأمراء والفرسان الصليبيون المشتركون في الحملة الصليبية الأولى بأنه من الخطر أن يتركوا بلادهم متجهين إلى الشرق، وخلفهم بين ذويهم شرادم من اليهود، يستغلونهم دون شفقة أو رحمة، وربما ألقت الحروب الصليبية على كواهل الفرسان والأمراء أعباء مالية ضخمة أثقلتهم، في الوقت الذي أقروا بأن الديون التي تستوجب دفعها لليهود لا سبيل للخلاص منها إلا بالخلاص من اليهود أنفسهم. لذلك شهدت مدن حوض الراين كما شهدت براغ مذابح كبرى ذهب ضحيتها عدد كبير من اليهود سنة ١٠٩٦ م وجدير بالذكر أن البابوية نفسها لم تكن أقل عداء لليهود، فأصدر البابا أنوسفن الثالث مرسوماً

جامحة في فرنسا سنة ١٣١٢ م وضد اليهود، أدت إلى قتل كثيرين منهم، وفر الباقون ينتقمون لأنفسهم بتسميم آبار المياه، مما أدى إلى إزدياد شعور النعمة عليهم، والحقيقة أن كل الاضطهاد الذي تعرض له اليهود كان بسبب محاولتهم السيطرة على التجارة والاقتصاد.

وفي إنكلترا رحب وليم الفاخ النورماني باليهود، وأحسن معاملتهم، ولكنهم أبوا إلا أن يتمسكوا بطباعتهم، فمارسوا في إنكلترا نفس النشاط الهدام الذي مارسوه في فرنسا، وجعلوا الثروات الضخمة عن طريق اشتغالهم بإقراض الأموال بالرباء فانتهاز الشعب الإنكليزي فرصة غياب مليكه ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة، وعاقب اليهود عقاباً قاسياً.

وفي عهد الملك هنري الثالث ملك إنكلترا، ثبت أن اليهود يجمعون العملة الذهبية والفضية من الأسواق ويزيفونها بعد أن يستبدلوا مافيهما من ذهب وفضة بمعادن أخرى رخيصة مما أخر باقتصاديات البلاد، لذلك أمر هنري الثالث بمصادرة ثلث أموال اليهود في بلاده. وعندما ثار الشعب الإنكليزي بأكمله ضد اليهود سنة ١٢٩٠ م آثروا

في عهد الملك هنري
الثالث (ملك إنكلترا)
ثبت أن اليهود
يجمعون العملة
الذهبية والفضية
ويزيفونها بمعادن
أخرى.

بابويًا سنة ١٢١٥ م يحد من استغلال اليهود للصليبيين سواء في عمليات الإقراض أو رهن المخلفات أو غير ذلك. هذه عجالة سريعة عن شعور المسيحيين في بعض بلاد الغرب الأوروبي نحو اليهود ومعاملتهم إياهم في العصور الوسطى. فإذا كيف كان أمر اليهود في العالم الإسلامي في نفس تلك العصور؟ الواقع أن ثمة حقيقة كبرى يصح أن نبدأ بها وهي أنه إذا كانت الحضارة العربية الإسلامية هي بإعتراف الباحثين أعظم حضارة شهدتها العالم أجمع في العصور الوسطى، فإن السرف في ازدهار تلك الحضارة إنما يرجع قبل كل شيء إلى روح التسامح التي عرف بها الإسلام والمسلمون.

ولسنا في حاجة إلى الإشارة أن الإسلام أوصى بأهل الكتاب من المسيحيين واليهود خيراً، وإن الله أمر آخر أنبيائه محمد (ص) بأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

«فإن أسلموا فقد اعتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد» وبمثل هذه الروح الطيبة فتح المسلمون أبواب بلادهم أمام اليهود ليدخلوها آمنين، ويتنقلوا بين ربوعها سالمين، وسمحوا لهم

بممارسة نشاطهم الخاص على أوسع نطاق، وأباحوا لهم التلمذ على أيديهم والأخذ عنهم، وأجازوا لهم تولي الكثير من المهام والأعمال والمناصب الرسمية وغير الرسمية، فصار منهم التجار والصيارفة والأطباء....

ولأدل على تسامح المسلمين مع اليهود من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، في الوقت الذي أمرت الكنيسة في غرب أوروبا بتحطيم هياكل اليهود، وقد روى أحد المعاصرين من اليهود في القرن الثاني عشر للميلاد وهو بنيامين التطيلي، أنه أثناء زيارته الكوفة شاهد بها معبداً لليهود ينسب للنبي دانيال، وليس هناك دليل واحد في التاريخ يشير إلى أن المسلمين أساءوا معاملة اليهود لمجرد أنهم يهود، بل على العكس كثيراً ما أعطى المسلمون بعض اليهود حقهم من المديح والثناء، دون اعتبار الدين أو العنصر، ولاعبرة إطلاقاً بأن يلجأ بعض الحكام الذين عرفوا بعدم سلامة تصرفاتهم إلى اضطهاد الذميين من مسيحيين ويهود في فترات محدودة جداً من التاريخ الإسلامي.

فإذا كانت قد حدثت موجات من

لا أدل على تسامح المسلمين مع اليهود من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

عدد اليهود في القرن
الثاني عشر في بلاد
المسلمين بحدود
ثلاثمائة ألف يهودي.

الاضطهاد لأهل الذمة في عصر سلاطين
المماليك مثلاً، فإنه ينبغي أن نقدر روح
العصر - وهو عصر الحروب الصليبية -
وطبيعة المماليك أنفسهم وحادثة عهدهم
بالإسلام وعدم تشربهم روحه بالقدر
الكافي.

وقد إضطّر موسى بن ميلمون،
الفيلسوف اليهودي - أمام موجة طارئة
من تلك الموجات - إلى التظاهر بالإسلام
والفرار من الأندلس إلى مصر حيث نزل
بين اليهود في مصر القديمة، وكان أن
وجد في مصر جواً مشبعاً بالتسامح،
وتوثقت الصداقة بينه وبين القاضي عبد
الرحمن بن علي البياني، ولكن رجلاً ممن
كانوا يعرفونه بالأندلس - اسمه أبي
غريب - لحق به في مصر، وحاول تجريمه
لإرتداده إلى اليهودية، وعندئذ وجد ابن
ميمون من عطف القاضي المسلم مافيه
الكفاية، إذ حماه البياني وقال: «رجل
يكره الإسلام لا يصح إسلامه شرعاً»
ويعلق أحد الباحثين من المستشرقين على
هذه القصة بقوله: إنها تنطوي على
تسامح جميل.

وثمة قصة أخرى تدل على روح
التسامح التي نظر بها المسلمون إلى
اليهود، وهي أن الوزير علي بن عيسى بن

الجراح - وزير الخليفة المقتدر العباسي -
أمر الطبيب سنان بن ثابت بإرسال
جماعة من الأطباء وخزانة من الأدوية
والشراب لتجذب السواد من أرض
العراق وتداوي المرضى وكانوا أن وجد
الأطباء أن هناك مناطق من العراق
جمهرة سكانها من اليهود، فكتبوا
يتساءلون عما إذا كان مطلوباً منهم
علاجهم والاقتصار على علاج مرضى
المسلمين، وبسرعة جاء الرد من الوزير
بضرورة علاج الجميع، مع البدء بعلاج
المسلمين.

ونخرج من القصة السابقة بدلالة
أخرى، هي كثرة أعداد اليهود في العالم
الإسلامي في العصور الوسطى. وهي
ظاهرة تشهد على إحساسهم بالأمن
والإستقرار في ظل الحكم الإسلامي
بالذات.

ويذكر البلاذري أن معاوية بن أبي
سفيان ما كان يستولي على طرابلس حتى
جلب إليها اليهود وأسكنهم فيها،
وكذلك حصل في الأندلس وغيرها،
وفي ظل الأمن والسلام اللذين نظم بهما
اليهود في بلاد المسلمين تكاثرت
أعدادهم حتى أن بنيامين اليهودي قدر
عدهم في القرن الثاني عشر بثلاثمائة

ألف يهودي في المشرق الإسلامي وحده ويقول بنيامين أنه كان يسكن دمشق ثلاثة آلاف يهودي تحت حكم المسلمين وفي حلب خمسة آلاف يهودي، كما يقول أن اليهود ازدحموا على جانبي نهري دجلة والفرات وفي مدن الجزيرة. فكان في الموصل سبعة آلاف... أما في مصر فيقول بنيامين أنه كان في القاهرة سبعة آلاف يهودي وبالإسكندرية ثلاثة آلاف.

وقد ازداد عدد أولئك اليهود بالقاهرة في عصر سلاطين المماليك نظراً لنشاط التجارة.

وكلما تقدمنا شرقاً ازداد عدد اليهود في الوطن الإسلامي فكان بهمدان ألفاً وبأصفهان خمسة آلاف وبشiraz عشرة آلاف وبسمرقند ثلاثون ألفاً. وهذه الأرقام التي يذكرها بنيامين يؤيدها المقدس في القرن الرابع الهجري.

وفي كثير من المدن الإسلامية نجد أحياء تنسب إلى اليهود مثل حارة اليهود بالقاهرة ودرب اليهود في بغداد وفي المغرب خصص الإمام إدريس الثاني حياً كبيراً لليهود في مدينة فاس.

وهذه الكثرة العددية لليهود في العالم الإسلامي وخاصة في الشرق تطلبت أن

يكون لهم رئيس ديني يرعى أمورهم. ولقب هذا الرئيس «رأس الجالوت» وله السلطان والرياسة على جميع أبناء ملته. ولقبه المسلمون «بسيدنا» وفرض الخليفة المكتفي العباسي على المسلمين في بغداد تقديم واجب الاحترام له والوقوف أمامه إجلالاً له، ومن لم يقف له ضرب مئة سوط وبقيام الدولة الفاطمية لم يعد للخليفة العباسي في مصر والشام نفوذ، فصار لليهود في مصر رئيس طائفة مستقل لقبه «سرهاريم» أي أمير الأمراء وكان هو الذي يعين أحبار اليهود في مصر والشام، وقد تولى هذه الرئاسة سنة ٦٨٤ هـ الشيخ المذهب أبو الحسن الموفق بن شمويل الطيب وكتب له توقيع برئاسة سائر الفرق اليهودية في جميع ديار مصر والشام.

وخير مثل نسوقه على الفارق العظيم بين مالقيه اليهود في ظل الحكم الإسلامي من تسامح وأمن واستقرار وماتعرضوا له على أيدي الصليبيين في العصور الوسطى من اضطهاد.

أن مدن الشام التي كانت بها جاليات ضخمة من اليهود تحت حكم المسلمين كادت تفتقر من اليهود بعد إستيلاء الصليبيين عليها. ويقول بنيامين أنه لم

لقب المسلمون رئيس الطائفة اليهودية «بسيدنا» وفرض الخليفة المكتفي العباسي على المسلمين في بغداد واجب الاحترام له والوقوف أمامه إجلالاً، ومن لم يقف له ضرب مئة سوط.

بلغ تسامح المسلمين
مع اليهود أن
استخدموا اليهود في
وظائف الدولة، وعلى
رأسها الوزارة.

يبقى في بيت المقدس بعد إستيلاء
الصليبيين عليها سوى أربعة من اليهود
في حين كان في صور تسعة فقط لذلك
لأعجب إذا هلك اليهود عندما سمعوا
بإستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس
سنة ١١٨٧ م.

وفي ظل التسامح الإسلامي تمتع
اليهود بحرية واسعة في مباشرة نشاطهم
الاقتصادي فاحتكروا التجارة بين الشرق
والغرب، واعتادوا أن يبدؤوا رحلتهم
التجارية في إقليم بروفانس بوادي الرون
في جنوب فرنسا، ولذلك أطلق عليهم
المسلمون اسم اليهود الراذنية بنسبة إلى
الرون.. ويستأنفون رحلتهم إلى الشرق
الأقصى عن طريق البحر الأحمر.

ومامن مركز تجاري كبير في العالم
الإسلامي إلا وكانت به جالية ضخمة
من اليهود تسيطر على النشاط المالي فيه.
فكانت مدينة اليهودية، على مقربة من
اصفهان، هي المركز التجاري لهذه
المدينة الفارسية الكبيرة.

أما في مصر فيذكر المقرئزي أنه حدث
في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله أن يتبع
أخوان يهوديان يتصرف أحدهما في
التجارة والآخر في الصرف وبيع
ما يحمله التجار من العراق. وفي بيت

المقدس احتكر اليهود تجارة الأصباغ في
حين اشتغل يهود الأندلس بخصي الرقيق
الصقالبة.

وإلى جانب التجارة عرف عن اليهود
احتكارهم لأعمال الصيرفة وهي
الأعمال التي باسروها بحرية واسعة في
العالم الإسلامي.

ولم يكن إطلاق الحرية لليهود لمباشرة
نشاطهم المالي والمصرفي هو كل
ما حظوا به من امتيازات في ظل
الحكم الإسلامي، بل لقد بلغ من
تسامح المسلمين أن استخدموا اليهود في
وظائف الدولة. وسمحوا لهم بتقليد
اسمى الوظائف وأرقاها، وعلى رأسها
وظيفة الوزارة، وظهر منهم في العصر
الفاطمي يعقوب بن كلس الذي لجأ إلى
مصر حيث تاجر لكافور الأخشيدي ثم
استوزرة المعز لدين الله الفاطمي ويقال
أنه هو الذي أشار عليه بفتح مصر. ورغم
إعتناقه الإسلام إلا أنه ظل يتحيز لإخوانه
اليهود، ومع ذلك فقد كان المعز لا يفعل
شيئاً إلا بمشورته. أما الخليفة العزيز
الفاطمي فقد استوزر عيسة بن فطوروس
النصراني واستتاب في الشام يهودياً
اسمه منشأ فاعتز بهما أهل الذمة وأنزلوا
أضراراً كبيرة بالمسلمين. وفي عهد

الخليفة المستنصر الفاطمي أصبح أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى وزيراً - وكان يهودياً فأسلم ، فأشرك معه في تدبير شؤون الدولة أبو سعد التستري اليهودي.. وقد أثار هذا الأخير كراهية المسلمين لليهود، واسناده مناصب الدولة إليهم مما مكنهم من اضطهاد المسلمين اضطهاداً واضحاً. وعبر عن ذلك الشاعر المصري الحسن بن خاقان بقوله:

يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية مالهم وقد ملكوا
الذ فيهم والمال عندهم
ومنهم المستشار والملك
ولم يقتصر الأمر على مصر فقد استوزر ملكشاه السلجوقي لنفسه أمين الدولة أبا الحسن بن غزال - وهو طبيب يهودي - وجدوا عنده بعد موته ثلاثة ملايين قطعة من الذهب.

وفي المغرب اتخذ بارس بن حبوس بن زيدي ملك غرناطة ٤٦٦ - ٥٣٠ هـ أحد اليهود ابن تغزلة وزيراً. وكان لمهنة الطب خطرهما في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ومع ذلك فقد أباح المسلمون لأهل الذمة مزاولة تلك المهنة. وسلم الخلفاء والحكام أرواحهم وأنفسهم لأطباء من اليهود وإذا كان قد عيب على

الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي أنه اضطهد أهل الذمة خلال فترة معينة من حكمه، فإن كتب التاريخ تحكي عن الحاكم نفسه أنه أصيب بجرح في ساقه فأحضر إليه طبيب يهودي نجح في علاجه. وعندئذ منحه الحاكم ألف دينار وخلع عليه وجعله من أطبائه الخاصين، كذلك اختار الملك العادل الأيوبي يعقوب بن صقلان طبيباً خاصاً له. وقد أدركه وجع المفاصل في أواخر أيامه. فكان الملك العادل إذا احتاجه استدعاه إليه في محفة يحملها الرجال. وبعد فلعله من الواضح بعد هذه اللوحة السريعة أن اليهود لم يلقوا طوال عصور التاريخ معاملة أكرم وأطيب من تلك التي عاملهم بها المسلمون. لقد أدت أنانية اليهود وجشعهم إلى تعرضهم لاضطهاد الرومان في العصور القديمة ومختلف شعوب أوروبا المسيحية في حين أنهم وجدوا في المسلمين - بإعتراف كتاب اليهود أنفسهم - أخوة رحماء، يعتبرونهم أهل كتاب ولا يجعلون للفوارق الدينية وزناً في تحديد نوع المعاملة التي يعاملونهم بها.

ولكن تجربة المسلمين مع اليهود كانت دائماً مريّة قاسية، إذ كان اليهود يقابلون

تجربة المسلمين مع
اليهود كانت دائماً
مريّة قاسية، إذ كان
اليهود يقابلون الوفاء
بالغدر والإحسان
بالتكرار.

إن البلدان العربية
والإسلامية هي التي
دفعت ثمن الاضطهاد
الغربي لليهود عندما
اشكلوا تجمع لليهود
في دولة واحدة التي
عرفت باسم
إسرائيل.

الوفاء بالغدر والإحسان بالنكران
والمعروف بالجحود، لذلك أخذ
المسلمون في العصور الوسطى
يتخوفون من السفر مع اليهود خوفاً
من خديعتهم.

ولعل هذه الأمثلة وغيرها هي التي
جعلت المستشرق أولبري يقول مانصه:
«إن النظام الإداري للدولة الإسلامية قد
أمدّ اليهود بفرص أظهرها فيها مدى
مأنطوت عليه نفوسهم من الظلم
والخيانة، وهي تلك الأخلاق التي لم
يستطيعوا كبح جماحها.

وبالمقابل بلغت الحملات ضد اليهود
في الغرب ذروتها حيث تعرضوا للمذابح

في اسبانيا وأوروبا ورغم ذلك فإن
البلدان العربية الإسلامية هي التي
دفعت ثمن الاضطهاد الغربي لليهود عندما
شكل هذا الاضطهاد مبرراً معنوياً للغرب
لتجميع اليهود في دولة واحدة هي التي
عرفت باسم «إسرائيل». أما المجتمع
الغربي الذي تسبب في هذا كله فقد
تنصل من مسؤولياته، بل ساعد في إلقاء
الجريمة على اكتاف المجتمع العربي،
ولا يزال الصراع مستمراً حتى هذا اليوم
لأن القضية الفلسطينية لاتزال تدور في
دوامة مفرغة من القلق والاضطراب.

المصطلحات التقنية / الأثرية

وحدود مدلولاتها

د. محمد ماجد الموصلي

لا يمكن للشاغلين والباحثين في حقل من حقول العلوم التفاهم وتفسير وشرح نتائج أبحاثهم ودراساتهم حتى أننا لن نكون فعالين إذا قلنا أن تلك المصطلحات التقنية لأحد العلوم هي لغة خاصة ضمن اللغة التي يكتب بها الباحث أو الدارس. وعلم الآثار والتقيب هو أحد العلوم التي لها لغتها الخاصة بها أي أن علم الآثار يزخر بالمصطلحات التقنية. سوف نحاول في هذا الموضوع استعراض أهم وأشهر المصطلحات التقنية في علم الآثار والتقيب وتحديد مدلولاتها والمفاهيم المرتبطة بها. نصنف المصطلحات ضمن الفقرات التالية:

- أ - مصطلحات المراحل الحضارية.
- ب - المصطلحات الخاصة بالمواقع الأثرية.
- ج - المصطلحات الخاصة بالفخار.
- د - المصطلحات الخاصة بالتقيب الأثري.
- هـ - المصطلحات الخاصة بالتاريخ.
- و - مصطلحات أخرى.

لنبداً أولاً بمصطلحات المراحل الحضارية.

من المعروف أن الفيلسوف اليوناني لوكريتيوس كاروس كان أول من تحدث عن ارتقاء الحضارة البشرية من الحالة الدنيا إلى الحالة الأكثر تطوراً فقد صنف الحضارات التي كانت قائمة في عهده وفق مايلي:

لكل علم من العلوم مصطلحاته الخاصة به، وقد عرفت المصطلحات الخاصة بالعلوم بالتعبير اللاتيني (Terminus) أي (technics) المصطلحات التقنية حسب تعريفها الحرفي، ومن دون استخدام المصطلحات التقنية (مصطلحات عمل البحث العلمي)

وإبداله بمصطلح ابتدائي فحسب رأي الكثير من المؤرخين، لوجود حضارة بدائية فأكثر الشعوب بدائية عرفت شكلاً من أشكال الثقافة ولو كانت معرفتها قاصرة على مستوى معين من التعامل مع الطبيعة لإثبات الوجود الحيائي.

٢ - العصر الحجري القديم: Palalolithic

مصطلح يطلق على السوية الحضارية التي عرفت نموذجاً معيناً من نماذج صنع الأدوات الحجرية ويغطي هذا المصطلح عصوراً زمنية طويلة ونظراً لاحتمال وقوع التباس في معرفة أية فترة من الممكن أن تغطي من خلالها السوية الحضارية المعينة لهذا فقد عرفت مصطلحات أخرى ترتبط بالمصطلح الآنف الذكر وهي:

العصر الحجري القديم الأدنى Lower Palaeolithic

العصر الحجري القديم الأوسط: Middle Palaeolithic

العصر الحجري القديم الأعلى: Upper Palaeolithic

يطلق مصطلح العصر الحجري القديم الأدنى على أقدم الحضارات البشرية الحجرية وهي الحضارة المرتبطة بصناعة حجرية ابتدائية للإنسان الجنوبي Austvalopithecus والإنسان المنتصب

١ - مرحلة الإنسان الذي لم يعرف النار.

٢ - مرحلة الإنسان الذي تعرف على النار.

٣ - مرحلة الإنسان الذي تعرف على صنع الأدوات.

٤ - مرحلة الإنسان الذي يعيش في الحالة البربرية.

٥ - مرحلة الإنسان الذي ابتكر الحضارة المدنية (ويقصد اليونانيين).

ثم ظهرت النظرية الدروانية حول مسألة الارتقاء من الأدنى ونحو الأعلى وطبقت تلك النظرية في مجالات الدراسات الثقافية والحضارية واعتبرت منهجاً اختلف الباحثون في التقيد به وخاصة بما يتعلق بتصنيف الحضارات البشرية ضمن نظرية الارتقاء وفق خط واحد أو وفق خطوط متوازية الخ.

وهكذا اضطر الباحثون في علم الآثار لدى تقييمهم وتاريخهم للسويات الأثرية التي اكتشفوها إلى استخدام مصطلحات خاصة تفرق السويات الحضارية عن بعضها وتعبر عن المرحلة والزمن الحضاري لمكتشفاتهم.

١ - الحضارة البدائية: Primitiu Culture.

يبدو أنه يوجد اليوم ما يشبه الاتفاق العام حول الاستغناء عن مصطلح بدائي

النظرية الدروانية
حول مسألة الارتقاء
من الأدنى إلى الأعلى

(Homo Erectus).

(Magdalenian) وهي أحدث

الحضارات الحجرية القديمة (عرفت من مواضع في بريطانيا وفرنسا وإسبانيا / ألتاميرا) انتهى مصطلح الباليوليثيك.

٣ - العصر الحجري الوسيط (Mesolithic)

مصطلح يطلق على السوية الحضارية الحجرية الانتقالية بين الحجري القديم والحجري الحديث، ولا يغطي هذا المصطلح نفس الفترات الزمنية لمختلف المواقع الحجرية في العالم شأن ذلك شأن مصطلح العصر الحجري القديم، إذ أن التاريخ الزمني لسويات العصر الحجري الوسيط في أوروبا لا تتطابق زمنياً مع تاريخ سويات العصر الحجري الوسيط المكتشفة مثلاً في المريط أو الكوم ضمن أراضي القطر العربي السوري.

وهناك مصطلح معروف باسم الحضارة النطوفية (جبال الكرمل وهضاب القدس) الذي يتطابق زمنياً إلى حد ما مع العصر الحجري الوسيط وتقع فترته بين ١٠٠٠ و ٨٣٠٠ ق.م.

٤ - العصر الحجري الحديث (Neolithic)

يعبر مصطلح العصر الحجري الحديث عن آخر مرحلة من مراحل الحضارة

أما مصطلح العصر الحجري القديم الأوسط فهو يغطي مرحلة حضارية حجرية انتقالية بين الصناعة الحجرية القديمة الدنيا (أدوات القبضة الحجرية البسيطة والحصى) وبين المرحلة الحضارية الحجرية القديمة العليا التي يعبر عنها مصطلح العصر الحجري القديم الأعلى وهي التي تبدأ نحواً من حوالي ٤٠,٠٠٠ عام قبل عصرنا الحاضر وهي مرتبطة بما يسمى بالإنسان العاقل.

هناك أيضاً مصطلحات تعبر عن سويات العصر الحجري القديم وهي في الحقيقة أسماء لمواضع جغرافية اكتشفت فيها سويات حضارية حجرية لكنها متفاوتة في الدنو أو الرقي وهي مستخدمة اليوم بشكل متواز مع المصطلحات الآتية الذكر منها مثلاً حضارة Chellean (أقدم حضارة حجرية قديمة) وحضارة آشول (Acheulian) (سورية أكثر رقياً عن الشيلين) وليفالوا - موستريان (Leuallois - Mousterian) التي وجدت آثارها في جنوب فرنسا وفي منطقة الجبال التدمرية وهناك أيضاً الحضارة الحجرية المجدلانية

مصطلحات تعبر عن
سويات الحجر في كل
عصر

٦ - عصر العبيد

نسبة إلى موقع العبيد في بلاد ماين النهرين فقد درج على استخدام مصطلح عصر العبيد وهو عصر حضاري أحدث من عصر حلف أي أنه يقع زمنياً قبل الألف الرابعة ق. م، ظهرت سوية العبيد في مواضع أثرية كثيرة عن بلاد ماين النهرين وفي سوريا.

٧ - عصر الوركاء

الوركاء أو كما ترد في الآداب الأثرية الأوروبية باسم أوروك، موقع أثري اكتشفت فيه سوية بداية صناعة الآنية الفخارية فوق الدولاب، وتغطي هذه السوية الألف الرابعة ق. م.

اكتشفت سوية الوركاء أيضاً في مواضع مختلفة من بلاد ماين النهرين وسوريا. ويقسم عصر الوركاء إلى مرحلتين عصر الوركاء المبكر وعصر الوركاء المتأخر الذي ينتهي حوالي ٣١٠٠ ق. م.

٨ - عصر جمدة نصر

نسبة إلى موقع جمدة نصر ويغطي الفترة الزمنية بين ٣١٠٠ و ٢٩٠٠ ق. م.

٩ - عصر ما قبل السلالات (Pre-Dynastic)

يطلق مصطلح عصر ما قبل السلالات على الفترة الزمنية التي لم تعرف منها

الحجرية وذلك قبل العصر الانتقالي إلى اكتشاف النحاس. ومسألة العصر الحجري الحديث غاية في التعقيد من حيث ابتدائه زمنياً واستمراره فالحضارة النطوفية هي من فترات العصر الحجري الحديث حسب بعض الآراء وحسب المواقع الجغرافية وهي حسب رأي البعض الآخر مجهولة كحضارة في مناطق أخرى.

وعليه تتأرجح التغطية الزمنية للعصر الحجري الحديث بشكل عام بين الألف العاشرة أو التاسعة ق. م وبين منتصف الألف الثامنة ق. م وهي الفترة المعروفة باسم أقدم سويات العصر الحجري الحديث (حسب تنقييات الأستاذ كوفان في موقع المريط) (أي بين ٧٦٠٠ و ٦٦٠٠ ق. م) وتمتد فترات العصر الحجري الحديث إلى نحو من إثناء عصر حلف وابتداء عصر العبيد.

٥ - عصر حلف (Halaf)

نسبة إلى موقع حلف فقد درج على استخدام مصطلح عصر حلف الذي يغطي فترة الألف الخامسة ق. م ويعبر المصطلح عن أحدث فترات العصر الحجري الحديث وغالباً ما يرتبط مصطلح حلف بنموذج فخار معين معروف باسم فخار حلف.

العصر الحجري الحديث
بين الألف العاشرة
والثامنة ق. م

عصر ما قبل السلالات في مصر وسوريا

ثم الانتقال إلى اكتشاف المعدن وقد قسمت الفترة الزمنية التي اكتشف فيها معدن البرونز القديم (Early Brenze) وعصر البرونز الوسيط (Muddle Brenze) وعصر البرونز الحديث (late Bronze) يغطي عصر البرونز المبكر الفترة الزمنية الواقعة بين ٣٠٠٠ أو ٢٩٠٠ و ٢٤٠٠ ق. م وتوافق تلك الفترة زمنياً مع عصر جمدة نصر وعصر ما قبل السلالات الرافدية.

١١ - عصر البرونز القديم الرابع Early Brenze IV

يغطي هذا المصطلح الفترة الزمنية بين عامي ٢٤٠٠ و ٢٠٠٠ أو ١٩٠٠ قبل الميلاد ويتوافق عصر البرونز القديم الرابع زمنياً مع عصر أكاد وعصر أكاد المتأخر أو عصر سلالة لجاش وعصر أور الثالث. وهناك خلافات حادة حول استخدام مصطلح عصر البرونز القديم الرابع فبالنسبة إلى سوريا وفلسطين طرح مصطلح عصر البرونز الانتقالي بين عصري البرونز القديم والبرونز الوسيط ومثل هذا المصطلح يغطي الفترة الزمنية الواقعة بين ٢٢٥٠ و ١٩٠٠ ق. م أي عصري لجاش وأور الثالثة ويرتبط الموضوع أصلاً بالكرونولوجي أو التقديم (التاريخ) المحلي والعالم الذي

سلالات حاكمة في المدن المصرية القديمة وخاصة من البداري والفيوم وغيرها وتتوافق تلك الفترة زمنياً مع الألفين الخامسة والرابعة ق. م).

أما الفترة الزمنية التي يتوافق معها مدلول عصر ما قبل السلالات في بلاد ماين النهرين فتعود إلى ماين ٢٩٠٠ و ٢٢٥٠ ق. م. وبالنسبة إلى مصطلح عصر ما قبل السلالات في بلاد ماين النهرين فهو يقسم إلى عصر ما قبل السلالات من I إلى III.

يقابل مدلول مصطلح عصر ما قبل السلالات في سوريا مصطلح فجر التاريخ السوري.

أما مصطلح العصر الحجري النحاسي أو ما يسمى بـ الحجري الحديث المتأخر (Emealithic) فهو يغطي الفترة الزمنية الواقعة بين ٥٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق. م وهي الفترة التي عرفنا أن مدلولها مغطى بمصطلحات عصر حلف وعصر العبيد وعصر الوركاء وعصر جمدة نصر.

١٠ - عصر البرونز القديم I و II و III Early Brenze 196

يعتبر كريستيان تومسين الدانماركي رائد التصنيف الحضاري وفق النظام المعروف باستناده إلى صناعة الحجر ومن

يشمل منطقة تاريخية محددة.

١٢ - عصر البرونز الوسيط Middle Bronze

يغطي مصطلح عصر البرونز الوسيط الفترة الزمنية الواقعة بين عامي ٢٠٠٠ أو ١٩٠٠ و ١٦٠٠ أو ١٥٥٠ ق.م حسب كرونولوجي تل مردوخ /ايلا وحسب كرونولوجي مواقع أخرى الفترة الواقعة بين ١٩٠٠ و ١٥٥٠ ق.م. يقسم عصر البرونز الوسيط إلى مرحلتين هما عصر البرونز الوسيط I وعصر البرونز الوسيط II وهناك خلاقات أيضاً وعدم استقرار حول التحديد الزمني الدقيق لمصطلح عصر البرونز الوسيط، فعصر البرونز الوسيط I يبدأ حوالي عام ٢٠٠٠ وينتهي حوالي عام ١٨٠٠ ق.م في تل مردوخ ويبدأ عصر البرونز الوسيط I حوالي عام ١٨٠٠ وينتهي حوالي عام ١٦٠٠ ق.م في نفس الموقع. يطلق أيضاً مصطلح العصر السوري القديم على نفس فترات عصر البرونز الوسيط. ١٣ - عصر البرونز الحديث (Late Breng)

يبدأ عصر البرونز الحديث في وسط سوريا (تقيب البعثة الدانماركية في حماة) حوالي عام ١٥٥٠ ق.م وينتهي حوالي عام ١٢٠٠ ق.م أما التقدير الزمني للبرونز الحديث في تل مردوخ

فيبدأ عند عام ١٦٠٠ وينتهي عند عام ١٢٠٠ ق.م وهو يقسم إلى مرحلتين البرونز الحديث I من ١٦٠٠ أو ١٥٥٠ وحتى ١٤٠٠ ق.م والبرونز الحديث II من ١٤٠٠ وحتى ١٢٠٠ ق.م. وحول التقدير الزمني للبرونز الحديث وتقسيمه إلى فترات فهناك أيضاً عدم إجماع حول الموضوع حيث يقسم البرونز الحديث لمناطق لبنان والساحل السوري إلى ثلاثة مراحل تنتهي عند حوالي عام ١٢٠٠ ق.م وهي فترة إنتهاء الحكم الحثي لمناطق شمال ووسط سوريا. يطلق أيضاً مصطلح العصر السوري الوسيط على نفس الفترة الزمنية التي يغطيها مصطلح عصر البرونز الحديث.

١٤ - عصر الحديد: Iron - Ase

يطلق مصطلح عصر الحديد على الفترة الزمنية التي تبدأ من عام ١٢٠٠ ق.م وهي فترة اكتشاف معدن الحديد وتبدأ فترة عصر الحديد مع انهيار الحكم الحثي في سوريا و سطوع نجم الدول الآرامية. ويوازي مدلول عصر الحديد زمنياً مدلول مصطلح العصر السوري الجديد أما مصطلح العصر الآشوري الجديد فيغطي الفترة الواقعة بين ١١٠٠ و ٦١٠ ق.م وهو زمن سطوع نجم

ظاهات حول استخدام مصطلح عصر البرونز القديم الرابع في سورية وفلسطين

الدولة الآشورية. يقسم عصر الحديد إلى أربعة أو إلى ثلاثة مراحل: هي الحديد I من ١٢٠٠ وحتى ٩٠٠ ق.م والحديد II من ٩٠٠ إلى ٧٢٠ ق.م والحديد III من ٧٢٠ وحتى حوالي ٥٥٠ ق.م.

١٥ - العصر الأخميني

مصطلح يطلق على فترة سيطرة الدولة الفارسية على المنطقة وذلك بين حوالي عام ٥٥٠ وعام ٣٢٥ ق.م.

١٦ - العصر الهلنستي

يطلق مصطلح العصر الهلنستي على الفترة التي تقع بين ابتداء الغزو الهلنستي للمنطقة (فتوحات الأسكندر المكدوني الكبير) وغزو الامبراطور الروماني بومبي للمنطقة في عام ٦٤ ق.م.

١٧ - العصر الروماني

بين عام ٦٤ ق.م وانفصال القسطنطينية عن روما وقيام الدولة البيزنطية في عام ٣٠٦ م.

١٨ - العصر البيزنطي

من عام ٣٠٦ وحتى ٦٣٠ م

١٩ - العصر الإسلامي

من ٦٣٠ حتى يومنا هذا.

ب - المصطلحات الخاصة بالمواقع الأثرية

نتج عن القيام بالتنقيب في مواقع أثرية عديدة وعبر تاريخ التنقيب الأثري

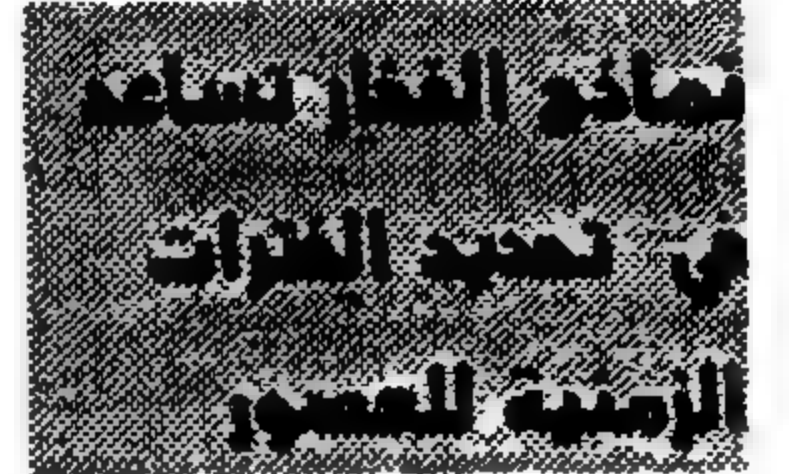
الحديث استخدام تعابير خاصة في نشر النتائج العلمية للحفريات وأضحت مثل تلك التعابير مصطلحات لم يعد من الممكن الإستغناء عنها أو تجنب الاستشهاد بها. من تلك المصطلحات مثلاً Hamaj أو مردبخ IIB ٢٤٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م إلخ. ومثل تلك التعابير هي كناية عن اسم السوية أو الطبقة الأثرية حسب الحرف اللاتينية يضاف إليها اسم الموقع الأثري الذي جرى فيه التنقيب والكشف عن الطبقة الأثرية المعنية.

والتعبير المختصر من أسم الموقع والحرف المؤشر إلى الطبقة يعبر عن فترة زمنية للسكن في الموقع وظهور نموذج أو نماذج معينة من الفخار الأثري أو اكتشاف نموذج معين من العمارة وأسلوبها إلخ. وأضحت مثل تلك التعابير مصطلحات يستخدمها الآثريون في تدوين نتائج حفرياتهم فمثلاً يقول الأستاذ فلان أنه اكتشف في الموقع الأثري الفلاني سوية تبين أن فخارها هو مماثل لفخار Hamaj أو غيره نستعرض فيما يلي أهم تلك التعابير المصطلحية الخاصة بمواقعنا الأثرية:

١ - العمق (Amuq F)

يقصد بالتعبير العمق F السوية الأثرية

**العصر الهلنستي
وفتوحات الأسكندر
المكدوني الكبير وغزو
الامبراطور الروماني
بومبي**



المكتشفة في تلال الجديدة وتشاتال هويوك وغيرها من تلال أثرية تدفن مدن قديمة ازدهرت في سهل العمق (لواء الاسكندونة) ويغطي العمق F زمنياً من ٣٥٠٠ - ٣٣٠٠ ق. م ويقابل تعبير العمق F التعبير نينوي III و غاورا - XI - XII.

٢ - حماة (J)

يغطي التعبير حماة (J) الفترة الزمنية الواقعة بين ٢٤٠٠ و ٢٠٠٠ ق. م وهناك تقسيمات معروفة أنها تبدأ ب حماة J١ وتنتهي ب حماة J٨ ونظراً لقبول أو رفض التحديد الزمني وتاريخ التسوية HJ لذا فيفضل عوضاً عن ذكر التاريخ القول أن السوية المعينة كذا هي مماثلة (HJ) الخ.

٣ - مردوخ من I إلى VII:

يقابل تعبير مردوخ IIB١ تعبير حماة ٤ - J١ Hama المتوافق مع الفترة الزمنية من ٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ ق. م. أما فترة مردوخ IIB٢ فهي الفترة الواقعة بين ٢٢٥٠ - ٢٠٠٠ ق. م وفترة مردوخ IIB١ هي فترة ازدهار ايبلا قبل تدميرها من قبل نارام سين خليفة صارغون الأكادي.

ج - المصطلحات الخاصة بالفخار
هناك تعابير خاصة بالفخار لاحتصر لها وقد أضحت مصطلحات يتفاهم بها الكتبة والقارؤون للآداب والأبحاث الأثرية وهي تعبر غالباً عن نموذج محدد من نماذج الفخار الأثري الذي ظهر ضمن فترة زمنية محددة واختفى بعدها، لذا أضحت تلك المصطلحات رموزاً لفترات زمنية حضارية فمثلاً هناك مصطلح معروف باسم الفخار المعدني (metallic - Ware) وبما أن الفخار المعدني ذا المواصفات المحددة معروف على أنه ظهر بين ٢٢٥٠ و ٢٠٠٠ ق. م لذا فإن قارئ البحث الأثري يعرف عند قراءته لمصطلح الفخار المعدني أن المقصود هو الفترة الزمنية التي ذكرتها آنفاً. والمشكلة أنه إذا ورد لدى أحد الباحثين أنه اكتشف الفخار المعدني في سوية عصر البرونز الوسيط أي بعد عام ١٩٠٠ ق. م. فالمسألة تتعلق عندها باستمرار تقليد صناعة الفخار المعدني في الموقع الأثري المحدد.

١ - الفخار المعدني:

هو أحد نماذج الفخار الذي يتصف بأن التربة المصنوع منها ناعمة جداً وتحتوي على نسبة عالية من الذرات

المعدنية وهو مشوي تحت درجة عالية ورقيق القوام وينتج عند الطرق عليه رنيناً خاصاً.

٢ - الفخار المدهون المعروف باسم Polychrome

هو الفخار المدهون بلون أو لونين فوق اللون الأصلي للطين المصنوع منه الآنية.

٣ - الفخار المدهون المعروف باسم Monochrome

هو الفخار المدهون بلون واحد فقط فوق الطين المصنوع منه الآنية.

٤ - الفخار الفايانس Faience

هو نموذج محدد من الفخار المصنوع من الطين المخلوط مع الرمل وهو مشوي تحت درجة حرارة عالية تحول عندها الرمل إلى قوام زجاجي ذا لون أخضر اوز نجاري ومثل هذا النموذج من الفخار معروف من مصر وفلسطين وانتشرت صناعته خلال الألف الثانية ق.م.

إلخ من مصطلحات تتعلق بالفخار وأنواعه ونماذجه.

د - المصطلحات الخاصة بالتقيب الآثري

من المعروف أن التقيب والحفريات الآثرية هي أعمال تقنية منهجية بحثية ولها مصطلحاتها الخاصة بها. ومثل تلك المصطلحات غاية في الفقه والمداول

وهي مرتبطة أصلاً بنشوء علم الحفريات الآثرية ولا يمكن الاستغناء عنها أو تبديلها، نورد فيما يلي بعضاً من تلك المصطلحات:

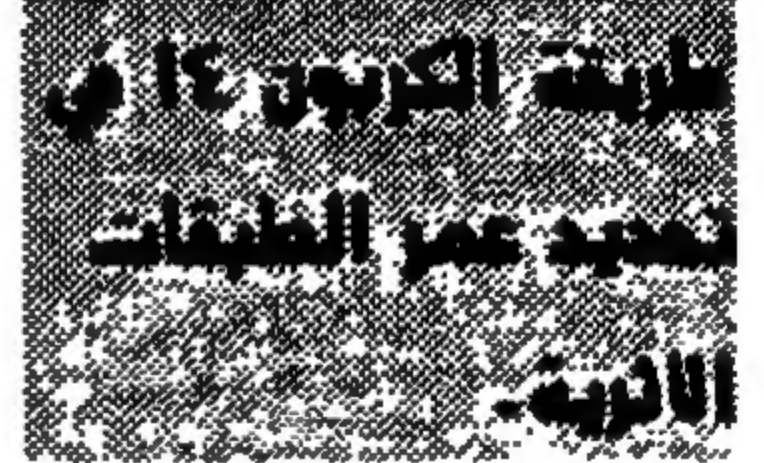
١ - الستراتيغرافي Stratigraphy

يعبر مصطلح الستراتيغرافي عن تمييز الطبقات الآثرية أو دراسة الطبقات الآثرية فجّل المواقع الآثرية تتألف من طبقات أثرية تتوضع فوق بعضها البعض والمصطلح يتألف من كلمتين هما Strata ومعناها طبقة و graphy ومعناها الوصف أي وصف الطبقات ومثلاً نجد تلاً أثرياً هو عبارة عن أنقاض عدة طبقات أثرية تتوضع فوق بعضها البعض أقدمها هو أدناها عمقاً وأحدثها زمنياً هو أعلاها.

٢ - الكرونولوجي (Chronology):

يعبر مصطلح الكرونولوجي عن التسلسل الزمني وتتابع القدم وتعريه هو كما رأينا بشرح الوصف والمداول المتعلق بالمصطلح وغالباً ما يستخدم هذا المصطلح بلفظته اللاتينية شرحه في ذلك شرح مصطلح الستراتيغرافي. الكرونولوجي لموقع أثري معين هو البيان الزمني وتسلسل القدم بالنسبة لتاريخ السكن فيه، فالكرونولوجي لتل

مصطلحات التقيب
الآثري لا يمكن
الاستغناء عنها في
علم الحفريات والآثار



حمص مثلاً هو تاريخ السكن في التل المذكور ونحن نعرف من دراسة اللقى الفخارية السطحية أن تل حمص كان مأهولاً خلال النصف الثاني من الألف الثالثة ق. م وفي عصر البرونز الحديث وفي عصر الحديد وفي العصور الهلنستية والرومانية والبيزنطية والإسلامية.

٣ - في مكانه الأصلي (In situ)

تكتشف أثناء التنقيب قطع أثرية تماثيل أو آنية إلخ في مواضعها الأصلية أي التمثال في هيكل المعبد أو قدر الطبخ في المطبخ، لذا يقال أن القطعة الأثرية الفلانية وجدت *insitu*.

٤ - مربع الحفر Trench

يقصد به مربع الحفر المحدث وفق مقاييس محدثة فمثلاً مربع الحفر ٩x٩ م أو ٥x٥ م إلخ...

٥ - المقطع Sectin

مقطع الحفر هو أحد الواجهات الداخلية لمربع الحفر حيث تحفر الأرض ضمن المربع باستقامة شاقولية وللمقاطع أهمية بالنسبة لفحص الطبقات الأثرية المتوضعة فوق بعضها البعض.

هـ - المصطلحات الخاصة بالتاريخ

Datiny

إن التاريخ من أهم المسائل في علم الآثار والحفريات، ومازال التاريخ الشغل

الشاغل للآثرين والعلماء والباحثين في الحضارات وهي معضلة وجرت لها بعض الحلول، لكن تلك الحلول مازالت بدورها موضوعاً للجدل والمناقشات الحادة وتستخدم في عملية التاريخ مصطلحات أضحت شائعة نورد فيما يلي أهمها:

١ - الكربون ١٤ C14 datiny

تعتبر طريقة الكربون ١٤ من أشهر طرق التاريخ المستندة إلى النتائج المخبرية. اكتشفت هذه الطريقة في عام ١٩٤٩. تتشكل في الجو وتبث في الإشعاعات العالية نسبة ضعيفة من الكربون ١٤ المشع وتأخذ الكائنات الحية ويدخل إلى بنية عظام الإنسان والحيوان مع التغذية النباتية وعندما تموت تلك الكائنات تتوقف عملية أخذ الكربون ١٤ وتبدأ مرحلة فقدانه، فيفقد الجسم الميت خلال فترة زمنية تقدر بـ ٥٥٦٨ + ٣٠ عام حوالي نصف نسبة المركز منه وعليه فبحساب نسبة ما بقي من الكربون ١٤ في عينة فحمية أو عظمية أو صدفية بواسطة قياس كثافة الإشعاع يمكن الحصول على عمر العينة المحددة وبالتالي عمر الطبقة الأثرية التي وجدت فيها. يضاف إلى الرقم المستخلص فترة زمنية

مصطلحات علم النقود الآثرية

١ - الدينار Solidus هي الوحدة النقدية المصكوكة من معدن الذهب، وقد بلغت قيمة الدينار البيزنطي زمن صكّه ٦٠٠٠ فلس نحاسي.

٢ - الخزف:

هو المصطلح الذي يطلق على الآنية المصنوعة من الطين والمكسية بطبقة زجاجية تختلف سماكته أو براقته حسب درجة الشي ومواد السيليكس المؤلف منها قبل إدخال الإناء إلى الفرن.

٣ - الباليوغرافيا Palaeography هو علم دراسة أشكال الأقلام الأبجدية القديمة وتطورها.

٤ - الإيغرافيك:

هو علم دراسة النقوش والنصوص والكتابات القديمة.

٥ - الاستنساخ Facsimile:

هو نسخ الكتابة كما نقشت زمن تدوينها والنقل Transcription هو عملية نقلها إلى أحرف اللغة التي ينشر بها الباحث دراسته.

تلاحظ بإشارة + أو - وهي الفترة التي تقبر عن إمكانية حصول خطأ في تحديد عمر العينة. ويعتقد بشكل عام أن نسبة صحة التاريخ بواسطة قياس الكربون ١٤ لا تتجاوز ٦٨٪ من مطلق العمر الزمني الحقيقي.

٢ - تحليل غبار الطلع (Pollen Analysis)

هي إحدى الطرق المخبرية للتاريخ، فغبار الطلع لمختلف أنواع النباتات يحتفظ بخصائصه المميزة والتي يمكن التعرف عليها بواسطة رؤيتها مكبرة ٥٠٠ مرة. وعن طريق الحصول على عينات من غبار الطلع يمكن الحصول على التاريخ النباتي لطبقة من الطبقات، ومثل هذه الطريقة تطبق في تاريخ العصور الحجرية القديمة وعصور ما قبل التاريخ وتاريخ الأدوار الجيولوجية.

و - مصطلحات أخرى

هناك مصطلحات أخرى لاحصر لها وخاصة في مجال علم النقود الآثرية (Nimismaty) (النميات) وفي مجالات الزجاج والخزف الآثري ودراسة الكتابات الآثرية وغيرها. نقتصر الحديث في محاضرتنا هذه على البعض القليل من تلك المصطلحات:

